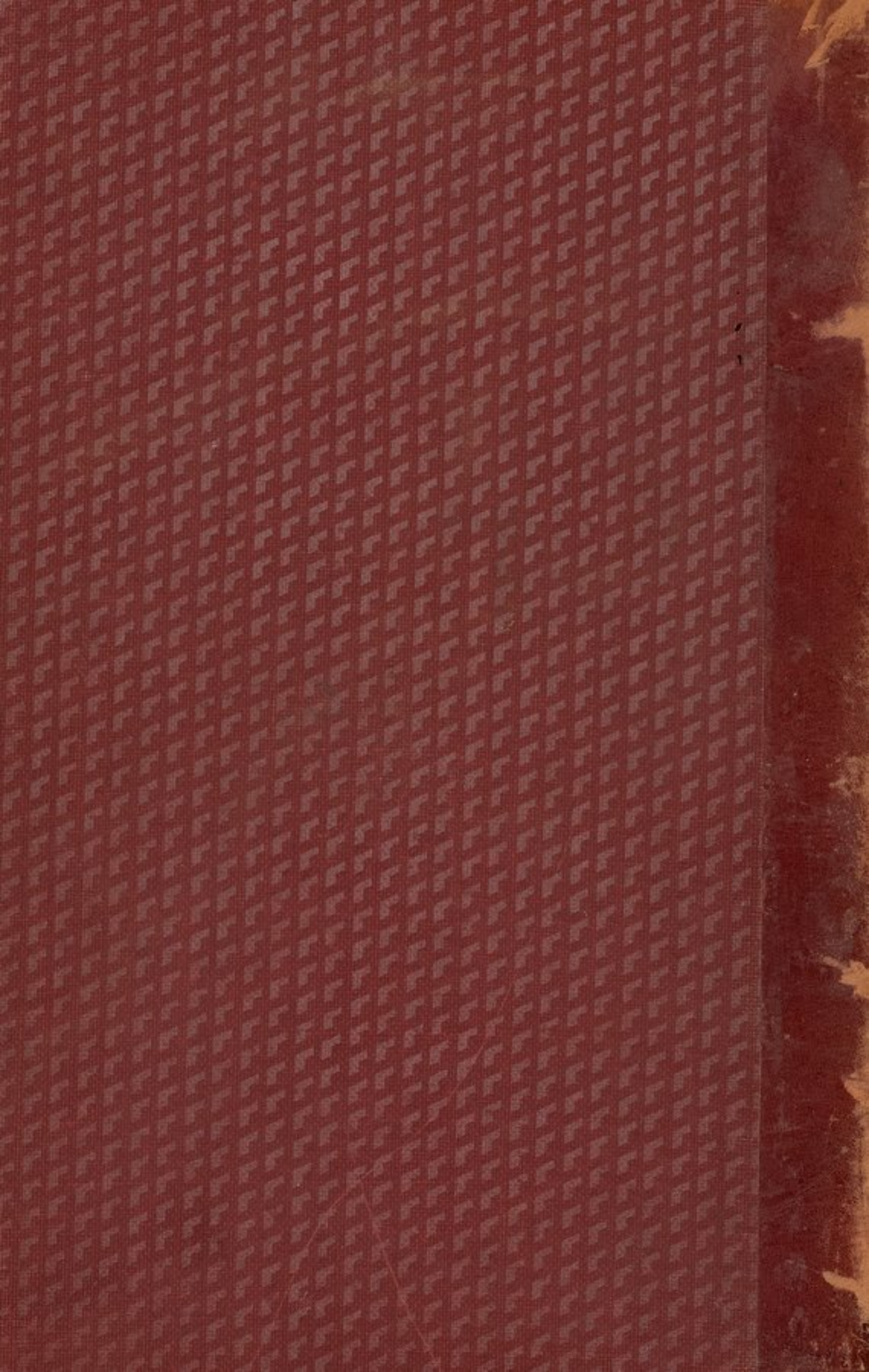
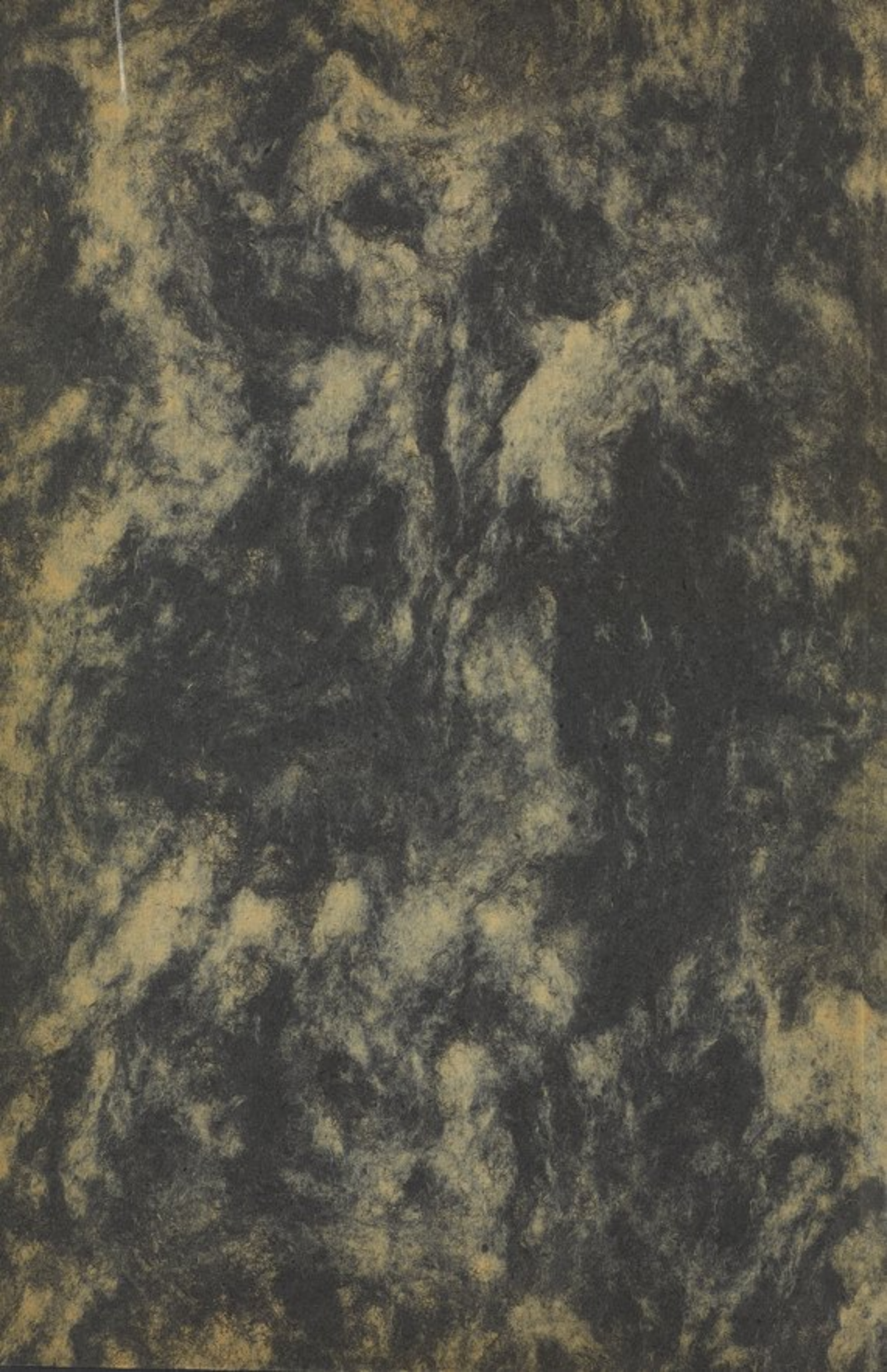




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني

المتوفى في عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه

محمد محي الدين عبد الحميد

عفا الله عنه !

لِجُرِّ الشَّافِعِ

893.7M32

03

v.8

الطبعة الأولى

في عام ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى ، شارع محمد علي ، بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رُسُلِ الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

أبو زكريا
عبي بن هذيل

ومن أسيان لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الحكيم العلامة التعاليمي ،
الشاعر البليغ ، أعجوبة زمانه في الاطلاع على علوم الأوائل ، أبو زكريا يحيى
ابن هذيل ، وقد قل في « الإحاطة » في حقه ما ملخصه : يحيى بن أحمد
ابن هذيل ، التجيبي ، أبو زكريا ، شيخنا ، جرى ذكره في التاج الحلي بما نصه :
درة بين الناس مُعَقَّلة ، وخزانة على كل فائدة مقفلة ، وهدية من الدهر الضنين
لبنيه محتفلة ، أبدع من رتب التعاليم وعلمها ، وركض في الألواح قلبها ، وأتقن
من صور الحياة ومثلها ، وأسس قواعد البراهين وأثلها ، وأعرف من زاول شكايه ،
ودفع عن جسم نكايه ، إلى غير ذلك من المشاركة في العلوم ، والوصول من الجهول
إلى المعلوم ، والمحاضرة المستفزة للحلوم ، والدعابة التي ما خالغ العذار فيها بالمُؤم ،
فما شئت من نفس عذبة الشيم ، وأخلاق كالزهر من بعد الدَّيَم ، ومحاضرة تتحف
المجالس والحاضر ، ومذاكرة يروق في النواظر زهرها الناضر ، وله أدب ذهب
في الإجابة كل مذهب ، وارتدى من البلاغة بكل رداء مُذهب ، والأدب نقطة
من حوضه ، وزهرة من زهرات روضه ، وسيمرُّ له في هذا الديوان ما يبهر العقول ،
ويحاسنُ برُؤَاةَ ورائق بهائه الفِرْنْدُ المصقول ، فمن ذلك ما خرجته من ديوانه
المسمى بالسليمانيات والعرفيات قوله :

ألا أستودع الرحمن بدرأً مكملًا	بفاس من الدرب الطويل مطالعه
ففي فلك الأزرار يطلع ساعده	وفي أفق الأكباد تلقى مواقفه
يصبر مرآة منجم مقلتي	فتصدق في قطع الرجاء قواطعه
تجسم من ماء الملاحه خده	وماء الحيا فيه ترَجَّرَجَ مائه
تلون كالخرباء في خجلاته	فيحمرُّ قانيه ويبيض ناصعه
إذا اهتز غنى حُلْيَه فوق نحره	كغصن النقا غنت عليه سواجعه
يذكر حتف الصب عاملُ قده	وتعطف من واو العذار توابعه
أعدَّ الوري سيفاً كسيف لحاظه	فهذا هو الماضي وذاك يضارعه

وقال :

وصالك هـذا أم تحية بارق
أياديك والأشواق تركض حبرها
وهجرك أم ليل السليم لتائق
بصفحة خدى من دموع سوابق
أبارق ثغر من عذيب رُضابه
قضت مهجتي بين العذيب وبارق

ومنها :

فلا تتعبن ريح الصبا في رسالة
متى طعمت عيني السكرى بعد بعدكم
ولا تنجل الطيف الذي كان طارق
فإني في دعوى الهوى غير صادق

وقال :

بدا بدرتيم فوقه الليل عسفا
حوى النجم قرطاً والدرارى مقلدا
وجنة أنس في صباح تنفسا
كأن سنى الإصباح رام يزورنا
وأسبل من مسك الذوائب حندسا
أتى يحمل التوارة ظيبا مزنا
وخاف العيون الرامقات فقلسا
وقابل أحبار اليهود بوجهه
لطيف الثنى أشنب الثغر العسا
فصير دمعى أعينا شرب سبطه
فبارك مولانا عليه وقدسا
وعمرى تيبها والجوانح مقدسا

وقال منها :

رويت ولوعى عن ضلوعى مسلسلا
نفى النوم عنى كى أكون مسهدا
فأصبحت فى علم الغرام مدرسا
غزال من الفردوس تسقيه أدمعى
فأصبحت فى صيد الخيال مهندسا
طقى ورد خديه بجنات صدغه
ويأوى إلى قلبى مقيلا ومكنسا
فأضعفه بالأس نبتا وما أسا

وهذا البيت محال على معنى فلاحى ، قال أهل الفلاحة : إن الآس إذا اغترس بين شجر الورد أضعفه بالخاصية .

وقال رحمه الله تعالى ورضى عنه :

نام طفل النبت فى حجر الثملى
لا هتزاز الطل فى مهد الخزامى

وسقى الوشمى أغصان النقا
 فتهوت تلثم أفواه الندامى
 تحسب البدر محييا ثمل
 وحله الزهر كؤوس قد غدت
 يا عليل الريح رقفا على
 أبلغن شوق عرييا باللوى
 فرشوا فيها من الدر حصو
 كنت أشفى غلة من صدكم
 واستفدت الروح من ربح الصبا
 وقال منها أيضا :

نشأت للصب منها زفرة
 تسكب الدمع على الربع سجاما
 طرب البرق مع القلب بها
 وبها الأناة طارحن الحماما
 طلل لا تشتفى الأذن به
 وهو للعين قد ألقى كلاما
 ترك الساكن لى من وصله
 ضمة الجدران لئلا والتزاما
 نزعات من سليمان بها
 فهم القلب معانيها فهاما
 شادين يرعى حشاشات الحتى
 حسب حظى منه أن أرعى الذماما

وقال :

أأرجو أمانا منك واللعظ غادر
 ويثبت عقلى فيك والطرف ساحر

ومنها :

أعد سليمان أليم عذابه
 لطائر قلبى فهو للبين صائر
 أشاهد منه الحسن فى كل نظرة
 وناظر أفكارى بمغناه ناظر

دعت للهوى أنصار سحر جفونه
إذا شق عن بدر الدجى أفق زره
وفي حرم السلوان طابت خواطرى
وقد ينزع القلب المبلى لسلوة
يقابل أغراضى بضدّ مرادها
ونار اشتياقى صعدتْ مرز أدمعى
وقد كنت باكى العين والبين غائب
وليس النوى بالطبع مرأ ، وإنما
وقال :

يا بارقا قاد الخيال فأومضا
ذاك الذى قد كنت تعهد نأما
لا تحسبنى معرضاً عن طيفه
ومنها :

عجب الوشاة لمهجى أن لم تذب
خفيت لهم من سر صبرى آية
لله درك ناهجاً سبيل الهوى
أمنت نملأ فوق خدك سارحا
وقال فى المدح :

حريص على جر الذوائب والقنا
وتعتنق الأبطال لولا سقوطها
إذا كغمت الأبطال والجو غابس
لقلت لتوديع أته القوارس

(١) أخذ هذا من قول الهذلى :

وإني لتعرونى لذكراك هزة

كما انتفض العصفور بلله القطر

(٢) أصل المزن المطر ، شبه به فى كثرتة دمع عينيه .

إذا اختطفتم كفه فسروجهم بحال ، وهم في راهتيه فرائس
وقال يمدح السلطان أبا الوليد بن نصر عند قدومه من فتح أشكو :

بحيث البنود الجر والأسد الورد كقائب سكان السماء لها جند (١)
(٢) وتحت لواء النصر ملك هو الوري تضيق به الدنيا إذا راح أو يغدو
تأمنت الأرواح في ظل بنده كأن جناح الروح من فوقه بند (٢)
فلورام إدراك النجوم لناها ولو هم لانقادت له السند والهند

ومنها :

بمعنى بحر النقع تحت أسنة تنممه وهنأ كما نمم البرد
سماء عجاج والأسنة شهباء ووقع القنارعد إذا برق الهند (٣)
وظنوا بأن الرعد والصعق في السما محاق به من أيده الصعق والرعد
عجائب أشكال سما هرمس بها مهندسة تأتي الجبال فتهند
ألا إنها الدنيا تريك عجائب وما في القوى منها فلا بد أن يبدو

وقال وهو معتقل :

تباعد عني منزلٌ وحبيب وهاج اشتياقي والمزارُ قريب
وأنى على قريب الحبيب مع النوى يكاد إذا اشتد الأنين يحبيب
لقد بعدت عني ديار قريبة عجت لجار الجنب وهو غريب
أعاشر أقواما تقر نفوسهم فلهم فيها عند ذاك ضروب
إذا شعروا من جارهم بتأوه أجابته منهم زفرة ونحيب
فلا ذاك يشكوهم هذا تأسفا لكل امرئ مما دهاه نصيب
كأنني في غاب الليوث مسلم يروّعني منه الغداة وثوب

(١) البنود : جمع بند ، وهو العلم ، والأسد الورد : الحريء ، وأراد الفرسان

فشبههم به ، وسكان السماء : الملائكة (٢) الروح هنا : جبريل ملك الوحي

(٣) أصل هذا قول بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسياقنا ليل تهاوى كواكبها

يحكم فيها الدهر والعقل حاضر بكل قياس والأديب أديب
ولو مال بالجهال ميلته بنا لجاء بعذر؛ إن ذا لعجيب
رفيق بمن لا ينثنى عن جريمة بطوش بمن ما أو بقتنه ذنوب (١)
ويطمعنا منه بوارق خلّب تقول عساه يرعى فيؤب (٢)
إذا ما تشبنا بأذيال برده دهتنا إذا جر الخطوب خطوب
أدار علينا صولجانا ، ولم يكن سوى أنه بالحادثات لعوب

ومنها :

أيادهر إني قد سئمت تهدفي أجرني فإن السهم منك مصيب
إذا خفق البرق الطروق أجابه فؤادي ودمع المقلتين سكوب
وإن طلع الكف الخضيب سحيرة فدمعي بحذاء الدماء خضيب
تذكرني الأسحار دارا ألقها فيشتد حزني والحمام طروب
إذا علقت نفسي بليت وربما تكاد تفيض أو تكاد تذوب (٣)
دعوتك ربي والدعاء ضراعة وأنت تناجي بالدعا فتجيب
لئن كان عقبي الصبر فوزا وغبطة فأني على الصبر الجليل دروب

قال : وبعثت إليه هدية من البادية ، فقال يصف منها ديكا :

أياصديقا جعلته سندا فراح فيما أحبه وغدا
طلبت منكم سريدا خنثا وجئتم لي مكانه لبدا
صير مني مؤرخا ولكم ظلت في علمه من البلدا
قلت له : آدم أتعرفه قال : حفيدي بمصرنا ولدا
نوح وطوفانه رأيتهما ؟ قال : علونا بفيضة أحدا

(١) لا ينثنى : لا يرجع ولا يكف ، وأوبقته : أهلكته

(٢) الحلب - بزنة السكر - السحاب الذي يطمع في المطر وليس معه مطر

(٣) بليت وربما : أراد بها تين الكلمتين ، كقولك : ليتني أراه ، أو قولك :

ربما ألقاه ، ونحو ذلك .

فقلت : هل لى يجرهم خبر
 فقلت : قحطان هل مررت به
 فقلت : صف لى سبأ وما كنه
 فقال : كم لى بدجنهم سحرا
 فقلت : هاروت هل سمعت به
 فقلت : كسرى وآل شرعته
 ولوا وصاروا وهأنا لبد
 ديك إذا ما انثنى لفكرته
 يرفل فى طيلسانه ولها
 إذا دجا الليل غاب هيكله
 كأنما جُئنا لحيته
 كأن حصنا علا بهامته
 ينو بياقوتتى لواحظه
 كأن منجالتى ذوائبه
 وعوسج مدّ من مخالبه
 فذاك ديك جَلَّتْ محاسنه
 يطلبنى بالذى فعلت به
 وجّهته محنة لآكله
 فقال : قومى وجيرتى السعدا
 قال : ثقتنا ببرده العقدا
 فعند هذا تنفس الصُّعدا
 من صرخة لى وللنوم هدا
 فقال : ريشى لسهمه نفدا
 فقال : كفا بجيشه وفدا
 فهل رأيتم من فوقهم أحدا^(١)
 رأى وجودا طرائقا قددا
 قد صير الدهر لونه كمدا
 كأن حبرا عليه قد جمدا
 برجان جازا من الهواء مدى
 أعده للقتال فيه عدا
 كأنما اللحظ منه قد رمدا
 قوس سماء من أصله بعدا
 طغى بها فى نقاره وعدا
 له صراخ بين الديوك بدا
 فكم فللنا بلبته مُدى
 والله ما كان ذاك منك سدى

ولم نزل بعدُ نستعدى عليه فيقراره بقتله ، ونطلبه بالقرود عند تصرفه بالعمل فيوجه الدية لنا فى ذلك رسائل .

(١) لبد : اسم لآخر نسور لقمان التى طلب أن يعيش بمقدار أعمارها ، وهو مضرب المثل فى التعمر وطول البقاء ، وانظر إلى قول النابغة الذبياني :
 أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لبد
 وانظر إلى قول أبى السرى سهل بن أبى غالب الخزرجى فى معاذ بن مسلم الهراء :
 يا بكر حواء ، كم تعيش ؟ وكم تسحب ذيل الخلود يا لبد ؟

وقال في غرض أبي نُوَّاس :

طرقنا دُيُورَ القومِ وَهَنًا وَتَغْلِيصًا وقد شرفوا الناسوت إذ عبدوا عيسى
وقد رفعوا الإنجيل فوق رؤسهم وقد قَدَّسُوا الروح المقدس تقديسا
فما استيقظوا إلا لصكة بابهم فأدهش رهبانا وروع قسيسا
وقام بها البطريق يسعى ملبيا وقد لين الناقوس رفعا وتأنيسا
فقلنا له أمتا فإنا عصاة أتينا لتثليث وإن شئت تسديسا^(١)
وما قصدنا إلا الكؤوس وإنما لحنا له في القول خبثا وتديسا^(٢)
ففتحت الأبواب بالرحب منهم وعرس طلاب المدامة تعريسا^(٣)
فلما رأى رقى أمامي ومزهرى دعاني أتانيا لحنت وتلبسا
وقام إلى دينٍ يفرض ختامه فكيس أجرام الفياهب تكييسا
وطاف بها رطب البنان مزنر فأبصرت عبدا صير الحر مرؤسا
سلافا حواها القار لبسا فخلتها

ومنها:

إلى أن سطا بالقوم سلطان نومهم ورأس قبيل الشمع نكس تنكيسا
وثبت إليه بالعناق فقال لي بحق الهوى هب لي من الضم تنفيسا
كتبت بدمع العين صفحة خده فطلس حبر الشعر كتبي تطليسا
فبئس الذي احتلنا، وكدنا عليهم وبئس الذي قد أضمرنا قبل ذا ييسا
فبئنا يرانا الله شر عصاة نطيع بعصيان الشريعة إبليسا

وقال بديهة في غزالة من النحاس ترمي الماء على بركة :

عنت لنا من وحش وجرة ظبية جاءت لورد الماء ملء عنائها

(١) أراد بالتثليث شرب ثلاثة أقذاح وبالتسديس شرب ستة كذا ذكر في البيت بعده

(٢) لحن في القول : أي قال كلاما وهو يقصد معنى غير الذى يدل بظاهره عليه

(٣) التعريس : النزول في الليل .

وأظنها إذ حددت آذانها رِيَعَتْ بنا فتوقفت بمكانها
 حيث بقرنى رأسها إذ لم تجد يوم اللقاء تحية بينانها
 حفت على الندمان من إفلاسهم فرمت قضيب لجينها لحناها
 لله در غزالة أبدت لنا در الحجاب تصوغه بلسانها
 قال لسان الدين : وفليج المذكور ، فلزم منزلى لمكان فضله ووجوب حقه ،
 وقد كانت زوجه توفيت ، وصحبه عليها وجَد ، فلما ثقل وقربت وفاته استدعاني
 وكاد لسانه لا يمين ، فأوصاني وقال :

إذا مت فادفني حذاء حليمتي يخالط عظمى في التراب عظامها
 ولا تدفني في البقيع فإنني أريد إلى يوم الحساب التزامها
 ورتب ضريحى كيف شاء الهوى تكون أمامى أو أكون أمامها
 لعل إله العرش يحبر صدعتى فيعلى مقامى عنده ومقامها
 ومات رحمة الله تعالى فى الخامس والعشرين لذى قعدة عام ثلاثة وخمسين وسبعائة
 ودفن بحذاء زوجه كما عهد رحمه الله تعالى ، انتهى .

ومن نظم ابن هذيل :

وظبى زارنى والليل طفلاً إلى أن لاح لى منه اكتهال^(١)
 وألقى الشك من وصل فقلنا بليلى الشك يرتقب الهلال

ومن أشياخ لسان الدين : الشيخ أبو بكر بن ذى الوزارتين ، وهو أعمى
 أبو بكر الوزير الكاتب الأديب الفاضل المشارك المتفنن المتبحر فى الفنون أبو بكر
 محمد بن الشيخ الشهير ذى الوزارتين أبى عبد الله الحكيم الرندى ، ومن نظمه قوله :
 تصبر إذا ما أدركتك ملة فصنع إله العالمين عجيب^(٢)

الوزير أبو بكر
 ابن الحكيم
 الرندى

(١) الليل طفل : يريد أن ذلك كان فى أول الليل

(٢) الملة : أصلها اسم فاعل مؤنث فعله « ألم يلم إلما » أى نزل ، ثم أطلقت
 على الحادثة من حوادث الدهر والبالزة من نوازلها .

وما يلحق الإنسان عار بنكبة ينكب فيها صاحب وحبیب^(١)
 فقيم من مضى المرءى العقل أسوة وعیش كرام الناس ليس يطیب
 ويوشك أن تهوى سحائب نعمة فيخصب ربع السرور جديب
 إلهك يا هذا قريب لمن دعا وكل الذي عند القريب قريب
 قال ابن خاتمة : وأنشدني الوزير أبو بكر مَقْدَمَه على المرية غازيا مع الجيش المنصور
 قال : أنشدني أبي :

ولما رأيت الشيب حل بتمفرق نذيراً بترحال الشباب المفارق
 رجعت إلى نفسي فقلت لها انظري إلى ما أرى ، هذا ابتداء الحقائق
 ويقيم بيت كبير ، وأخذ عن غير واحد وعن والده ، وهو ذو الوزارتين أبو عبد الله
 محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى ، اللخمي ، الرندي ، الكاتب البليغ الأديب
 الشهير الذكر بالأندلس ، وأصل سلفه من إشبيلية من أعيانها ، ثم انتقلوا إلى رُنْدَة
 في دولة بني عباد ، ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم لطبه ، وقدم ذو الوزارتين
 على حضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر إثر قفوله من
 الحج في رحلته التي رافق فيها العلامة أبا عبد الله ابن رشيد الفهري ، فألحقه
 السلطان بكتابه ، وأقام يكتب له في ديوان الإنشاء إلى أن توفي هذا السلطان
 وتقلد الملك بعده ولي عهده أبو عبد الله الخلع ، فقلده الوزارة والكتابة ، وأشرك
 معه في الوزارة أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني ، فلما توفي أبو سلطان أفرده
 السلطان بالوزارة ، ولقبه ذا الوزارتين ، وصار صاحب أمره إلى أن توفي بحضرة
 غرناطة قتيلا نفعه الله تعالى غُدْوَة يوم النطر مستهل شوال سنة ثمان وسبعائة ،
 وذلك لثأر يخ خاع سلطانه وخلافة أخيه أمير المسلمين أبي الجيوش مكانه ، ومولده

(١) ينكب : مضارع « نكب فلان عن الطريق » بتشديد الكاف - إذا
 انحرف عنه ، وهو يريد لآعار على أحد في أن تنزل به نكبة لا يواسيه فيها أصدقاؤه .

برُندة سنة ستين وستائة ، وكان رحمه الله تعالى علما في الفضيلة والسراوة ومكارم الأخلاق ، كريم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، على الهمة ، كاتباً بليغاً أديباً شاعراً ، حسن الخط ، يكتب خطوطاً على أنواع كلها جميلة الانطباع ، خطيباً فصيح القلم ، زاكى الشيم ، مؤثراً لأهل العلم والأدب ، برّاً بأهل الفضل والحسب ، تفقت بمدته للفضائل أسواق ، وأشرقت بإمداده للأفاضل آفاق ، ورحل للمشرق كما سبق ، فكانت إجازته البحر من المرية ، فقضى فريضة الحج ، وأخذ عن لقي هنالك من الشيوخ ، فشيخته متوافرة ، وكان رفيقه كما مر الخطيب أبا عبد الله ابن رشيد الفهرى ، فتماونا على هذا الغرض ، وقضيا منه كل ثقل ومفترض ، واشتركا فيمن أخذنا عنه من الأعلام ، في كل مقام ، وكانت له عناية بالرواية وولوع بالأدب ، وصباية باقتناء الكتب ، جمع من أمهاتها العتيقة ، وأصولها الرائقة الأنيقة ، ما لم يجمعه في تلك الأعصر أحد سواه ، ولا ظفرت به يده ، أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبي العاصي ، وتديج معه رفيقه أبو عبد الله ابن رشيد وغير واحد ، وكان ممدحا ، ومن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي والرئيس أبو الحسن بن الجياب ، وناهيك بهما .

ومن بديع مدح ابن الجياب له قصيدة رائقة رائقة يهنيه فيها هي بعيد الفطر منها في أولها :

يا قادما عمت الدنيا بشأرك	أهلا بمقدمك الميمون طائر
ومرحبا بك من عيد تحف به	من السعادة أجناد تظافره
قدمت فاخلق في نعمى وفي جدل	أبدى بك البشر باديه وحاضره ^(١)
والأرض قد لبست أثواب سندسها	والأرض قد بسمت منه أزاهره

(١) الجدل - بفتح الجيم والندال جميعا - الفرح ، وأبدى : أظهر ، وباديه : أراد سكان البادية ، وحاضره : أراد سكان الحاضرة .

حاكت يد الغيث في ساحاته حللا
 فلاح فيها من الأنوار باهرها
 وقام فيها خطيب الطير مرتجلا
 مَوْشَى ثوب طواه الدهر آونة
 فالغصن من نشوة يثني معاطفه
 وللحمام انشقاق عن أزهارها
 لله يومك ما أذكى فضائله
 فكم سريرة فضل فيك قد خبئت
 فاخر بحق على الأيام قاطبة
 فأنت في عصرنا كابن الحكيم إذا
 يلتاح منه بأفق الملك نور هدى
 مجد صميم على عرش السماك سما
 وزارة الدين والهم الذي رفعت
 وليس هذا ببذيع من مكارمه
 يلقي الأمور بصدر منه منشرح
 راعى أمور الرعايا معملا نظراً
 والملك سير في تدبيره حكماً
 سياسة الحلم لا بطش يكدرها
 لا يصدر الملك إلا عن إشارته
 تجري الأمور على أقصى إرادته
 لما سقاها دراكاً منه باكره (١)
 وفاح فيها من النوار عطره
 والزهر قد رصعت منه منابره
 فها هو اليوم للأبصار ناشره
 والطير من طرب تشدو مزاهره
 كما بدت لك من خل ضمائرهُ
 قامت لدين الهدى فيه شعائره
 وكم جمال بدا للناس ظاهره
 فما لفضلك من ند يظايره
 قيست بفخر أولى العلياء مفاخره
 تضاءل الشمس مهما لاح زاهره
 طالت مبانيه واستعلت مظاهره
 أعلامه والندى القياض زاخره
 ساوت أوائله فيهِ أواخره
 بحر وآراؤه العظمى جواهره
 كمثل علياه معدوما نظائره
 تنال ما عجزت عنه عساكره
 فهو المهيب وما تخشى بوادره
 فالرشد لا تتعداه مصايره
 كأنما دهره فيهِ يشاوره

(١) حاكت : نسجت ، وأراد بالحلل ما اكتسى به وجه الأرض من العشب والنبات ، ودراكا : أى متتابعاً ، وباكر الغيث : الذى كان منه أول الأمر .

وكم مقام له في كل مكرمة
 قفضها طبق الآفاق أجمعها
 فليس يحجده إلا أخو حسد
 لا ملك أكبر من ملك يدره
 يا عزَّ أمرٍ به اشتدت مضاربه
 ثنى البلاد وأهلوها بما عرفوا
 بشرى لآمله الموصول مأمله
 فالعلم قد أشرقت نوراً مطالعه
 والناس في بشر والملك في ظفر
 والأرض قد ملئت أمنا جوانبها
 والى أياديه من مثني وموحدة
 فكل يوم تلقَّنا عوارِفُه
 فمن يؤدي لما أولاه من نعم
 يا أيها العيد بادر لثم راحته
 واخر بأن قد لقيت ابن الحكيمة على
 ولَّى الصيام وقد عظمت حرمة
 وأقبل العيد فاستقبل به جذلاً
 أنست موارد فيها مصادره
 كأنه مثل قد سار سائر
 يرى الصباح فيعشى منه ناظره (١)
 لا ملك أسعد من ملك يوازره (٢)
 يا حسن ملك به ازدانت محضره
 ويشهد الدهر آتيه وغابره (٣)
 تعساً لحاسده المقطوع دابره
 والجود قد أسبلت سحاً مواطره
 عال على كل على القدر قاهره
 بيمين من خلصت فيها سرائره
 تساجل البحر إن فاضت زواجره
 كساه أمواله الطولى دفاثره
 شكرا ولو أن سحباناً يظاخره
 فلقمها خير مأمول تبادره
 عصر يباريك أو دهر تفاخره
 فأجره لك وافيهِ ووافره (٤)
 واهناً به قادماً عمت بشائره

ومن نثر ذي الوزارتين آخر إجازة ما صورته : وها أنا أجرى معه على حسن معتقده ، وأكله في هذا النرض إلى ما رآه بمتقضى تودده ، وأحيزله ولولديه أقر الله بهما عينه ، وجمع بينهما وبينه ، رواية جميع ما نقلته وحملته ، وحسن أطلاعه يُفصل من ذلك ما أجملته ، فقد أطلقت لهم الإذن في جميعه ، وأبحت لهم الحمل عني

- (١) يعشى : مضارع « عشى » من باب فرج - إذا ضعف بصره ، هذا أصله ،
 وأراد هنا ضعف البصر مطلقاً (٢) يوازره : يعينه ويساعده
 (٣) غابره : ماضيه
 (٤) ووافره : كثيره .

ولهم الاختيار في تنويعه ، والله سبحانه يخلص أعمالنا لذاته ، ويجعلها في ابتغاء مَرْضَاتِهِ ، قال هذا محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم حامدا لله عز وجل ، ومصليا ومسلما .

ومن شعر ذى الوزارتين ابن الحكيم قوله :

ما أحسن العقل وآثاره لولازم الإنسان إيثاره
يَصُونُ بالعقل الفتي نَفْسَهُ كما يصون الحر أسراره
لا سيما إن كان في غربة يحتاج أن يعرف مقداره
وقوله رحمه الله :

إني لأَغِيرُ أحيانا فيلحقني يسر من الله إن العسر قد زالا
يقول خير الورى في سُنَّةٍ ثَبَتَتْ «أُنْفِقْ ولا تخش من ذى العرش إقلا لا»
وهو من أحسن ما قال رحمه الله

ومن شعر ذى الوزارتين المذكور قوله :

فقدت حياتي بالعراق ومن غدا بحال نوى عنن يُحِبُّ فقد فقد
ومن أجل بعدى عن ديار ألفتها جحيم فؤادى قد تَلَطَّى وقد وَقَدَ (١)
وقد سبقه إلى هذا القائل :

أوارى أوارى بالدموع تجلدا وكمرمت إطفاء اللهب وقد وقد (٢)
فلا تعذلوا مَنْ غاب عنه حبيبها فمن فقد المحبوب مثلى فقد فقد
كذا رواه ابن خاتمة ، ورواه غيره هكذا :

* أوارى أوارى والدموع تبينه *

وهو الصواب ، قال : ابن خاتمة وأنشدني رئيس الكتاب الصدر البليغ

(١) تلظى : توقد والتهب ، وقد الأولى حرف دال على التحقيق ، وقد الثانية فعل ماض ، تقول « وقدت النار تقد » تريد التهبت .

(٢) الأوار — بضم الهمزة — حرارة الباطن من عشق أو نحوه ، وأوارى : فعل مضارع من المواراة ، وهى التستر .

الفاضل أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان البخارى ، قال : أنشدنى رئيس الكتاب الجليل أبو محمد عبد المهيم بن محمد الحضرمى ، قال : أنشدنى رئيس الكتاب ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم رحمه الله :

صح الكتاب وعنه واختم على مكنته (١)

واحذر عليه من مخا لسة الرقيب يحفنه

واجعل لسانك سجنه كيلا تُرى فى سجنه

قال ابن خاتمة : وفى سند هذه القطعة نوع غريب من النسلسل .

وحكى أن ذا الوزارتين المذكور لما اجتمع مع الجليل الفقيه الكاتب ابن أبى مدين أنشده ابن أبى مدين :

عشتكمو بالسمع قبل لقاكمو وسمعت الفتى يهوى لعمرى كطرفه

وحببى ذكر الجليس إليكمو فلما التقينا كنتمو فوق وصفه

فأنشده ذو الوزارتين بن الحكيم :

مازلت أسمع عن عليك كل سناً أبهى من الشمس أو أجلى من القمر

حتى رأى بصرى فوق الذى سمعت أذنى فوق بين السمع والبصر (٢)

ويعجبني فى قريب من هذا المعنى قولُ الحاج الكاتب أبى إسحاق الحساوى رحمه الله :

سحر البيان بنانى صار يعقده والنفت فى عقده من منطق الحسن

لا أنشد المرء يلقاتى ويبصرنى أنا المعيدى فاسمع بى ولا ترى

رجع - وقال لسان الدين فى « عائد الصلة » فى حق ذى الوزارتين ابن الحكيم ما صورته : كان رحمه الله فريد دهره سماحة ، وبشاشة ، ولودعية ، وانطباعاً ، رقيق

(١) مكنته : مستره (٢) الأصل فى هذا البيت قول ابن هانى :

كانت مساءلة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أصدق الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

الحاشية ، نافذ العزيمة ، مهترأً للمدح ، طلقاً للأمل ، كنهفاً للغريب ، برمكى المائدة^(١) مهلبى الحلوى^(٢) ، ريان من الأدب ، مضطلعاً بالرواية ، مستكثرأمن الفائدة ، يقوم على المسائل الفقهية ، ويتقدم الناس في باب التحسين والتقييح ، ورفع راية الحديث والتحديث ، نفق بضاعة الطلب ، وأخيا معالم الأدب ، وأكرم العلم والعلماء ، ولم تشغله السياسة عن النظر ، ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع ، وأفرط في اقتناء الكتب حتى ضاقت قصوره عن خزائنها ، وأثرت أنديته من ذخائرها ، قام له الدهر على رجل ، وأخدمه صدور البيوتات وأعلام الرياسات ، وخطوب من البلاد النازحة ، وأمل في الآفاق النائية ، انتهى المقصود منه .

ومن أحسن مآثرى به الوزير ابن الحكيم رحمه الله قول بعضهم :

قتلوك ظلماً واعتدوا في فعلهم حدّ الوجوب

ورموك أشلاء ، وذا أمر قضته لك الغيوب

إن لم يكن لك سيدى قبر فقبرك في القلوب

وقال لسان الدين في « الإحاطة » في حق رحلة ذى الوزارتين ابن الحكيم ماصورته : رحل إلى الحجاز الشريف من بلده على فتاء سنة أول عام ثلاثة وثمانين وستمائة ، فحج وزار ، وتجوّل في بلاد المشرق منتجعاً عوالى الرواية في مظانها ، ومنقرا عنها عند مسنى شيوخها ، وقيد الأناشيد الغربية والأبيات المرقصة ، وأقام بمكة شرفها الله من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم ، فأخذ بها عن جماعة ، وانصرف إلى المدينة المشرفة ، ثم قفل مع الركب الشامى إلى دمشق ، ثم كر إلى المغرب ، لا يمر بمجلس علم أو تعلم إلا روى أو روى ، واحتل رنة حرسها الله أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة ، فأقام بها عينا في قرابته ، وعلماً في أهله ، معظما

(١) برمكى المائدة : منسوب إلى البرامكة وزراء الدولة العباسية ، وكانوا مضرب المثل في الجود والترف واليسار .

(٢) مهلبى الحلوى : منسوب إلى المهلب بن أبى صفرة ، وكان أميراً قائداً مظفر فى عهد عبد الملك بن مروان .

لديهم ، إلى أن أوقع السلطان بالوزراء من بنى حبيب الواقعة البرمكية وورد رُندة في أثر ذلك ، فتعرض إليه وهناه بقصيدة طويلة من أوليات شعره أولها :

هل إلى ردّ عشّيات الوصال سَبَبٌ أم ذاك من ضَرَبِ الحال ؟

فلما أشدها إياه أعجِبَ به وبجسّن خطه ونصاعة ظرفه ، فأثنى عليه ، واستدعاه إلى الوفادة على حضرته ، فوفد آخر عام ستة وثمانين ، فأثبتته في خواصّ دولته ، وأحفظاه لديه ، إلى أن رماه إلى كتابة الإنشاء ببابه ، واستمرت حاله معظم القدر مخصوصاً بالملزية ، إلى أن توفي السلطان ثاني الملوك من بنى نصر ، وتقلد الملك بعده ولى عهده أبو عبد الله ، فزاد في إحفظائه وتقريبه ، وجمع له بين الكتابة والوزارة ، ولقبه بذى الوزارتين ، وأعطاه العلامة ، وقلده الأمر ، فبعد الصيت وطاب الذكر ، إلى أن كان من أمره ما كان ، انتهى ملخصاً .

وقال في « الإحاطة » بعد كلام طويل في ترجمته : قال شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم ولده : وجدت بخطه رحمه الله تعالى رسالة خاطب بها أخاه الأكبر أبا إسحاق إبراهيم افتتحها بقصيدة أولها :

ذَكَرَ اللَّوَى شَوْقًا إِلَى أَقْمَارِهِ قَقْضَى أَسَى أَوْ كَادَ مِنْ تَذْكَارِهِ
وعلا زفيرُ حريقِ نارِ ضلوعه فرمى على وَجْهَاتِهِ بِشَرَارِهِ (١)
وقد ذكرناها في غير هذا المحل .

ومن نظمه مما يكتب على قوس :

أنا عُدَّةٌ للدين في يد مَنْ عَدَا لله منتصراً على أعدائه
أحكى الهلال وأسهمى في رجها لمن اعتدى تحكى نجوم سمائه
قد جاء في القرآن أنى عُدّة إذ نص خير الخلق محكم آية

(١) أراد من شرار النار دموعه التي أفاضها من عينيه .

وإذا العدو أصابه سهمي فقد سبق القضاء بهلكه وفناءه
قال لسان الدين : ومن توقيعه ما نقلته من خط ولده يعني أبا بكر في كتابه المسمى
« بالموارد المستعذبة » وكان بوادي آش الفقيه الطريفي ، فكتب إلى خاصة والدي
أبي جعفر بن داود ، قصيدة على روى السين ، يتشكى فيها من مشرف بلدهم
إذ ذاك أبي القاسم بن حسان منها :

فيا صنيّ أبي العباس كيف ترى وأنت أكيس من فيهما من أكياس ؟
ولوه إن كان ممن ترتضون به فقد دنا الفتح للاشراف في فاس
ومنها يستطرد ذكر ذى الوزارتين :

للشرق فضل فمنه أشرقت شهب من نورهم أقبسونا كل مقباس
فوقع عليها رحمه الله تعالى :

إن أفرطت بآبن حسان غوائله فالأمر يكسوه ثوب الذكر والباس
وإن تزلّ به في جوره قدم كان الجزاء له ضربا على الراس
فقد أقامني المولى بنعمته لبث أحكامه بالعدل في الناس
ثم أطال في أمره ، إلى أن قال في ترجمة قتله ما صورته : واستولت يد الغوغاء على
منازله ، شغلهم بها مدبر الفتنة خيفة من أن يعاجلوه قبل تمام أمره ، فضاع بها
مال لا يكتب ، وعروض لا يعلم لها قيمة من السكتب والذخيرة والفرش والآنية
والسلاح والمتاع والخزائن ، وأخفرت ذمته ^(١) ، وتعدى به عدوه القتل إلى المثلثة ^(٢) ،
وقانا الله مصارع السوء ، فطيف بشلوه ^(٣) ، واتهب ، فضاع ، ولم يقبر ، وجرت فيه
شناعة كبيرة ، رحمه الله تعالى ! انتهى المقصود منه .

رجع - ومن مشايخ لسان الدين الأستاذ أبو الحسن على القيحاوي .

(١) أخفرت ذمته : أراد نقضوا عهوده ولم يحتفظوا بما كان يجب له من حرمة

(٢) المثلثة - بضم الميم وسكون الراء - التمثيل بالقتيل بنحو تقطيع أطرافه .

(٣) شلوه - بكسر الشين وسكون اللام - أراد جسمه .

ترجمة

أبي الحسن علي
ابن عمر
القيجاطي

وقال في حقه في « الإحاطة » ما محصله : علي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكناني ، القيجاطي ، أبو الحسن ، أوجد زمانه علماً وتحلقاً وتواضعاً وتفناً ، ورد على غرناطة مستدعي عام أثني عشر وسبعائة ، وقعد بمسجدها الأعظم يقرئ فنونا من العلم من قراءات وفقه وعربية وأدب ، ولي الخطابة ، وناب عن بعض القضاة بالحضرة ، مشكور المأخذ ، حسن السيرة ، عظيم النفع ، وقصده الناس وأخذوا عنه ، وكان أديباً لودعياً ، فكها حلواً ، ونو أول أستاذ قرأت عليه القرآن والعربية والأدب إثر قراءة المكتب ، وله تأليف في فنون وشعر ونثر ، فمن شعره قوله :

روض المشيب تفتحت أزهاره	حتى استبان ثفامه وبهارة
ودجى الشباب قد استبان صباحه	وظلامه قد لاح فيه بهارة
فأتى حمام لا يعاف وقوعه	ومضى غراب لا يخاف مطاره
والعمر مثل البدر يبدو حسنه	حيناً ويعقب بعد ذلك سراره
ما للإخاء تقلصت أفيائه	ما للصفاء تكدرت آثاره
والحر يصفح إن أخل خليلة	والبر يسمح إن تجرأ جاره
فتراه يدفع إن تمكن جاهه	وتراه ينفع إن علا مقداره
ولأنت تعلم أننى زمن الصبا	مازلت زنداً والحياء سواره
ولأنت تعلم أننى زمن الصبا	مازلت ممن عف فيه إزاره
والهجر ما بين الأحبة لم يزل	ترك الكلام أو السلام مثاره
ولكم تحافى عن جفاء خليله	فطن ، وقد ظفرت به أظفاره
ولكم أصر على التدابر مدبر	أفضى إلى ندم به إصراره
فأقام كالكسعى بان بهاره	أو كالفرزدق فارقته نواره ^(١)

(١) الكسعى : مضرب المثل في الندم ، والفرزدق : الشاعر المشهور ، ونواره : امرأة الفرزدق ، وقد طلقها في قصة مشهورة ، ثم ندم فقال :
ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقة نوار

أنكرتم من حق معترف لكم بالحق مالا ينبغي إنكاره
والشرع قد منع التقاطع نصه قطعاً ، وقد وردت به أخباره (١)
والسن سن تورع وتبرع وتسرع لتشرع تختاره
ما يومنا من أمسا متدارك ذهب الشباب فكيف يبقى عاره
هلاً حظرتم أو حذرتم منه ما حق عليكم خطره وحذاره
عجباً لمن يجري هواه لغاية مدودة أضماره مضاره
يأتي ضحي ما كان يأتيه دجي فكأنه ماشاب منه عذاره
فبعد ما تفنى به حسناته ويعيد ما تبقى به أوزاره
فالفن قد أجرته ملء غناها يشتد في مضارها إحضاره (٢)
والمرء من إخوانه في جنة بل جنة تجرى بها أنهاره
والمن قد مدت إليه يمينه والسر قد شدت عليه يساره
شعر به أشعرت بالنصح الذي يهديه من أشعاره إشعاره
ولو اختبرتم نقده بمحكمة لامتاز بهرجه ولاح نضاره
هذا هدى فبه اقتده تنل المني أو أنت في هذا وما تختاره
وعليكم مني سلام مثل ما أرجت بروض يانع أزهاره

وقال من قصيدة رثائية :

حمام حمام فوق أليك الأسى تشدو تهيج من الأشجان ما أوجد الوجد
وذلك شجو في حناجرنا شجى وذلك هزل في ضمائنا جد
أرى أرجل الأرزاء تشتد نحونا وأيديها تسعى إلينا فتمتد
ونحن أولوسهوى عن الأمر مالنا سوى أمل إيجاباً عنده جحد

(١) يشير إلى نحو قوله عليه الصلاة والسلام « لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تناجشوا »
(٢) الإحضار : الجرى السريع

فإن خطرت للمرء ذكري بخاطر فتسبيحه الساهى إذا سمع الرعد
مصاب به قدت قلوب وأنفس لدينا إذا في غيره قطعت برد
تلين له الصم الصلاب وتنهمى عيون ويبكى عنده الحجر الصلد
فلا مقلة ترنو ولا أذن تعى ولا راحة تعطو ولا قدم تعدو
وقد كان يبدو الصبر منا تجلداً وهذا مصاب صبرنا فيه ما يبدو

مولده عام خمسين وستائة ، وتوفي بغرناطة ضحى السبت فى السابع والعشرين
لذى حجة عام ثلاثين وسبعائة ، وحضره السلطان فمن دونه ، رحمه الله تعالى ! انتهى

ومنهم العلامة شيخ الشيوخ أبو سعيد فرج بن لب .

أبو سعيد
فرج بن لب

قال فى « الإحاطة » فى حقه ما محصله : فرج بن قاسم بن أحمد بن لب ،
قال ابن الصباغ : من شعر ابن لب يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إذا القلب ثار أثار ادَّكَرَا لقلبي فأذكى عليه أوارا (١)
تروم جفونى لنار الهوى خودا قتهى دموعا غزارا (٢)
فساء جفونى تسحُّ انهمالا ونار فؤادى تهيج استعارا
أطيل العويل صباحا مساء كئيباً ، ولست أطيق اضطبارا
رقيت مراقى للحب شتى فأفنى مراراً وأحيا مرارا
أحنَّ اشتياقا لريح سرت وأبدى هياما لبرق أنارا
حنيناً وشوقاً إلى مقام حوى شرفاً خالدا لايجارى
به أسكن الله أسى الورى نبياً كريماً وصحباً خيارا
هو المصطفى المنتقى المجتبى أرى معجزات وآيا كبارا
يحق علينا ركوب البحار وجوب القفار إليه ابتدارا

(١) الادكار : التذكر ، وهو مصدر ادكر — بتشديد الدال — وأصله اذتكر

افتعل من الذكر ، وأذكى : ألهب وأشعل (٢) غزارا : كثيرة

ومنها :

فيا فوز من فاز في طيبة بلثم المغاني جدارا جدارا
وألصق خذًا على تربها وأكمل حَجَّابها واعتمارا
وأهدى السلام لخير الأنام على حين وافي عليه مزارا
فيا هادي الخلق دار نعيم تناهت جمالا وطابت قرَّارا
لأنت الوسيلة والمرجى ليوم يُرى الناس فيه سكارى^(١)
وما هم سكارى ، ولكنهم دهتهم دواءَ فَمَأمُوا حيارى
ترى المرء للهول من أمه ومن أقرِيبه يُطيل القرارا
وكل يخاف على نفسه فيكسوه خوف الإله انكسارا
فصلى الإله رسول الهدى عليك ، وأبقى هداك منارا
وقدَّسَ رَبِّي ترى روضة يعم الجهاتِ سناها انتشارا
أعير شذا المسك منها الثرى بل المسك منه شذاه استعارا
هنيئا لمن بهداك اهتدى ومغناك وافي وإياك زارا

وقصد رحمه الله تعالى بهذه القصيدة معارضة قصيدة الشهاب محمود التي نظمها بالحجاز في طريق المدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام ، وهي طويلة ، ومطلعا :

وَصَلَّنا السُّرَى وهجرنا الديارا وجئناك نطوى إليك القفارَا

وقد تبارى الشعراء في هذا الوزن وهذا الروى ، ومنه القصيدة المشهورة :

* أقول وآنست بالحي نارا *

ولابن لب رحمه الله تعالى الفتاوى المشهورة .

(١) أراد ليوم القيامة ، وأخذ هذا من قوله تعالى : (إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد)

وقال في « الإحاطة » في حقه ما محصله : فرج بن قاسم بن أحمد بن لب ،
التغلبى ، غرناطى ، أبو سعيد ، من أهل الخير والطهارة والذكاء والديانة وحسن
الخلق ، رأس بنفسه ، وبرز بمزية إدراكه وحفظه ، فأصبح حامل لواء التحصيل
وعليه مدار الشورى ، وإليه مرجع الفتوى ، لقيامه على الفقه ، وغزارة علمه
وحفظه ، إلى المعرفة بالعربية واللغة ، ومعرفة التوثيق ، والقيام على القراءات ،
والتبريز في التفسير ، والمشاركة في الأصول والفرائض والأدب ، وجودة الحفظ ،
وأقرأ بالمدرسة النصيرية في الثامن والعشرين لرجب عام أربعة وخمسين وسبعائة ،
معظما عند الخاصة والعامة ، مقرونا اسمه بالتسويد ، قعد للتدريس ببلده على وفور
الشيوخ ، وولى الخطابة بالجامع معظما عند الخاصة والعامة ، قرأ على القيحاوى ،
والعربية على ابن الفخار ، وأخذ عن ابن جابر الوادى آشى ، فمن شعره في النسب :

خذوا للهوى من قلبى اليوم ما أبقى	فما زال قلبى كله للهوى رقا
دعوا القلب يصلى فى لظى الوجدناره	فنا للهوى الكبرى وقلبي هو الأشتى (١)
سلوا اليوم أهل الوجد ما ذابه لقوا	فكل الذى يلتقون بعض الذى ألقى
فإن كان عبد يسأل العتق سيدا	فلا أبتغى من مالكي فى الهوى عتقا
بدعوى الهوى يدعو أناس وكلهم	إذا سئلوا طرق الهوى جهلوا الطرقا
فطرق الهوى شتى ولكن أهله	يحوزون فى يوم السباق بها السبقا
وكم جمعت طرق الهوى بين أهلها	وكم أظهرت عند السوى بينهم فرقا
بسيا الهوى تسمو معارف أهله	فحيث ترى سيا الهوى فاعرف الصدقا
فمن زفرة تزجى سحائب عبرة	إذا زفرة ترقى فلا عبرة ترقا (٢)
إذا سكتوا عن وجدهم أعربت به	بواطن أحوال وما عرفت نطقا

(١) يشير بهذا إلى قوله تعالى : (لا يصلاحها إلا الأشتى)

(٢) زفرة : أنه من ألم الهوى ، وترقى : تصعد من كبده ، وعبرة - بفتح العين -
الدعة ، وترقا : أصله ترقا - بالهمز - ومعناه تسكن .

وقال في وداع شهر رمضان :

أزمنت يا شهر الصيام رحيلاً وقاربت يا بدر الزمان أفولاً^(١)
 أجلك قد جدت بك الآن رحلةً رويدك أمسك للوداع قليلاً
 نزلت فأزمنت الرحيل كأنما نويت رحيلاً إذ نويت نزولاً^(٢)
 وما ذاك إلا أن أهلك قد مضوا تفانوا فأبصرت الديار طولاً
 تفكرت في الأوقات ناشئة التقى أشد به وطأً وأقوم قيلاً^(٣)
 وهي طويلة .

وكان موجوداً عند تأليف « الإحاطة » رحمه الله تعالى ! انتهى بالمعنى .

وقال الحافظ ابن حجر : إنه صنف كتاباً في الباء الموحدة ، وأخذ عنه شيخنا

بالإجازة قاسم بن علي المالقي ، ومات سنة ثلاث وثمانين وسبعائة ، انتهى

وقال تلميذه المنشوري ما نصه : من شيوخى الشيخ الأستاذ الخطيب المقرئ

المتفطن المفتى أبو سعيد بن لب ، مولده سنة إحدى وسبعائة ، وتوفي ليلة السبت
 ل سبع عشرة ليلة مضت من ذى الحجة عام اثنين وثمانين ، انتهى .

وهو مخالف لما سبق عن ابن حجر ، لكن صاحب البيت أدري ، إذ

المنشوري تلميذه ، ونحوه للشيخ أبي زكريا السراج في فهرسته ، إذ قال : شيخنا

الفقيه الخطيب الأستاذ المقرئ العالم العلم الصدر الأوحد الشهير ، كان شيخ الشيوخ

وأستاذ الأساندة بالأندلس ، إليه انتهت فيها رئاسة الفتوى في العلوم ، كان أهل

زمانه يقيمون عندما يشير إليه ، قرأ على أبي علي القيحاوي بالسبع ، وتفقه عليه

كثيراً في أنواع العلوم ، ولازمه إلى أن مات ، وأجازه عامة ، وعليه اعتمد ،

وأخذ عن أبي جعفر ابن الزيات ، وأبي إسحاق بن أبي العاصي ، وابن جابر الوادى

(١) الأفول : الغروب

(٢) كنى بذلك عن قلة مكثه ، ومثله قولهم « ما أدري سلم أم ودع »

(٣) أخذ هذا من قوله تعالى : (إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً) .

آثى ، وقاضى الجماعة أبى بكر ، سمع عليه البخارى ، وتفقه عليه ، وقرأ عليه أكثر عقيدة المقترح تفهما ، وبعض « الإرشاد » وبعض التهذيب ، وعن أبى محمد ابن سلمون ، والبركة أبى عبد الله الطنجالى الهاشمى ، وأجازه ، انتهى بمعناه .

وبالجملة فهو من أكابر علماء المالكية بالمغرب حتى قال المواق فيه : شيخ الشيوخ أبو سعيد بن لب ، الذى نحن على فتاويه فى الحلال والحرام ، انتهى .

وقلّ من لم يأخذ عنه فى الأندلس فى وقته ، فمن أخذ عنه الشاطبى ، وابن علاف ، وأبو محمد بن جُزَى ، والأستاذ القيجاطى ، والأستاذ الحفار ، والشيخ الوزير ابن الخطيب السلمانى ، والكاظم بن زمرّك ، فى خلق كثير من طبقتهم ، ثم من الطبقة الثانية أبو يحيى بن عاصم ، وأخوه القاضى أبو بكر بن عاصم ، والشيخ أبو القاسم بن سراج ، والمشورى ، فى خلق لا يحصون .

وله تواليف ، فمنها شرح جمل الزجاجى ، وشرح تصريف التسهيل ، وكتاب « ينبوع عين الثرة » ، فى تفریع مسألة الإمامة بالأجرة ^(١) ، وله فتاوى مدونة بأيدي الناس ، ومن جمعها الشيخ ابن تركاط الأندلسى ، وله كتابة فى مسألة الأدعية إثر الصلوات على الهيثة المعروفة ، وقد رد عليه فى هذا التأليف تلميذه أبو يحيى بن عاصم الشهيد فى تأليف نبيل انتصارا لشيخه أبى إسحاق الشاطبى ، رحم الله تعالى الجميع !

ومن أشياخ لسان الدين بن الخطيب أبو القاسم بن جُزَى ، فى « الإحاطة » ما ملخصه : محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف ابن جُزَى ، الكلبي ، أبو القاسم ، من أهل غرناطة ، وذوى الأصالة والنباهة فيها ، شيخنا ، وأصل سلفه من ولبة من حصن البراجلة ، نزل بها أولم عند الفتح صعبة قريبهم أبى الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، وعند خلع دولة المرابطين كان

والقاسم محمد بن أحمد بن زى الكلبي

(١) أراد البحث فى أنه : هل يجوز أن يأخذ الإنسان أجرة من الدولة على إمامة الناس فى الصلاة ، والمختار جوازه لأن أرزاق العلماء فى بيت مال المسلمين إذا انقطعوا لحاجة الناس ، ومثله الوظائف العامة كالتقضاء ونحوه .

لجدهم يحيى رياسة وانفراد بالتدبير ، وكان رحمه الله تعالى على طريقة مُثُلِي من العُكُوف على العلم ، والاقتصار على الاقتنيات من حُرِّ النُشْب ^(١) ، والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين ، ففيها ، حافظا ، قائما على التدريس ، مشاركا في فنون من عربية وفقه وأصول وقرآآت وأدب وحديث ، حُفَظَةً للتفسير ، مستوعبا للأقوال ، جماعة للكتب ، ملوكة الخزانة ، حسن المجلس ، ممتع المحاضرة ، قريب الغور ، صحيح الباطن ، تقدم خطيبا بالمسجد الأعظم من بلده على حدّاثه سنه ، فاتفق على فضله ، وجرى على سنن أصالته ، قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن جعفر بن الزبير العربية والفقهِ والحديث والقرآن ، وعلى ابن السكّاد ، ولزم الخطيب أبا عبد الله بن رشيد وطبقهم كالحضرمي وابن أبي الأحوص وابن برطال وأبي عامر بن ربيع الأشعري والولي أبي عبد الله الطنجالي وابن الشاط .

وله تواليف منها « وسيلة المسلم ، في تهذيب صحيح مسلم » و « الأنوار السنية ، في الكلمات السنية » و « الدعوات والأذكار ، المخرجة من صحيح الأخبار » و « القوانين الفقهية ، في تلخيص مذهب المالكية » و « التنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية » وكتاب « تقريب الوصول ، إلى علم الأصول » وكتاب « النور المبين ، في قواعد عقائد الدين » وكتاب « المختصر البارِع ، في قراءة نافع » وكتاب « أصول القراءة الستة غير نافع » وكتاب « الفوائد العامة ، في لحن العامة » إلى غير ذلك مما قيده في التفسير والقرآآت وغير ذلك ، وله فهرسة كبيرة اشتهرت واشتملت على جملة كبيرة من علماء المشرق والمغرب .

وله شعر ، فمن شعره قوله في الأبيات الغينية ذاهبا مذهب المعري وابن المظفر والسلفي وأبي الحجاج بن الشيخ وأبي الربيع بن سالم وابن أبي الأحوص وغيرهم :

(١) النُشْب — بفتح النون والشين جميعا — المال ، وحره : خالصة .

لكل بنى الدنيا مُراد ومَقْصِد
وإن مرادى صحة وفراغ
لأبلغ من علم الشريعة مبالغا
يكون به لى للجَنَاتِ بَلَاغُ (١)
ففى مثل هذا فلينافس أولوالنهى
وحسبى من دار الغرور بَلَاغُ (٢)
فما القـوز إلا فى نعيم مؤبد
به العيش رَغْد والشراب يُسَاغ

وقال :

أروم امتداح المصطفى فيردنى
قصورى عن إدراك تلك المناقب
ومن لى بحصر البحر والبحرُ زاخر
ومن لى بإحصاء الحصى والكواكب
ولو أن أعضائى غدت ألسُنًا إذا
لما بلغت فى المدح بعض مآربى
ولو أن كل العالمين تسابقوا
إلى مدحه لم يبلغوا بعض واجب
فأمسكتُ عنه هيبه وتأدبا
وعجزا وإعظاما لأرفع جانب
وَرُبَّ سكوت كان فيه بلاغة
ورب كلام فيه عَتْبُ لعاتب

وقال :

يارب إن ذنوبى اليوم قد كثرت
فما أطيق لها حصرا ولا عددا
وليس لى بعذاب النار من قبيل
ولا أطيق لها صبرا ولا جلدا
فانظر إلهى إلى ضعفى ومسكنتى
ولا تديقننى حر الجحيم غدا

وقال :

وكم من صفحة كالشمس تبدو
فيسبى حسنُها قلبَ الحزين
غضضت الطرف عن نظرى إليها
محافظة على عرضى ودينى

مولده يوم الخميس تاسع ربيع الثانى عام ثلاثة وتسعين وستمائة ، وفقد وهو يحرّض
الناس يوم الكائنة بطريف ضحوة يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى عام أحد

(١) الجنان — بفتح الجيم ، بزنة السحاب — العقل ، والبلاغ ، هنا : الكفاية
(٢) البلاغ ، هنا : التبليغ والإيصال .

وأربعين وسبعائة ، وعقبه طاهر بين القضاء والكتابة ، انتهى .
وأذكرني روى الغين الصعب قول الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي بن يوسف
السكوني الأندلسي المعروف بابن لؤلؤة رحمه الله ورضي عنه :

أمن بعد ما لاح المشيب بفرق أميل لزور بالغرور يصاغ
وأرتاح للذات والشيب منذر بما ليس عنه للأنام مراغ
ومن لم يمت قبل المات فإنه يرَاع بهول بعده ويراع
فيارب وفقني إلى ما يكون لي به للذي أرجوك منه بلاغ
توفي المذكور بالطاعون سنة ٧٥٠ ، وكان خطيباً بحصن قمارش رحمه الله تعالى
ومن نظم ابن جزي المذكور قوله :

أيا من كفت النفس عنه تعففا وفي النفس من شوق إليه لهيب غرام
ألا إنما صبري كصبر ، وإنما على النفس من تقوى الإله قريب لجام
وهما من التخيير المعلوم في فن البديع .

وقول لسان الدين رحمه الله تعالى « وله عقب طاهر بين القضاء والكتابة »
يريد به بنيه البارع أبا بكر والعلامة أبا عبد الله والقاضي أبا محمد عبد الله .

ولنذكرهم فنقول : أما أبو بكر أحمد فهو الذي ألف أو أبوه « الأنوار السنية » أبو بكر أحمد
ابن لب وهو من أهل الفضل والزاهة وحسن السمّت والهمة واستقامة الطريقة ، غرب
في الوفا ، ومال إلى الانقباض ، وله مشاركة حسنة في فنون من فقه وعربية وأدب
وخط ورواية وشعر تسمو ببعضه الإجادة إلى غاية بعيدة ، وقرأ على والده ولازمه ،
واستظهر ببعض تأليفه ، وتفقه وتأدب به ، وقرأ على بعض معاصري أبيه ، ثم
ارتسم في الكتابة السلطانية لأول دولة السلطان أبي الحجاج بن نصر ، وولى

(١) يمت قبل المات : يريد يمت نفسه وشهوته ولذائذه قبل أن يحل به الموت ،
ويراع — بالبناء للمجهول — يخوف ، والهول — بالفتح — الخطب العظيم تخاف
منه وتحذره ، ويراع — بالغين معجمة ، مبنيا للمجهول أيضا — أي يطلب .

القضاء ببرجة وبأندرش ثم بوادي آش ، مشكور السيرة ، معروف النزاهة .

ومن شعره :

أرى الناس يُؤلُون الغنى كرامة وإن لم يكن أهلاً لرفعة مقدار
ويلوون عن وجه الفقير وجوههم وإن كان أهلاً أن يلاقى بكبار
بنو الدهر جاءتهم أحاديث جمّة فما صححوا إلا حديث ابن دينار

ومن بديع نظمه الصادر عنه تصديره أعجاز قصيدة امرئ القيس بن حجر

الكندى بقوله :

أقول لعزى أو لصالح أعمالى (ألا عم صباحا أيها الطل البالى)
أما واعظى شيب سما فوق لمتى (سُمُو حَبَاب الماء حالا على حال)
أنار به ليل الشباب كأنه (مصاييح رهبان تُشَبُّ لقفال)
نهائى عن غى وقال مُنبهاً (ألست ترى السمار والناس أحوالى) ^(١)
يقولون غيره لتنعّم برهة (وهل يعمن من كان فى العصر الخالى)
أغالط دهرى وهو يعلم أننى (كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالى)
ومؤنس نار الشيب يقبح لهوه (بأنسة كأنها خط تمثال) ^(٢)
أشيخاً وتأتى فعل كان عمره (ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال)
وتشفّك الدنيا وما إن شغفتها (كما شغف المهنوءة الرجل الطالى)
ألا إنها الدنيا إذا ما اعتبرتها (ديار لسلمى عافيات بذى خال)
فأين الذين استأثروا قبلنا بها (لناموا فما إن من حديث ولاصال)
ذهلت بهاغيا فكيف الخلاص من (لعوب تنسينى إذا قت سر بالى)
وقد علمت منى مواعد توبى (بأن القى يهذى وليس بفعال)

(١) السمار : جمع سامر ، وهو الذى أخذ فى السمر ، والسمر — بفتح السين

والميم جميعا — حديث الليل ، يريد ليس الوقت وقت زيارة لأن اللوام لم يغتشم النعاس

(٢) نخط تمثال : أراد كأنها تمثال من العجاج ونحوه قد نقش وصور على

ما يشتهى النقاش .

ومذ وثقت نفسى بحب محمد
وأصبح شيطان العَوَايَةِ خاسئاً
ألا ليت شعرى هل تقول عزائى
فأنزل داراً للرسول نزيلها
فطوبى لنفس جاورت خير مرسل
ومن ذكره عند القبول تعطرت
جوار رسول الله مجد مؤئل
ومن ذا الذى يثنى عنان السرى وقد
ألم تر أن الظبية استشفعت به
وقال لها عودى فقالت له نعم
فعدت إليه والهوى قائل لها
رئى لبعير قال أزمع مالكى
ونور ذبيح بالرسالة شاهد
وحن إليه الجذع حنة عاطش
وأصلين من نخل قد التأماله
وقبة ترب منه ذلت لها الطُّبَا
وأضحى ابن جحش بالعيب مقاتلاً
وحسبك من سوط الطفيل إضاءة
وبدَّتْ به العجفاء كل مطهم
وياخسف أرض تحت باغيه إذعلا

(هصرت بغصن ذى شماريخ ميال)
(عليه قتام سىء الظن والبال) (١)
(لخيلى كرى كرة بعد إجمال)
(قليلٌ هموم ما يبيت بأوجال) (٢)
(بيثرب أدنى دارها نظر عالى)
(صبا وشمال فى منازل قفال)
(وقد يدرك المجد المؤئل أمثالى)
(كفانى، ولم أطالب قليل من المال)
(تميل عليه هونة غير مجفال)
(ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى)
(وكان عداؤى الوحش منى على بالى)
(ليقتلنى والمرء ليس بفعال)
(طويل القراً والروق أخنس ذبال)
(لغيث من الوسمى رائده خال)
(فما احتبساً من لين مس وتسفال)
(ومسنونة زرق كأنياب أغوال)
(وليس بذى رمح وليس بنبال)
(كمصباح زيت فى قناديل ذبال)
(له حجبات مشرفات على القال)
(على هيكل نهى الجزيرة جوال)

(١) أصل القتام الغبار والدخان ونحوهما ، والبال : الشأن والحال .

(٢) الأوجال : المخاوف ، وأراد الأمور التى تبعث على الخوف .

وقد أخذت نار لفارس طالما (أصابت غَضَى جِزْلاً وكفت بأجذال)^(١)
 أبان سبيل الرشذ إذ سبل الهدى (يَقْلَنَ لأهل الحلم ضلاً بتضلال)
 لأحد خير العالمين انتقيتها (ورِيضَتْ فذلت صعبة أى إذلال)^(٢)
 وإن رجائى أن ألاقه غداً (ولست بمقلَى الخلال ولا قالى)
 فأدرك آمالى وما كل آمل (بمدرك أطراف الخطوب ولا والى)
 ولا خفاء ببراعة هذا النظم ، وإحكام هذا النسج ، وشدة هذه العارضة .

قلت : وقد أذكرنى هذا التصدير قصيدة الأديب حازم صاحب المقصورة ،
 إذ صدر قصيدة امرئ القيس « قفنا نيك » ولذا كررها هنا ، قال رحمه الله تعالى :
 لعينيك قل إن زرت أفضل مرسل (قفنا نَبَكٍ من ذكرى حبيب ومنزل)
 وفى طيبة فانزل ولا تغش منزلاً (بسقط اللوى بين الدخول فحول)
 وزر روضة قد طالما طاب نشرها (لما نسجتها من جنوب وشمال)
 وأثوابك أخلع محرماً ومصداً (لدى الستر إلا لبسة المتفضل)
 لدى كعبة قد فاض دمعى لبعدها (على النحر حتى بل دمعى محملى)
 فيا حادى الآبال سِرْ بى ولا تقل (عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل)
 فقد حلفت نفسى بذاك وأقسمت (على وآلت حلفة لم تحلل)
 فقلت لها لا شك أى طانع (وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل)
 وكم حملت فى أظهر العزم رحلها (فيا عجبا من رحلها المتحمل)
 وعابت العجز الذى عاق عزمها (فقات لك الوليات إنك مرُجلى)
 نبى هدى قد قال للكفر نوره (ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي)
 تلا سوراً ما قولها بمعارض (إذا هى نصته ولا بمعطل)

قصيدة لحازم
 صدر بها معلقة
 امرئ القيس

(١) الغضى : شجر سريع الاشتعال شديده

(٢) رِيضَتْ : ذلت وعودت علي ما يراد منها ، وذلت : انقادت

لقد نزلت في الأرض ملة هديه	(نزول اليماني ذى العياب المحمل)
أتت مغرباً من مشرق وتعرضت	(تعرض أنشاء الوشاح للفصل)
فقاترت بلاد الشرق من زينة بها	(شق وشق عندنا لم يحول)
فصلى عليه الله ما لاح بارق	(كلم اليمين في حبي مكل)
نبي غزا الأعداء بين تلائع	(وبين أكام ، بعد ما متأمل)
فكم ملك وافته في زى منجد	(بمنجرد قيد الأوابد هيكلي) ^(١)
وكم من بمان واضح جاءه اكتفى	(بضاف فوق الأرض ليس بأعزل)
ومن أبطحى نيط منه نجاده	(بجيد معتم في العشرة مخول)
أزالوا بيدر عن بروجهم العدا	(كما زلت الصفواء بالمتنزل)
وفادوا ظبأهم لا بفنك فتى ولا	(كبير أناس في بجاد مزمل)
وفضى جموعاً قد قدأ جامعاً بها	(لنا بطن حقف ذى ركام عتقل) ^(٢)
وأحموا وطيساً في حنين كأنه	(إذا جاش فيه حميه غلى مرجل)
ونادوا بنات النع بالنصر أثمرى	(ولا تبعدينا من جنك المعال)
ومن له سددت سهمين فاضربى	(بسهميك فى أعشار قلب مقتل)
فما أغنت الأبدان درع بها اكتست	(ترائبها مصقولة كالسجنجل) ^(٣)
وأضحت لوالها وما لكها العدا	(يقولون لا تهلك أسى وتجمل)
وقد فر منصاع كما فر خاضب	(لدى سمرات الحى ناقف حنظل) ^(٤)
وكم قال يا ليل الوغى طلت فانبلاج	(بصبح وما الإصباح منك بأمثل)
فليت جرأدى لم يسررنى إلى الوغى	(وبات بيئى قائماً غير مرسل)
وكم مرتق أوطاس منهم بمسرج	(متى ما ترق العين فيه تسمهل)

(١) الأوابد : الوحش ، وقيدها : يعنى أنه متى رآها أدركها فلم تستطع أن تفوته ، كنى بذلك عن سرعة سيره ، وهذه إحدى الكنيات التى يذكرون أن امرأ القيس أول من قالها . (٢) فى المعلقة * بنا بطن خبت ذى حفاف عتقل • (٣) السجنجل : المرأة . (٤) ناقف حنظل : كناية عن انهماز دموعه ، يذكرون أن ناقف الحنظل لا تزال عينه تدمع

وقرطه خرصا كمصباح مسرج	(أمال السايط بالذبال المقتل) ^(١)
فيرنو لهاد فوق هاديه طرفه	(بناظرة من وحش وجرة مطلق) ^(٢)
ويسمع من كافورتين بجانبى	(أثيث كفنو النخلة المتشكلى)
ترفع أن يعزى له شد شادن	(وإرخاء سرحان وتقريب تتدل)
ولكنه يمضى كما مر مزبد	(يكب على الأذنان دوح الكنبيل)
ويغشى العدا كالسهم أو كالشهاب أو	(كجلمود صخر حطه السيل من عل)
جياذ أعادت رسم رسم دارسا	(وهل عند رسم دارس من معول)
وريعت بها خيل القياصر فاخفت	(جواحرها فى صرة لم تزيل)
سبت عربا من نسوة العرب تستبى	(إذا ما سبكرت بين درع ومجول)
وكم من سبايا الفرس والصفراء سهرت	(نؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل)
وحزن بدورا من ليلالى شعورها	(تضل العقاص فى مثنى ومرسل)
وأبقت بأرض الشام هاما كأنها	(بأرجائها القصوى أنايش غنصل)
وما جف من حب القلوب بغورها	(وقيعانها كأنه حب فلنل)
لخضراء ما دبّت ولا نبتت بها	(أساريع ظبى أو مساويك إسحل)
شدا طيرها فى مشرذى أرومة	(وساق كأنبوب السقى المذل)
فشدت بروض ليس يذبل بعدها	(بكل مغار القتل شدت يذبل) ^(٣)
وكم هجرت فى القبيظ تحكى ذوارعا	(عذارى دوار فى ملأ مذيل)
وكم أدجت والقتريه هزيره	(ويلوى بأثواب العنيف المثل)
وخضن سيولا فضن بالبيد بعدما	(أثرن غبارا بالسكديد المراكل)
وكم ركزوا رحا بد حص كأنه	(من السيل والعشاء فلكة مغزل)

(١) السليط : الزيت (٢) مطلق : ذات طفل .

(٣) مغار القتل : أراد جلا قد أحكم فتله ، ويذبل : اسم جبل ، كنى عن طوله الليل وأن نجومه لا تتحول .

فلم تبين حصنا خوف حصنهم العدا	(ولا أطما إلا مشيداً بمنـدل) (١)
فهدت بعصب شيب بعد صقاله	(بأمراس كتان إلى صم جندل) (٢)
وجيش بأقصى الأرض ألقى جرانه	(وأردف أعجازا وناء بكلـكل)
يدك الصفا دكا ولو مر بعضه	(وأيسره على الستار ويذبل)
دعا النصر والتأييد راياته أسجى	(على أثريناً ذيل مرط مرحل)
لواء منير النصل طاو كأنه	(منارة ممسى راهب مقبتل)
كأن دم الأعداء في غذباته	(عصارة حناء بشيب مرجل)
صحاب برؤا هام العداة وكم قروا	(صفيـف شواء أو قدير معجل)
وكم أكثروا مطاب من لحم جفرة	(وشحم كهذاب الدمقس المقتل)
وكم جبن من غرباء لم يسق نبتها	(دراكا ولم ينضح بماء فيغسل)
حكي طيب ذكرهم ومر كفاحهم	(مدأك عروس أو صلاية حنظل)
لأمداح خير الخلق قلبى قد صبا	(وليس فؤادى عن هواها بمنـسل)
فدع من أيام صلحن له صبا	(ولا سيما يوم بدارة جلجل)
وأصبح عن أم الحويرث ماسلاً	(وجارتها أم الرباب بمأسل)
وكن فى مديح المصطفى كمدبح	(يقلب كفيه بنخيـط مؤصـل)
وأمل به الأخرى ودينك دغ فقد	(تمتعت من لهوبها غير معجل)
وكن كنبيث للفؤاد منابث	(نصيح على تعذاله غير مؤتل)
ينادى إلهى إن ذنبى قد عدا	(على بأنواع الموم لبيتلى)
فكن لى مجبرا من شياطين شهوة	(على حراص لو يسرون مقتلى)
وينشد دنياه إذا ما تدلات	(أفاطم مهلا بعض هذا التدلل)

(١) الأطم — بضم الهمزة والطاء جميعاً — الحصن

(٢) الأمراس : الحبال ، والجندل : الحجر الكبير

(وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى) فإن تصلى حبلى بحبر وصلته
 (فسلى ثيابى من ثيابك تنسل) وأحسن بقطع الحبل منك وبتته
 (نسيم الصبا جاءت ريا القرنفل) أيا سامعى مدح الرسول تشقوا
 (غذاها نيم الماء غير محلل) وروضة حمد للنبي محمد
 (وما إن أرى عنك الغواية تنجلي) ويامن أبى الإصغاء ما أنت مهتد
 (فألهيتها عن ذى تمام محول) فلو مطلقا أشدتها لفظها ارعوت
 (فأنزل منها العصم من كل منزل) ولو سمعته عضم طود أمالها
 وقد عرفت بحازم هذا فى «أزهار الرياض» وذكرت جملة من نظمته .

ومن بارع ما وقع له قوله :

أدبر المدامة فالنسيم مؤرج
 والارض قد لبست برود جالها
 والنهر مما ارتاح معطفه إلى
 يمسى الأصيل بعسجدى شعاعه
 وتروم أيدى الريح تسلب ما اكتسى
 فارتح لشرب كؤوس راح نورها
 وأسكر بنشوة لحظ من أحبيته
 واسمع إلى نغمات عود تصطبى
 بتم وزير يسعدان مثنائيا
 من لم يهيج قلبه هذا فما
 فأجب فقد نادى بالسن حاله
 طربت جمادات وأفصح أعجم
 والروض مرقوم البرود مدبج
 فكأنما هى كاعب تتبرج
 لقيما النسيم عبابه متموج^(١)
 أبدا يوشى صفحه ويدبج^(٢)
 فزيده حسنا بما هى تنسج
 بل نارها فى مأها تتوهج
 أو كأس خمر من لَمَاه تُمزج
 قلب الخلى إلى الهوى وتهيج
 ومثالثا طبقاتها تتدرج
 للقلب منه محرك ومهيج
 للأنس دهر للهموم مفرج
 فرحا وأصبح من سرور يهزج

(١) العباب — بضم العين — موج البحر أو معظمه

(٢) يوشى : أصله يرقم وينقش ، وصفحه : جانبه أو وجهه

أففضلُ الحى الجادُ مسرةً والذى للسراء منه أحوج
 ما العيش إلا ما نَعِمْتَ به وما عاطاك فيه الكأسَ ظبي أدعج
 ممن يرووك منه ردف مردف عَبلٍ وخصر ذو اختصار مُدَمِّج^(١)
 فإذا نظرت لطرةً وافرّة ولصفحة منه بدت تتأجج
 أيقنت أن ثلاثهن وما غدا من تحتها ينآد أو يتموّج^(٢)
 ليل على صبح على بدر على غصن تحمله كتيب رَجُوجُ
 كأسٌ ومحبوب يظل بلحظه قلب الخلى إلى الهوى يستدرج
 يا صاح ما قابى بصاحٍ عن هوى شيآن بينهما المنى تستنتج
 وبمهبتي الظبي الذى فى أضلّى قد حل وهو يشبها ويؤجج^(٣)
 ناديت حادى عيسى يوم النوى والعيس تحدى والمطايا تحدج
 كف أيها الحادى أودّع مهجة قد حازها دون الجوامح هودج
 لما تواقفنا فى أحـداجها قر منير بالهـلال متوج
 ناديتهم قولوا لبدركم الذى بضياته تسرى الركاب وتُدج
 يحى العليل بلفظة أو لحظة تطفى غليلا فى الحشا يتأجج
 قالوا نخاف يزيد قلبك لا عجا فأجبتهم خلوا اللواعج تلج
 وبكيت واستبكيت حتى ظل من عبراتهـا بحر يبحر يمزج
 وبقيتُ أفتح بعدهم باب المنى ما بيننا طوراً ، وطورا يُرَجج
 وأقول يا نفس اصبرى فعسى النوى بصباح قرب ليلهاـا يقبلج
 فترقب السراء من دهر شجّا والدهر من ضد لـضد يخرج
 وترجّ فرجة كل هم طارق فلكل هم فى الزمان تفرج

(١) مدمج : أصله بمعنى متداخل بعضه فى بعض ، وأراد أنه نخل .

(٢) ينآد : يميل . (٣) يشبها : يوقدها ويشعلها .

وتذكرت هنا جيمية ابن قلاقس ، وهى :

عَرَضْتُ لمعارض الصباح الأبلج حَوَرَاءَ فى طرف الظلام الأدعج
فتمزقت شيم الدجى عن غُرَّتِي شمسين فى أفق وكلة هودج
ووراء أستار الحمول لواظظ غازلن معتدل الوشيج الأعوج
من كل مبتمس السَّنَان إذا جرى دَمْعُ النجيع من الكمى الأهوج
ولقد صحت الليل قَلَصَ برده لعباب بحر صباحه المتعوج
وكان منتثر النجوم لآلىء نظمت على صرح من الفيروزج ^(١)
وسهرت أرقب من سهيل خافقاً متفردا ، وكأنه قلب الشجى ^(٢)
واستعبرت مُقَلَّ السحاب فأضحكت منها تغور مُقَوِّفٍ ومدبج

وَلْتَعُدْ إلى ذكر أبى بكر بن جزى فنقول :

وله تقييد فى الفقه على كتاب والده المسمى بالقوانين الفقهية ، ورجز فى القرائض ، وإحسانه كثير ، وتقدم قاضياً للجماعة بحضرة غُرْنَاطَة ثامن شوال عام ستين وسبعائة ، ثم صُرف عنها ، ثم لما توفى الأستاذ الخطيب العالم الشهير أبو سعيد فرج بن لب - رحمه الله تعالى ! - وكان خطيب الجامع الأعظم بغرناطة - ولّى عوضاً عنه أستاذا وخطيباً عام أننين وثمانين وسبعائة ، فبقى فى الخطابة ثلاثة أعوام ، ثم توفى ، وأظن وفاته آخر عام خمسة وثمانين وسبعائة ، رحمه الله تعالى ! .

وأما أخوه أبو عبد الله محمد فهو الكاتب المجيد ، أعجوبة الزمان ، وتوفى أبو عبد الله محمد بن جزى بفاس رحمه الله تعالى عام ثمانية وخمسين وسبعائة ، وقيل - وهو الصواب - : إن وفاته آخر شوال من السنة قبلها حسباً ألقىته بحظ بعض أكابر الثقات بداره من البيضاء ، وهى فاس الجديدة ، قرب مغرب يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من

(١) منتثر النجوم : متفرقها هنا وههنا .

(٢) الشجى - بفتح الشين وكسر الجيم ويأؤه مخففة - العاشق الحزين . وقالوا « ويل للشجى من الخلى » فشدوا ياء الشجى لصحبتهما للخلى المشدد الياء .

شوال من عام سبعة وخمسين وسبعائة ، وكان دفنه يوم الأربعاء بعد صلاة العصر وراء الحائط الشرقى الذى بالجامع الأعظم من المدينة البيضاء ، وكان مولده فى شوال من عام واحد وعشرين وسبعائة ، انتهى .

قال الأمير ابن الأحمر فى « نثر الجمان » : أدركته ورأيت ، وهو من أهل بلدنا غرناطة ، وكان أبوه أبو القاسم محمد أحد المفتين بها عالم الأندلس الطائفة فتيها منها إلى طرابلس ، وقتل شهيدا بطريف بعد أن ألبى بلاء حسنا ، وأبو عبد الله ابنه هذا كتب بالأندلس فى حضرة ابن عم أبنينا أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف ، وله فيه أمداح عجيبية ، ولم يزل كاتباً فى الحضرة الأحمدية النصرية إلى أن امتحنه أمير المسلمين أبو الحجاج ، انتهى .

ويعنى ابن الأحمر بهذا الامتحان أنه ضربه بالسياط ، من غير ذنب اقترفه (١) بل ظلمه ظلماً مبيهاً ، هكذا ألقته فى بعض المقيدات .

ثم قال ابن الأحمر : فقوض الرجال عن الأندلس ، واستقر بالعدوة ، فكتب بالحضرة المرينية لأمر المسلمين أبى عنان ، إلى أن توفى بها رحمه الله تعالى ! وكان رحمه الله تعالى طلع فى سماء العلوم بدرًا مشرقاً ، وسارت براعته مغرباً ومشرقاً ، وسما بشعره فوق الفرقدين ، كما أربى بنثره على الشعرى والبطين ، له باع مديد فى التاريخ واللغة والحساب ، والنحو والبيان والآداب ، بصير بالفروع والأصول والحديث ، عارف بالماضى من الشعر والحديث ، إن نظم أنساك أبا (٢) ذؤيب برقته ، ونصيباً بمنصبه ونخوته ، وإن كتب أربى على ابن مقلة بنخطه ، وإن أنشأ رسالة أنساك العباد بحسن مساقها وضبطه ، وهو رب هذا الشأن ، وفارس هذا الميدان ، ومع تفننه فى الشعر فهو فى العلوم قد نبغ ، وما بلغ أحد من شعراء عصره منه

(١) تقول « اقترف فلان بالذنب » تريد أنه فعله وأثامه وارتيكه

(٢) أبو ذؤيب : شاعر من شعراء هذيل العدودين ، ونصيب : شاعر أيضاً من الغزاليين ، وابن مقلة : مضر بن المثل فى حسن الخط ، والعماد : أراد به العماد الأصفهانى ، وهو محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله

ما بلغ ، بل سلموا القدم فيه إليه ، وألقوا زمام الاعتراف بذلك في يديه ، ودخلوا
تحت راية الأدب التي حمل ، إذ ظهر ساطع براعته ظهور الشمس في الحمل ،
أنشدني لنفسه يمدح أمير المسلمين أبا الحجاج يوسف بن أمير المسلمين أبي الوليد
إسماعيل عم أيننا ابن جدنا الرئيس الأمير أبي سعيد فرج هذه القصيدة البارعة ،
وحذف منها الرءاء المهملة :

قَسَمًا بوضاح السنى الوهاج	من تحت مسدول الذوائب داج (١)
وبأبلج بالمسك خطت نونه	من فوق وسنان الاواظ ساجي (٢)
وبحسن خد ديجت صفحاته	فعدت تحاكي مذهب الديباج
وبمبسم كالعقد نظم سلكه	ولمى حكي الصهباء دون مزاج
وبمنطق تصبو القلوب لحسنه	أنسى المسامع نعمة الأهراج
وبمئاس الأعطاف تشنيه الصبا	فيميس كالخطي يوم هياج
ومنعم مثل الكتيب يُقله	مستضعف يشكو من الإدماج
وبمؤعد للوصل أنجز فجأة	من بعد طول تمنع ولجاج
وبأكؤس أطلعن في جنح الدجى	شمس السلافة في سماء زجاج
وحدائق سحَب السحاب ذيو له	فيها وبات لها النسيم يناجى
وجداول سلت سيوفا عندما	فجئت بجيش للصبا عجاج
وبأقحوان قد تضاحك إذ بكت	عين الغمام بمدمع تججاج
وقدود أغصان يملن كأنها	تحفى حديثاً بينها وتناجى
وحامم يهتفن شجواً بالضحي	فهديهن لذي الصباية شاجي
أن المعالى والعوالى والندى	والباس طوع يدى أبى الحجاج

(١) وضاح السنى : أراد به وجه المتغزل فيه ، والذوائب : جمع ذؤابة ، وهى

الشعر هنا

(٢) نونه : أراد حاجبه ، وأراد بوسنان الاواظ : عينيه ، وساجي : ساكن

ملك تتوَج بالمهابة عندما لم يستجز في الدين لبس التاج
وأفاض حكم العدل في أيامه فالحق أبلغ واضح المنهاج
هو منقذ العاني ومُغْنِي المعتقى ومذل العاني وغوث اللاجى (١)
ماضى العزيمة والسيوف كليلة طلق الحيا والخطوب دواجى
علم الهدى والناس في عمياء قد ضلوا لوقع الحادث المهتاج
غيث الندى والسحب تبخل بالحيا والحل يُبْدِي فاقة المحتاج
ليث الوغى والخليل تزجى باقنا والبيض تنهل في دم الأوداج
يتفشع الإظلام إذ يبدو له وجه كمثل الكوكب الوهاج
من آل قيلة من ذؤابة سعدى أعلى بنى قحطان دون خلاج
حيث العلاء ممدوة الأطناب لم تخلق معالِمَهَا يَدُ الإنهاج
والأغوجيات السوابق تمتطى فنظلل الآفاق سَحْبُ عجاج
والبيض والأسد العوامل تقتضى مهج الحكمة بأبلغ الإزعاج
مجد ليوسف جُمِعَتْ أشتاته أعيا سواه بعد طول علاج
مولاي هاك عقيلة تزهو على أخواتها كالغداة المغناج
إنشاء عبد خالص لك حبه ومن العبيد مُدَاهِن ومُدَاجى
أوى إلى أكناف نعاك التى ليست إليه صلاتها بجُدَاج
سباق ميدان البلاغة والوغى لشعاب كل منهما ولَاج
جانبت أخت الزاى منها عامداً فأتت من الإحسان فى أفواج
فاتح لها باب القبول وأوّل مَنْ أهداها ما يبتغى من حاج

(١) العاني - بالنون - الأسير ، والمعتقى : طالب المعروف ، والعاني - بالناء -

المتجبر ، ومذله : أى الذى يجعله منقادا لا يصعب قياده ، واللاجى : أصله اللاجى - بالهمز - فسهل همزته بقلبيها ياء

ثم قال ابن الأحرر : وأنشدني أيضاً لنفسه يمدح أمير المؤمنين المتوكل على الله
أبا عنان فارس ملك المغرب :

إن قلبي لمُهْدَةٍ الصبرنا كَثُ
عن غَزَالٍ في عُقْدَةِ السَّحَرِ نَافِثُ^(١)
أضرم النار في فؤادي وولي
قَائِلًا لَا تَخَفْ فَإِنِّي عَابِثُ
ورماني من مقلتيه بسهم
ثم قال اصطبر لثان وثالث
كم عذول أتى يُنَاطِرُ فِيهِ
كان تَعَذَّاهُ على الحب باعِثُ
وَبَيْنَ آلِيَتِهَا بِالتَّسْلِي
فَقَضَى حَسَنَهُ بَأَنِي حَائِثُ
جبر الله صدع قلب عميد
فهو يهفو إلى البروق و يروى
سلبته الأشجان إلا بقايا
وبكاء على عهد مَوَاضٍ
لست وحدي أشكو بليلة وجدى
يا مضيع العهد والله يعفو
غزني منك والجمال غرور
عَنْكَ أُنَى ارْتَضَيْتَ خَطَةَ نَاكِثُ^(١)
مُثَلٍّ يَقْتَسِمُنَ أَعْشَارَ قَلْبِي
وظُبًا لِلْحِظِّ فِي الْقُلُوبِ عَوَابِثُ
كَيْفَ غَيَّرْتَ بَانْتِزَاحِكَ حَالِي
بِالرِّضَا مِنِّي انْقِسَامَ الْمَوَارِثُ
فَرَطَ حَيٍّ وَفَرَطَ بِخَلْكَ آلِي
وتغيرت لي ولست بحارت؟
وَنَدَى فَارِسٍ وَحَسْبُكَ رَدَا
أَنْ عَيْنِيكَ بِالْفَتُورِ نَوَافِثُ
قَوْلٍ مِنْ قَالَ سَدَّ بَابَ الْبَوَاقِثُ
مَلِكِ الْبَاسِ وَالنَّدَى ، فَهُوَ بِالسَّيْفِ وَبِالسَّيْبِ عَائِثُ أَوْ غَائِثُ
مَحْرَزُ الْمَجْدِ وَالنَّاءِ ، فَهَذَا
سَائِرُ فِي الْوَرَى ، وَذَلِكَ لَابِثُ

(١) نكث العهد : لم يف به ، والنكث : التفل بالنفس من غير ريق ، وموت
عادة السحرة أن يأخذوا خيطاً ثم يتلوا عليه كلاماً ، وكلما تلوا شيئاً عقدوا عقدة ثم
نثوا عليها ، وفي القرآن الكريم : (ومن شر النفاثات في العقد)

أوطأ الشهبَ رَجَلَهُ وترقى صاعداً في سموه غير ما كثر
فدَرَارٍ تَسْرَى وما لحقته ونجوم خلف القصور لوابث^(١)
وله المقربات لابل هي المقربان من فوقها الليوث الدلاهِث^(٢)
مطلعات من كل نعل هلالاً فلهذا تجلو دجى كل حادث
إن ترافعن فالجبال الرواسى أو تسابقن فالغيوث الخثاِث
والمواضى كأنها قد أعيرت حدةً الذهن منه عند المباحث
هى نار محرقات الأعادى وهى ماء مطهرات الخبائث
فيردّ الوغى ذكورا عطاشاً ثم يصدرن ناهلات طوامث
من معانيه قد رأينا عياناً كل فضل ينصّه من يحادث
خلق كالنسيم مرسحاً يرا بالأزاهير فى البطاح الدماث
فى سبيل الإله يقصى ويدنى ويوالى فى ذاته ويناكث
شرف الملك منه سام وحام فقدته سام وحام ويافث
هاكها من بنات فكرى بكرا ليس يسموها من الناس طامث
ذات لفظ لا يعتريه اختلال ومعان لا تنتجها المباحث
زعماء القريض أبقوا بقايا كنت دون الورى لهن الوارث
من أراد انتقادها فهى هذى عرضة البحث فليكن جدّ باحث

ورأيت بخط ابن الصباغ العقيلي على هامش قوله « وندى فارس وحسبك رداً،
البيت » ما نصه: ما أبدع تلخيصه للمدح وأطبعه ! فإنه أشار إلى قول الشاعر راداً
عليه بالتبكيك، ومعقباً له بالتعنيت :

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة باب السباحة والملاحاة مغلق

(١) الدرارى : النجوم ، ولوابث : جمع لابثة ، وهى المقيمة
(٢) المقربات - بفتح الراء - الخيل ، والدلاهِث : جمع دلهث - بزنة جعفر -
وهو الجرىء المقدم

مات الكرام فلا كريم يرتجى منه النوال ولا مليح يعشق (١)
وقيل : إن السلطان أبا عنان أطل من برج يشاهد الحرب بين الثور والأسد على
ما جرت به عادة الملوك ، فقال ابن جزى المذكور في وصف الحال :

لله يومٌ بدار الملك مر به من العجائب ما لم يحجر في خلدي
لاح الخليفة في برج العلاقرا يشاهد الحرب بين الثور والأسد
ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى قوله :

أبا حسن إن شئتَ الدهر شملنا فليس لودى في الفؤاد شتات (٢)
وإن حُلتَ عن عهد الإخاء فلم يزل لقلبي على حفظ العهود ثبات (٣)
وهبني سرتُ مني إليك إساءة ألم تنقدم قبلها حسنات
وقوله وهو بحال مرض :

إن يأخذ السقمُ من جسمي مأخذه وأصبح القوم من أمرى على خطر
فإن قلبي بحمد الله مرتبط بالصبر والشكر والتسليم للقدر
فالمرء في قبضة الأقدار مصرفه للبرء والسقم أو للنفع والضرر
وحكى أن الفقيه الرحال أبا إسحاق إبراهيم بن الحاج الميرى بقى في خلوته جميع
شهر رمضان المعظم من عام سبعة وخمسين وسبعائة ، فلما خرج في يوم عيد الفطر
أنشده صهره أبو عبد الله بن جزى المذكور لنفسه :

ما سرَّارُ البذور إلا ثلاث فلماذا أرى سرَّاركَ شهرا (٤)

أنعجلة — سرارا لعام ثم تبقى في سائر العام بدرا

وحكى أنه كتب للرئيس صاحب القلم الأعلى والعلامة بفاس أبي القاسم بن رضوان
يطلب منه شراب سكنجيين ، وقصد التصحيف بقوله «أحسن زان بيتك ، نجيب

(١) حفظى في صدر هذا البيت * خلت الديار ؛ فلا كريم يرتجى * ولعله أحسن مما هنا

(٢) شتت الدهر شملنا : فرق اجتماعنا ، والشتات - بفتح الشين - التفرق

(٣) حلت : تحولت

(٤) السرار - بالفتح - اختفاء القمر في آخر الشهر ليلة أو ليلتين

تسربه مرضى « تصحيفه : أحب شراب سمكنجين شربه مُرضى ، قال :
فجاوبني ابن رضوان بقوله : إن برك نفيس ، تصحيفه مقلوبا : يشفيك ربنا .

ومن نظم ابن جزى المذكور قوله :

رعى الله عهدا بالمرية ما أرى به أبدا ماعشت في الناس بالناسي^(١)
وكيف ترى بالله صحة معشر مجاهدٌ بعضٌ منهم وابن عباس^(٢)

وقوله في الزاوية التي أنشأها السلطان أبو عنان :

هذا محل الفضل والإيثار والرفق بالسكان والزوار
دار على الإحسان شيدت والتقى فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هى ملجأ للواردين ومورد لابن السبيل وكل ركب سارى
آثار مولانا الخليفة فارس أكرم بها فى الجدد من آثار
لا زال منصور اللواء مظفرا ماضى العزائم سامى المقدار
بنيت على يد عبدهم وخديمها بهم العلى محمد بن حدار
فى عام أربعة وخمسين انقضت من بعد سبع مئين فى الأعصار

ومن نظمه قوله مُورِّيا :

وما أنسى الأجرة يوم بانوا تخوض مطيهم بحر الدموع
وقالوا : اليوم منزلنا الحنايا فقلت : نعم ولكن من ضلوعى

وقوله موريا أيضا :

ورب يهودى أتى متطببا ليأخذ ثارات اليهود من الناس

(١) « الناسى » آخر البيت : اسم الفاعل من النسيان

(٢) ورى بابن عباس ترجمان القرآن وابن عم الرسول ، ومجاهد أحيد رواة الحديث المشهورين ، وإنما هو يريد بمجاهد اسم الفاعل من المجاهدة ، وبابن عباس : الذي يقطب وجهه عند رؤيتك كثيرا ، صيغة مبالغة من مصدر « عبس فلان فى وجه فلان »

إذا جسَّ نبض المرء أودى بنفسه سريعا ، ألم تسمع بفتكة جساس ؟
وقوله :

من أى أشجاني التي جنت النوى أشكو العذاب وهن في تنويع
(١) من وصلى الموقوف أو من هجرى الموصول أو من نوى المقطوع
أو من حديث تولى وتولى خبرا صحيحا ليس بالموضوع
يرويه خدى مسندا عن أدمى عن مقاتي عن قلى المفجوع
وأول هذه القصيدة :

ذهبت حشاشة قلبى المصدوع بين السلام ووقنة التوديع
وقد ضمن شطرها الفقيه عبيد شارح الحلبة ، إذ قال من قصيدة مطلعها:
أهمى دموعك ساعة التوديع يا مقاتي ممزوجة بنجيع
بقوله :

يوم استقلت عيسهم وترحلوا (ذهبت حشاشة قلبى المصدوع)
وقوله :

بخدى وجسمى والفؤاد وأدمى شهود بهم دغوى الغرام تصحح
ومن عجب أن رجح الناس نقلهم وكلهم ذو جرحة فيه تقح
لجسمى ضعيف ، والفؤاد مخلط وذمعى ، مطروح وخدى مجرح
وقوله :

يا محيا كتب الحسن به آخرفا أبداع فيها وبرع
ميم ثغر ، ثم نون حاجب ثم عين هى تميم البدع
أنا لا أطمع فى وصالك لى وعلى وجهك مكتوب منع

ثم قال ابن الأحرر : ومن إنشائه البارع موريا بالكتب ، ورفعها لأمير المؤمنين

(١) هذا من اصطلاح علماء الحديث : الموصول ، والموقوف ، والمقطوع ،
والصحيح ، والموضوع ، والسند ، كل هذه ألقاب لأنواع من الحديث بحسب إسناده

المتوكل على الله أبي عَينان فارس رحمه الله تعالى يهنيه بإبلال ولده ولي عهده الأمير أبي زيان محمد من مرض :

ماذا عسى أدبُ الكتاب يوضحُ من خصال مجدك وهو الزاهر الزاهي وما الفصح بكليات موعبها كاف فيأتى بأنباء وأنباءه أبقى الله تعالى مولانا الخليفة وسعاده القِدْحُ المُعَلَّى ، ولزاهر كماله التاج الحلي ، تجلى من حلاه نزهة الناظر ، ويسير بعلاه المثل السائر ، ويتسق من سناه العقْد المنظم ، ويتضح بهداه القصد الأمم^(١) ، ولازالت مقدمات النصرله مبسوطه ، ومعونة السعد بإشارته منوطه ، وهدايته متكفلة بإحياء علوم الدين ، وإيضاح منهاج العابدين ، وإرشاده يتولى تنبيه الغافلين ، ويأتى من شفاء الصدور بالنور المبين ، وميقات الخدمة ببابه مطمح الأنفس ، وملخص الجود من كفه بغية المتلئس ، قد حكم أدب الدين والدنيا بأنك سراج الملوك ، لما أتت عوارفك بالمشرع السلسل ومعارفك بنظم السلوك ، ووضحت معالم مجدك وضوح أنوار الفجر ، وزهت بعدلك المسالك والممالك زهو خريدة القصر ، فلك في جمهرة الشرف النسب الوسيط ، ومن جل المآثر الخلاصة والبسيط ، وسبل الخيرات لها برعايتك تيسير ، ومحاسن الشريعة لها بتحصيلك تحبير ، وأنت حجة العلماء ، الذي تقصر عن تقصى مآثره فِطْنُ الأذكياء ، إن أنبهم التفسير في يديك ملاك التأويل ، أو اعتاص تفرغ الفقه فعندك فصل البيان له والتحصيل ، وإن تشعب التاريخ فلديك استيعابه ، أو تطاول الأدب في إيجاز بيانك اقتضابه ، وإن ذكر الكلام في انتقائك من برهانه الحصول ، أو المنطق في موجز آمالك لبابه المنخول ، وليس أساس البلاغة إلا ما تأتي به من فصل المقال ، ولا جامع الخير إلا ما حزته من

(١) الأم — بفتح الهمزة والميم — القريب .

تهذيب الكمال ، ولذلك صارت خدمتك غاية المطلوب ، وحبك قوت القلوب ،
ولا غرو إن كنت من العلياء درتهما المكنونة ، فأسلافك الكرام هم جواهرها
الثينة ، بحاستهم أصيبت مقاتل الفرسان ، وبجود جودهم تسنى رى الظمان ،
وبتسهيل عدلهم وضحت شُعبُ الإيمان ، وأنت المنتقى من سمط جُبانهم ، والواسطة
في قلائد عقيانهم ، عنك تؤثر سيرة الأُكتفاء ، وعن فروعك السعداء تروى أخبار
نجباء الأبناء ، فهم لمملكته العلية بهجة مجالسها ، وأنس مجالسها ، وقطب سرورها ،
ومطالع نورها ، وولى عهدك درتهم الخطيرة ، وذخيرتهم الأثيرة ، لازال كامل
سعادته بطول مقامك محكما ، وحرز أمانيه بالجمع بين الصحيحين حبك ورضاك
معاماً ، وقد وجبت التهنئة بما كان في حيلة برئه من التيسير ، وما تهبأ في استقامة
قانون صحته من نُجح التدبير ، ولم يكن إلا أن بعدت به عنك المسالك ، وأعوز
نور طرفه تقريب المدارك ، وتذكر ما عهده من الإيناس الموطأ جنباه عند أفضل
مالك ، فوَرى من شوقه سقط الزند^(١) ، والتهب في جوائحه قبس الوجد ، فأمددته
من دعائك الصالح بحلية الأولياء ، فظفر لما شارف مشارق الأنوار من حضرتك
بالشفاء ، وقد حاز إكمال الأجر بذلك العارض الوجيز ، وكان له كتشبيب الإبريز ،
وهاهو قادم بالطالع السعيد ، آيب بالمقصد الأسنى من الفتح والتمهيد ، يطلع بين
يديك طلوع الشهاب ، ويسم عن مُفَصَّل الثناء في الهناء بذلك زهر الآداب ،
فأعدَّ له تحفة القادم من إحسانك الكامل ، وأخصصه بالتسكلة من إيناسك
الشامل ، فهو الكوكب الدرى المستمد من أنوارك السنية ، وفي تهذيب شمائله
إيضاح للخلق الكريمة الفارسية ، لازالت تزدان بصحاح مآثر عيون الأخبار ،
وتتعطر بنفحة الزهر من ثنائك روضة الأزهار ، وتقل من محامدك الآيات البينات ،

(١) تقول « ورى الزند يرى » مثل ورث يرث ، ومثل وعد يعد — إذا
أخرج النار ، ويقول العرب « وريت بك زنادى » في معنى قوى بك ساعدى .

وتتوالى عليك الألفاظ الإلهيات ، بمنّ الله سبحانه وفضله ، والسلام الكريم
يعتمد المقام العلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

ولعذ كور عدة مقطعات يورى فيها بأسماء الكتب ، فمنها قوله :

ظبي هو الكامل فى حسنه وشره أبهى من العقد
جماله المدهش لكنا أخلاقه تحكى صبا نجد

وقوله أيضاً :

لك الله من خل حبانى برقة حَبَّتْنِي من آياتها بالنوادر (١)
رسالة رمز فى الجمال نهاية دخيرة نظم آتحت بالجواهر

وقوله سامحه الله تعالى :

قصتى فى الهوى المَدَوْنَة الكبرى وأخبار عشقى المبسوطة
حبتى فى الغرام واضحة إذ لم تزل مهجتي بوجد منوطة

وتذكرت بالتورية بأسماء الكتب قول الأرجانى :

لما تألق بارق من ثغره جادت دموعى بالسحاب المطر
فكان عقد الدر حل قلائد المقيان منه على صحاح الجواهر

وقول لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى :

وظبى لأوضاع الجمال مدرس عليم بأسرار المحاسن ماهر
أرى جیده نصّ الحلى ، وقررت ثنياه ما ضمت صحاح الجواهر

وقول ابن خاتمة :

ومعطر الأنفاس ييسم دائماً عن در ثغر زانه ترتيب
من لم يشاهد منه عقد جواهر لم يدر ما التنقيح والتهذيب

وقوله أيضاً :

سَمَّهْنِي عَاذِلِي عَلَيْهِ وَقَالَ لِي وَدُّهُ عَلِيلُ
فَقُلْتُ مَعْتَلٍ أَوْ صَحِيحٍ يودعه عينه الخليل

وقوله أيضاً :

حاز الجمال بصورة قرية تجلو عليك مشارق الأنوار
وحوى الكمال بصورة عُمرية تتلو عليك مناقب الأبرار

وقول الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي :

من اغتدى مُوطئاً أ كُناهه صح له التمهيد في أحواله
وقابل استذكاره بالمنتقى من رأيه المختار من أعماله
وأضحت المسالك الحسنَى له تدنى تقصياً قُصَى آماله
وسار من مشارق الأنوار في أدنى المدارك أو إلى إكمله

ولما وقف على هذه القطعة الفاضل أبو علي حسين بن صالح بن أبي دلالة عارضها
وزاد ذكر القبس والمعلم :

قل الموطئُ للورى أ كُناهه بشره بالتمهيد في الأحوال
وإذا اكتفى بالمنتقى استذكاره وفي له المختار في الأعمال
ومسالك الحسنَى تؤديه إلى أقصى التقصى من قُصَى الآمال
ويلوح من قبس الهداية رشده من معلم التفصيل والإجمال
رجع إلى ابن جُزى ، ومن نظمه :

يادوحة الأنس من بطحاء واسِجَةٍ هل من سبيل إلى أيامك الأول^(١)
إذ نجتلى أوجه الإيناس مسفرة ونجتنى ثمر اللذات والغزل

(١) الدوحة — بفتح الدال وسكون الواو — في الأصل : الشجرة العظيمة ،
وأضافها إلى الأنس لأنها شهدت أنسه بأحبابه .

ومن نظمه رحمه الله تعالى عند خروجه إلى بلاد المغرب ، وورّى بكتاني « تحفة القادم » و « زاد المسافر » فقال :

ورود المنايا في سبيل المكارم وإني لمن قوم يهون عليهم
بأجنحة من ماضيات العزائم يطيرون مهما ازورّ للدهر جانب
رأيت احتمال الذل شأن البهائم وما كل نفس تحمل الذل ، إنني
لديكم فعند الناس تحفة قادم إذا أنا لم أظفر بزاد مسافر
وزاد المسافر لصفوان ، والتحفة لابن الأبار .

ومن نظمه قوله :

رفع اللثام وذيله مجرور^(١) نصب الحبال للورى بالحسن إذ
فهو المال وقلبي المكسور وأماله غنى العواذل غيلة
وقوله أيضا :

واللحظ يحميها بأى سلاح تلك الذوائب ذُبت من شوق لها
من فتنة الجعدى والسفاح^(٢) يا قلب فأنجُ وما إخالك ناجيا
وقوله أيضا :

وجه غزال ظل يهواه وعاشق صلى ومحاربه
تعبدا يفهم معناه قالوا تعبدت فقلت لهم
وقوله رحمه الله تعالى :

تَعْتَدُهُ لَكِنْ تَخِيرُ وَاتَّقِ لاتعد ضيفك إن ذهبت لصاحب
إن خولفت أصنافها لم تعلق أو ما ترى الأشجار مهما ركبت

(١) الحبال : جمع حباله ، وهى الشراك ونحوه ينصبه الصياد ليقع فيه الطير .

(٢) الجعدى : أراد به هنا الشعر الذى عبر عنه بالذوائب ، والسفاح : أراد به

هنا اللحظ ، وورى بالكلمتين .

وقوله رحمه الله تعالى :

أيتها النفس قفى عندما أزلت ، فِعْلاً كان أو قولاً
فمن يكن يرضى بما ساءه أو سره فهو له الأولى
لا يُتْرَكُ العبدُ وما شاء إلا إذا أهمله المولى

وقوله أيضاً سماحه الله تعالى :

لولا ثلاث قد شغفت بجهها ما عَفْتُ في حوض المنية موردى^(١)
وهي الرواية للحديث ، وكتبه ، والفقهاء فيه ، وذلك حسب المهتدى

وأما أخوها القاضي أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم بن جُزَى فهو الإمام العالم العلامة المعمر ، رئيس العلوم اللسانية ، قال في « الإحاطة » : هذا الفاضل قريع بيت نبیه ، وسلف شهير ، وأبوة خير ، وأخوة بليغة وخولة ، أديب حافظ قائم على فن العربية ، مشارك في فنون لسانية ، ظرف في الإدراك ، جيد النظم ، مطواع القريحة ، باطنه نبل ، وظاهره غفلة ، قعد للاقراء ببلده غرناطة معيدا ومستقلا ، ثم تقدم للقضاء بجهات نبهة على زمن الحداثة ، أخذ عن والده الأستاذ الشهير الشهيد أبي القاسم أشياء كثيرة ، وعن القاضي أبي البركات ابن الحاج ، وقاضي الجماعة الشريف السبتي ، والأستاذ البياني ، والأستاذ الأعرف أبي سعيد بن لب ، والشيخ المقرئ أبي عبد الله بن بيش ، وأجازته رئيس الكتاب أبو الحسن بن الجياب ، وقاضي الجماعة أبو عبد الله أبو بكر ، وأبو محمد بن سالمون ، والقاضي ابن شيرين ، والشيخ أبو حيان ، وقاضي الجماعة أبو عبد الله المقرئ ، وأبو محمد الحضرمي ، وجماعة آخرون ، وشعره نبيل الأغراض ، حسن المقاصد ، انتهى المقصود منه .

أبو محمد
عبد الله بن
جزى الكلبي

(١) عفت : كرهت ، وأصله أن ترد الماء فتراه آجناً فتكرهه أن تشربه ، والمورد

ومن أخذ عنه العباس البقنى شارح البردة ، والقاضى أبو بكر بن عاصم ،
وبالإجازة الإمام ابن مرزوق الحفيد ، وغيرهم .

وقد عرّف ابن فرحون فى « الديباج المذهب » بأبيه الشهيد أبى القاسم
وأخيه القاضى أبى بكر دونه ، وعرّف ابن الخطيب فى « الإحاطة » بأبيه وأخويه
أبى بكر وأبى عبد الله ، وفيما ذكرنا من أمرهم كفاية .

وما نسبته الوادى آشئ لأبى محمد عبد الله بن جزى قوله :

يا من أتانى بعده بعدما عاملته بالبر والالطف
إنى تأملت وقد سرنى بجملة من سورة الكهف

وله أيضا :

لقد قطعت قلبى يا خليلى بهجر طال منك على العليل
ولكن ما عجيب منك هذا إذ التقطع من شأن الخليل^(١)

رجع إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى .

ومنهم القاضى الأديب جملة الظرف أبو بكر ابن شيرين .

أبو بكر ابن
شيرين

وقد استوفى ترجمته فى « الإحاطة » وذكره أيضا فى ترجمة ذى الوزارتين
ابن الحكيم بأن قال بعد حكايته قتل ابن الحكيم ما صورته : ومن رثاه شيخنا
أبو بكر بن شيرين رحمه الله تعالى بقوله :

سقى الله اشلاء كرمُنَّ على البلا وما غص من مقدارها حادث البلا
ومما شجانى أن أهين مكانها وأهل قدر ما عهدناه مهملا
ألا أصنع بها يادهر ما أنت صانع فما كنت إلا عبدها المتذللا
سفكت دما كان الرقوء نواله لقد جثما شنعاء فاضحة الملا

(١) التقطيع : أراد منه ههنا تقطيع قلبه بالهجر ، وورى بتقطيع الشعر حسب
اصطلاح العرويين ، وهو من وضع الخليل بن أحمد الفراهيدى شيخ النحاة .

بكفى سبت أزرق العين مطرق
لنعم قتيل القوم في يوم عيده
ألا إن يوم ابن الحكيم لمشكل
فقدناه في يوم أغر محجل
سمت نحوه الأيام وهو عميدها
تعاورت الأسياف منه مدحا
وخاتته رجل في الطواف به سعت
وجُدِّل لم يحضره في الحى ناصر
يد الله في ذاك الأديم ممزقا
ومن حزنى أن لست أعرف مَلَحدا
رويدك يا من قد غدا شامتابه
وكنا نغادى أو نراوح بابيه
ذكرناه يوما فاستهلت جفوننا
ومازج منه الحزن طول اعتبارنا
وهاج لنا شجوا تذكُر مجلس
به كانت الدنيا تؤخر مدبرا
لتبك عيون الباقيات على فتي
على خادم الآثار تقلى صحائفها
على عضد الملك الذى قد تضوعت
على قاسم الأموال فينا على الذى

عدا فعدا في غيه متوغلا
قتيل تُبَكِّيه المسكارم والعالا
فؤادى، فما ينفك ماعشت مشكلا
ففى الحشر نلقاه أغر محجلا
فلم تشكر النعمى ولم تحفظ الولا
كرىما سما فوق السما كين مرجلا
فناء بصدر للعلوم تحملا
فمن مبلغ الأحياء أن مهلهلا^(١)
تُبَارِكُ ما هبت جنوبا وشمالا
له فأرى للترب منه مقبلا
فبالأمس ما كان العباد المؤملا
وقد ظل فى أوج العلا مُتَوَقِّلا
بدمع إذا ما أحمل العام أخضلا
ولم ندر ما ذا منهما كان أطولا
له كان يهدى الحى والملا الألى
من الناس حتما أو تقدم مقبلا
كريم إذا ما أسبع العرف أجزلا
على حامل القرآن يتلى مفصلا
مكارمه فى الأرض مسكا ومندلا
وضعنا لديه كل إصر على عللا

(١) أشار إلى ما يروى فى قصة عن مهلهل بن ربيعة :

من مبلغ الحيين أن مهلهلا
أضحى قتيلا فى الفلاة مجدلا
لا يبرج العبدان حتى يقتلا
لله در كما ودر أيسكا

وأنى لنا من بعده متعلل
ألا يا قصير العمر يا كامل العلا
يسوء المصلّى أن هلكت ولم تقم
وذاك لأن الأمر فيه شهادة
فيا أيها الميت الكريم الذى قضى
لتهتك من رب السماء شهادة
رثيتك عن حبثوى فى جوانحي
ويا ربّ من أوليته منك نعمة
تناساك حتى ما تمرّ بباله
يرابض فى مشواك كل عشة
لحى الله من ينسى الأذمة رافضاً
حنانيك يا بدر الهدى فلشدّ ما
وكنت لآمالى حياة هنيئة
فلا وأبيك الخير ما أنا بالذى
فأنت الذى آويتنى متغرباً
فأليت لا ينفك قلبى مكداً
وما كان فى حاجتنا متعللاً
يمينا لقد غادرت حزناً مؤثلاً
عليك صلاة فيه يشهد بها الملا
وستتها محفوظة لن تبدلاً
سعيداً حميداً فاضلاً ومفضلاً
تلاقى يبشرى وجهك المتهللاً
فما ودع القلب العميد وما قلا
وكنت له ذخراً عتيداً وموثلاً
ولم يدّكر ذاك الندى والتفضلاً
صفيف شواء أو قديراً معجلاً^(١)
ويذهلُ مهما أصبح الأمر مشكلاً
تركت بدور الأفق بعدك أفلاً
فغادرت منى اليوم قلباً مقتلاً
على البعد ينسى من ذمامك ما خلا
وأنت الذى أكرمتنى متطفلاً
عليك ولا ينفك دمعى مُسبلاً

وكتب ابن لسان على هامش هذه القطعة ماصورته : شكر الله وفاءك يا ابن شيرين !
وقدس لحدك ! وأين مثلك فى الدنيا حسناً ووفاء وعلماً ؟ لا كما صنع ابن زمرّك
فى ابن الخطيب مخدومه ، قاله على بن الخطيب ، انتهى .

ومن أشياخ لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ الأستاذ العلامة

(١) أخذ عجز هذا البيت من قول امرئ القيس بن حجر السكندى فى معلقته :

فظل طهاة اللحم من بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل

أبو عثمان سعد العلم الأوحّد الصّدّر المصنّف المحدث الأفضل الأصلح الأورع الأتقى الأكمل
 ابن أحمد بن أبو عثمان سعد ابن الشيخ الصالح التقى الفاضل المبرور المرحوم أبى جعفر أحمد
 ليون ، التجيبي ، ابن ليون ، التجيبي ، رضى الله تعالى عنه ! وهو من أكابر الأئمة الذين أفرغوا
 جهدهم فى الزهد والعلم والنصح ، وله تواليف مشهورة ، منها اختصار بهجة المجالس
 لابن عبد البر ، واختصار المرتبة العليا لابن راشد القفصى ، وكتاب فى الهندسة ،
 وكتاب فى الفلاحة ، وكتاب « كمال الحافظ ، وجمال اللافظ ، فى الحكم والوصايا
 والمواظ » وكان مولعاً باختصار الكتب ، وتواليفه تزيد على المائة فيما يذكر ،
 وقد وقفت منها بالمغرب على أكثر من عشرين .

ومما حكى عن بعض كبراء المغرب أنه رأى رجلاً طوّالاً فقال لمن حضره :
 لوراه ابن ليون لاختصره ، إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب .

ومن تواليفه كتاب « نفح السحر ، فى اختصار روح الشحر وروح الشعر »
 لابن الجلاب الفهرى ، رحمه الله ! ومنها كتاب « أنداء الديم ، فى الوصايا والمواظ
 والحكم » وكتاب « الأبيات المهذبة ، فى المعانى القربة » وكتاب « نصائح
 الأحباب ، وصحائح الآداب » أورد فيه مائتى قطعة من شعره تتضمن نصائح
 متنوعة ، ولنفتح منها نبذة فنقول : منها فى التحريض على العلم قوله رحمه الله تعالى :

زاحِمٌ أُولَى العِلمِ حتّى تعتدّ منهم حقيقة
 ولا يردك عجز عن أخذ أعلى طريقه
 فإن من جدّ يعطى فيما يحب لحوقه

وقوله :

شفاء داء العى حسنُ السؤال فاسأل تفلّ علماً وقل لا تبال (١)

(١) صدر هذا البيت من مثل ، وهو قولهم « شفاء العى السؤال » وأرادوا
 بالعى الجهل ؛ لأنه يحبس اللسان عن النطق .

واطلب فالاستحياء والكبر من موانع العلم فما إن ينال وقوله :

(علمت شيئاً وغابت عنك أشياء) فانظر وحقّقْ فما للعلم إحصاء (١)
 للعلم قسمان ما تدري وقولك لا أدري ومن يدعى الإحصاء هذّاء
 وقوله :

من لم يكن علمه في صدره نشبت يده عند السؤالات التي ترد
 العلم ما أنت في الحمام تحضره وما سوى ذلك التكليف والكبد
 وقوله :

الدرس رأس العلم فاحرص عليه فكل ذي علم فقير إليه
 من ضيّعَ الدرس يرى هاذيا عند اعتبار الناس ما في يديه
 فعزة العلم من حفظه كعزة المنفق فيما عليه
 وقال رحمه الله تعالى في غير ما سبق :

ثلاث مهلكات لا محالة هوى نفس يقود إلى البطالة
 وشح لا يزال يطّاع دأبا وعُجب ظاهر في كل حاله
 وقال :

اللهو منقصة بصاحبه فاحذر مذلة مؤثر اللهو
 واللغو نزّه عنه سمعك لا تجنح له ، لا خير في اللغو

وقال :

لا تمالي على صديقك وادراً عنه ما اسطعت من أذى واهتمضام
 ما تناسى الذمّام قط كريم كيف ينسى الكريم رَغَى الذمّام

(١) صدر هذا البيت من قول أبي نواس الحسن بن هاني :

فقل لمن يدعى في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

تطعم الكلب مرة فيحامي عنك ، والكلب في عداد اللئام
وقال :

أحذر مؤاخاة الدنيء فإنها عاريشين ويورث النضريرا
فالماء يخبث طعمه لفجاسة إن خالطته ويسلب التطهيرا

وقال :

تحفظ من الناس تسلم ولا تكن في تقرُّ بهم ترغب
ولا تترك الحزم في كل ما تريد ، ولا تبغ ما يصعب

وقال :

إخوانك اليوم إخوان الضرورة لا تشق بهم يا أخى في قول أو فعل
لاخير في الأخ إلا أن يكون إذا عرَّتك نائبة يقيق أو يسلى^(١)

وقال :

طلب الإنصاف من قلة إنصاف فساأل
لأنفاس وتغافل فالليب المتغافل
قلما يحظى أخو الإنصاف في وقت بطائل

وقال :

من خافه الناس عظموه وأظهروا بره وشكره
ومن يكن فاضلا حلما فإنما حظه المضره
فأمرر وكن صارما مبيرا يهبك من قد تخاف شره

وقال :

إن تبغ عدلا فامرضى لنفسك من قول وفعل به أعمل في الورى تسد

(١) عرَّتك : نزلت بك ، والنائبة : النازلة من نوازل الدهر ، ويقيقك : يحفظك ويحول بين النازلة وبينك ، ويسلى : يبعث السلوان والنسيان إلى نفسك .

وكل ما ليس ترضاه لنفسك لا تفعله مع أحد تكن أخارشد^(١)
وقال :

حسبي الله لقد ضللت بنا عن سبيل الرشدا هواء النفوس
عجبا أن الهوى هون وأن نؤثر الهون وإذلال الرأس

وقال :

من يخف شره يؤف الكرامه ويوالى الرعاية المستدامه
وأخو الفضل والعفاف غريب يحمل الذل والجفا والملامه

وقال :

دع من يسيء بك الظنون ولا تحفل به إن كنت ذا هم
من لم يحسن ظنه أبدا بك أطرحه تكتفى هم

وقال :

نزه لسانك عن قول تعاب به وارغب بسمعك عن قيل وعن قال
لا تبغ غير الذى يعينك واطرح الفضول تحيا قير العين والبال

وقال :

كثرة الأصدقاء كثرة غرم وعتاب يُعني وإدخال هم
فاغن بالبعض قانعا وتغافل عنهم فى قبيح فعل وذم

وقال :

ذل المعاصى ميسرة يالها من ميسرة لا ينقضى عارها
عز التقى هو الحياة التى ذو العقل والهمة يختارها

وقال :

(١) هذا البيت من قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

لا تُسَمِّعْ يوماً صديقَكَ قولاً فيه غُضٌّ مِمَّنْ يَحِبُّ الصديقُ^(١)
 إن بر الصديق لا شك منه لصديق الصديق أيضاً فريق

وقال :

للجار حق فاعتمد به واحمل أذاه مغضياً سائراً
 فالله قد وَصَّى به فاغفر زَلَّ اللهُ الباطن والظاهر

وقال :

سالم الناس ما استطعت ودارى أخسر الناس أحق لا يدارى
 ضرك الناس ضرَّ نفسك يَحْنِي لا يقوم الدخان إلا لنار

وقال :

النصح عند الناس ذنب فدَعُ نصح الذى تخاف أن يهجرَكَ
 الناس أعداء لنصائحهم فترك هُدَيْتِ النصح فيمن ترك

وقال :

تجرى الأمور على الذى قد قدرا ما حيلة أبداً ترد مُقَدَّراً
 فارض الذى يجرى القضاء به ولا تضجر فمن عدم الرضا أن تضجرا

وقال :

أخوك الذى يحميك فى الغيب جاهداً ويستر ما تاتى من سوء والقبح
 وينشر ما يرضيك فى الناس معلناً ويفضى ولا يألومن البر والنصح

وقال :

لا تصحب الأردى فتردى معه وربما قد تقتفى منزعه
 فالجلب إن يُجَرِّز على صخرة أبدى بهاطر يقه مُشْرِعاً

(١) يريد لا ينبغي لك أن تقول أمام أحد أصدقاؤك شيئاً مكروهاً فى حق أحد أصدقاء صديقك ، فإن من علامة صدق الصديق فى صداقته أن يكون لصديق صديقه محباً .

وقال :

ما فات أو كان لا تندم عليه فما
ارجع إلى الصبر تغم أجره وعسى
يفيد بعد انقضاء الحادث الندم
تسلوبه فهو مسألة ومغتنم

وقال :

السخط عند النائبات زيادة
من لم يكن يرضى بما يقضى فيا
في الكرب تنسى ما يكون من الفرج
لله ما أشتى وأصعب ما انتزع (١)

وقال :

إن تبغ الإخوان ما إن تجد
فلا تهنهما وعز زهما
أخا سوى الدينار والدرهم
تعش عزيزاً غير مستهضم

وقال :

من يستعن بصديقه
بر الصديق مهابة
يعن العدو على أذاته
للمرء تحمل من عداته
فاحفظ صديقك ولتكن
تبدي المحاسن من صفاته

وقال :

نعوذ بالله من شر اللسان كما
يجنى اللسان على الإنسان ميته
نعوذ بالله من شر البريات
كم للسان من آفات وزلات

وقال :

من لم يكن مقصده مدحة
حبة المدح رقة بلا
فقد أتى بجبوحة العافيه
عتق وذل ياله داهيه
من لا يبالي الناس مدحا ولا
ذما أصاب العيشة الراضيه

(١) انتهج : سلك ، والنهج — بفتح فسكون — الطريق .

وقال :

شر إخوانك مَنْ لا تهتدى فيه سبيلا
يظهر الود ويخفى مَكْرُهُ دَاءٌ دَخِيلًا^(١)
يتقى منك اتقاء وهو يُؤْلِكَ الجميلا

وقال :

قَوِّمُ العيش بالتدبير فاجعل لعيشك منه في الأيام قسطا
وخذ بالصبر نفسك فهو عز تلوذ به إذا ما الخطب شطا^(٢)

وقال :

العيش ثلث فطنة والغير منه تغافل
فتغافل أن كنت امرأ إِيَّارَ عيشك تأمل

وقال :

ينفذ المقدور حتما لا يرد فعلام الحرص دأبا والسكمد
أرح النفس تعش في غبطة وِكلِ الأمر إلى الله فقد

وقال :

زر من تحب وزره ثم زره ولا تملّ واجعله دأبا موضع النظر
لولا متابعة الأنفاس ما بقيت روح الحياة ولا دامت مدى العمر

وقال :

لا تترك الحزم في شيء فإن به تمام أمرك في الدنيا وفي الدين
من ضيّع الحزم تصحبه الندامة في أيامه ويرى ذل المهاوين

(١) داء دخيلا : خافيا في دخيلة نفسه كالخقد والحسد ونحوهما ، نعوذ بالله !

(٢) تلوذ به : تلجأ إليه وتعتمد عليه ، والخطب : الحادث العظيم ، وشط :

جاوز الحد .

وقال :

كن إذا زرت حاضر القلب واحذر أن تملّ المزور أو أن تطيلا (١)
لا تثقل على جليس وخفف إن من خفّ عُدَّ شخصاً نبيلاً

وقال :

من خلا عن حاسد قد مات في الأحياء ذكره
إنما الحاسد كالنا ر لعود طاب نشره (٢)
لا عدمنّا حاسداً في نعمة ليست تسره

وقال :

حبيبك من يغار إذا زللتا ويُغليظُ في الكلام متى أسأتا
يُسّر إن اتّصفت بكل فضل ويحزن إن نقصت أو انتقصتا
ومن لا يكثر بك لا يبالي أجدت عن الصواب أم اعتدلتا

وقال :

لنّ لمن تخشى أذاه وألقه في باب داره
إنما الدنيا مدارا ة فمن تخشاه دَارِه

وقال :

حسدُ الحاسد رَحْمَة لا يرى إلا لنعمة
إنما الحاسد يشكو حرأ كباد وغمه
لا عدمنّا حاسداً في نعمة تُكثر همه

وقال :

تبديل شخص بشخص خسران الأثنين جُملة

(١) تملّ : تبعث إلى نفسه الملل والسآمة ، والمزور : اسم المفعول من الزيارة .

(٢) يشير إلى قول أبي تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أناح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

فاشدد يديك على من عرفت ، وارفع محله
فإن قطع خليل بعد التواصل — ل زله

وقال :

أنت بخير ما تركت الظهور والقال والقييل وطرق الشرور
من خاض بجرأ فهو لابد يبتل ومن يجز يصبه العثور
س — لامة المرء اشتغال بما يهيمه لنفسه من أمور

وقال :

أنت حرما تركت الطمعا وعزيز ما تبعت الورعا
وكنى بالعز مع حرية شرفا يختاره من قنعا

وقال :

خل بُنَيَاتِ الطرق ووافق الناس تَفَقُّ (١)
من خالف الناس أنى أعظم أبواب الحُمُق (٢)
فكن مع الناس فتر لك جملة الناس خرق

وقال :

لا تَصِقْ صدراً بحاسد فهو في نار يكابد
من يرى أنك خير منه تعرّوه شدائد
إنما الحاسد يَشَقَى وهو لا يحظى بعائد

وقال :

من يستمع في صديق قول ذي حسد لا شك يُقصيه فاحذر غيلة الحسد
يهابك الناس ما تدنى الصديق فإن أقصيته زدت للأعداء في العدد

(١) بُنَيَاتِ الطريق : أصلها الطرق الصغيرة تنشعب من الجادة ، ويراد بها
صغائر الأمور .

(٢) الحُمُق ، والخرق في البيت الآتي : أصلهما بضم أولهما وسكون ثانيهما ،
ولكنه ضم الثاني في كل منهما إتباعاً للأول

وقال :

كم من أخ صحبته والنفس عنه راغبه
خشيت إن فارقت بالهجر سوء العاقبه

وقال :

إذا كانت عيوبك عند نقد تعدُّ فانت أجدر بالكمال^(١)
متى سلمت من النقد البرايا وحسبك ما تشاهد في الهلال

وقال :

إذا انطوت القلوب على فساد فإن الصمت ستر أى ستر
فلا تنطق وقلبك فيه شيء بغير الحق واحذر قول شر

وقال :

إن كنت لا تنصر الصديق فدع سماعك القول فيه واجتنب
سماع عرض الصديق منقصة^٢ لا يرتضيها الكريم ذو الحسب

وقال :

أنت في الناس تقاس بالذى اخترت خليلا
فأصحب الأخيار تلو وتنل ذكراً جميلا
صحبة الخامل تكسو من يواخيه خمولا

وقال :

اسمح يزك السماع إن السماع رباح
لا تلق إلا يبشر فالبشر فيه النجاح
تقطيبك الوجه جد أجل منه المزاح

(١) أخذ هذا من قول الشاعر ، ومن الناس من ينسبه لبشار :
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال :

من كنت تعرفه كن فيه مثيلاً يكفيك من خلقه ما أنت تعرفه
لا تبغ من أحد عرفته أبداً غير الذي كنت منه قبل تألفه

وقال :

حاسب حبيبك كالعدو تدّم له منك المحبة فالتناصف روحها
من كان يغمض في حقوق صديقه نقصت مودته وشيب صريحها

وقال :

تغافل في الأمور ولا تناقش فيقطعك القريب وذو المودة
مناقشة الفتى تجنى عليه وتبدله من الراحات شده

وقال :

إن شئت تعرف نعمة الله التي أولاك فانظر كل من هودونكا
لا تنظر الأعلى فتنسى ما لديك ومن من الضعفاء يستجدونكا

وقال :

عجباً أن ترى قبيح سواكا وتعادى الذي يرى منك ذاكا
لو تناصفت كنت تنكر ما فيك وترضى الوصاة ممن نهاكا

وقال :

جرب الناس ما استطعت تجدهم لا يرى الشخص منهم غير نفسه
فالسعيد السعيد من أخذ العفو ودارى جميع أبناء جنسه

وقال :

فرط حب الشيء يعنى ويضم فليكن حبك قصداً لا يضم^(١)

(١) يضم في الشطر الأول من الصمم وهو ضد السمع ، و « يضم » في الشطر الثاني : مضارع « وصمه وصما » إذا ألصق به العيب ، وأخذ صدر البيت من قولهم في مثل « حبك الشيء يعنى ويضم »

نقص عقل أن يُعطَى حَسَّكَ الحُبُّ أو يلهيك عن أمرهم

وقال :

سلم و غُضَّ احتسابا فذا هو اليومَ أسلم
النقد نار تجلَّى في القلب جرا تضرم
فاطوا اعتراضك واغفل عن عيب غيرك تسلم

وقال :

عِدَّةُ الكريم عطية لا مطلق في عدة الكريم (١)
المطل تحريض العدا ة ، وذلك من فعل اللئيم
فدع المطال إذا وعدت فإنه عمل ذميم

وقال :

من تناسى ذنوبه قتلته وأبانت عنه الولي الحميا (٢)
ذكرك الذنب نفرة عنه تبقى لك إنكار فعله مستديما

وقال :

عجبا لمادح نفسه لا يهتدى لتتقصَّ يُبديهِ فيه مدحها
مدحُ التقي عند التحدث نفسه ذكرى معايبه فيذكرى قبحها

وقال :

من حسنت أخلاقه عاش في نعمى وفي عز هنىء وود
ومن تسوَّء للخلق أخلاقه يعيش حقيرا في هموم وكد

وقال :

من كان يحمى ناسه صار ذا عز وهابته نفوس البشر

(١) المطل - بالفتح - مصدر من مصادر « مطل المدين دأته » إذا سوف في

(٢) أبانت : أبعدت ، والولي : الموالى لك

أداء دينه ولواه به

ومن يكن يخذل أحبابه هان ، ومن هان فلا يعتبر

وقال :

قارب وسدد إذا ما كنت في عمل إن الزيادة في الأعمال نقصان
ما خالف القصد في كل الأمور هوى نفس ، وكل هوى شؤم وحرمان

وقال :

بقدر همته يعلو الفتى أبداً لا خير في حامل الهبات متمن
هيئات يعلو فتى خمول همته يقوده لا بتذال النفس والمهن

وقال :

اصحب ذوى الحدة وارغب عن الخبيث فالصحبة ذا داؤها
وانظر إلى قول نبي الهدى «خيار أمتي أحيداًؤها»^(١)

قال :

ما صديق الإنسان في كل حال يا أخى غير درهم يقتنيه
لا تُعوّل على سواه فتغدو خائب القصد دون ما تبتغيه

وقال :

يستفز الهوى للإنسان حتى لا يرى غير محنة أو ضلال
ويرى الرشد غير رشد ، ويغدو بحسب الحق من ضروب الحال

وقال :

لا تبالغ في الشر مهما استطعتا وتغافل واحلم إذا ما قدرنا
فانقلاب الأمور أسرع شيء وتجازى بضعف ما قد صنعتا

(١) الأحداء : جمع حديد ، ويقال « رجل حديد » إذا كان حاداً في السن

وقال :

مَثَلُ عَوَاقِبِ مَا تَأْتِي وَمَا تَذُرُ واحذر فقد ترتجى أن ينفع الحذر^(١)
لَا تُقَدِّمَنَّ عَلَى أَمْرٍ بِلَا نَظَرٍ فَإِنَّ ذَلِكَ فَعْلٌ كُلُّهُ خَطَرٌ
وَانْظُرْ وَفَكِّرْ لِمَا تَرْجُو تَوَقُّعُهُ فعمدة العاقل التفكير والنظر

وقال :

حَافِظٌ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ كُلِّ مَا يشينها من خلل أو زلل
وَاحِرْصٌ عَلَى تَخْلِيصِهَا بِالذِّى تنجو به من قول أو من عمل

وقال :

سَكْرُ الْوَلَايَةِ مَا لَهُ صَحْوٌ وكلامها وحراكها زهو^(٢)
يَهْدِي الْفَتَى أَيَّامَ عَزَّتْهَا فإذا تقضت نابه شجؤ^(٣)
فَخَذَارَ لَا تَعْرُكُ صَوْلَتَهَا وزمانها قسوتها محو

وقال :

دَعِ الْجِدَالَ وَلَا تَحْفَلْ بِهِ أَبَدًا فإنه سبب للبغض ما وجدا
سَلِّمْ تَعِشْ سَلَامًا مِنْ كُلِّ مَتْعَبَةٍ قَرِيرَ عَيْنٍ إِذَا لَمْ تَعْتَرِضْ أَحَدًا

وقال :

إِذَا تَرَى الْمُبْتَلى اشْكُرْ أَنْ نَجَّوْتَ وَلَا تَشَمِتْ بِهِ وَلِتَسَلِّ مِنْ رَبِّكَ الْعَافِيَه
وَحُفْ مِنْ أَنْ تَبْتَلى كَمَا ابْتَلى فِتْرَى كما تراه وما تقيك من واقبه

وقال :

الْعَمْرُ سَاعَاتٌ تَقْضَى فَلَا تقضيه في السهو والغفله
وَاعْمَلْ لِمَا أَنْتَ لَهُ صَائِرٌ ما دمت من عمرك في مهله

(١) تذر : ترك ، وليس له ماض مستعمل

(٢) زهو : خلاء وكبر

(٣) نابه : نزل به واعترافه ، والشجو : الحزن

ولا تكن تأوى لدنيا وقل لا بدّ لا بدّ من النقلة

وقال :

كن رفيقا إذا قدرت حلما لا تظنّ الزمان يبقى على من
وتغافل تسلك طريقا قويا سره أن ينيل عزاً سليما
إن للدهر صولة وانقلابا ولهذا نعيمه لن يدوما

وقال :

من لم يكن ينفع في الشدة فلا تكن معتمدا وده
لا تعتمد إلا أبا حرمة إن ناب خطب تُلغى عده (١)
وخل من يهزأ في وده ولا ترى في معضل جده

وقال :

أخوك الذي تلفيه في كل معضل يدافع عنك سوء بالمال والعرض
ويستر ما تأتى من القبح دائماً وينشر ما يرضى وإن سؤته يغضى (٢)

وقال :

لا تنه عما أنت فاعله وانظر لما تأتیه من ذنب
وابداً بنفسك فأنهها فإذا تقفوا الصواب فأنت ذولب (٣)

وقال :

ليس الصديق الذى يلقاك مبتسما ولا الذى فى التهاى بالسرور يرى
إن الصديق الذى يولى نصيحته وإن عرّت شدة أغنى بما قدرا

وقال :

عجبا مستوف منافع نفسه ويرى منافع من سواه تصعب

(١) تلفه : تجده ، والعدة - بالضم - ما تعدّه للنوائب والمعضلات

(٢) يغضى : مضارع «أغضى فلان عن الأمر» أى أغمض عينيه عنه وكأنه لا يراه

(٣) أخذ هذا من قول أبى الأسود الدؤلى :

ابداً بنفسك فأنهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

ما ذاك إلا عدم إنصاف ومن
عدم التقناصف كيف يرجو يصحب
وقال :

مَنْ عَدِمَ الْهَمَّةَ فِي رَاحَةٍ مِنْ أَمْرِهِ يَكْرَمُ أَوْ يَهْتَضِمُ
وَأَمَّا يَشْقَى أَخُو هَمَّةٍ فَإِنَّ الْأُنْكَادَ بِقَدْرِ الْهَمِّ
وقال :

قَلْبًا تَنْفَعُ الْمَدَارَاةَ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ الْخِفَافِ وَالْأَحْسَابِ (١)
مَنْ يُدَارِي اللَّيْمَ فَهُوَ كَمَنْ يَسْتَعْمَلُ الدَّرَّ فِي نَحْوِ الْكَلَابِ
وقال :

دُنْيَاكَ هَذِي عَرَضٌ زَائِلٌ تَغْتَنِّي ذَا الْغَرَّةِ وَالْغَفْلَةِ
فَاعْمَلْ لِأَخْرَاكَ وَقَدِّمْ لَهَا مَا دَمَتْ مِنْ عَمْرِكَ فِي مَهْلَةٍ
وقال :

نَصِيحَةُ الصَّدِيقِ كَنْزٌ فَلَا تَرُدُّ مَا حَيَّتْ نَصَحَ الصَّدِيقِ
وَاخْذْ مِنَ الْأُمُورِ مَا يَنْبَغِي وَدَعْ مِنَ الْأُمُورِ مَا لَا يَلِيْقُ
وقال :

أَنْتَ حَرٌّ مَا لَمْ يَقِيدِكَ حُبٌّ أَوْ تَكُنْ فِي الْوَرَى يُرَى لَكَ ذَنْبٌ
الْهَوَى كُلُّهُ هَوَاؤٌ وَشَغْلٌ وَالْمَعَاصِي ذُلٌّ يُعَانِي وَكَرْبٌ
وقال :

هَوْنٌ عَلَيْكَ الْأُمُورَا تَعِشْ هَنِئًا قَرِيرًا (٢)
وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّيَالِي تَبْلَى جَدِيدًا خَطِيرًا
وَتَسْتَبِيحُ عَظِيمًا وَلَا تَجْبِرُ حَقِيرًا

(١) الحفاظ - بكسر الحاء - المحافظة والذب عن المحارم

(٢) قريرا : رضى البال ناعم العين

وقال :

ألف صديق قليل والود منهم جميل
كأعدو كثير إذ ضره لا يزول
فلا تُصَيِّعْ صديقا فالنفع فيه جليل

وقال :

دع الحسود تعاتبه لظى حسده حتى تراه لَقَى يموت من كده (١)
مال الحسود سوى الإعراض عنه وأن يبقى إلى كربه في يومه وغده

وقال :

الناس حيث يكون الجاه والمال فخل عنك ولا تحفل بما قالوا
وعَدَّ عن يقول العلم قصدهم أو الصلاح أما تبدوله الحال
انظر لماذا هم يسعون جهدهم بين لك الحق لا يعرفه إشكال

وقال :

توسط في الأمور ولا تجاوز إلى الغايات فالغايات غيُّ
كلا الطرفين مذموم إذا ما نظرت وأخذك المذموم عيُّ

وقال :

عامل جميع الناس بالحسنى إن شئت أن تحظى وأن تهنا
ولا تسيء يوما إلى أحد فتجمع الراحة والأمنّا

وقال :

لا تفكر فللأمور مدبرٌ وأرض ما يفعل المهيمن واصبر
أنت عبد وحكم مولاك يجري بالذي قد قضى عليك وقدر

(١) لقي - بفتح اللام مقصورا بزنة فقي - ملقى مهملا لا حافظ له

وقال :

إذا رأيت القبيحا فقل كلاما مليحا
وأغض واستر وسلم وكن حليما صفوحا
تعش هنيئًا وتلق برا وشكرا صريحا

وقال :

من ينكر الإحسان لا توله ما عشت إحسانا فلا خير فيه
البذر في السباخ ما إن له نفع فذرهُ فهو فعل السفينه

وقال :

من لم يكن ينفع في وده دعه ولا تقم على عهدِه
وُدُّ بلا نفع عناء فلا تعن بشيء حاد عن حده

وقال :

دُر مع الدهر كيفما دار إن شئت تصحبه
ودع الحذق جانبا ليس بالحذق تقلبه
وحذار انقلابه فكثير تقلبه

وقال :

من ليس يغنى في مغيب عنك لا تحفل به فوداده مدخول^(١)
يثنى عليك وأنت معه حاضر فإذا تغيب يكون عنك يميل

وقال :

دع نصيح من يعجبه رأيه ومن يرى ينجحه سعيه
النصح إرشاد فلا توله إلا فتى يحزنه غيه

(١) مدخول : فيه دخل ، وهو الفساد

لا يقبل النصح سوى مهتد يقوده لرشده هديه

وقال :

البخت أفضل ما يُؤْتَى الفتي فإذا يفوته البخت لا ينفك يتضع^(١)
يكفيك في البخت تيسير الأمور وأن يكون ما ليس ترضى عنك يندفع

وقال :

افعل الخير ما استطعت ففعل الخير ذكر لفاعليه وذخر
وتواضع تنل علاء وعزا فاتضاع النفوس عز وغر

وقال :

صديق المرء درهمه به مادام يُعْظِمُهُ
فصنه ما استطعت ولا تكن في اللهو تعدمه
ففقر المرء ميته لذا تغدو فقره

وقال :

لا تقرب ما استطعت حل عدو تخليل العدو حلفُ عداوه
وتحفظ منه وداريه وانظر هل ترى من سياه إلا القساوه^(٢)

وقال :

لا تعد ذكر ما مضى فهو أمر قد تقضى وقد مضى لسبيله
وتكلم فيما تريد من الآتى ودبر للشيء قبل حلوله

وقال :

قساوة المرء من شقائه فإذا يلين ساد بلا أين ولا نصب
لا يرحم الله إلا الراحين ، فمن يرحم ينل رحمة في كل منقلب

(١) البخت : الحظ ، ويؤتى الفتي : يمنح ويوهب

(٢) « وداريه » هكذا ، ومن حق العربية أن يقول « وداره » بحذف الياء كما تقول : قاضه ، وناجه ، وما أشبه ذلك

وقال :

جىء بالسماح إذا ما جئت في غرض ففي العبوس لدى الحاجات تصعيب
سماحة المرء تنبى عن فضيلته فلا يكن منك مما اسطعت تقطيب^(١)

وقال :

لا تسامح يوما دنييا إذا ما قل في فاضل كلاما رديا
إن قصد الدنى إنزال أهل الفضل حتى يرى عليهم عليا

وقال :

خذ من القول بعضه فهو أولى وتحفظ مما يقول العسيدة
ربما تأخذ الكلام بجد وهو هزل قد تمتعه عداة
فاحترز من غرور الأقوال واعلم أن الأقوال بعضها كذبات

وقال :

نافس الأخيار كما تحرز المجد الأثيلا
لا تكن مثل سَرَّابٍ رىء لم يشف غليلا^(٢) رىء لم يشف غليلا^(٢)
إنما أنت حديث فلتكن ذكرا جميلا

وقال :

الصمت عز حاضر وسلامة من كل شر
فإذا نطقت فلا تُكسِّر واجتنب قول الهذر فكسِّر واجتنب قول الهذر
وحذار مما يُتَّقَى وحذار من طرق الفرر

وقال :

سلامة الإنسان في وحدته وأنسه فيها وفي حرفته

(١) تنبى : أصله تنبىء - بالهمز - فقلب الهمزة ياء لكسر ما قبلها، ومعناه تخبر

(٢) رىء : أصله « رنى » فقدم الياء التي هي لام الكلمة على الهمزة التي هي عينها ثم عامله معاملة « قيل » و « بيع » وشبههما

ما بقى اليوم صديق ولا من ترتجى النصره فى صحبتہ
فقرّ فى بيتك تسلم ودّع من ابتلى بالناس فى محنتہ
وقال :

مطاوله النساء إلى الندامه وتوقع فى المهانة والغرامه
فلا تطع الهوى فيهن واعدل فى العدل الترضى والسلامه
وقال :

كانت مشاوره الإخوان فى زمن قول المشاور فيهم غير متهم
والآن قد يخذع الذى تشاوره أشماتا أو حسدا يقلبك فى الندم
فاضرع إلى الله فيما أنت تقصده يهديك للرشد فى الأفعال والكلم
وقال :

عدّ عمن يراك تصغر عنه وتحفظ من قربه وأبنه (١)
إن من لا يراك فى الناس خيراً منه فاخير فى التحفظ منه
وقال :

رزانه المرء تعلّى قدره أبدا وطيشه مسقط له وإن شرفا
فار بأبنفسك من طيش تعاب به وإن تكن حزت معهُ العلم والشرفا
وقال :

الصدق عز فلا تعدل عن الصدق واحذر من الكذب المذموم فى الخلق
من لازم الصدق هابته الورى وعلا فالزمه دأبا تفز بالعرز والسبق
وقال :

ليس التفضل يا أخى أن تحسنا لأن يجازى بالجميل من الثنا

(١) عد عنه : تجاوزه ولا تركن إليه ، ومثله قول الشاعر :

إذا ما تيمى أذاك مفاخره فقل عد عن ذا ، كيف أكل للضب

إن الفضل أن تجازى من أسأ لك بالجميل وأنت عنه في غنى
وقال :

من واصل اللذات لا بد أن تعقبه منها النـدامات
فخذ من اللذات واترك ولا تسرف في الإسراف آفات
وقال :

دع معجبا بنفسه في غيه ولبسه
لا يقبل النصيح لها من نخوة برأسه
فخله نكيده وعجبه بنفسه

وقال :

عتب الصديق دلالة منه على صدق المودة^(١)
فإذا يقول فقصدته التنزيه عما قام عنده
فاحلم إذا عتب الصديق ولا تخيب فيك قصده

وقال :

تُرْتَجَى في النوائب الإخوان هم لدى كل شدة أعوان
فإذا لم يشـاركوا فسواء هم وألأعداء كيفما قد كانوا

وقال :

انصر أخاك على علاته أبدا تهب وتسلك سبيل العز والظفر
ولا تدعه إلى الإثمتا مطرحا فإن ذلك عين الذل والصغر

وقال :

من عز كانت له الأيام خادمة تـريه آماله في كل ماحين

(١) أصل هذه الأبيات قول الشاعر :

إذا ذهب العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقى العتاب

ومن يهن أولغت فيه المدى وأرت له التوائب في أثوابها الجون^(١)
وقال :

خل المنجم يهْدِي في غوايته واقصد إلى الله رب النجم والفلك
لو كان للنجم حكم لم تجد أحدا يخالف النجم إلا أنهد في درك
وقال :

حماية المرء لمن يصحب تدل أن أصله طيب
لا خير فيمن لا يرى ناصرا صديقه وهو له ينسب

وقال :

يا عاتبا من لاله همة ألا اتشد إلى متى تعتب
هل يسمع الميت أو يبصر الأعمى ؟ محال كل ما تطلب

وقال :

لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أولو الفضل من أهل العقل^(٢)
هيهات يدرى الفضل من ليس له فضل ، ولو كان من أهل النبيل

وقال :

لا تطالب المرء بما اعتدت من أخلاقه والمرء في وهن
تنتقل الأخلاق لا شك مع تنقل الحالات والسن

وقال :

لا تعامل ما عشت غيرك إلا بالذي أنت ترتضيه لنفسك
ذاك عين الصواب فالزمه فيما تبغيه من كل أبناء جنسك

(١) المدى : جمع مدية - بضم الميم فيهما - وهى السكين ، والجون : السود

(٢) أخذ هذين البيتين من قول الشاعر :

إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه

وقال :

باعدِ الناس يوالوكا واعتزل عنهم يهابوكا
فإذا ما تصطفيتهم وقعوا فيك وعابوكا

وقال :

إياك لا تحذل الصديقا وارعه العهد والحقوقا
نصرته ما قدرت عززتمه للعلا طريقا
فلا تسامح به عدوا وكن له ناصرا حقيقا

وقال :

حدث جليستك ما أصغى إليك، فإن تراه يعرض فاقطع عنه وانصرف
خفف فقد يضجر الذي تجالسه طولُ المقام أو التحديث في سرف

وقال :

جماعُ الخير في ترك الظهور وإظهار التواضع والبرور^(١)
وفي أضدادها من غير شك جميع وجوه أنواع الشرور

وقال :

محبة الدرهم طبع البشر فاقنع من المرء بما قد حضر
وقس على نفسك في بذله تقف على تحقيق عين الخبر

وقال :

لا يلم غير نفسه كل من قد عرض النفس أن تهان فذلا
ينظر العاقل الأمور فيأبى أن يرى منه غير ما هو أولى

(١) جماع الخير — بكسر الجيم — الذي يجمعه ويكون هو وحده بمنزلة

كل أفراد

وقال :

أَعَذَّرُ النَّاسَ مِنْ أَتَتْهُ الْمَضْرَةُ مِنْ أَخٍ كَانَ يَرْتَجِي مِنْهُ نَصْرُهُ
مِثْلَ مَنْ غَضَّ بِالشَّرَابِ فَكَانَ الْهَلَكُ فِيمَا رَجَاهُ يَدْفَعُ ضَرَّهُ ^(١)

وقال :

سَلِمَ تَعَشَّ سَالِمًا مِمَّا يُقَالُ مِنْ يَعْتَرِضُ يَعْتَرِضُ فِي كُلِّ حَالٍ
نَقَدَ الْفَتَى غَافِلًا عَنْ عَيْبِهِ لَا يَرْضَى عِنْدَ أَرْبَابِ السَّكَمِ

وقال :

تَوَاضَعُ الْمَرْءُ تَرْفِيعَ لَرْتَبَتِهِ وَكَبَرَهُ ضَعْفَ مَنْ غَيْرِ تَرْفِيعٍ
فِي نَحْوَةِ الْكِبَرِ ذَلٌّ لَا اعْتِرَازَ لَهُ وَفِي التَّوَاضُعِ عِزٌّ غَيْرُ مَدْفُوعٍ

وقال :

إِيَّاكَ لَا تَنْكُرُ فَضِيلَةَ كُلِّ مَنْ تَدْرِي فَضِيلَتَهُ فَتَرْمِي بِالْحَسَدِ
إِنْكَارُهَا يُخْنِي عَلَيْكَ تَنْقِصًا وَيَزِيدُهُ شَرَفًا يَدِيمُ لَكَ الْكَمَدِ

وقال :

انْصِرْ أَخَاكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا تَعْتَزُّ بِالْإِخْوَانِ مَا عَزَا
مَنْ يُخْذِلُ الْإِخْوَانَ يُخْذِلُ نَفْسَهُ وَيَهْنُ وَمَا لَهُوَ أَنَّهُ عِزٌّ

وقال :

إِذَا جَزَاكَ بِسُوءٍ مَنَ أَسَاتَ لَهُ فَذَلِكَ عَدْلٌ وَمَا فِي الْعَدْلِ مِنْ زَلٍّ
جِزَاءُ سَيِّئَةٍ بِالنَّصِّ سَيِّئَةٌ لِأَخِيْفٍ فِي ذَاكَ فِي قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ ^(٢)

وقال :

نَفْسٌ وَشَيْطَانٌ وَدُنْيَا وَهَوًى يَارِبُ سَلِمَ مِنْ شُرُورِ الْأَرْبَعَةِ

(١) أَخَذَ هَذَا مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

إِلَى الْمَاءِ يَسْعَى مِنْ يَغْصُ بِرَيْقِهِ قَقْلُ أَيْنَ يَسْعَى مِنْ يَغْصُ بِمَاءِ

(٢) بِشِيرٍ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

أنت الخَلص من رجاك وإننى أرجوك فيما أتقى أن تدفعه

وقال :

لا تعظم يا أخى نفسك إن شئت السلامه

من يعظم نفسه يَجْنِ امتنانا وملامه

فتواضع تلق عزا واحتفاء وكرامه

وقال :

دع لذة الدنيا فمن يُبْتَلَى بحبها ذاق عذاب السموم

لذاتها حلم ، وأيامها لمح ، ولكن كم لها من هموم

محبة الدنيا هلاك ، فمن يرومها أهلكه ما يروم

وقال :

كل خل يعدُّ ما أنت تُخْطِى لا تعول على صفاء وداده

إنما الخل من تنامى خطاياك ويبقى له جميل اعتقاده

وقال :

من عامل الناس بالإنصاف شاركهم فى ما لهم وأحبَّوه بلا سبب

إنصافك الناس عدل لا تزال به تعلق إلى أن ترى فى أرفع الرتب

وقال :

قل جميلا إن تكلمت ولا تقل الشر فعقبى الشر شر

من يقل خيرا ينل خيرا ، ومن يقل الشر إذا يخشى الضرر

وقال :

إذا التأمت أمورك بعض شئ بأرضك فاستقم فيها ولازم^(١)

(١) التأمت أمورك : أصل هذه العبارة قولهم « التأم الجرح » إذا اندمل

وبرى ، واستعمل فى هذا الموضع مجازا

فما في غربة الإنسان خير وما بالغربة الدنيا تلازم
وقال :

إلى متى تسرح مرخيَّ العنان قل يا أخى حتى متى ذا الحران
ارجع إلى الله وخل الهوى فما الهوى يا صاح إلا هوان
قد أنذر الشيب فهل سماع أنت قمصغ للذى قد أبان؟
وقال :

من يكفر النعمة لا بد أن يسلبها من حيث لا يشعر
ومن يكن يشكرها معلنا دامت له نامية تكثر
وقال :

اعذر أخا الفقر في أن يضيق ذرعًا بنفسه
الفقر موت ، ولكن من للفقر برمسه؟
إن الفقير لميت ما بين أبناء جنسه

وقال :

كما تدين أنت يا صاحبي تدان فأعمل عمل الفاضل
أنت كما أنت فخلّ الذى يُزيّنُ النفس من الباطل
وأين أنت ثم أنت اذر ذا حسبك فاحذر زلل العاقل

وقال :

مالك ما أنفقتَه قربة لله ، والباقي حساب عليك
فقدم الممال ترّد آمنا من بعده وهو ثواب لديك

(١) أخذ هذا من قول الشاعر :

ليس من مات فاستراح ميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كثيرا كاسفا باله قليل الرجاء

وقال :

دع مدح نفسك إن أردت زكاءها فبمدح نفسك من مقامك تسقط
ما أنت تحفضها يزيد علاؤها والعكس ، فانظر أيُّمَّا لك أحوط

وقال :

ذو النقص يصحبُ مثله فالشكل يأنف شكله^(١)
فاصحب أخا الفضل كيما تقفو بفعلك فعله
أما ترى المسك دأبا يكسب طيبا محله

وقال :

من عيني المرء يبدو ما يكتمه حتى يكون الذي يرعاه يفهمه
ما يضمّر المرء يبدو من شمائله لناظر فيه يهديه توشمه

وقال :

إنما الدنيا خيال وأمانها خيال
حبها سكر ، ولكن وصلها ما إن ينال
فتنزه عن هواها فهوى الدنيا ضلال

وقال :

قلما يؤذيك من لا يعرفك فتحفظ من صديق يأنفك
لا تثق بالود ممن تصطفى كم صديق تصطفيه يتلفك

وقال :

لا تضجّرَن في الأمور وارض بما يقضى به الله فهو مكتتب
ما قدر الله لا مرد له فما يفيد العناء والتعب

(١) هذا من قول الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقال :

تنزه عن دنيات الأمور وخذ بالحزم في الأمر الخطير
فأشراف الأمور لها جمال وخطر في البهاء وفي الظهور
وفي سفسافها لاشك وهن وتمهين يشين مدى الدهور

وقال :

من يتلى من أهله بمنعص يصبر ، فما أحد بغير منعص
من أزممت بالوجه منه قرحة يعزم على ضرر يشين مخصص

وقال :

من كان في عزته داره وكرر المشي إلى داره^(١)
قبل يداً تعجز عن قطعها ولن لمن تحشى من أضراره

وقال :

لا تبتغ النعمة من جائع لم يرها قبل لآبائه
لا يرشح الإناء ما لم يكن ملآن قد أفعم من مائه

وقال :

مروءة المرء رأس ماله وصونه أشرف أعماله
من لم يصن نفسه تردى وزال عن رتبة اكتماله

وقال :

ترك المطامع عزه واليأس أهني وأنزّه
هيئات يعنز مؤثر أضحي للأطماع نهزّه
نزاهة النفس عز ما ذل من يتسنزه

(١) « داره » في نصف البيت الأول : فعل أمر من المداراة اتصل بضمير الغائب ، و « داره » في آخر البيت مضاف ومضاف إليه : أي الدار التي يقيم فيها

وقال :

تعظيمك الناسَ تعظيمَ لنفسك في قلوب الأعداء طرا والأوداء
من يُعْظِمُ الناسَ يُعْظِمُ في النفوس بلا مؤنة وَيَنْسِلُ عِزَّ الأعزاء

وقال :

أقْنَعُ من الناسَ بمقدار ما يعطون لا تبتغ منهم مزيد
حسبك من كل امرئٍ قَدْرُ ما يعطيك فالأطاع ما إن تفيد

وقال :

لِنْ إذا كانت الأمور صعبا وتواضع لها تَجِدْهَا قريبا
دار من شئتَ تنفع منه وأترك صولة الكبر فَهَيَّ تَجْنِي عذابا
لا تكن تأخذ الأمور بعنفٍ من يعانى الأمور بالعنف خابا

وقال :

سامح الناسَ إن أسأوا إليك وتغافل إذا تَجَنَّوْا عليك
ما ترى كيف أنت تعصى ومولا لك يزيد الإِنعام دأبا لديك

وقال :

اغتنم ساعة أنسٍ وَأَنْسَ ما كان بأمس
ليس للمرء من دنياه سوى راحة نفس
من يكن حِلْفَ همومٍ باع دنياه ببخس

وقال :

حُبُّكَ الشَّيْءَ يُغَطِّي قُبْحَهُ فتراه حسنا في كل حال
لا يرى المحبوب إلا حسنا كان قبح فيه مع ذا أو جمال

(١) في مثل لعامة مصر « مراية الحب عميا » أى مرآة الحب عمياء ، والمعنى أن الحب يغطى على عيوب المحبوب .

حَمَّ الحب على ذى الحب أن لا يرى المحبوب إلا فى كمال
وقال :

يحسب الناقص أن الناس قد غفلوا عن حاله فى ضَعْفَتِهِ
لا يرى الناقص إلا أنه كامل من نفعه فى صفته
غَطَّ المرء يغطى عقله أن يرى النقص الذى فى جبهته

وقال :

أيام عمرك هُذِي ساعاتها رأس مالك
فاحرص على الخير فيها قبل أوان ارتحالك
فإنما أنت طيف تجتاز سُبُلَ المهالك

وقال :

تجد الناس على النقص ولا تجد الكامل إلا مَنْ وَمَنْ
زمن الباطل وفى أهله وكذلك الناسُ أشباه الزمن

وقال :

قل جميلا إذا أردت الكلاما تَجَنَّ عزا مُهِنًا مستداما
إن قول القبيح يورث بغضا وصَعَارا عند الورى وملاما (٢)

وقال :

حَسَّنَ الظن تعش فى غبطة إن حُسِّنَ الظن من أفوى الفطن
من يظن سوء يُجْزَى مثله قلما يُجْزَى قبيح بحسن

وقال :

إن تبغ إخوان الصفاء فهم تحت التراب انتقلوا للقبور (١)

(١) الصفاء - بفتح الصاد - الذلة والهوان .

(٢) تبغ : تطلب .

إخوانك اليوم كأزمانهم مشتهون في جميع الأمور

وقال :

ومستقبح من أخ خلة وفيه معائب تسترذل
كأعمى يخاف على أعور عثارا وعن نفسه يغفل

وقال :

من يبتغ الود من الناس يكن لما قالوه بالناسي^(١)
أغض عن الناس تنزل ودهم إنك لا تغنى عن الناس

وقال :

أعيت مع الناس الحيل وبار فيهم العمل
في أى وجه أملوا يخيب منهم الأمل
فأثر العزلة عنهم تنج من كل خلل

وقال :

لا ترج غير الله في شئ تنل ما تبغيه وتكف كل مخوف
الله أعظم من رجوت فثق به فهو الذى أعطى وأنجى من كفى

وقال :

توسل إلى الله في كل ما تحب بمحبوبه المصطفى
تنل ما تحب كما تبغى وحسبك جاها به وكفى

انتهى ما خلصت واخترت من الكتاب المذكور .

وهذه نبذة من كتابه « الأبيات المهدبة ، في المعاني المقربة » فمن ذلك قوله :

اكنم السر واجعل الصدر قبرة لا تبج ما حيت منه بذرة

(١) زيادة الباء في خبر « يكن » في هذا الموضع ليس مما تجيزه العربية ، إنما تراد الباء في خبر « كان » أو « يكون » إذا تقدمهما نفي أو شبهة كما في قول الشنفرى :
وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم ، إذ أجشع القوم أعجل

أنت مالم تبخُ بسرك حر
فإذا بحت صرت عبداً بمره
من يرد أن يعيش عيشاً هنيئاً
يتحفظ مما عسى أن يضره

وقال :

عداوة العاقل مع عسرها
أمن من صداقة الأحمق (١)
يمكن الأحمق من نفسه
عمداً ومن أحبابه يتقى
لا يحفظ الأحمق خلاً ولا
يرضاه للصحبة إلا شقى

وقال :

إذا أمعنت في الدنيا اعتباراً
رأيت سرور هارهن انتحاب
بعاد عن تدانٍ وافتقارٍ
عن استغنا وشيب عن شباب
حياة كلها أضغاث حلم
وعيش ظله مثل السراب

وقال :

من تره يسرف في ماله
يتلفه في لذة وانهماك
فذلك المغبون في رأيه
يسلك بالنفس سبيل الهلاك

وقال :

من لا يرى نفسه في الناس قاصرة
عن الكمالات لم يكمل له أدب (٢)
ومن يكن راضياً عن نفسه أبداً
فذاك غر عن الآداب محتجب
آداب الإنسان تحقيقاً تواضعه
وجريه دائماً على الذي يجب

وقال :

يحق الحق حتماً دون شك
وإن كره المشكك والمُلدِّ
صريح الحق قد يخفى ولكن
بعيد خفائه لا شك يبدو

(١) هذا من قول العرب « عدو عاقل خير من صديق جاهل » .

(٢) هذا من قولهم « أول الكمال الشعور بالنقص » .

وقال :

كُلُّ ما قد فات لا رَدَّ له فلتكن عن ذاك مصروف الطمع
أيعود الحسن من بعد الصبـها قلـما أدبر شـيء فرجع (١)

وقال :

اغتم غفلة الزمان وبادر لذة العيش ما بقيت سليما
أمر هذى الحياة أيسر من أن تقتدى فيه لأئما أو ملوما

وقال :

لا تَعْرِ نَكَّ صولة الجاه يوما أو تظن أنها تتماهى
صولة الجاه لفح نار ولكن كل نار لا بد تُتلفى رمادا

وقال :

تَنَحَّ عن الناس مهما استطعت ولاتك في الناس بالراغب
من اعتمد الناس يَشْقَى ولا يرى غير منتقد عائب

وقال :

لا تقل يوما فتقاسى محنا
من يعظم نفسه يلق هواناً وعنا
شر ما يأتى الفتى مدحه لو فطنا

وقال :

الناس إخوان ذى الدنيا وإن قبحت أفعاله ، وغدا لا يعرف الدينا
يُعْظَمُونَ أخوا الدنيا وإن عثرت يوما به أو لَغَوْا فيه السكاكينا (٢)

(١) أدبر : ولى وذهب

(٢) انظر (ص ٨٠ من هذا الجزء)

وقال :

العدل روح به تحيا البلاد كما
الجور شين به التعمير منقطع
ياقاتل الله أهل الجور كم خربت
هلاكها أبدا بالجور ينحتم (١)
والعدل زين به التمهيد ينتظم
بهم بلاد وكم بادت بهم أمم

وقال :

اليأس أسلى وأغنى
يسلو أخو اليأس حتى
لليأس برد فمن لم
من نيل ما يتمنى (٢)
يهنا ولا يتعنى
يذقه لم يتهنا

وقال :

إذا عظمت نفس امرئ صار قدره
يسود ويعلو ذو التواضع دائما
حقيرا وحيث احتل فالذل صاحبه
ويحظى كما يرضى وتفضى مآربه

وقال :

وُدُّ من يصطفيك للنفع زورُ
إنما الود وُدٌّ مَنْ ليس يخشى
والجميل الذى يريك غرور
فيك ممن يلوم أو من يضير

وقال :

اشكر لمن والاك معروفا
شكر أخى المنّة عدل فـسـكن
تـكـن بفضل النفس معروفا
بالعدل مهما اسطعت موصوفا
من يكفر الإحسان لا بدّ أن
يلقى عن الإحسان مصروفا

وقال :

حسب الإنسان ماله
وهو فى الدنيا كماله

(١) الجامع لمعنى هذه الأبيات قولهم « العدل أساس الملك »

(٢) الجامع لمعنى هذه الأبيات قولهم « اليأس إحدى راحتين »

يضجر الفقر أخا الحلم وإن طال احتماله
عزة المرء غناه وبه تحسن حاله

وقال :

لا تصاحب أبداً من عقله غير متين
إن نقص العقل داء
صحبة الأحق عار
لاحق في كل حين

وقال :

وإرقِ الناس إن أردت السلامه
من يوافق يعيش هنيئاً قريراً
فتوق الخلف واحذر أذاه
إن روح الوفاق روح كرامه
آمننا من أذية وملامه
فركوب الخلف عمدا ندامه

وقال :

ظلمات الخطوب مهما ادلهمت
أريح النفس لا تبت حلفهم
يُجْلِيهَا كالصباح فجرُ انفراج (١)
كم هموم فيها السرور يفاجي

وقال :

من لم يكن يقصد أن يحمدا
من يبتغي المدحة لا بد أن
عيش الفتي في ترك تقييده
يعش هنيئاً وينل أسعدا
يلحقه الذل وأن يجهدا
وموته البحت إذا قيدا

وقال :

قل لأهل الحاجات مهما ابتغوها
إن تريدوا الحاجات من غير بطاء
حسبكم ما أتى من التنبيه
فاطابوها عند الحسان الوجوه

(١) تقول « ادلهم الليل » تريد أنه اشتد ظلامه وكثف ، ويجليها : يكشفها

وينير ظلمتها

وقال :

خذ الأمور برفق واتئد أبداً إياك من عجل يدعو إلى وَصَبٍ^(١)
الرفق أحسن ما تؤتي الأمور به يصيب ذو الرفق أو ينجو من العطب^(٢)
من يصحب الرفق يستكمل مطالبه كما يشاء بلا أين ولا تعب

وقال :

من يبتغي السودد لا بد أن يرهقه الجهد فلا يضجر
يصعب إدراك المعالي فمن يرم لحاق بعضها يصبر
لا يحصل السودد هينا ولا يظفر بالبغيمة إلا جَرَى

وقال :

عاش في الناس مَنْ دَرَى قدر نفسه ثم دارى جميع أبناء جنسه
علم أَلَا نَسان قدره نبل عقل وذكاء يبين عن فضل حَدْسِه

وقال :

عَظُمَ الناس تَذَلُّ تعظيمهم واجتنب تحقيرهم فهو الرَّدَى
من يرى الناس بتحقير يكن عندهم مُؤَذَى حقيراً أبداً
لا يغرنك إهمال امرئ ربما يؤذى الذباب الأسداً

وقال :

حب الرياسة ياله من داء كم فيه من مَحَنٍ وطول عناء
طلبُ الرياسة فَتَّ أعضاد الورى وأذاق طعم الذل للكبراء
إن الرياسة دون مرتبة التقى فإذا اتقيت علوت كل علاء

(١) الوصب : التعب ، وقالوا « في التأني السلامة ، وفي العجلة الندامة »

(٢) الأين : الهم والتعب والنصب

وقال :

لا تركن إلى بشر إن شئت تأمن كل شر
ذهب الذين إذا ركنت لهم أمنت من الضرر^(١)
لم يبق إلا شامت أو من يضر إذا قدر

وقال :

خلّ رأى الجهال ما سطعت واتبع
لا تحد عن مشورة في مهم
رأى أهل الصلاح نور يحلّ
رأى أهل الخلوّم والتجريب
فهي مما تمنى حياة القلوب
ظلمة الكرب في ليالي الخطوب

وقال :

لا يرتضى بالدون إلا امرؤ
الموت خير من حياة الفتي
مقصر ذو همه خامله
روح حياة المرء في عزه
مهتضاً ذا رتبة سافله
من ذل مات الميتة العاجله

وقال :

استغن عن تشاء
من أمل الناس يشقى
فإن ظفرت بحمر
فإن يفتيك عنه
وليس يقنع منه
فاحفظ عليه وصنه

وقال :

خذ من صديقك قدر ما يعطيك
من يبيع مقدار الذي يحتاجه
لا تبغ أزيد واحذر أن يجفوك
شأن الألى رزقوا الحجا أن يقنعوا
من أخيه يبق مخيباً متروكا
فابغ القناعة إنها تغنيك

(١) هذا من قول لبید :

ذهب الدين يعاش في أكتافهم
وبقيت في خلف كجلد الأجر

وقال :

هَنْ إِذَا عَزَّ أَخُوكَا وَخَشَّ أَنْ يَقْرَضَ فَيْكَا^(١)
 إِنْ مِنْ عَانِدٍ أَقْوَى مِنْهُ قَدْ ضَلَّ سَلُوكَا^(٢)
 نَقَصَ عَقْلُ أَنْ تَعَادَى بَشْرًا لَا يَتَّقِيكََا

وقال :

تَنَزَّهَ مَا حَيَّيْتُ عَنْ الْقَبِيحِ وَخَذَّ بِالْحَزْمِ مَهْمَا اسْطَعْتَ وَاحْذَرِ
 فَلَا تَعْدِلْ عَنِ الْحَقِّ التَّفَاتَا وَخَالَفَ مَنْ يَرَى رَدَّ النَّصِيحِ
 مِنْ أَنْ يَلْقِيكَ حَزْمَكَ فِي فَضُوحِ لَغْوِ الْحَقِّ مِنْ بَعْدِ الْوُضُوحِ

وقال :

لَا تَخَفْ فِي الْحَقِّ لَوْ مَا صَدَقَهُ يَنْجِيكَ حَتْمَا
 يَنْجَلِي الْحَقُّ وَيَبْدُو نَوْرَهُ لَا يَتَعَمَّى
 شَأْنُ ذِي الْحَقِّ اهْتِدَاءً وَأَخُو الْبَاطِلِ أَعْمَى

وقال :

عَامِلٌ بِجِدِّ جَمِيعِ النَّاسِ تَحْظُ بِهِ وَجَنَّبَ الْهَزْلَ إِنْ الْهَزْلُ يَرْدِيكَ
 الْجِدُّ أَحْسَنُ مَا تَبْدِيهِ مِنْ خَلْقِ وَالْجِدُّ أَشْرَفُ مَا فِي النَّاسِ يَعْليكَ
 مَنْ لَا زِمَ الْجِدُّ هَابَتَهُ النَّفُوسُ وَمَنْ يَهْزِلُ يَكُنْ أَبَدًا فِي النَّاسِ مَهْتُوكَا

وقال :

كَفَاكَ اللَّهُ شَرًّا مِنْ اصْطَفَيْتَا وَضُرَّ مَنْ اعْتَمَدَتْ وَمَنْ عَرَفْتَا
 جَمِيعِ النَّاسِ مَوْتِي عَنْكَ إِلَّا مَعَارِفَكَ الَّذِينَ لَمْ رَكْنَتَا
 تَحْفَظْ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ صَدِيقِ وَكُنْ فِي الْغَيْرِ دَهْرَكَ كَيْفَ شِئْنَا

(١) هذا من قولهم في مثل « إذا عز أخوك فهن »

(٢) وهذا من قولهم « لا تعاند من إذا قال فعل »

وقال :

من كان يرغب عن أحبابه ويرى تقريب أعدائه لا شك يهتضم^(١)
يدنى العدو فلا تدنو مودته هيهات كل معاير قربه ندم
فاحفظ صديقك واحذر أن تعاديه إن الصديق إذا عاديته يصم

وقال :

جامل عدوك كى يلين حقه فيكف بعض البعض من إيدائكما
واحفظ صديقك ما استطعت فإنه أدرى بطرق الضر من أعدائكما

وقال :

إذا ظفرت بمن أخنى عليك فخذ بالحلم فيه ودع ما منه قد فرط
إن المسىء إذا جازيته أبدا بفرقه زده في غيه شططا
العفو أحسن ما يجزى المسىء به يهينه أو يريه أنه سقطا

وقال :

قاتل عدوك بالفضائل إنها أعدى عليه من السهام النفاذ
كسب الفضائل عدة تعليك في رتب بها سبل السعادة تحتذى
فاحرص على نيل الفضائل جاهدا إن الفضيلة صعبة فى المأخذ

وقال :

وعد الكريم وفاء تجنيه كيف تشاء
ما حال قط كريم ولا تنهات التواء
فأنجز الوعد مهما وعدت فهو الزكاء

(١) تقول « رغب فلان عن فلان » إذا كان لا يميل إليه ، وتقول « رغب فيه » إذا كان يميل إليه ، وهو مما يختلف فيه المعنى باختلاف الحرف الذى يتعلق بالفعل ، و « يهتضم » بالبناء للمجهول — ينقص حقه .

وقال :

ليس الغنى عن كثرة العرض إن الغنى في النفس إن تُرضِ (١)
 رأس الغنى ترك المطامع عن زهد بلا ميل ولا غرض
 فازهد تعيش أغنى البرية في عز بلا هم ولا مضض (٢)

وقال :

زمن الفضائل قد مضى لسبيله ولوى بطيب العيش وشك رحيله
 ركدت رياح الجد بعد هبوبها وعلا فريق الهزل بعد خموله
 هيات ما زمن السكرام وما هم ذهبوا وجد الدهر في تحويله

وقال :

مروءة المرء ثوبه والعري في الناس عيبه
 بثوبه المرء يعلو قدراً ويحفظ قربه
 من لم يصن ثوبه لم يُصن وإن لاح شيبه

وقال :

لا تصنع ما بقيت حيا لقول ليس يجنى عليك إلا المضره
 واطرح ما أذاك منه وجنب من يرى بالفضول واتق ضره

وقال :

ثقل تراه النفس في العين كالقذى وكالجلبل الراسي على الصدر والقلب
 شير غموم المرء رؤية وجهه
 وتشكو جفاه الأرض شكوى ذوى الكرب

(١) تقول « رضى الدابة ونحوها أروضها » إذا ذلتها وجعلتها سهلة القياد ،
 و « ترض » هنا مضارع مبني للمجهول مجزوم ، وكسرت الضاد لأجل الروي .
 (٢) تقول « فعلت هذا الأمر على مضض » تريد أنك كاره لفعله متبرم به .

وقال :

أما ترى الأشجار مصفرة أوراقها كالشمس عند المغيب
ما هي إلا صفرة آذنت بأنها ترحل عما قريب (١)

وقال :

كل ما تحب وتشتهى ودع الطيب وما يرى
حفظ الغذاء مشقة ليست ترُدَّ مقدرًا
كم عدَّ من متحفظ كم صحَّ ممن قصرا
كل المتحفظ زائد لا بدَّ مما قدرا

وقال :

من كان يأكل ما اشتهى ويرى مخالفة الطيب
سَيرى مضرة ما أنى بطرًا ويندم عن قريب (٢)
إن المتحفظ في الأمور ر لشيمة الفطن اللبيب
من لم يكن متحفظا يخطئ ويبعد أن يصيب (٣)

وقال :

وللحمَّام حآت إذا ما ظفرت بها عثرت على النعيم
خفاء وحكاك مجيد وقل حَجَر يمر على الأديم
وحوض مفعم ماء لذيذا وحجام على النهج القويم
وللحلق الحديدية حين تنمى وأطيبها حديث أخ كريم
وقال في الغزل ، وهي آخر كتابه المذكور :

الله أكبر جلت فتنة البشر بنور غُرَّتكَ الْمُغْنِي عن البصر

(١) آذنت : أعلمت .

(٢) البطر : مصدر « بطر فلان النعمة » من باب تعب - إذا لم يتم بواجب شكرها

(٣) يخطئ : أصله « يخطئ » بالهمز - فسهل الهمزة بقلبها ياء .

شمس تطلع في أفق الجمال لها نور تألق في داج من الشعر^(١)
ووردة الخلد في أبراد سوسنها شقائق زانها التغليف بالدرر
ومسكة الخال فوق الخلد شاهدة بأن إبداءها إحكام مقتدر

وهذه نبذة من كتابه « أنداء الدِّيم » ، في المواعظ والوصايا والحكم « وكل ما فيه كالذي قبله من نظمه رحمه الله تعالى ، فمن ذلك قوله رحمه الله :

العلم نور وهدى فكن بجِدّ طالبه
وأحرص عليه واعتمد فيه الأمور الواجبه
مَنْ لازم العلم علا على الأمام قاطبه

وقل :

خالف النفس عند قصد هواها تبَقَّ ما عِشْتَ سالماً من أذاها
فاتباع الهوى هو أن ولكن هان للنفس كي تنال منهاها

وقل :

من يخالف في شيء الناس يَرْجِعْ هَدَفًا لِسَهْمٍ من كل رَاشِقْ
كن مع الناس كيف كانوا ، ووافق إن من لا يوافق الناس مائق

وقال :

أرح النفس تنفع بحياتك واغنم العيش قبل يوم وفاتك
واطرح عيب من سواك ، وسالم جملة الناس يغفلوا عن أذاتك
واعتبر بالذين بادوا ، وبادر ما يدانيك من سبيل نجاتك

وقال :

سالم الناس ما استطعت ، وجامل من يعاديك إن أردت السلامه

(١) تألق : أنار ، والداجى : أصله اسم الفاعل من « دجا الليل » إذا أظلم ، لما شبه وجهها بالبدر المضيء استتبع تشبيه شعرها بالليل

وتنزه عن القبيح وجنب من يرى بالفضول واحذر كلامه
وقال :

صديق أنت ما أبقى بخير وموتى غير محتاج إليك
فإن أحتج إليك فأنت منى برىء لا صداقة لى عليك
وقال :

من أنت عنه غنى كن فيه مثل اعتقاده
فإن يكن منه ود فإزله بوداده
وإن يكن منه بعد فإزله لبعاده
وقال :

عليك بنفسك لا تشغل بشيء سواها وخلّ الفضول^(١)
تعش راح القلب فى غبطة فلا من يضر ولا من يقول
وقال :

أترك الفكر فى الأمور ودعها فكما قدرت تكون الأمور
كل فكر وكل رأى وحزم غير مجد إذا جرى المقدور^(٢)
وقال :

هوّن عليك خطوب الدهر إن لها نهاية والتهاى عنده الفرج
واصبر فإن لحسن الصبر عاقبة بصحبها ظلمة المكروب تنبلج
وقال :

أحذر البخل إنه شر خلق يتحلى به وشر طريقه
من يجد غير مسرف فهو فى الناس من مؤتى تثنى عليه الخليفة

(١) خل : اترك ودع ، والفضول : جمع فضل ، وأراد به هنا اللغو من الكلام

(٢) غير مجد : أى غير مفيد .

وقال :

الذل في طلب الإفادة عزة فاحرص على نيل الإفادة ترشدا
إن التعزز في الذي تحتاجه كبر ، وكبر المرء أقبح مقصد

وقال :

دع من عرفت ولا تشدد عليه يدأ وداره وتحفظ منه ما بقيا
أما ترى البلد الذي نشأت به محقراً كلما أصبحت معتليا
وغیره من بلاد الله قاطبة يعاليك ، لا سيما إن كنت متقيا

وقال :

ينبغي للذي تحلى بعقل أن يرى كالبازي مدة عمره
بين أيدي الملوك أو في فلاة خيفة من شرور أبناء دهره

وقال :

العرز يضحك ذله من تيه سلطان الولاية (١)
فإذا وليت فسر على نهج الدمائه والراعيه
واقصد مداراة الوري واحذر كيود ذوى السعايه

وقال :

لا تقبل الحكم على بلدة نشأت فيها ؛ إنه يحقد
رياسة المرء على الأهل والـجيران والخلان لا تحمد

وقال :

هي الدنيا إذا فكرت فيها رأيت نعيمها سُماً نقيعا (٢)
فلا تحفل بها واحذر أذاها فإن لسمها قتلا ذريعا (٣)

(١) التيه — بكسر التاء — الكبر والصلف .

(٢) سم نافع ، وتقيع : أى قاتل .

(٣) لا تحفل بها : لا تكثر لها ولا تباليها

ولا تأسف على ما فات منها وبادر فى حياتك أن تطيعا
وقال :

كن وحيداً ما عشت تحياً بخير سالماً من شرور كل البريه
إن من لا يخالط الناس يبقى دهره لا تعرفه منهم أذيه
وقال :

لا تبح ما حيت يوماً بسر لصديق ولا لغير صديق
إن سرا يجاوز الصدر فاشٍ يدريه العدا ومن فى الطريق (١)
وقال :

لا تصاحب ما عشت إلا الكبارا تَمْ ذكراً وتعتلى مقدارا
إن من مامى فى طريق حقيراً يكتسى منه مهنة واحتقارا
فتحفظ من أن تواخى دينياً فهو يعديك ذلة وصغارا
وقال :

محدثات الأمور أردى الشرور فتحفظ من محدثات الأمور
إنما الحـمـدات غى فـدعـها واجتهد أن ترى مع الجمهور
كل من يتبع الحوادث يشقى ويرى نفسه بغير نظير (٢)
وقال :

من تفضلت عليه أنت لا شك أميره
ومن احتجت إليه أنت بالرغم أسيره
ومن استغنى عنه أنت فى الدنيا نظيره (٢)

(١) يدريه : أى أراد يعرفه ويعلم به .

(٢) نظير الإنسان : من يساويه وينظره .

وقال :

لم يبق من يطعم في وده كلا ولا من ترْتَضَى صحبته
الناس أشباه ذئاب فهل يُعَلِّم ذئب حسنت عشرته
من يتغنى اليوم صديقاً كما يرضى فقد زلت به بغيته

وقال :

فاعل الخير مَوْقَى كل ما يتقى من ضر أو من فتنة
ليس يخشى فاعل الخير أذى إن فعل الخير أوقى جُنَّة

وقال :

تحفظ من صديقك في أمور فرُبَّمَا يضر بك الصديق (١)
من اعتمد الصديق ولم يبالي يُضِبه الضر وهو به خليف

وقال :

لا تركن لخلق وكن أبداً ممن توكل في الدنيا على الله
ولا تمل لسواه ما حيت فمن يرجو سوى الله هاوٍ حَبْلُهُ واهى

وقال :

طلب الغاية اتباع غوايه فاعتمد في الأمور ترك النهايه
من يكن راضياً بما يتسنى عاش عيش الملوك دون أذايه

وقال :

لا تعتمد أبداً على مخلوق أن تبغ النجاح وتقصد الرشدا
من يرج غير الله يُحَرِّمُ رشدَه ويدل وهو مخيب قصداً

(١) ربما : هى رب التى للتقليل اتصلت بها تاء التأنيث لتأنيث اللفظ ، وهذا أحد الحروف التى تلحق بها تاء التأنيث ، ونظيره قول الشاعر :
وربت سائل عنى حفى أعارت عينه أم لم تعارا
وقول الآخر :

ماوى يا ربما غارة شعواء كاللذعة بالميسم

وقال :

سفر المرء قطعة من عذابه فيه تخليق جسمه وثيابه
إنما العيش للفتى بين أهليه وخيلانه وفي أحبابه
من يرده بخير الله يكفئه كرب تجواله وذل اغترابه

وقال :

سلم ولا تعترض يوما على أحد إن شئت تسلم من حقد وأضرار
من يعترض يعترض لاشك وهو خير بذلك فالشر مقدار بمقدار^(١)

وقال :

إن الصديق لعون في كل ما تبغيه
فلا تسيء لصديق واحذر وقوعك فيه
فالمرء قيل كثير بنفسه وأخيه

وقال :

أفعل الخير ما استطعت تنل ما تبغيه من الثناء الجميل
فأفعل الخير آمن ليس يخشى صرف دهر ولا حلول جليل

وقال :

يحق الحق حتما دون شك وإن كره للشك والملد
صريح الحق قد يخفى ، ولكن بعيد خفائه لا شك يبدو

وقال :

إن شئت عزا دائما فأسلك سبيل من افتنع
إن القناعة عزة والذل عاقبة الطمع

(١) تقول « فلان حر بكذا » مثل فرح ، و « حرى بكذا » مثل غنى ، ومعناه أنه مستحق له حقيق به ، ومثله قول الشاعر :
من لا يزال شاكرا على المعه فهو حر بعيشة ذات سعه

المرء إن قنع اعتلى قدرا وإن طمع اتضع^(١)

وقال :

استعن في الأمور بالكتان وتحفظ من شر كل لسان
كل مالا يُدرى من أمرك فضل ليس فيه شيء من الخسران

وقال :

من مال عنك بشبر مل أنت عنه بميل
فأله يغنيك عنه فمنه كل جميل
فليس في الود خير مع ترك حسن القبول

وقال :

لا تقطن صديقا وإن يضق بك صدرا
وأحرص عليه وزده إن يخف برا وشكرا
فإن قطع صديق لا شك يعقب ضرا

وقال :

خل التأنق في اللباس وسر على نهج الأفاضل في اختصار الملابس
إن التأنق في اللباس يكثر الحساد والأعداء المتلبس
فاللبس كمثل الناس لا تخرج عن المعتاد في شيء فتخطيء أو تُسي

وقال :

لا تحقرن عدوا ولو يكون كذرة
واحذره ما استطعت واجهد أن لا تحرك شره
إن البعوضة تؤذي المملوك فوق الأميرة

(١) اتضع : صار وضعيا خسيس القدر ، وفي الحكم السائرة « ذل من طمع »

وعز من قنع »

وقال :

ما أهنأ الإنسان في عيشه ما بين أهليه وفي منزله
الذل في الغربة يا كربها وكرب من قوض عن معقله
وفي اقلوا أو اخرجوا شاهد ساوى خروج المرء مع مقتله^(١)

وقال :

المال يستر عيب المرء فافتنه واحفظه تبقى موقى مدة الزمن
من ضيع المال أبدى عيبه وجنى تمهينه أبدا من كل ممتن

وقال :

سريرة المرء تُبديها شمائله حتى يرى الداس ما يخفيه إعلانا
فاجعل سريرتك القوى ترى أملا في كل ما أنت تبغيه وبرهانا

وقال :

ما تَمَّت الدنيا لشخص ولا أمل ذا فيها سوى من فتن
عادتها الفتك بمن رامها وكل من أعرض عنها أمن
فلا تغرنك بلذاتها فإن من غرَّ بها قد غبن

وقال :

لا يمكن عندك الخديم نديما إن قدر الخديم دون النديم
من ينادم خديمه يتأذى ويصير الخديم غير خديم
إنما يصلح الخديم ابتعاد واشتغال بشأنه المعلوم

وقال :

ثبت في الأمور ولا تبادر لشيء دون ما نظير وفكر

(١) يشير إلى قوله تعالى : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم)

قبيح أن تبادر ثم تُخطي وترجع للثبث دون عذر

وقال :

كن في زمانك كيف يرضى أهله لا تعدّ طورهم ولا تتبدل^(١)
فإذا ترى الحق تحامق معهمو وإذا ترى العقلاء فلتتعقل^(٢)
من لم يكن أبدا كأهل زمانه يشقى ، ولا يحظى بنيل مؤمل

وقال :

الفاضل اليوم غريب بلا عونٍ على شيء من الحق
إن غاب لم يُحضر وإن قال لم يسمع ولم يؤبه بما يلقي
ما أضيع الفاضل يا ويحه كأنه ليس من الخلق
وقال وهو آخر « أنداء الديم » :

العز عاقبة التقى والذل عاقبة الرياسة
فإذا اتقيت علوت في أهل المجادة والنفاسة
وإذا رأست نزلت في طرق التخلق والسياسة
فلتختر التقوى ولا ترأس فتخطيك السكياسة

وكان تاريخ فراغه من كتاب « أنداء الديم » نصف شعبان عام واحد وثلاثين وسبعائة
ولنذكر بعض أناشيده التي كان ينشدها أهل مجلسه ببلد قصبة المرية أعادها
الله تعالى ، فما أنشده رحمه الله تعالى لأبي العباس أحمد بن العريف صاحب
« محاسن المجالس » :

من لم يشاور علما بأصوله فيقينه في المشكلات ظنون
من أنكر الأشياء دون تيقن وثبت فعماند مفتون

(١) لا تعد طورهم : لا تتجاوز حالهم

(٢) أخذ هذا من قول أبي العلاء المعري :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتى ظن أني جاهل

الكل تذكّار لمن هو عالم وصوابها بمحالتها معجون
والفكر غواص عليها مخرج والحق فيها الزلزل مكنون
وأنشد رحمه الله تعالى من وجادة :

أعوذ بالله من أناس تشيخوا قبل أن يشيخوا
أخذودّوا وانحنوا رياء فاحذرهم إهم فخوخ (١)
وأنشد لنفسه رحمه الله تعالى :

أقلل المشرة تغبط إن من أكثر ينحط
وعليك الصدق واحذر أن ترى في القول تشنط
وألزم الصمت إذا ما خفت أن تلحى فتعاط
فعلى الفضل يُنافى كل مفضول مُسلط
وأنشد لنفسه أيضاً :

جنة العالم « لا أدري » إذا ما احتاج جنة (٢)
فإذا ما ترك الجنة بانت فيه جنة (٣)
فلزم الجنة تسلم إنما الجنة جنة (٤)
وأنشد للحلاج رحمه الله تعالى :

يا بدر يا شمس يانهار أنت لنا جنة ونار
تجنّب الإنم فيك إثم وخشية العار فيك عار
يخاع فيك العذار قوم فكيف من لا له عذار
وأنشد مما ينسب للحلاج أيضاً :

سقى في الحب عافيتي ووجودي في الهوى عدى

(١) احدودبوا : تشبهوا بالأحذب في صورته ، والفخوخ : جمع فخ ، وهو
شرك الصائد
(٢) جنة - بالضم - أى وقاية
(٣) جنة - بالكسر - أى جنون
(٤) جنة - بالفتح - أى روضة

وعذاب ترتضون به في فم أحلى من النعم
 ما لضر في محبةكم عندنا والله من ألم
 وأنشد لسيدى أبى العباس بن العريف في « محاسن المجالس » وهى أحسن ما قيل
 في طول الليل :

لست أدرى أطل ليلى أم لا كيف يدرى بذك من يتقلى
 لو تفرغت لاستطالة ليلى ولرعى النجوم كنت محلاً
 إن للعاشقين عن قصر الليل وعن طرله من الفكر شغلا

وأنشد رحمه الله تعالى مما أنشده بعض الوعاظ الغرباء :

عانت لأم صدغها صاد شميمى فأرتها المرآة فى الخد لصاً^(١)
 فاسترابت لما رأت ثم قالت أكتابا أرى ولم أر شخصاً
 قلت بالكشط ينمحي ، قالت اكشط بالثنائيا وتابع الكشط مصاً^(٢)
 ثم لما ذهبت اكشط قالت كان لصاف صار والله فصاً
 قلت إن القصوص تطبع باللم على خد كل من كان رخصاً
 وأنشد لابن خفاجة :

وأغر كاد لطافة وطلاقة ينساب ماء بيننا مسكوباً
 قد قام فى سطر الندامى فاستوى فخبته ألقا به مكتوباً
 وأكب يشربها وتشرب ذممه فرأيت منه شاربا مشروباً
 مشمولة بيننا ترى فى كفه ماء ترى فى خده ألحوباً

وأنشد لابن عبد ربه صاحب العقد مما نسب له الفتح فى « مطمح الأنفس » ،
 ومسرح التأنس :

(١) اللام هنا : الشعر المتدلى على الصدغ ، على شكل اللام ، وصاد اللام هنا : الفم
 (٢) الكشط فى الأصل : محو الكتابة بالسكين ونحوه

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا ورشاً بتقطيع القلوب رقيقاً^(١)
 ما إن رأيت ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقاً
 وإذا نظرت إلى محاسن وجهه ألقيت وجهك في سناه عريقاً
 يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقاً
 وأنشد لابن عبد ربه أيضاً :

ودعني بزورة واعتناق ثم قالت : متى يكون التلاق ؟
 وتصدت فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق
 يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
 إن يوم الفراق أقطع يوم ليتنى مت قبل يوم الفراق
 وأنشد له أيضاً :

هيج البين دواي سقمي وكسا جسمي ثوب الألم
 أيها البين أقلني مرة فإذا عُدْتُ فقد حل دمي
 يا خلى الذرع نم في غبطة إن من فارقتَه لم يَنَمْ
 ولقد هاج قلبي سقمًا حب من لو شاء داوى سقمي
 وأنشد للمضجني :

صفراء تطرق في الزجاج ، فإن سرت في الجسم دبت مثل صلٍ لادغ
 عبث الزمان بجسمها فتسترت عن عينه برداء نور ساغ
 خفت على شرابها فكأتما يجدون ريا في إماء فارغ
 وأنشد لابن شهيد :

هَبَّ من رقدته منكسرا مسبل للكم مُرخٍ للردا

(١) رشا : أصله « رشا » بالهمزة - فسهل الهمز بقلبها ألفا ، والرشا - بفتح
 الراء والشين جميعا - ولد الظبية إذا تحرك ومشى

يُسمح النعسة عن عيني رَشَا صائد في كل يوم أسدا (١)
 شربت أعطافه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عربدا
 رَشَا بل غادة ممكورة عمت صبحًا بليل أسودا (٢)
 أحجمت من عضتي في نهدها ثم عضت حروجهي عمدا
 فأنا المجروح من عضتها لا شفاني الله منها أبدا
 وأنشد لصفوان بن إدريس :

حَمَى الهوى قلبه وأوقد فَنَوَ على أن يموت أوقد
 وقل عنه العذول مال قلده الله ما تقلد
 وباللوى شَادَنُ عليه جيدُ غزالٍ ولحظُ فرقد
 علله ريقه بنحمر حتى انتشى طرفه فعربد
 لا تعجبوا لانهزام طرفي فحيشُ أجفانه مؤيدٌ
 أنا له كالذي تمنى عبدٌ ، نعمٌ ، عبده وأزيد
 إن بسملت عينه لقتلى صلى فؤادي على محمد

وأنشد لأبي على إدريس بن اليماني :

علقته شادنا صغيراً وكنت لا أعشق الصغاراً
 يُسْفِرُ عن مستنير وجه صير جنح الدجى نهارة
 لم أر من قبل ذلك ماء أضرم فيه الحياء نارا

وأنشد للرَّمَادِي ، أولابن بُرْد القُرطبي :

لما بدا في لازور دى الحرير وقد بهر
 كَبَّرْتُ من فرط الجما ل وقلت : ما هذا بشر

(١) مثل هذا قول ابن الفارض :

هل سمعتم أو رأيتم أسدا صاده لحظ مهة أو ظي

(٢) أراد بالصبح وجهها المشرق ، وبالليل شعرها الفاحم (وانظر ص ١٠٠ من هذا الجزء)

فأجابني لا تنكروا ثوب السماء على القمر

وأنشده من وجادة :

يا ذا الذي عذب محبوبه
لم يثبت الشعر على خده
أنحت عيس العز مغنى الهوان
بل دب فى أصدغه عقربان
رفقاً على نفسك لا تفنها
فجوهر الأنفـس در يُصان

وأنشد من حديقة ابن يربوع :

غزا القلوب غزال
حطت بجديه نون
حجّت إليه العيون
وآخر الحسن نون

وأنشد من وجادة :

أودع فؤادى حرقاً أودع
وارم سهام اللحظ أو كفها
ذاتك تؤذى ، أنت فى أضلئ
أنت بما ترمى مصابى معى (١)
موقعها قلبى ، وأنت الذى
مسكنه فى ذلك الموضع

وأنشد من حديقة ابن يربوع :

يخط الشوق شخصك فى ضميرى
وتدنيك الأمانى من فؤادى
على بعد التزاور خط زور
ذنو البرق من لمح البصير
فلا تذهب فإك نور عيني
إذا ما غبت لم تطرف بنور

وأنشد للوزير المصطفى :

لعينيك فى قلبى على عيون
لئن كنت صباً مخلقا فى يد الهوى
وبين ضلوعى للشجون فنون
فبك غض فى الفؤاد مصون
عذابى ، ولكنى عليه ضنين
نصيبى من الدنيا هواك ، وإنه

(١) كفها : امنعها أن تصيب فؤادى

وأنشد لصالح بن شريف :

أيها العاذل بالله انشد لك قلب في ضلوعي أو كبدي^(١)
هي أجفاني فذرهما تنهي هي أحشائي فدعهما تتقد
لا تظن الحب شيئاً هيناً ليس في الحب قياس يطرد
أنت خلو وأنا صبٌّ شَج فإذا حدثت عني قل وزد
فاترك اليوم ملائمي إنه يترك الشيء إذا مالم ينفد
أنا أسلو عن حبيبي ساعة يا عذولي قل هو الله أحد

وأنشده أيضاً :

وافي وقد زانه جمال فيه لعشاقه اعتذار
ثلاثة ما لها شبيه الوجه واخذ العذار
فمن رآه رأى رياضاً الورد والآس والبهار

وأنشد من حديقة ابن يربوع :

عليك يا كرام وبر لستة من الناس واحذر شرهم وتوقه^(٢)
طبيب وحجام وشيخ وشاعر وصاحب ديوان ومن يتفقه

وأنشد لبعض الصوفية :

ما ترى عند أحق في أمور توشطاً
بل تراه في أمره مُقَرَّطاً أو مُقَرَّطاً^(٣)

وأنشد لبعض الأدباء :

الصبر أولى بوقار الفتي من قلق يهتك ستر الوقار
من لازم الصبر على حاله كان على أيامه بالخيار

(١) أنشد : ترفق (٢) توقه : احذره واجعل بينك وبينه وقاية

(٣) الإفراط : الإغراق والزيادة ، والتفريط : التهاون وترك بعض ما يجب فعله

وليتقصر من ترجمة ابن ليون على هذا القدر ، فقد حصلت الإطالة ، بل ونسكتفي من مشايخ إسان الدين بمن ذكرنا ، ولنورد ما في الإحاطة في ترجمة مشيخته وإن تكرر مع ما تقدم ، ونصه : المشيخة - قرأت كتاب الله عز وجل على المكتب تسبيح وحده في تحمل المنزّل حق حملة تقوى وصلاحا وخصوصية وإتقانا ونعمة^(١) وعناية وحفظا وتبحرا في هذا الفن واطلاعا لغرائبه ، واستيعابا لسقطات الأعلام الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن عبد المولى العواد تكتيباً ثم حفظاً ثم تجويداً إلى مقرات أبي عمرو رحمه الله عليهم ، ثم نقلني إلى أستاذ الجماعة ومطية الفنون ، ومفيد الطلبة الشيخ الخطيب المتقن أبي الحسن على الفتحايطي فقرأت عليه القرآن والعربية ، وهو أول من انتفعت به ، وقرأت على الخطيب الحبيب الصدر أبي القاسم ابن جزى رحمه الله تعالى ، ولازمت قراءة العربية والفقه والتفسير ، والمعتمد عليه العربية ، على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله بن الفخار البري الإمام الجمع على إمامته في فن العربية المفتوح عليه من الله حفظا واطلاعا ونقلًا وتوجيها بما لامطع فيه لسوا ، وقرأت على فاضل الجماعة الصدر المتقن أبي عبد الله ابن بكر رحمه الله ، وتحدث بالشيخ الرئيس صاحب التكم الأعلی الصالح الفاضل أبي الحسن بن الجباب ، ورويت عن الكثير ممن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرواية ، كالحديث أبي عبد الله بن جابر ، وأخيه أبي جعفر ، والفاضل الشهير الشيخ بقية السلف شيخنا أبي البركات ابن الحاج ، والشيخ الحرث الصالح أبي محمد بن سالمون ، وأخيه القاضي أبي القاسم سالمون ، وأبي عمرو ابن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير ، وله رواية عالية ، والأستاذ المغوى أبي عبد الله بن بيش ، والحديث السكتاب أبي الحسن التلمساني المسن ، والحاج أبي القاسم بن المهني الماتقي ، والعدل أبي محمد السعدي ، تحمل عن

(١) في ب « ونعمة » بالعين المهملة

الإمام ابن دقيق العيد ، والقائد الكاتب ابن ذى الوزارتين أبى بكر ابن الحكيم والقاضى المحدث الأديب جملة الظرف أبى بكر بن شيرين ، والشيخ أبى عبد الله ابن عبد الملك ، والخطيب أبى جعفر الطنجالى ، والقاضى أبى بكر ابن منظور ، والراوية أبى عبد الله بن حزب الله ، كلهم من مائة ، والقاضى أبى عبد الله المقرئ التلمسانى ، والشرىف أبى على حسن بن يوسف ، والخطيب الرئيس أبى عبد الله ابن مرزوق ، كلهم من تلمسان ، والمحدث الفاضل الحسيب أبى العباس بن ربوع الرئيس أبى محمد الحضرمى السبتيين ، والشيخ المقرئ أبى محمد بن أيوب المالئى آخر الرواة عن ابن أبى الأحوص ، وأبى عثمان بن ليون من أهل المرية ، والقاضى أبى الحجاج المنتشافرى من أهل رندة ، وطائفة كبيرة من المعاصرين تحملا وتدبجا ومن أهل العدوة الغربية والمشرق وأفريقية الكثير بالإجازة ، وأخذت الطب والتعاليم والمنطق ، وصناعة التعديل عن الإمام أبى زكريا بن زهير ، ولازمته ، هذا على سبيل الإنباع ، ولو تفرغت لذكر أفذاذهم ^(١) نخرج هذا التأليف عملا وضع له . انتهى كلامه فى « الإحاطة » .

وقد ذكرت فى هذا الباب زيادة فى بعض التراجم على ما فى « الإحاطة » على ما اقتضاه الحال ، إذ ذك لا يخلو من فائدة زائدة ، وحكمة بالخير عائدة .

ولو لم يكن فى هذا الكتاب غير هذا الباب لكان كافيا ؛ لاشتماله على تصوف وحكم وكرامات وآداب ووصايا وإنشادات وغيرها ، مما يغنى عن خبره العيان . ويشتاق إلى الوقوف عليه ذرو المسكة فى البيان ، ولولم يشتمل إلا على المدائح النبوية التى فيه لمت محاسنه ، والله سبحانه وتعالى ينفع به ، بحاج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه وتابعيه وحزبه ! .

(١) الأفذاذ : جمع فذ ، وهو النادر ، أو الذى لا مثله له

الباب الرابع

في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية ، وثناء غير واحد من
أعلام أهل عصره عليه ، وصرف القاصدين وجوه التأمل إليه ، واجتلائهم أنوار
رياسته الجليلة ، وكتبهم بعض المؤلفات باسمه ، ووقوفهم عند إشارته ورسمه ،
وما يضاهاى ذلك في حظه وقسمه ، وسعيتهم بين يديه .

اعلم - سلك الله بى وبك الطريق الأفوم الأقوى ! وحلى صدور جميعنا
بزينة التقوى ! - أن لسان الدين ذكر فى كتبه كالأحاطة ونفاضة الجراب وغيرها
جملة مما خاطبه به الملوك وغيرهم ، من تبجيل وتنويه ، ولندكر بعض ذلك من
كتبه ومن غيرها تكميلاً المقصود ، وتبليغاً لنفوس الناظرين فى هذه المجالة
ما تؤوله وتنويه .

فمن ذلك ما ذكره فى الإحاطة من ! كرام السلطان أبى زيان المريني
ابن الأمير أبى عبدالرحمن ابن السلطان أبى الحسن له ، وسرد ما كتب له به من
قوله : هذا ظهير ، إلى قوله : أيدى الله ونصره ! وسنى له الفتح المبين ويسره ! وبعد
ما صورته : للشيخ الفقيه الأجل الأسنى ، الأعز الأخطى الأرفع الأجل الأسمى
الأوحد الأنوه الأرقى ، العالم العلم الرئيس ، الأعرف المنفغن الأبرع المصنف المفيد
الصدر الأحفل الأفضل الأكل أبى عبد الله ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل الأسنى
الأعز الأرفع الأجل الوجيه الأنوه الأحفل الأفضل الحسيب الأصيل الأكل المبرور
المرحوم أبى محمد بن الخطيب ، قابله أيدى الله بوجه القبول والإقبال ، وأضنى عليه

من السلطنة
أبى الحسن
المريني إلى
لسان الدين

ملا بَسَ الإِنعام والإِفْضال ، ورَعَى له خدمة السلف الرفيع الجلال ، وما تقرّر من مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا المال ، وأمر في جملة ما سوّغَه (١) من الآلاء الوارفة الظلال ، الفسيحة المَجَال ، بأن يحدّد له حكم ما بيده من الأوامر المتقدّم تاريخها المتضمنة تمشية خمسائه دينار من الفضة العشرية في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من مَجَبَى مدينة سَلَا حرسها الله في كل شهر ، ومن حيث جرت العادة أن يتمشى له ، ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه ، وفيما يستفيد خدمه بخارجها وأحوارها من غنم وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك ، فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف ، ولا يتوجه فيه إليه بتكليف ، يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديدًا تامًا ، واحترامًا عامًا ، أعلن بتحديد الخطوة واتصالها ، وإتمام النعمة وإكمالها ، من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن ، ومن الآن إلى ما يأتي على الدوام ، وإتصال الأيام ، وأن يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدّمه يحمل الرعي والحاشاة في السخر مهما عرضت ، والوظائف إذا افترضت ، حتى يتصل له نال العناية بالطارف ، وتتضاعف أسباب المِنَّة والعَوَاف ، بفضل الله . وتحجر له الأزواج التي يحرمها بتألفت من كل وجيبة ، وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة ، بالتحرير التام بحول الله وعونه ، ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه ، وليُمض ما أمضاه ، إن شاء الله ، وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعائة ، وكتب في التاريخ ، انتهى .

وقوله « وكتب في التاريخ » هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان ، يكتب بقلم غليظ ، وبعض ملوك المغرب يكتب عنه العلامة « صح في التاريخ » .

(١) سوّغَه : أجيزه وأمكن منه ، وأصله من إساعة الرقيق ونحوه ، أى نزوله في الحلق بغير مشقة ولا جهد

وقد عرف لسان الدين في «الإحاطة» بهذا السلطان بمانصه : محمد بن يعقوب ترجمة السلطان ابن عبد الرحمن بن علي أمير المسلمين بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق أمير المسلمين أبي زيان المريني بالمغرب إلى هذا العهد ، يكنى أبا زيان ، وصل الله نصره على عدو الدين وأرشدته إلى سنن الخلفاء المهتدين !

حاله - فاضل سكون منقاد ، مشتغل بخاصة نفسه ، قليل الكلام ، حسن الشكل ، درب برقص الخليل ، مفوض للوزراء ، عظيم التأني لأغراضهم ، ووكل الأمور لمن استكفاه منهم ، استقدم من أرض النصارى بالأندلس وقد فر إليهم خوفا على نفسه ، فسمح به ملك الروم بعد اشتراط واشتراط ، فكان وصوله إلى مدينة الملك بقاس يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفر عام ثلاثة وستين وسبعائة ، ودخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان وبه السعد الأعظم كوكب المشتري من الكواكب السيارة ، وقد كان الوزير يقيم الأمر^(١) والمثل في الكفاية^(٢) والاستطلاع بالعظيمة عمر بن عبد الله بن علي الياقاني لما ثار بعمه السلطان أبي سالم رحمه الله تعالى وأقام الرسم بأخيه المعتوه المدعو بأبي عمر استدعى هذا المترجم به ، وقد نازله الأمير عبد الحليم ابن عمهم ، وتوجه عنه رسوله أثناء الحصار لما رأى الأمر لا يستقيم بمن نصبه ، فتلطف فيه إلى طاعة النصارى ، واستعان بالسلطان أبي عبد الله بن نصر ، وقد جمعتهما إيلاته ، فتم له اللحاق بالمغرب ، وانصرف الأمير عبد الحليم إلى سجلماسة ، فتملكها ، وتم الأمر للأمير أبي زيان يقوم به عنه وزيره ومستدعيه المذكور مصنوعا له في خدمته ، أعانه الله تعالى ! وأصلح حاله وأحوال الخلق على يديه ! ووفدت عليه من محل الانقطاع بسلا وأنشدته قولي :

(١) قيم الأمر : القائم به

(٢) كفاية الأمر : حسن القيام عليه حتى لا يحتاج إلى معين ، يريد أنه مثل

مضروب في ذلك .

لمن عَلمَ في هَضْبَةِ الملكِ خِناقُ
 تُقِلُّ رِيَّاحُ النصرِ عنه غِمامُهُ
 وبيعة شورى أحكم السعد عَقْدَها
 قضى عمر فيها بحق محمد
 أحلما ترى عيناى أم هى فترة
 وفاض لفضل الله فى الأرض تبتغى
 وسَرَّحَ تهنينه الكلاءة بالكلأ
 وقد كان طيف الحلم لا يعمل الخطأ
 وللغيث إمسك وفى الأرض رجة
 فكل فريق فيه للبنى راية
 أجل إنه من آل يعقوب وارث
 له من جناح الروح ظل مسجف
 أطل على الدنيا وقد عاد ضوءها
 فأشرق الأرجاء من نور ربها
 فمن ألسن الله بالشكر أعلنت
 وليس لأمر أبرم الله ناقض
 محمد قد أحييت دين محمد
 ولو لم تذب غطى على شفق الضحى
 فأيمن بمشحون من الملك سامح
 أفلك والدأماء تظهر طاعة

أفاقت به من غَشِيَةِ المَرْجِ آفاق
 تَدَلُّها أيدٍ وتخضع أعناق
 وأعمل إجماع عليها وإصفاق^(١)
 فسجّل عهد للوفاء وميثاق
 أعندكما فى مشكل الأمر مصداق
 ومجتمعات لا تريب وأسواق
 وفلح لسقى الغيث قام له ساق
 وللفتنة العمياء فى الأرض إطباق
 وللدن والدنيا وجوم وإطراق
 وكل طريق فيه للغيث طراق
 يحنّ له البيت العتيق ويشتاق
 ومن رفرف العز الإلهى رُستاق^(٢)
 دجى وعلى الأحداق للذعر إحداق
 وساح بها لله لطف وإشفاق
 وكان لها من قبل همس وإطباق
 وليس لمسعى النجى فى الله إخفاق
 وللخلق أذماء تفيض وأرماق
 دم لسيوف البنى فى الأرض مَهْراق
 له باختيار الله حط وإساق
 إليك وصفح الماء أزرق رقرق

(١) الإصفاق على الأمر : الاتفاق عليه ، وأصله ضرب اليد على اليد ، ومن
 عادة المتعاقدين أن يضع أحدهما فى يد صاحبه . (٢) الرستاق : الداحية .

إلى هدف السعد أنبرى منه والدجى
فخطت لتقويم القوام جداول
تبارك من أهداك للخلق رحمة
هو الله يبلو الناس بالخير فتنة
سمت منك أعناق الورى لخليفة
وقالوا بنان ما استقل بكفه
وأطنب فيك المادحون وأغرقوا
ألت من القوم الذين أكنهم
ألت من القوم الذين وجوههم
رياض إذا العافى استظل ظلالها
أبوك ولى العهد لوسلم الردى
فن ذا له جد كجذك أو أب
وحسب العلافى آل يعقوب أنهم
أسود سروح أو بدور أسرة
يطول لتحصيل الكمال سهادهم
ومنها :

لئن نسيت إحسان جدك فرقة
أجازت خروج ابن ابنه عن ترائه
ومن دون ما راموه لله قدرة
خذ العفو وابذل فيهم العرف ولتسع
تزر على أعناقهم منه أطواق^(١)
ولم تدر ما ضمت من الذكر أوراق
ومن دون ما أموه للفتح أغلاق
جريرة من أبدى لك الغدر أخلاق^(٢)

(١) الضمير في « منه » راجع إلى « إحسان جدك » يريد أنهم نسوا إحسان جده مع أن آثار هذا الإحسان لا تزال ظاهرة عليهم .
(٢) أخذه من قوله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) .

فربما تنبو مهنةُ الطبَّا
وما الناس إلا مذهب وابن مذهب
ولا ترج في كل الأمور سوى الذى
إذا هو أعطى لم يضر منع مانع
عرفت الردى واستأثرت بك للعدا
فيسرَّ ليسرى وأحيا بك الورى
فجاء صنيع الله وازدد بشكره
وأرف لمن أوفى وكاف الذى كفى
وتهنيك يا مولى الملوك خلافة
فقد بلغت أقصى المنى بك نفسها
فلاراع منها السَّربَ للدهر رانع
أمولاي راع الدهر سِرِّي وغالني
وليس لكسرى غيرك اليوم جابر
ولى فيك ود واعتداد غرسته
وقد عيل صبرى فى ارتقابي خايفة
وأنت حسام الله والله ناصر
وأنت الأمان المستجار من الردى
وأهون ما ترجى لديك شفاعاة
ودونكها من ذائع الحمد مخلص
إذا قال أما كل سمع لقوله

وتهفو حلوم القوم والقوم خذاق^(١)
ولله أرفاد عليهم وإرفاق
خزائنه ما ضرها قط إنفاق
وإن حشدت طئم وعاد وعملاق
تحوم بمخبط الصايب وأعماق
وللروع إرعاد عليك وإراق
مواهب جود غيثها الدهر دَفَاقُ
فأنت كريم طهرت منك أعراق
شجَّتها تباريح إليك وأشواق
وكم فاز بالوصل المهنة مشتاق
ولا نال منها جدة السعد إخلاق
فطَّرَفِي مذعور وقلبي خفاق
ولا ليدى إلا بمجدك أعلاق
فراقت به من يانع الحمد أوراق
تحلُّ به للضر عني أوهاق^(٢)
وأنت أمين الله والله رزاق
إذا راع خطب أو توقع إملاق
إذا لم يكن عزم حثيث وإرهاق
له فيك تقييد يروق وإطلاق
فصُغِرَ ، وأما كل أنف فدَشَّقُ

(١) تهفو : تخفق ، وأراد تضعف وثرق .

(٢) أوهاق : جمع وهق — بفتح الواو والهاء جميعا — وهو الحبل يكون في طرفه أنشودة ترمى في عنق الدابة والإنسان .

وَدُمُ خافق الأعلام بالنصر كلما ذهبت لمسى لم يكن فيه إخفاق (١)
وُعدتُ منه ببر كثير ، واحترام شهير .

دخوله غرناطة - لحق بها مُقلناً عند القبض على قرابته وبنى عمه وتقريرهم
إلى مصارعهم ، فسكان وصوله في رمضان من عام خمسين وسبعائة ، ثم رابه
رائب لحق لأجله بصاحب قشتالة ، وأدام في جملته إلى حين استدعائه المتقرر آخفاً ،
وهو لهذا العهد أمير المسلمين بالمغرب ، أعانه الله تعالى على الخير ، وأطلق به يده ،
وألمه إلى ما يرضى منه بفضلته وكرمه ، انتهت الترجمة .

ورأيت على هامش هذا المحل من « الإحاطة » بخط الخطيب الشهير الإمام
أبي عبد الله بن مرزوق النلماساني رحمه الله ما صورته : توفي - يعني السلطان
أبازيان - مغتالاً عام ستة وستين ، على يد مظاهره الخائن عمر بن عبد الله بن علي
الوزير ، ردّاه في بئر ، وأشاع أنه أفرط في السكر ، وألقى نفسه في البئر المعروفة
برياض الغزلان ، وباع لعمه عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، فسلطه الله عليه ،
وأخذ حقوق الخلائق على يديه ، فقتله غيلة بعد أن كان تغلب عليه ، فأعمل الحيلة
في قتله ، واستمر ملك عبد العزيز ظاهراً ظافراً قد جمع بين المغرب إلى أقصاه وبين
ملك تلمسان وقد شرّد أهلها كل مُشرّد ، فعند ما أقبلت الدنيا عليه ، واستقام
ملكه ، وكاد يلحق ملك أبيه أوزيد مات رحمه الله تعالى ، قيل : مطمونا ،
وقيل غير ذلك ، وذلك في حدود أربع وسبعين ، وولى ولده ، ثم عزل بابن عمه
أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ، وحاز ملك المغرب إلى حين كتب هذا سنة سبع
وسبعين وسبعائة ، انتهى ما ألفيته بخط سيدي أبي عبد الله بن مرزوق .

ورأيت تحته بخط ابن لسان الدين أبي الحسن علي ماصورته : رحمه الله عليك

(١) الأعلام : جمع علم - بالتحريك - وهو الزاية ، وخففتها : اضطراها في
الهواء ، وإما يكون ذلك إذا كانت منصوبة ؛ فهي كساية عن رفعها في الجو ، يقولون
« لا زالت أعلامه خافقة » دعاء له بدوام الملك .

يا عمر بن عبد الله بن علي ، فلقد كنت غسلت ملك المغرب من دَرَن كبير^(١) ، وقت
على ملك لهو وضف شهر ، وشَهَرَت سيف الحق ، على الزوا كرة الخرق^(٢) ،
فأبتهج منبر الدين ، انتهى .

ومراده بهذا الكلام الرد على ابن مرزوق في ذمّه للوزير عمر ، وقوله « الزوا كرة »
لفظ يستعمله المغاربة ، ومعناه عندهم المتلبس الذي يظهر النسك والعبادة ويبطن
الفسق والفساد ، وعند الله تجتمع الخصوم .
ونترجع إلى ما كنا بسبيله فنقول :

من السلطان
أبي سالم المريفي
إلى لسان الدين

ومما خوطب به ابن الخطيب رحمه الله تعالى ! من قبل سلطان المغرب المستعين
بالله أبي سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن المريفي ما صورته بعد البسملة والصلاة :
من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ،
ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي الحسن ، ابن مولانا
أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ،
أيد الله أمره ! وأعز نصره ! إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأخطى الأوجه
الأوه الصدر الأحنف المصنف ، البليغ الأعرف ، الأكمل أبي عبد الله ابن الشيخ
الأجل الأعز الأسنى الوزير الأرفع الأنجد الأصيل الأكمل المرحوم المبرور أبي محمد
ابن الخطيب ، وصل الله عزته ! ووالى رفعتة ! .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أما بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الكريم
المصطفى ، والرضا على آله وصحبه أعلام الإسلام ، وأئمة الرشد والهدى ، وصلّى
الدعاء لهذا الأمر العلي العزيز المنصور المستعيني بالنصر الأعز والفتح الأسنى ، فإننا

(١) الدرن — بفتح الدال والراء جميعاً — الوسخ

(٢) الخرق : جمع أخرق ، وهو الذي لا يبيح عملاً

كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم بلوغ الأمل ، ونُجَحَ القول والعمل ! - من منزلنا الأسعد بصفة تازى ملوية يمنه الله ، وضُنْعُ الله جميل ، ومثله جزيل ، والحمد لله ولكم عندنا المسكاة الواضحة الدلائل ، والعناية المتكفلة برغى الوسائل^(١) ، ذلكم لما تميزتم به من التمسك بالجناب العلى ، المولوى العلوى ، جدد الله تعالى عليه ملابس غفرانه ! وسقاه غِيُوثَ رحمته وحنّانه ! وما أهديتم إلينا من التقرب لدينا ، بخدمة تراه الطاهر^(٢) ، والاشتمال بمطارف حرمة السامية المظاهر ، وإلى هذا وصل الله خُطُوتكم ووالى رفعتكم ، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده ، المقابل بالإسعاف المستعذب ورّده ، فرقننا على ماصّته ، واستوفينا ما شرحه وقّته ، فأثرنا حُسْنَ تَلَطُّفكم فى التوسل بأكبر الوسائل إلينا ، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا ، وفى الحين عَيْنًا لِكَمال مطلبكم ، وتمام مآربكم ، والتوجه بخطبنا فى حقكم ، والأعمال بوقفكم ، خديمين أبا البقاء بن ناسكورت وأبا زكريا بن فراقجة ، أنجدهما الله وتولاهما ! وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى العرض المعلوم ، بعد التأكيدهما فيه ، وشرح العمل الذى بوفيه ، فكونوا على علم من ذلكم ، وابسطوا له جملة آمالكم ، وإنا لنترجو ثواب الله فى جبر أسوالكم ، وبره اعتلاككم ، والله سبحانه وتعالى يَصِلُ مبرّتكم ، ويتولى تكمركم ! والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتب فى الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبعمائة .

فراجمه ابن الخطيب بما نصه : مولاي خليفة الله بحق ، وكبير ملوك الأرض من لسان الدين إلى السلطان عن حجة ، ومعدن الشفقة والحرمة ببرهان وحكمة ، أبقاكم الله تعالى على الدرجة أبى سالم المريفى فى المنعمين ! وافِرَ الحظ عند جزاء المحسنين ، وأراكم ثمرة برأيكم فى البنين ،

(١) الوسائل : جمع وسيلة ، وهى كل شىء تجعله سببا يوصلك إلى ما تريد ،

ورعيها : حفظها

(٢) الثرى : التراب ، وأراد قبر والده

وصنع لكم في عدوكم الصنع الذي لا يقف عند معتاد ، وأذاق العذاب الأليم
 مَنْ أراد في مثابكم إلحاد ، عبدكم الذي ملكتم رقه ، وآوتم غربته ، وستتم
 أهله وولده ، وأسئتم رزقه^(١) ، وجبرتم قلبه ، يُقبل موطن الأخص الكريم من
 رجلكم الطاهرة ، المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف النصر ، الفارعة هَضْبَة العز^(٢) ،
 المعاملة الخطوف في مجال السعد ، وميسر الحظ ابن الخطيب ، من شالة التي تأكد
 بملككم الرضى احترامها ، وتجدد برعيكم عيدها ، واستبشر بملككم دفينها ، وأشرق
 بحسناتكم نورها ، وقد ورد على العبد الجواب المولى البر الرحيم ، المنعم المحسن
 بما يليق بالملك الأصيل ، والقدر الرفيع ، والهمة السامية ، والعزة القعساء ، من
 رَغَى الدخيل ، والنصرة للذمام ، والاهتزز بر الأب الكريم ، قناب الرجاء ،
 وانبعث الأمل ، وقوى العَضْد ، وزار اللطف ، فالحمد لله الذي أجرى الخير على
 يديكم الكريمة ، وأعاسكم على رعى ذمام الصالحين ، المتوسِّل إليكم أولاً بعبورهم ،
 ومتمعبداتهم وتراب أجدانهم ، ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق أجمعين الذي
 تسبب في جودكم ، واختصكم بحبه ، وغمركم بلطفه وحنانه ، وعلمكم آداب الشريعة ،
 وأورثكم ملك الدنيا ، وهياتكم دعوائه بالاستقامة إلى ملك الآخرة بعد طول
 المَدَى وانساح البقاء ، وفي علومكم اتقاسة ما تضمنت الحكايات عن العرب
 من النُصرة عن طائر داسَتْ أفرأخه ناقة في جوار رئيس منهم ، وما انتهى إليه
 الامتعاض لذلك مما أهينت فيه الأنفس وهلكت الأموال ، وقُصارى من امتعض
 لذلك أن يكون كعبض خدامكم من عرب تامسنا ، فما الظن بكم وأنتم الكريم
 ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولاً إلى رَحْمَاكم بالأهل والولد عن حسنة
 تبرعتم بها ، وصدقة حملتكم الحرية على بذلها ؟ ثم فيمن حط رحل الاستجارة

(١) أسئتم : رفعتم ، ويقولون « أسئ فلان جائزة فلان » إذا جعلها سنية :
 أي رقيقة القدر

(٢) فرعها : ساماها في الطول فطال عليها ، والهضبة : المرتفع

بضريح أكرم الخلق عليكم دافع العين خافق القلب واهى الفزعة ، يغطي بردانه ،
ويستجير بعليائه ، كأننى تراميت عليهم فى الحياة أمام الذعر الذى يذهل العقل
ويحجب عن التمييز بقصر داره ومضجع رقادته ، مامن يوم إلا وأجهر بعد التلاوة :
يا ليعقوب ، يا امرين ، نسأل الله تعالى أن لا يتقطع عنى معروفكم ، ولا يسلبنى
عنايتكم ، ويستعملنى ما بقيت فى خدمتكم ، ويتقبل دعائى فيكم ، ولحين وصول
الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس ووضعت يداي ، وقلت : يا مولاي ،
يا كبير الملوك ، وخليفة الله ، وبركة بنى مرين ، صاحب الشهرة والذكر فى المشرق
والمغرب ، عبدك المنقطع إليك ، المتراعى بين يدى قبرك ، المتوسل إلى الله ثم إلى
ولدك بك ، ابن الخطيب ، وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه من رغى وجهك ،
والتقرب إلى الله تعالى برعيتك ، والاشتهار فى مشرق الدنيا ومغربها ببرك ، وأنتم
من أنتم من إذا صنع صنعة كمها ، وإذا من منة تمها ، وإذا أبدى يداً أبرزها
طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقضة ، وأنا بعد تحت ذيل حرمتك وظل
دخيلك ، حتى يتم أملى ، ويخلص قصدى ، وتحف نعمتك بى ، ويطمئن إلى
مأملك قلبى ، ثم قلت للطلبة : أيها السادة ، بينى وبينكم تلاوة كتاب الله
تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة التألف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين
أظهركم ، فأمّنوا على دعائى بإخلاص من قلوبكم ، واندفعت فى الدعاء والتوسل
الذى نرجو أن يتقبله الله تعالى ، ولا يضيعه ، وخطب العبد مولاه شاكر النعمته
مشيد بصنيعته ، مسروراً بقبوله ، وشأنه من التعلق والتطراح شأنه حتى يكمل القصد
ويتم الغرض ، معمور الوقت بخدمة يرفعها ، ودعاء يردده ، والله المستعان ، انتهى .
وكان تقدم من لسان الدين كتاب للسلطان المذكور ، وكان ماسبق من كتاب

(١) ممنونة : يمن بها ، أو منقطعة ، وبهما فسر قوله : (وإن لك لأجراً
غير ممنون)

السلطان جواباً له ، وذلك بعد رجوع لسان الدين من مراکش واستقراره في مدينة
سلا برباط شالة مدفن السلاطين من بني مرين ، ومنهم السلطان أبو الحسن والد
السلطان أبي سالم المذكور ، ونص الكتاب :

من
لسان الدين
إلى السلطان
أبي سالم المريني

مولاي المرحوم لإتمام الصنيعة^(١) وصلة النعمة وإحراز الفخر ، أبقاكم الله تعالى
تُضَرَّبُ بكم الأمثل في البر والرضا وعلو الهمة ورغى الوسيلة ، مُقْبَلُ موطن ، قدمكم
المقطوع إلى تربة المولى والدكم ابن الخطيب من الضريح المقدس بشالة ، وقد حط
رخل الرجاء في القبة المقدسة ، وتيمم^(٢) بالتربة الزكية ، وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم
ساعة إياه من الوجهة المباركة وزيارة الربط المقصودة والترب المعظمة ، وقد عزم
أن لا يبرح طوعاً من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعى حتى يصله من مقامكم
ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ثم عليكم ،
والتماس شفاعته في أمر سهّل عليكم لا يجر إنشاء مال ولا اقتحام خطر ، إنما هو
إعمال لسان ، وخط بنان ، وصرف عزم ، وإحراز فخر وأجر ، وإطابة ذكر ،
وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال
ما يحضر مما يفتح الله تعالى فيه ، ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب
وقال لي صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب — يعني
ابن مرزوق — سئى الله تعالى أملة من سعادة مقامكم وطول عمركم : أنت يا فلان
والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين ، وصدر عنكم من البشر والقبول
والإنعام ما صدر ، جزاكم الله تعالى جزاء الحسنيين ! وقد تقدم تعريف مولاي
بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبما أداه من حصر ذلك
المشهد من خدامكم ، والعبد الآن يعرض عليكم الجواب ، وهو أنى لما فرغت

(١) الصنيعة : اليد والنعمة

(٢) تيمم : قصد

من مخاطبته برأى من الملاً الكبير ، والجُمَّ الفقير ، أ كبت على اللحد الكريم
داعياً ومخاطباً ، وأصغيت بأذنى نحو قبره ، وجعل فؤادى يتلقى ما يوحيه إليه لسان
حاله ، فكأنى به يقول لى : قل لمولاك : يا ولدى ، وقره عيني ، الخصوص برضاي
وبرى وستحريمى ورد ملكى و [الذى] صان أهلى وأكرم صنائى ووصل عملى ،
أسلم عليك ، وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويَقْبَلَ عليك ، الدنيا دار غرور ،
والآخرة خير لمن اتقى .

* وما الناس إلا هالك وابن هالك * (١)

ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضى العفو والمغفرة ، أو ثناء يجلب الدعاء
بالرحمة ، ومثلك من ذكر كفندكر ، وعرف فما أنكر ، وهذا ابن الخطيب قد وقف
على قبرى ، وتَهَمَّ بى (٢) ، وسبق الناس إلى رثائى ، وأنشدنى ومجدنى وبكائى ،
ودعائى وهنائى بمصير أمرى إليك ، وعَفَّرَ وجهه فى تربى ، وأملنى لما انقطعت منى آمال
الناس ، فلو كنت يا ولدى حيّاً لما وَسَعَنى أن أعمل معه إلا ما يليق بى ، وأن
أستقل فيه الكثير ، وأحتقر العظيم ، لكن لما عجزت عن جزائه وَكَلْتَهُ إليك ،
وأحلتها يا حبيب قلبى عليك ، وقد أخبرنى أنه سَلَبُ المال ، كثير العيال ، ضعيف
الجسم ، قد ظهر فى عدم نشاطه أثر السن ، وأمل أن ينقطع بجوارى ، ويستتر
بدخلى وخدمتى ، ويرد عليه حقه بخدمتى ، ووجهى ووجوه من ضاجعنى من
سلفى ، ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتى ، وقد كنت تشوقت إلى استخدامه
فى الحياة حسبما يعلمه حبيبنا الخالص الحجة ، وخطيبنا العظيم المزية القديم القربة ،
أبو عبد الله بن مرزوق ، فأسأله يذكر كرك ، واستخبره بخبرك ، فأنا اليوم أريد أن
يكون هذا الرجل خديمى بعد المات ، إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله تعالى ورحمته

(١) هذا صدر بيت لأبى نواس ، وعجزه * وذو نسب فى الهالكين عريق *

(٢) تههم بى : طلبنى ونحس مكانى ، وأراد استغاث بى ولجأ إلى واستصرخنى

التي وسعت كل شيء ، وله يا ولدى ولد نجيب يخدم ببابك ، وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك ، وقد استقر ببابك قراره ، وتعين بأمرك مرتبه ووثاره ، فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب ، هذه رغبتى منك ، وحاجتى إليك ، وأعلم أن هذا الحديث لا بد له أن يذكر ويتحدث به في الدنيا وبين أيدي الملوك والكبار ، فاعمل ما يبقى لك فخره ، ويتخلد ذكره ، وقد أقام مجاوراً ضريحى ، تالياً كتاب الله تعالى على ، منتظراً ما يصله منك ويقرؤه على ، من السعى فى خلاص ماله ، والاحتجاج بهذه الوسيلة فى جبره ، وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة ، فالله الله يا إبراهيم ، اعمل ما يسمع عنى وعنك فيه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال ، انتهى . والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمة وحرمة سلفه ، منتظر منكم قضاء حاجته ، ولتعلموا وتحققوا أنى لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الأموال ، وسفكت الدماء ، وأخذت حسائن الملوك الأعزة من وراء النهر من الططر وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنهم الله تعالى منى من غير عهد بعد أن بلغهم تدمي^(١) بهذا الدخيل ، ومقامى بين هذه القبور الكريمة ، ما وسع أحداً منهم من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات وإيجاب الحقوق التى لا يُغفلها الكبار للكبار إلا الجود الذى لا يتعقبه البخل ، والعفو الذى لا تفسده المؤاخذه ، فضلاً عن سلطان الأنداس أسعده الله تعالى بموالاةكم ؛ فهو فاضل ، وابن ملوك أفاضل ، وحوله أكياس ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم ، لاسيما مولاي والدكم الذى أتوسل به إليكم وإليهم ، فقد كان يدبجنى مولاي أبا الحجاج ، ويشمله بنظره ، وصارخه بنفسه^(٢) ، وأمدّه بأمواله ، ثم صير الله تعالى ملكه إليكم ، وأنتم من أنتم ذاتا وقبيلا ، فقد قرّرت يا مولاي عين العبد بما رأت فى هذا الوطن

(١) تدمى بي : جعل ذمته وعهده منوطين بي

(٢) صارخه : أجاب نداءه وصريخه

المراكشي من وفور حشودكم ، وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم وعددكم ، زادكم الله تعالى من فضله ! ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم ، وأعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه ، وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان ، وتعلقى بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاي والدكم ، وشهرة حرمة شالة معروفة ، حاش لله أن يضيعها أهل الأندلس ، وما توسل إليهم قط بها إلا الآن ، وما يجهلون إلا اغتنام هذه الفضيلة الغريبة ، وأملى منكم أن يتعين من بين يديكم خديم ، بكتاب كريم ، يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لي ، ويخبر بمشواي مترامياً على قبر والدكم ، ويقرر ما ألزمتكم بسبب هذا الترامي من الضرورة المهمة ، والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا ، وتطلبون منه عادة المسكارمة بحل هذه العقدة ، ومن المعلوم أني لو طلبت بهذه الوسائل من صلب [أموالهم^(١)] ماوسعهم بالنظر العقلي لإحفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن ، فالحياء والحشمة يأتیان العذر عن هذا في كل ملة ونحلة ، وإذا تم هذا الغرض - ولا شك في إتمامه بالله تعالى - تقع صدقكم على القبر الكريم بي وتعينوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقدته ، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المولد في جواره وبين يديه ، وهو غريب مناسب لبركم به ، إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم ، وأعود داعياً مُثنيّاً مستدعياً للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب وأنعوض من ذمتي بالأندلس ذمة بهذا الرباط المبارك يرتها ذريتي ، وقد ساومت في شيء من ذلك منتظراً ثمنه مما يباع بالأندلس بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم في مثل هذا أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته ، لكنهم أسرى وأفضل ، وانقطاعي أيضاً لوالدكم مما لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه ، وها أنا أرتقب جوابكم بمالي عندكم من القبول ، ويسعني مجدكم في الطلب

(١) هذه الكلمة لا توجد في الأصول ، والمعنى يستدعيها أو ما يدل على معناها

وخروج الرسول ، لاقتضاء هذا الغرض ، والله سبحانه يطلع من مولاي على ما يليق به ، والسلام . وكتب في الحادى عشر من رجب عام أحد وستين وسبعمائة .

وفي مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة :

فابذل من البر المقدر فيكا	مولاي ها أنا في جوار أبيكا
والله يسمعك الذى يرضيك	أسمعه ما يرضيه من تحت الثرى
تهدى إليك النصر أو تهديكا	واجمل رضاه إذا نهدت كتيبة
وتطالع الفتح المبين وشيكا	واجبر بحبرى قلبه تنل المني
وأبيه فاشرع شرعه لبنيك	فهو الذى سن البرور بأمه
وبما تؤمل نيله يأتيكا	وابعث رسولك منذراً ومحذراً
وأخاف مملوكا به ومليكا	قد هز عزمك كل قطر نازح
فعصونه ثمر المني تجنيكا	فإذا سموت إلى مرام شاسع
لما جعلتك في الثواب شريك	ضمنت رجال الله منك مطالبي
ورعيتها ركاتها تكفيكا	فلئن كفيت وجوهها في مقصدي
أملأ فربك ما أردت يريكا	وإذا قضيت حوائجي وأريقتي
برهانه لا يقبل التشكيكا	واشدد على قولي يداً فهو الذى
إني ومهجتي التي تفديكا	مولاي ما استأثرت عنك بمهجتي
يضي على العز في ناديك	لكن رأيت جناب شالة مغنا
باقٍ إذا استجزيته يحزبك	وفروض حقل لا تفوت فوقها
أبت المسكارم أن يكون أفيكا	ووعدتني وتكرر الوعد الذى
من كل محذور الطريق يقيكاً ^(١)	أضفي عليك الله ستر عناية

(١) أفيك: فعل من الإنك، وهو الكذب، تقول: أفك يافك - من باب ضرب.

ومن باب علم - إذا كذب.

يبقائك الدنيا تحاط وأهلها فالله جل جلاله يبيحك
فلما وصل الكتاب إلى السلطان أجابه بما مر آنفا .
ورأيت بخط الفقيه الأديب المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي
تزيل تلسان على هامش قول ابن الخطيب في هذه الرسالة « ولا شك عند عاقل
أنكم إن انحلت عروة تأمياكم - إلخ » ماصورته : كذلك وقع آخر الأمر ، وكان
الاستيلاء على مدينة غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام في محرم عام
سبعة وتسعين وثمانمائة ، فرحم الله تعالى ابن الخطيب ، العاقل اللبيب ، وغفر له
رحمته ، انتهى .

ومما خاطب به لسان الدين السلطان أبا سالم في الغرض المتقدم قوله :

عن باب والدك الرضا لا أبرح يا سؤ الزمان لأجل ذا أو يجرح
ضربت خيامي في حماه فصبيتي تحني الجيم به وبهمي تسرح^(١)
حتى يراعي وجهه في وجهي بعناية تشفى الصدور وتشرح
أيسوغ عن مثواه سيرى خائبا ومنابر الدنيا بذكرك تصدح
أنا في حماه وأنت أبصر بالذي يرضيه منك فوزن عقلك أرجح
في مثلها سيف الحمية ينتضي في مثلها زند الحفيظة يقدح
وعسى الذي بدأ الجمل يعيده وعسى الذي سدّ المذاهب يفتح

الاطاق

وقد عرّف في الإحاطة بالسلطان أبي سالم فقال بعد كلام : أملاك المسلمين ، أبو سالم للعرض

ومقتله

وحماة الدين ، وأمراء المغرب الأقصى من بنى مرين ، غيوث المواهب وليه
القرين ، ومعتمد الصريح وسهام الكافرين ، حفظ الله تعالى على الإسلام
والمسلمين ظلهم ، وزين بيدور الدنيا والدين هالتهم ، وأبقى الكلمة فيمن اخذاره
منهم أو من أقاربهم ، فما عسى أن يطنب اللسان في مدحهم ؟ وأين تقع العبارة ؟

(١) الجيم — بفتح الجيم — ماغطى وجه الأرض من النبات ، أو هو النبت
الكثير ، أو الناهض المنتشر ، والهم — بفتح الباء ، وسكون الهاء — الماشية

وماذا يحصر الوصف ؟ إلى أن قال : وفاته - وفي ليلة العشرين من ذى القعدة من عام اثنين وستين وسبعائة ثار عليه بدار الملك و بلد الإمارة المعروف بالبلد الجديد من مدينة فاس الخائنُ الغادرُ مخلفه عليها عمر بن عبد الله بن علي نسمة السوء ، وجلة الشؤم ، والمثل البعيد في الجراءة على الله تعالى ، وقد اهتبل ^(١) غيرةً انتقله إلى القصر السلطاني بالبلد القديم متحولاً إليه حذراً من قطع فسكى كان يحذر منه ، استعجله بضعف نفسه ، وأعاناه على فرض صحة الحكم به ، وسد الباب في وجهه ، ودعا الناس إلى بيعة أخيه المعتوه ، وأصبح حائراً بنفسه ، يروم ارتجاع أمر ذهب من يده ، ويطوف بالبلد يلتمس وجهاً إلى نجاح حيلة ، فأعياه ذلك ، ورشقت من معه السهام ، وفرت عنه الأجناد والوجوه ، وأسلمه الدهر ، وتبرأ منه الجد ، وعندما جنَّ عليه الليل فر لوجهه ، وقد التفَّ عليه الوزراء ، فسفهن حلومهم ، وذالت آراؤهم ، ولو قصدوا به بعض الجبال المنيمة لولوا أوجههم شطر مظنة الخلاص ، واتصفوا بإبلاغ الأعذار ، ولكنهم نكلوا عنه ، ورجعوا أدراجهم وتسللوا راجعين إلى يد غادر الجملة ، وقد سلبهم الله سبحانه لباس الحياء والرجولية وتآذن الله تعالى لهم بعدُ بسوء العاقبة ، وقصد بعض بيوت البادية وقد فضحه نهارُ الغد ، واقتفى المتبعة أثره حتى وقعوا عليه ، فسيق إلى مَصْرَعه ، وقَتِل بظاهر البلد ثانی اليوم الذي غدر به فيه ، جعلها الله تعالى له شهادةً ونفعه ! فلقد كان بقية البيت وآخر القوم دَمَانَةً ^(٢) وحياء ، وبعدا عن الشرور ، وركونا للعاقبة ، وأنشدت على قبره الذي ووريت به جثته بالقلعة من ظاهر المدينة قصيدةً أدتُ فيها بعض حقه :

(١) الغرة — بكسر الغين — الغفلة ، واهتبلها : اقتنصها واقتصرها

(٢) الدمانة : سهولة الخلق ولين الطباع ، وقد دمت ، من باب كرم

بنى الدنيا بنى لمع السراب لدوا الموت وابنوا للخراب

انتهى المقصود من الترجمة .

وكان يصف لسان الدين بمقربى وجليسى ، كما سبقت الإشارة إليه من كلام لسان الدين فيما خاطب به ابن أبى رمانة ، والله يسبل على الجميع رداء عفوه سبحانه وقد تقدم أنه شفع لابن الخطيب عند أهل الأندلس ، ولذلك قال يخاطبهم :

سَيِّىَ خَلِيلَ اللَّهِ أَحْيَيْتَ مَهْجَتِي وَعَاجَلَنِي مِنْكَ الصَّرِيحُ عَلَى بَعْدِ
فَإِنْ عَشْتُ أُبْلِغُ فِيكَ نَفْسِي عَذْرَهَا وَإِنْ لَمْ أَشْ فَاللَّهُ يَجْزِيكَ مِنْ بَعْدِي

وقال الرئيس الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر فى حق ابن الخطيب

ما صورته .

ترجمة
ابن الخطيب
عن ابن الأحمر

هو شاعر الدنيا ، وعلم المفرد والثنى ، وكاتب الأرض ، إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه فى السكتب ، ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وسيف مقوله ليس بالسكهم إذ هو الماضى ، وإلا فانظر كلام السكتاب الأول من العصبه ، كيف كان فيهم بالإفاده صاحب القصبة ، للبراعة ، بالبراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حمدت بكرهم وأصائلهم ، للجزالة المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة ، وهونفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية ، لسكن صل لسانه فى الهجاء ألسع^(١) ، ونجاد نطاقه فى ذلك أنسع^(٢) ، حتى صدمنى ، وعلى القول فيه أقدمنى ، بسبب هجوه لابن عمى ملك الصقع الأندلسى ، سلطان ذلك الوطن فى النفر الجنسى ، المعظم فى الملوك بالقول الجنى والإنسى ، ثم صفحت عنه صفحة القادر ، الوارد من مياه الظفر غير القاذر ، لأن مثلى لا يليق به إظهار العورات ، ولا يحمل له تلبيع العثرات ، اتباعا للشرع فى

(١) الصل — بكسر الصاد — الثعبان ، وإضافة « صل لسانه » من إضافة

المشبه به إلى المشبه

(٢) أنسع : كثير الأذى .

تحريم الغيبة ، وضرا عن الكريهة وإثباتا لحظوظ النقيية^(١) الرغبة ، فما ضره
لو اشتغل بذُنُوبه ، وتأسف على ما شربه من ماء اللهو بذُنُوبه ، وقد قال بعض
الناس : من تعرض للأعراض ، صار عرضه هدفًا لسهام الأغراض ، انتهى

رد اعتراض
أورده ابن
الأحمر على
لسان الدين

ومثل هذا في لسان الدين لا يقدر ، وما زالت الأشراف تهجى وتمدح ،
وعلى تقدير صدور ما يחדش وجه جنابه الرفيع ، فالأولى أن يفشد :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

ومن أثنى على لسان الدين بن الخطيب - رحمه الله تعالى ! - بعضُ أكابر
علماء تلمسان ، ولم يحضرني الآن اسمه ، في تأليف عرف فيه بالشيخ العلامة سيدي
أبي عبد الله الشريف التلمساني وابنيه العالمين أبي يحيى وسيدي عبد الله ، فقال
بعد كلام في حق الشريف ما نصه : وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره ،
وأكثرهم تعظيمًا له ، حتى إن العالم الشهير لسان الدين بن الخطيب صاحب الأنباء
العجيبة ، والتأليف البديعة ، كلما ألف تأليفًا بعثه إليه ، وعرضه عليه ، وطلب أن
يكتب عليه بخطه ، وكان الشيخ الإمام الصدر المفتي أبو سعيد بن لب شيخ علماء
الأندلس وآخرهم كلما أشكلت عليه مسألة كاتبه بها ، وطلب منه بيان ما أشكل
عليه ، مقرأ له بتفضل ، انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور .

رجع :

وكتب لسان الدين بن الخطيب متمثلاً بشيخه الأوحى قاضي الجماعة أبي
البركات بن الحاج البليقي رحمه الله تعالى :

أيتها النفس إليه اذهبي فحُبُّه المشهور من مذهبي
أيأسنى التوبة من حبه طلوعه شمساً من المغرب

(١) النقيية : النفس ، والطبيعة ، ويقال « فلان ميمون النقيية » إذا كان

و يغلب على ظني أنه خاطبه بذلك عند قدومه ، أعنى لسان الدين ، من المغرب إلى الأندلس ، والله تعالى أعلم .

وكان قاضي القضاة برهان الدين الباعوني الشامي ، كثير الثناء على لسان الدين رحمه الله تعالى ، لأنه تلقى أخباره من قاضي القضاة ابن خلدون حسبا ذكرناه في غير هذا الموضع ، ولقد رأيت بخطه على هامش بعض تأليف لسان الدين في الإنشاء ما نصه : هذا بليغ إلى الغاية ، انتهى .

وكتب أثره بعض أكابر علماء المشرق ما نصه : هذا خط العلامة قاضي القضاة برهان الدين الباعوني ، وهو شديد الاعتناء والمدح للمصنف ابن الخطيب الأندلسي ، معظم له ولإنشائه ، وهو خليق بالتعظيم ، جدير بمزيد التمجيد والتكريم وكيف لا وهو شاعر مُفْلِقٌ ، وخطيب مُصْقَعٌ ، وكاتب مترسل بليغ ، لولا ما في إنشائه من الإكثار ، الذي لا يكاد يخلو من عثار ، والإطناب ، الذي يُفَضَى إلى الاجتناب ، والإمهاب ، الذي يَقْدُ الإهاب ، ويورث الالتهاب ، انتهى

قلت : وهذا الانتقاد غير مُسَلَّم ، فإن لسان الدين وإن أطنب وأسهب ، فقد سلك من البلاغة أحسنَ مذهب ، ويرحم الله تعالى العلامة البرهان الباعوني المذكور أعلاه ؛ إذ كتب بخطه في آخر بعض تأليف لسان الدين في الإنشاء ماضورته : قال كاتبه إبراهيم بن أحمد الباعوني لطف الله تعالى به : الحمد لله على ما ألهم من البيان وعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم ، وقَفْتُ على هذا الكتاب من أوله إلى آخره ، وعُمْتُ من بحر بلاغته في زاخره ^(١) ، وعددته من مناقب مؤلفه ومفاخره ، فإنه برز فيه غاية التبريز ، وأتى بما هو أحسن من الذهب الإبريز ، لا بل بما هو أبهى من الجواهر ، والنجوم الزواهر ، وعجبت من تلك

(١) العوم : السباحة ، والبحر الزاخر : الكثير الماء المتلاطم الأمواج ، والكلام على المجاز .

ثناء الباعوني
على لسان الدين

اتهم
لسان الدين
بالإطناب

الرد على هذا
الاتهم

الألفاظ ، المشبهة لسحر الأحاظ ، ورقة المعاني ، الحكمة المباني ، انتهى .

فانظر - أيدك الله تعالى ! - بعين الإنصاف إلى كلام هذا الفاضل ، المنصف الكامل ، وقسّه مع كلام ذلك المفتقد المتعصب الناقص الخامل ، مع أن الكلام الذي تعرض له ذاك بالقدح ، هو الذي تصدى له الباعونى بالمدح ، وكل إناء بالذى فيه ينضح ، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل أهل الفضل ، والأمر أجلى من أن يقام عليه دليل وأوضح .

رجع إلى ما كنا بصده :

بين لسان الدين
والسلطان
الغنى بالله

وقال الوزير ابن عاصم عندما أجرى ذكر سلطان ابن الخطيب أمير المسلمين الغنى بالله بعد كلام كثير ما صورة محل الحاجة منه : وكان هذا السلطان من نبيل الأغراض على أكمل ما يكون عليه مثله ممن نزع^(١) غرقا في قوس الخلافة ، وحكى لى شيخنا القاضى أبو العباس الحسنى أن كبير ولده الأمير أبا الحجاج طلب من الشيخ ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الخطيب أن يطلب من أبيه الغنى بالله أن يبادر بإعذاره ، إذ كان قد جاوز سن الإثتار ، دون إعذار ، لمكان ما لحق والده من التمحيص وغير ذلك من الحوادث المهمة ، فأسعده الشيخ بذلك ، وقال للغنى بالله : يامولانا إن سيدى يوسف وكننى على طلب إعذاره من مولانا نصره الله على ما يليق بك وبه ، فقال له الغنى بالله : حسبي الله ! وسكت سكتة لطيفة تشعر بفصل الكلام بعضه من بعض ، ثم قال : ونعم الوكيل ! فعدها الأكياس من مدارك نبه ، ومحاسن قوله وفعله ، انتهى .

قلت : هذا من السلطان فى حق لسان الدين غاية التبجيل ، أعنى قوله « ونعم الوكيل » فأين هذا من سماع كلام أعدائه فيه بعد ، حتى آل أمره إلى النحس

(١) نزع فلان فى القوس : مدها ، أى جذب وترها ، ونزع فلان عن القوس : رعى عنها ، والغرق : اسم مصدر بمعنى الإغراق .

بعد ذلك السعد ؟ وسقاه دهره بعد الخلاوة مامر ، ولم يكن قتله إلا بتسبب السلطان المذكور كما مر .

ثلاثة ليس لها أمان البحر والسلطان والزمان

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : ولما قضى الله عز وجل بالإدالة ، ورجعنا إلى أوطاننا من العدو ، واشتهر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة ، والتهيه على السلطان والدولة ، وانتكبر على أعلى رتب الخدمة ، وتطارحت على السلطان في استنجاز وعد الرحلة ، ورغبت في تبرئة الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالجملة ، خاطبني - يعني أبا جعفر بن خاتمة - بعد صدر بلغ من حسن الإشارة وبراعة الاستهلال الغاية بقوله : وإلى هذا ياسيدي ومحل تعظيمي وإجلالي ، أمتع الله تعالى الوجود بطول بقائكم ! وضاعف في العز درجات ارتقاكم ! فإنه من الأمر الذي لم يغيب عن رأي العقول ، ولا اختلف فيه أرباب المعقول ، أنكم بهذه الجزيرة شمس أقمها ، وتاج مفرقها ، واسطة سلكها ، وطراز ملسكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دررها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على العموم والخصوص ، ثم أتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبيب مارستانها ، والذي عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها ، ولديه محل المشكل ، وإليه يلجأ في الأمر المعضل ، فلا غرو أن تقيد بكم الأسماع والأبصار ، وتحقق بحكم الأذهان الأفكار ، ويؤجر عنكم السائح والبارح ^(١) ، ويستنبأ ما تطرف عنه العين وتختلج الجوارح ، استقراء ^(٢) أمرامكم ، واستطلاعاً لطالعتهم ، واستكشافاً عن مرآي سهامكم ، لا سيما مع إقامتكم على جناح خفوق ، وظهوركم في ملتصع بروق ، واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق ، حتى تستقر بكم الديار ، ويلقى

من أنى جعفر
ابن خاتمة إلى
لسان الدين

(١) السائح : الطائر يمر من مسابرك إلى ميامنك ، والبارح : الطائر يمر من ميامنك إلى مياسرك ، وبعض العرب يتيامن بالأول ويتشام بالثاني ، وبعضهم على عكس ذلك .
(٢) استقراء لمرامكم : تتبعاً لمواضع رغبتكم .

عصاه التسيار^(١)، وله العذر في ذلك إذ صدَّعُها بفراقكم لم يندمل، وسرورها بلقائكم لم يكتمل، ولم يبرأ بعد جناحُها المهيض، ولا جَمَّ ماؤها المغيض، ولا تميزت من داجيها لياليها البيض، ولا استوى نهارها، ولا تألفت أنهارها، ولا اشتملت نعمائوها، ولا نسيت غمَّؤها، بل هي كالنَّاقِية، والحديث العهد بالسكره، يستشعر نفس العافية، ويتمسح منكم باليد الشافية، فبحنَّاكم عليها، وعظيم حرمتكم على من لديها، لا تشربوا لها عَذْبَ المُجَجَّج بالأجاج، وتقطموها عما عودت من طيب المزاج، فما لدائها وحياة قربكم غير طيبكم من علاج، وإنى ليخطر بخاطري محبة فيكم، وعناية بما يعنيكم، ما نال جانبكم صانه الله تعالى بهذا الوطن من الجفاء، ثم أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم الوفاء، وأرى الوطن إحدى المواطن الأظَّار التي يحقُّ لهنَّ جميلُ الاحتفاء، وما يتعلق بكم من حرمة أولياء القرابة وأوداء الصفاء، فيغلب على ظني أنكم لحسن العهد أجنح، وبحق نفسكم عن حق أوليائكم أسمع، ولِلَّيِّ هي أعظم قيمة من فضائلكم أوهبُ وأسجَحُ، وهب أن الدر لا يحتاج في الإثبات، إلى شهادة النحور واللِّبَّات، والياقوت غنى المسكان، عن مظاهرة القلائد والتيجان، أليس أنه أعلى للعيان، وأبعد عن مكابرة البرهان، تألقها في تاج الملك أنوشروان؟ فالشمس وإن كانت أم الأنوار، وجلاء الأبصار، مهما أغنى مكانها من الأفق قيل: أليلٌ هو أم نهار، وكما في علمكم ما فارق نزو الأرحام، وأولو الأحلام، مواطن استقرارهم، وأما كن قرارهم، إلا برغمهم واضطرارهم، واستبدال دار خير من دارهم، ومتى توازن الأندلس بالمغرب، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب؟ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعُبَّاد، وما فوقه مرابط جهاد، ومعاهد ألوية في سبيل الله ومضارب أوتاد، ثم ييؤأ ولده مبولأ

(١) أخذ هذه العبارة من قول الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتلاده ، أعيد أنظاركم المسددة من رأي فائل ،
وسعى طويل لم يحل منه بظائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعود الحميد .
وهي طويلة .

جواب
لسان الدين
على ابن خاتمة

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : فأجبت بقلبي :
لَمْ فِي الهوى العذرى أو لا تلم فالعذل لا يدخل أسمى
شأنك تعنفي وشأني الهوى كل امرئ في شأنه ساعى
أهلاً بتحفة القدم ، ورِيحانة المنادم ، وذكر الهوى المتقادم ، لا يصغر الله مسراك !
فما أسراك ، لقد جبت إلى من هومى ليلاً ، وجست رجلاً وخيلاً ، ووفيت من
صاع الوفاء كيلاً ، وظننت بي الأسف على مافات ، فأعملت الالتفات ، لكيلاً^(١) ،
فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدي ، أو كانت اللمة السوداء من عُددي ، ما أفلت أسراكى
المنصوبة لأمثالك ، حول المياه وبين المسالك ، ولا علمت ما هنالك ، لكنك
طرقت حِمى كَسَعَتُهُ الغارة الشعواء ، وغيرت رَبْعَهُ الأنواء ، فحمد بعد ارتجاجه ،
وسكت أذين دجاجه ، وتلاعبت الرياحُ الهُوجُ فوق فِجَاجِهِ ، وطال عهدُهُ بالزمن
الأول ، وهل عند رسم دارس من مُعَوَّل^(٢) ، وحيا الله نَدْباً إلى زيارتي
نَدَبَكَ ، وبآدابه الحكيمية أدَبَكَ

فكان وقد أفاد بك الأمانى كمن أهدى الشفاء إلى العليل
وهي شيمة بوركك من شِيمَةٍ ، وهبة الله تعالى قبله من لدن المشيمة ، ومن
مثله في صلة رعى ، وفضل سعى ، وقول وعى :

قسما بالكواكب الزهر والزهر عاتمه

إنما الفضل ملة ختمت بابن خاتمة

(١) يشبر إلى قوله تعالى : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)

(٢) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس وهو بنامه :

وإن شفائي عبرة مهراقة وهل عند رسم دارس من معول

كسافى حلة فضله ، وقد ذهب زمان التجمل ، وحملنى شكره وكتدى واه عن
التحمل ، ونظرنى بالعين السائلة عن العيب^(١) ، فهلا أجاد التأمل ، واستطلع
طلع نثى ، ووالى فى مبرك المعجزة حتى ؟ إنما أشكو بثى^(٢) :
* ولو ترك القطا ليلا لناما *^(٣)

وما حال شمل وتده مفروق ، وقاعدته فروق ، وضواع بنى أبيه مسروق ،
وقلب قرّحه من عصّة الدهر دام ، وجمرة حسرته ذات احتدام ، هذا وقد صارت
الصغرى ، التى كانت الكبرى ، لمشيب لم يرع أن هجم لما نجم ، ثم تهلل
عارضه وانسجم :

لا تجمعى هَجْرًا عَلَىَّ وغربةً فالهجر فى تلف الغريب سريع
نظرت فإذا النفس فريسة ظفر وناب ، والمال أكلة انتهاب ، والعمر رهن ذهاب ،
واليد صفر من كل اكتساب ، وسوق المعاد مترامية ، والله سريع الحساب .
ولو نُعْطِيَ الخيام لما افترقنا ولكن لا خيار مع الزمان
وهب أن العمر جديد ، وظل الأمن مديد ، ورأى الاغتياب بالوطن سديد ،
فما الحجة لنفسى إذا مرت بمطّارح جفوتها ، وملاعب هموتها ، ومثاقف قناتها ،
ومظاهر غزّاها ومنااتها ، والزمان ولود ، وزناد الكون غير صلود .
وإذا امرؤ لدغته أفعى مرة تركته حين يُجَرُّ حبل يَفْرَقُ

ثم إن المرغب قد ذهب ، والدهر قد استرجع ما وهب ، والعارض قد اشتبه ،
وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضة ، وأسماءه على الجوار مخفوضة ، والنية

(١) يشير إلى قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

(٢) إشارة إلى قوله تعالى على لسان يعقوب (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله)

(٣) هذا عجز بيت ، صدره قوله * ألا ياقومنا ارتحلوا وسيروا * ويضرب

مثلا لمن حمل على مكروه من غير إرادته

مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة ، والتوبة بفضل الله عز وجل منقودة ، والمعاملة سامرية ، ودروع الصبر سابرية ، والاقتصاد قد قرت العين بصحبته ، والله قد عوض حب الدنيا بمحبته ، فإذا راجعها مثلى من بعد الفراق ، وقد رَقَى لدغتها ألف راق ، وجمعتني بها الحجرة ، ما الذي تكون الأجرة ؟ جل شأني ، وإن رضى الوامق وسخط الشاني ، إني إلى الله تعالى مهاجر ، وللعرض الأدنى هاجر ، ولأطعان السرى زاجر ، لنجد إن شاء الله تعالى وحاجر ، لكن دعاني للهوى ، إلى هذا المولى المنعم هوى ، خلعت نعلي الوجود وما خلعت ، وشوقى أمرنى فأطعته ، وغالب الله صبرى فما استطعته ، والحال أغلب ، وعسى أن لا يخبىء المطلب ، فإن يسر رضاه فأمر كمل ، وراحل احتمل ، وحاد أشجى الناقه والجل ، وإن كان خلاف ذلك فالزمان جم العلائق ، والتسليم بمقامى لائق :

ما بين غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا يُصَرِّفُ الْأَمْرُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

وأما تفضيله هذا الوطن لِيُثْمِنَ طَبِيرَهُ ، وعموم خيره ، وبركة جهاده ، وعمران رُبَاهِ وَوَهَادِهِ ، بأشلاء عُبَادِهِ وَزُهَّادِهِ ، حتى لا يفضلهُ إِلَّا أَحَدُ الْحَرَمَيْنِ ، فَحَقُّ بَرِيٍّ مِنَ الْمَيِّنِ ، لَسَكَنِي لِلْحَرَمَيْنِ جَنَحَتْ ، وَفِي جَوْ الشُّوقِ إِلَيْهِمَا سَنَحَتْ ، فَقَدْ أَفْضَتْ إِلَى طَرِيقِ قَصْدِي مَحَبَّتُهُ ، وَنَصَرَتْنِي وَالْمَنَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى حُبَّتُهُ ، وَقَصْدُ سَيِّدِي أَسْنَى قَصْدُ تَوْخَاهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ ، وَمَعْرُوفٌ عَرَفَ بِهِ النُّكْرَ ، وَالْأَمَالُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ بَعْدُ تَمْتَنُّ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، وَدَعَاؤُهُ بظُهِرِ الْغَيْبِ مَدَدٌ ، وَعِدَّةٌ وَعَدَدٌ ، وَبَرَهُ حَالِي الظَّنِّ وَالْإِقَامَةُ مَعْتَمِلٌ وَمَعْتَمِدٌ ، وَمَجَالُ الْمَعْرِفَةِ بِفَضْلِهِ لَا يَحْصِرُهُ أَمَدٌ ، وَالسَّلَامُ ، انْتَهَى .

ومن خط ابن الصباغ ما صورته : يكفى ابن خاتمة الغاية التى سلمها له إمام الطريقة ، وواحدها الفذ على الحقيقة ، حيث قال :

إِنَّمَا الْفَضْلُ مِلَّةٌ خَتَمْتُ بِابْنِ خَاتِمِهِ

ومن نظمه وقد تخلى عن الكتابة وطلب منه أن يعود فأبى وأشد :

تقضى في الكتابة لى زمان كشأن العبد ينتظر الكتابة
فمن الله من عتقنى بما لا يطيق الشكر أن يملا كتابه
وقالوا هل تعود فقلت كلا وهل حر يعود إلى الكتابه

فانظر حُسنَ هذه التورية العجيبة^(١) ، انتهى .

من ابن خاتمة ولابن خاتمة يخاطب ابن جُزى : يا أخى الذى سماؤده أن يُجَازى ، وسيدى
إلى ابن جزى الذى علا مجده عن أن يُوازى ، وصل الله تعالى لك أسباب الاعتلاء والاعتزاز !
وكافأ مالك من الاختصاص بالفضائل والامتياز ! أما إنه لو وسع التخلف عن
جواب أخ أعز ، ولم يجب التكلف بإجابة مَنْ أبان فأعجز ، لغطيت عجزى عن عين
تمجيزك ، ولما تعاطيت الثول بين يدى مناهزك أو مجيرك ، لكنه فى حكم الود
المكنون للكنوز ، مما لا يحل ولا يجوز ، فلکم الفضل فى الإغضاء عن عاجز ،
دعاه حكم التكلف إلى القيام قيام مُناجز ، وإن لم يكن ذلك عند الإنصاف ،
وحميد الأوصاف ، من السائع الجائز ، فعن جهد ما بلغ وليك إلى هذه الأحواز ،
ولم يحصل الحقيقة إلا على الحجاز ، وأما ما ذهبتم إليه من تخميس القصيدة التى
أعجزت ، وبلغت من البلاغة العاية التى عزت مُنْكَهَضْها وأعوزت ، فلم أكن
لأستهدف ثانياً لمضاضة الإعجاز ، وأسجل على نفسى بالإفلاس والإعواز ، انتهى .
وكتب قبلها قصيدة زائفة أجابه بها عن قصيدة رائية ، التزم فيها ابنُ جزى
ترك الرأى ، لأنه كان أَلْثَغَ يبيدها غينا ، رحم الله تعالى الجميع ! .

ترجمة وقال لسان الدين فى ترجمة ابن خاتمة المذكور : إنه الصدر المتفنن المشارك ،
ابن خاتمة عن القوى الإدراك ، السديد النظر ، الثاقب الذهن ، الكثير الاجتهاد ، الموفور
لسان الدين

(١) الكتابة : عقد يعقده السيد مع عبده على أن يؤدى له العبد قدرا من المال
يصير بعد أدائه حرا ، ولا يعود إلى العبودية بعد ذلك ، والتورية فى هذه الأبيات بهذا

الأدوات ، المعين الطبع ، الجيد القريحة ، الذى هو حسنة من حسنات الأندلس ،
أحمد بن على بن خاتمة ، من أهل المرية ، إلى أن قال : ومما خاطبني به بعد إلام
الركاب السلطاني ببلده وأنا صحبته ، ولقائه إياي بما يلقى به مثله من تأنيس وبر ،
وتودد ، وتردد :

يامن حصلت على الكمال بما رأيت عيناي منه من الجمال الرائع
مقرر يروق وفي عطايا برده ما شئت من كرم ومجد بارع
أشكو إليك من الزمان تحاملا في فضٍّ شمل لي بقربك جامع
هَجَمَ البعاد عليه ضنا باللقا حتى تقلص مثل برق لامع
فلو أننى ذو مذهب لشفاة ناديته يا مالكى يا شافعى

شكواى إلى سيدى ومُعَظِّمى - أقر الله تعالى بسنائه أعين المجد ! وأدرَّ بثنائه ألسن
المجد ! - شكوى ظمآن صُدَّ عن القَرَّاح العَذْب لأوّل وروده ، والهيمان رد عن
استرواح القرب لمعضل صدوده ، من زمان هم على بإبعاده ، على حين إسعاده ،
ودهنى بفراقه ، غبَّ إنارة أفق به وإشراقه ، ثم لم يكفه ما اجترم فى ترويع
خياله الزاهر ، حتى حرم عن تشييع كماله الباهر ، فقطع عن توفية حقه ، ومنع من
تأدية مستحقه ، لاجرم أنه أنف لشعاع ذُكَّاه^(١) ، من هذه المطالع النائبة عن شريف
الإنارة ، وبخل بالإمتاع بذُكَّاه ، عن هذه المسامع النائبة عن لطيف العبارة ،
فراجع أنظاره ، واسترجع مُعاره ، وإلا فمهدي بغروب الشمس إلى الطلوع ، وأن
البدر يتصرف بين الإقامة والرجوع ، فما بال هذا النير الأسعد ، غَرَبَ ثم لم يطالع
من الغد ، ماذا إلا لعدوى الأيام وعُدْوَانِها ، وشأنها فى تغطية إساءتها وجه
إحسانها ، وكما قيل : عادت هيف إلى أديانها ، أستغفر الله أن لا يعد ذلك من المغتفر ،

(١) ذكاه — بضم الذال — اسم من أسماء الشمس ، ويقال للقمر « ابن ذكاه »

في جانب مأولت من الأثر^(١)، التي أزرى العيان فيها بالأثر، وأربنى الخبر على الخبر، فقد سرت متشوّفات الخواطر، وأقرّت مستشرفات النواظر، بما حوت من ذلكم السكّال الباهر، والجمال الناضر، الذي قيد خطا الأبصار، عن التشوّف والاستبصار، وأخذ بأزمنة القلوب، عن سبيل كل مأمول ومرغوب، وأنى للعين، بالتحوّل عن كمال الزّين؟ أو الطرف، بالتّقلع عن خلال الظرف؟ أو للسمع من مراد، بعد ذلكم الإصدار الأدبي والإيراد، أو للقلب من مراد، غير تلكم الشيم الرافلة من ملابس السكّرم في خلل وأبراد، وهل هو إلا الحسن جمع في نظام، والبدر طالع لتمام، وأنواع الفضل ضمها جنس اتفاق والتثام، فما ترعى العين منه في غير مرعى خصيب، ولا تستهدف الأذن بغير سهم في حديق البلاغة مصيب، ولا تستطلع النفس سوى مطلع له في الحسن والإحسان أوفر نصيب، لقد أزرى بناظم حلاه فيما يتعاطاه التقصير، وانفسح مدى علاه بكل باع قصير، وسفه حلم القائل إن الإنسان عالم صغير، شكرا للدهر على يد أسداها بقرب مزاره، وتحفة أهداها بمطلع أنواره، على تعاليه في أدخاره، نفائسه وتحليه بنفائس أدخاره، لا غرو أن يضيق عنا نطاق الذكر، ولا يتسع لنا سوار الشكر، فقد عمت هذه الأقطار بما شاءت من تحف بين تحف وكرامة، واجتنت أهلها ثمرة الرحلة في ظل الإقامة، وجرى لهم الأمر في ذلك مجرى الكرامة، ألا وإن مفاتيحي لسيدي ومعظمي - حرس الله تعالى مجده، وضاعف سعده! - مفاتيحة من ظفر من الدهر بمطلوبه، وجرى له القدر على وفق مرغوبه، فشرع له إلى أهله بابا، ورفع له من خجله جلبابا، فهو يكلف بالاقتحام، ويأنف من الإحجام، غير أن الحصر عن درج قصده يقيده، والبصر يبهّرج نقده فيقعده، فهو يُقدّم رجلا ويؤخر أخرى، ويجدد عزما ثم لا يتحرّى، فإن أبطأ خطابي فلو اوضح الأعدار، ومثلكم من قبل

(١) الأثر : جمع أثره - بضم الهمزة وسكون ثاء المفرد وفتحها في الجمع - وهى المكربة المتوارثة .

جليات الأقدار ، والله سبحانه يصل لكم عوائد الإسعاد والإسعاف ، ويحفظ بكم ما للمجد من جوانب وأكناف ، إن شاء الله تعالى . وكتب في عاشر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعائة ، انتهى .

ومن خاتمة رسالة من إنشاء ابن خاتمة المذكور : فلنصرف عنان البطالة عن الإطالة ، ونسلم على السيادة الطاهرة الأصالة ، بأطيب تسليم ، ختامه مسك ومزاجه من تسليم .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور :

هو الدهر لا يبقى على عائد به فمن شاء عيشاً يصطبر لنوابه^(١)
فمن لم يصب في نفسه فمصابه بفوت أمانيه وفقد حبابه
ومنه قوله :

ملاك الأمر تقوى الله ، فاجعل ثقاه عُدَّةً لصلاح أمرك
وبادر نحو طاعته بعزم فما تدري متى يقضى بعمرک

وقال لسان الدين : وكتب إلى — يعنى ابن خاتمة المذكور — عقب انصرافه من ابن خاتمة إلى لسان الدين من غرناطة في بعض قدماته عليها ما نصه : مما قلته بديهية عند الإشراف على جنابكم السعيد ودخوله مع النفر الذين أتخفتهم سيادتكم بالإشراف عليه ، والدخول إليه ، وتنعيم الأبصار في المحاسن المجموعة لديه ، وإن كان يوماً قد غابت شمسها ، ولم يتفق أن كل أنسه ، وأنشدته حينئذ بعض من حضر ولعله لم يبلغكم ، وإن كان قد بلغكم ففضلكم يحملني في إعادة الحديث :

أقول وعين الدمع نصب عيوننا ولاح لبستان الوزارة جانب
أهذى سماء أم بناء سماءه كواكب غضت عن سناها الكواكب

تناظرت الأشكال منه تقابلاً على السعد وسُطى عقده والحبائبُ
وقد جرت الأمواه فيه مجرة مذاربها شهبٌ لمن ذوائبُ
وأشرف من عليه بهو تحفه شمسي زجاج وشيهاً متناسب^(١)
يطل على ماء به الآس دأراً كما افتر ثغراً أو كما اخضر شارب
هنالك ما شاء العلا من جلاله بهما يزدهى بستانها والمراتب
ولما أحضر الطعام هنالك دعى شيخنا القاضي أبو البركات فاعتذر أنه صائم
قد بيّته من الليل ، فحضرني أن قلت :

دعونا الخطيب أبا البركات لأكل طعام الوزير الأجل
وقد ضمنا في نداء جنان به احتفل الحسن حتى كمل
فأعرض عنا لعذر الصيام وما كل عذر له مستقل
فإن الجنان محل الجزاء وليس الجنان محل العمل^(٢)

وعندما فرغنا من الطعام أنشدت الأبيات شيخنا أبا البركات ، فقال لي : لو أنشدتنيها
وأنتم بعد لم تفرغوا منه لأنك كنت معكم ، برا بهذه الأبيات ، والحوالة في ذلك
على الله تعالى ، انتهى .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور في فران :

رب فران جلاً صفحته لهبُ القرن جلاء العسجد
يضرم النار بأحشاء الورى مثل ما يضرم في المستوقد
فكأن الوجه منه خُبزة فوقها الشعر كقدر أسود

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : ولما قدمت مائدة آيياً من السفارة إلى ملك
المغرب محفوفاً بفضل الله تعالى وجميل صنعه ، مؤثراً المأرب ، مصححاً بالإعانة ،

(١) البهو — بفتح الباء وسكون الهاء — البيت المقدم أمام البيوت ، وبجمع
على أبهاء . (٢) الجنان : جمع جنة ، وأراد بها الدار الآخرة التي وعد بها المتقون ،
وهي دار جزاء ، وليست دار تكليف ، وإنما دار التكليف هي الدنيا .

لقد تقيى على عادته مهنيآ ، يعنى أهد بن صفوان أهد أعلام مالقة وبقية أدبائها
وصدور كتابها ، وأنشدنى معيدآ فى الود ومبديآ ، وضمن غرضآ له تعجل قضاءه
والحمد لله تعالى :

من نظم أهد
ابن صفوان

قدمت بمأسر النفس اجتلاؤه	فهنت ماعم الجميع هناؤه
قدوماً بخير وافر وعناية	وعز مشيد بالمعالي بناؤه
ورفعة قدر لا يدانى محلها	رفيع وإن ضاهى السماء اعتلاؤه
عنيت بأمر المسلمين فكلهم	بما يرتجيه قد توالى دعاؤه
بلغت الذى أملت من صلاحهم	فأدركت مأمولا عظيما جزاؤه
فيا واحدا أغنت عن الجمع ذاته	وقام بأعباء الأمور غناؤه
تشوقك الملك الذى بك فخره	وأنت حقيقا حسنه وبهاؤه
فلا زال مُزْدَانًا بحليك جوده	ولا زال موفورا عليك اصطفاؤه
وخصّصت من رب العباد بنعمة	ينيلكها تخصيصه واحتفاؤه
وعشت عزيزاً فى النفوس محببا	يُلبى بتبجيل وبر نداؤه
وقد جاءنى داعى السرور مؤديا	لحق هناء قرّض عين أدائه
ولى بعد هذا مأرب متوقف	على فضلك الرحب الجنب قضاؤه
هرزت له عطف البطرنى راجيا	له النجح فاستعصى وخاب رجاؤه
ولم يدر إني من علاك لمنتضى	حساما كفيلا بالنجاح انتضاؤه (١)
يصم إن هرزته كفى لمعضل	فيكفى العنا تصميمه ومضاؤه
فحق له دامت سعودك حرمتى	لديك يرحنى مطاله والتواؤه
وشارك محبا خالصا لك حبه	قديميا كريما عهد ووفائه

وصِلْ بِجَزِيلِ الرَّعَى حَبْلَ زَمَامِهِ يَصْلُكَ جَزِيلاً شُكْرَهُ وَثَنًاوَهُ
بَقِيَتْ وَصَنَعَ اللهُ يَدَنِي لَكَ الْمُنَى وَيُولِيكَ مِنْ مَصْنُوعِهِ مَا تَشَاوُهُ
بِحَرْمَةٍ مَنْ حَقَّتْ سَيَادَتُهُ عَلَى بَنِي آدَمَ وَاخْلُيْ مِنْهُ ابْتِدَاوُهُ

وجمعت ديوان شعره أيام مقامي بمالقة عند توجهي بحبة الركاب السلطاني إلى
إصراخ الخضراء عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وقدمت صدره خطبة ، وسميت
الجزء « بالدرر الفاخرة ، واللجج الزاخرة » وطلبت منه أن يحيزني وولدي عبدالله
رواية ذلك عنه ، فكتب بخطه الرائق ، بظهر المجموع مانصه : الحمد لله مستحق
الحمد ، أجبته سؤال الفقيه الأجل الأفاضل السري الماجد الأواحد الأحفل الأديب
البارع الطالع في أفق المعرفة والنباهة ، والرفعة المكيمة والوجاهة ، بأبهى المطالع ،
المصنف الحافظ العلامة الخاتر في فني النظم والنثر ، وأسلوبي الكتابة والشعر ، رتبة
الرياسة والإمامة ، محلي جيد العصر بتأليفه الباهرة الرؤاء^(١) ، ومجلى محاسن بنيه
الرائقة على منصة^(٢) الإشارة والأنباء أبي عبدالله بن الخطيب ، وصل الله تعالى سعادتة ،
وحرس مجادته ، وسنى من الخير الأوفر ، والصنع الأبر ، مقصده وإرادته ، وبلغه في
نجله الأسعد ، وابنه الرقيق بمحتده الفاضل ومنشئه الأطهر محل الفرقد ، أفضل ما يؤمل
نخلته إياه من المكرمات وإفادته ، وأجزت له ولابنه عبدالله المذكور أبقاهما الله تعالى في
عزة سنية الخلال ، وعافية ممتدة الأفياء وارفة الظلال ، رواية جميع ما تنقيد في الأوراق
المكتتب على ظهر أول ورقة منها من نظمي ونثري ، وما توليت إنشاء ، واعتمدت
بالارتجال والرواية اختياره وانتقاه ، أيام عمرى ، وجميع مالى من تصنيف وتقييد ،
ومقطوعة وقصيد ، وجميع ما أحمله عن أشياخى رضى الله تعالى عنهم من العلوم ، وفنون
المنثور والمنظوم ، بأى وجه تأدّى ذلك إلى ، وصح حملى له وثبت إسناده لدى ،

إجازة
من ابن صفوان
اللسان الدين
وولده عبد الله

(١) الجيد — بكسر الجيم — العنق ، والرواء — بضم الراء بزنة الغراب — المنظر

(٢) مجلى : مظهر ، وأصله تجلية العروس عند زفافها ، والمنصة — بكسر الميم وفتح

النون وتشديد الصاد — الكرسى الذى ترفع عليه العروس لترى من بين النساء .

إجازة تامة ، في ذلك كله عامة ، على سَنَنِ الإجازات الشرعى ، وشرطها المأثور عند أهل الحديث المرعى ، والله ينفعني وإياها بالعلم وحمله ، وينظمننا جميعاً في سلك حزبه المفلح وأهله ، ويفيض علينا من أنوار بركته وفضله ، قال ذلك وكتبه بخط يده الفانية العبدُ الفقير إلى الله الغنى به أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان ، ختم الله تعالى له بخير ! حامداً الله تعالى ، ومصلياً ومسالماً عن نبيه المصطفى الكريم ، وعلى آله الطاهرين ذوى المنصب العظيم ، وصحابته البررة أولى الأثره والتقديم ، في سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وسبعائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، انتهى .

وكتب الفقيه أبو جعفر بن عبد الملك العذرى من أهل بَلَنْسِيَةِ إلى لسان الدين رحمه الله تعالى في بعض الأغراض :

إني بمجديك لم أزل مُسْتَقِيمًا أن لا يهدم بالتغير ما بنى
إذ أنت أعظم ما جدي يعزى له صفح وأكرم من عفا عن جنى
وكتب أيضاً :

إن كان دهرى قد أساء وجارا فذمام مجديك لا يضيع جارا
فلأنت أعظم ملجأ يُنَجِّي إذا ما الدهر أنجد موعداً وأغارا

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : خاطبتُ الشيخَ الشريفَ الفاضلَ أبا عبد الله بن من لسان الدين
إلى ابن نفيس
نفيس صحبة ثمن مسكن اشتريته منه ، وكان قد أهداني فرساً عتيقاً :

جزيت يا ابن رسول الله أفضل ما جزى الإلهُ شريف البيت يوم جزى
إن أعجز الشكر منى منة ضعفت عن بعض حقك شكرُ الله ما عجزاً^(١)

سیدی ، أبقى الله شرفك تشهد به الطباع ، إذا بعدت المعاهد المقدسة والرباع !

(١) المنة : القوة ، يريد إن كان شكرك فوق ما أستطيعه فإنى أكل شكرك إلى الله يجزيك أحسن الجزاء عما قدمت لى ، وهو من حديث عن النبي معناه «من أسدى إليه معروف فليشكر مسديه ، فإن لم يستطع فليدع له » أو كما قال .

وتعترف به الأبصار والأسماع ، وإن حجبت عارضها الإجماع ، بأى لسان أثنى ؟
 أم أئى الأفتان أهصر^(١) وأجنى ؟ أم أى المقاصد الكريمة أعنى ؟ أمطيت جوادك
 المبارك ، وأسكنت دارك ، وأوسعت مطلبى اصطبارك ، وهضمت حقل و بوات
 جوارك ، ووصلت للغرباء إيثارك ، أشهد بأنك الكريم ابن الكريم ، لا أقف
 فى تعدادها عند حد ، إلى خير جد ، فإن أعان الدهر على مجازاه ، وإن ترفع كرمك
 عن مؤازراه ، فحاجة نفس قضيت ، وأحكام آمال أمضيت ، وإن اتصل العجز
 فعين على القذى أغضيت ، ومناصل عزم ما انتضيت ، وعلى كل حال فالثناء ذائع
 والحمد شائع ، واللسان والحمد لله طائع ، والله مشتري ما أنت بائع ، وقد وجهت من
 يحاول لسيدى ثمن ما اكتسبه مجده ، وسفر عنه حمده ، والعقيدة بعد التراضى ،
 وكال التقاضى ، وحيد الصبر وسعة النغاضى ، وكونه الخضم والقاضى ، أنه هبة
 سوغها إنعامه ، وأكلة هناها مطعامه ، نسأل الله تعالى أن يعلى ذكره ، ويتولى
 شكره ، ويُنمى ماله ، ويرفع قدره ، والولد جاره الغريب الذى برز إلى مقارعة
 الأيام عن خبرة قاصرة ، وتجربة غير منجدة على الدهر وناصرة ، قد جعلته وديعة
 فى كرم جواره ، ووضعته فى حجر إيثاره ، فإن زاع قيد العلىا فى تبصيره ،
 ومؤاخذته بتقصيره ، ومن نبه مثله نام^(٢) ، ومن استنام إليه بهممه أكرم بمن إليه
 استنام ، وإن تشوف سيدى لخال محبه فمطلق للدنيا من عقل ، ورافض أثقال ،
 ومؤمل اعتياض بخدمة الله تعالى وانتقال ، انتهى .

من لسان الدين
 إلى أبى القاسم
 ابن رضوان
 وقال رحمه الله تعالى : مما خاطبت به صدر الفضلاء الفقيه المعظم أبا القاسم
 ابن رضوان بما يظهر داعيته من فحواه :
 مرضت فأيامى لديك مريضة وبروك مقرون ببراء اعتلالها

(١) هصر الغصن يهصره — من باب ضرب — جذبه إليه وأماله ليأخذ
 ما فيه من ثمرة .

(٢) أخذ هذا من قول الشاعر بشار بن برد :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمرا ثم نم

فلا راع تلك الذات للضر رائع ولا وسمت بالسقم غر خلاها
وردت على من فتى التي إليها في معرك الدهر أنحيز ، وبفضل فضلها في الأقدار
المشتركة أتميز ، سحابة^(١) سرت وساءت ، وبلغت من القصدين ماشاءت ، أطلع بها
سيدي صنعة وده من شكواه على كل عابث في السويداء ، موجب اقتحام
البدياء ، مضرّم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلا القليل ، ولا من إفصاح
لسانه إلا الأثنين والأليل ، ونوى مدت لغير ضرورة يرضاها الخليل ، فلا تسأل عن
خنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع متقبل أعماله ، أو أمل ضويق في
غذلكة آماله ، لكنني رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق ، وعارضت القواعد
الموحشة بالفروق ، ورأيت الخطأ يهبر والحمد لله تعالى ويروق ، واللفظ الحسن
تومض في حبه للمعنى الأصيل بروق ، فقلت : ارتفع الوصب ، ورد من الصحة
المغتصب ، وآلة الحس والحركة هي العصب ، وإذا أشرق سراج الإدراك دل على
سلامة سليلته^(٢) ، والروح خليط البدن والمرء بخليطه ، وعلى ذلك فلا يقنع بليد
احتياطي إلا الشرح ، فقيه يسكن الظما البرح ، وعذرا عن التكليف فهو محل
الاستقصاء والاستفسار ، والإطباب والإكثار ، وزند القلق في مثلها أوزرى ،
والشفيق بسوء الظن مغرى^(٣) ، وسيدي هو العمدة التي سلمت لي الأيام فيها ،
وقالت : حسب آمالك ويكفيها ، فكيف لا أشفق ، ومن أنفق من عينه فأنا من
عيني لا أنفق ، والله لا يحبط سعي في سؤال عصمتها ولا يخفق ، ويرشد إلى
شكره على ما وهب منها ويوفق ، والسلام الكريم على سيدي البر الوصول ، الذي
زكت منه الفروع لما طابت الأصول ، وخلص من وده لابن الخطيب المحصول ،
ورحمة الله تعالى وبركاته .

(١) أراد بالسحابة الرقعة التي يكتب فيها

(٢) السليط : الزيت ، وكانت توقد به القناديل

(٣) هذا مثل ، ومغرى - بزنة اسم المفعول - مولع

من ابن رضوان
إلى لسان الدين

قال : فراجعني حفظ الله سيادته بما نصه :

متى شئت أنفي من علائك كل ما ينيل من الآمال خير منها
كبره اعتلال من دعائك زارني وعادات برلم ترم عن وصالها (١)

أبقى الله ذلك الجلال الأعلى متطوِّلاً بتأكيد البر ، متفضلاً بموجبات الحمد والشكر ،
وَرَدَّتْني سَخَاءته المشتمة على معهود تشريفه ، وفضله الغنى عن تعريفه ، متحفياً
في السؤال ، عن شرح الحال ، ومُعلنًا بما تحلى به من كرم الخلال ، والشرف
العال ، والمعظم على ما يسر ذلك الجلال الوزاري الرياسي أجراه الله تعالى على
أفضل ما عَوَّدَه ، كما أعلى في كل مكرمة يده ، ذلك ببركة دعائه الصالح ، وحبه
الخيم بين الجوانح ، والله سبحانه المحمود على نعمه ، وموهاب لطفه وكرمه ، وهو
سبحانه المسؤول أن يهيئ لسيدى قرار الخاطر ، على ما يسره في الباطن والظاهر ،
بمن الله تعالى وفضله ، والسلام الكريم على جلاله الأعلى ورحمة الله وبركاته ،
كتبه المعظم الشاكر الداعي الذاكر المحب ابن رضوان ، وفقه الله تعالى ! في ذى الحجة
ختم عام واحد وستين وسبعائة ، انتهى .

من لسان الدين
إلى الشيخ
الجنان
وقال رحمه الله تعالى : وفاتحته - يعني الشيخ الجنان - محرّكا قريحته ومستثيرا
ما عنده ، بقولي :

إن كانت الآداب أضحت جنة فلقد غدا جنانها الجنان

أفلامه القُضْبُ اللَّدَانُ بدوَحها والزهر ما رقته منه بنان

وذكر بعد البيتين سجّعا بليغا ، ثم قال : فراجعني الجنان بما نصه :

يا خاطب الآداب مهلا فقد ردك عن خطبتها ابن الخطيب

هل غيره في الأرض كف لها وشرطها الكفاة قول مصيب

من الشيخ
الجنان
إلى
لسان الدين

(١) لم ترم : لم تبرح ولم تفارق ، رام يريم ربما - بوزن باع يبيع بيعا - إذا
أقام في مكانه وثبت ، ولم يفارقه ولم يزايله

أصبح للشرط بها معرسا فاستفت في الفسخ فهل من محجب
أيها السيد الذي يُتَمَنَّاس في لقائه ويُتَعَالَى ، ويصادم بولائه صرف الزمان ويتعالى
وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه ، وتُتَمَنَّن شوارد العلوم بروايات كلامه
فكيف بمدانة عيانه ، جلوت على من بنات فكرك عقائل نواهد ، وأقت بها
على معارفك الجمة دلائل وشواهد ، وافتنصت بشرك بديهتك من المعاني أو ابد
شوارد ، وفجرت من بلاغتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد ، ثم كلفتني من
إجراء ظالعي في ميدان ضليعي^(١) ، مقابلة الشمس المنيرة بسراج عند طلوعها ،
فأخلدت إخلاد مهيض الجفاح ، وفررت فرار الأعزل عن شاكي السلاح ،
وعلمت أنني إن أخذت نفسى بالمقابلة ، وأدليت دلو قريحتي المُسَاحِلَة ، كنت كمن
كاف الأيام مراجعة أمسها ، أو طالب ممن علتها السماء محاولة لمسها ، وإن رضيت
من القريحة بسجيتها ، وأظهرت القدر الذي كنت امتنحت من ركيبتها ، أصبحت
مسخرة للراوين والسامعين ، ونبت عن أملي دواوينهم كما تنبؤ عن الأشيب
عيون العين ، ثم إن أمرك ياسيدي لا يُحِلُّ وثيق مبرمه ، ولا يحل نسخ محكمه ،
فامثلته امثال من لم يجد في نفسه حرجا من قضائك^(٢) ، ورجوت حسن تجاوزك
وإغضائك ، أباك الله تعالى قطبا الفلك المسكارم والمآثر ، وفصا لخاتم الحامد
والمفاخر ، والسلام ، انتهى .

والجنان المذكور مغربي من مكناسة الزيتون ، وهو الشيخ الفقيه العدل
الأديب الأخباري المشارك ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسى ، الجنان ،
من أهل الظرف والانطباع والفضيلة ، كاتب عاقل ناظم ناثر مشارك في فنون من
العلم ، له تصنيف حسن في ثلاث مجلدات سماه « المنهل المورد » ، في شرح المقصد

(١) الظالع : الذي أصابه الظلع ، وهو شبه العرج ، والضليع : القوى على فعل
ما يريد ، وفي خطبة الحريري عنه وعن بدیع الزمان « وأنى يدرك الظالع شأو
الضليع ؟ » (٢) أخذ هذا من قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك
فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت)

المحمود» شَرَحَ فيه وثائق أبي القاسم الجزيري المالكي ، فأربنى على غيره بياناً وإفادة ، قال في «نفاضة الجراب» : وناولني إياه ، وأذن لي في حملي عنه ، وأنشدني كثيراً من شعره ، فمن ذلك ما صدر به رسالة يهنئ بها ناقهاً من مَرَض :

ألبس الصحة بُرداً قشيباً وارشف النعمة ثغراً شنيباً^(١)
واقطف الآمال زهراً نضيراً واعطف الإقبال غصناً رطيباً
إن يكن ساءك وَعْكَ تقضى تجدد الأجر عظيماً رحيباً
فانتعش في دهرنا ذا سرور يصبح الحاسد منه كئيباً

وقال أيضاً لسان الدين في النفاضة : قرأت بالدور الخنشي في الدار التي نزلت بها بمكناسة الزيتون أبياتاً منقشة استحسنتها لسهولتها فأخبرني أنها من نظمه ، وهي :

انظر إلى منزل متى نظرت عينك يعجبك كل ما فيه
ينبئ عن رفعة لملكه وعن ذكاء الحجا لبانيه
يناسب الوشى في أسافله ما يرقم النقش في أعاليه
كأنه روضة مُدَبَّجة جاد لها وابل بما فيه
فأظهرت للعيون زخرفها ووافقتها على تجليده
فهو على بهجة تلوح به ورونق للجمال يبيديه
يشهد للساكنين أن لهم من جنة الخلد ما يحاكيه

قلت : قد تذكرت هنا ، والشئ بالشئ يذكر ، ما رأيته مكتوباً على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزياني ، وهي من بدائع الدنيا ، وهو :

انظر بعينك بهجتي وسنائى وبديع إتقانى وحسن بنائى

(١) برد قشيب : جديد ، وثغر شنيب : طيب الرائحة ، وقال الراجز :

وا ، بأني أنت وفوك الأشنب ! كأنما ذر عليه الزرنب

وبديع شكلى واعتبر فيما ترى من نشأتى بل من تدفق مائى
جسيم لطيف ذائب سيلانه صاف كذؤبِ الفضة البيضاء
قد حف بى أزهار وثى نمت فعدت كمثل الروض غبّ سماء
وما أنشده بعض أهل العصر فى المغرب بقصد أن يرسم فى الأستار المذهبة الحكمة
الصنعة التى جعلها السلطان المنصور أبو العباس الشريف الحسنى رحمه الله تعالى
لكى يستريحها النواحي الأربع من القبة الكبيرة بالبديع ، وتسمى هذه السطور
عند أهل المغرب بالحانطى ، فى الجهة الأولى :

متع جفونك من بديع لباسى وأدرِ على حُسنى حُميّا الكاس
هذى الربا والروض من جرّ عاها ما أغتذى بالعارض البجّاس
أنى لروض أن يروق بهاؤه مثلى وأن يجرى على مقياس ؟
فالروض تغشاه السوام ، وإنما تأوى إلى كنفى ظباء كناس
وعلى الجهة الثانية :

من كل حسنّا كالقضيبي إذا انثنى تُزرى بفصن البانة المياس
ولقد نشرت على السماء ذوائبى ونظرت من شَرَر إلى الكناس
وجررت ذبلى بالجرّة عابثا فخرأ بمخترعى أبى العباس
ما نيط مثلى فى القباب ولا ازدهت بفتى سواه مراتب وكراسى
وعلى الجهة الثالثة :

ملك تقاصرت الملوك لعزه ورمائم بالذل والإنعاس
غَيثُ المواهبِ بحر كل فضيلة ليث الحروب مسعر الأوطاس^(١)
فرد المحاسن والمفاخر كلها قطب الجلال أخو الندى والباس

(١) الأوطاس : جمع وطس - بضم الواو والطاء جميعا - الذى هو جمع وطيس ،
وأصل الوطيس التنور ، وقيل : حفيرة يختبئ فيها ويشوى ، وقالوا «حمى الوطيس»
يريدون اشتدت الحرب وغلامرجلها ، ويقال : أول من قل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم

ملك إذا وافى البلاد تأرجت منه الوهاد بعاطر الأنفاس
وعلى الجهة الرابعة :

وإذا تطلّع بدره من هالة يغشى سناه نواظر الجلاس
أيامه غرر تجلّت كلها أبهى من الأعياد والأعراس
لا زال للعجد السنى يشيده ويقيم مبناه على الأساس
ما مال بالغصن النسيم وحييت درر الندى في جيده المياس

وما أنشدنيهِ بعضُ العصريين من المغاربة لصاحبنا المرحوم الفقيه الكاتب المحقق
أبي محمد الحسن بن أحمد المسفيومي المراكشي أحد مشاهير الكتاب بباب أمير
المؤمنين المنصور بالله أبي العباس الشريف الحسنى ملك المغرب ، صَبَّ الله تعالى
على الجميع أمطار الرضوان مما كتب في بعض مباني صاحبنا الوزير العلامة الأجل
سيدي عبد العزيز القسطلي رحمه الله تعالى ! وهو :

أجلِ المعلّى من قدّاح سُروري وأدِرْ كؤُسَ الأُنسِ دون شرور^(١)
خلعت على عطف البهاء محاسنى فكست به الآفاق ثوب حبور
وتناسق الوشئُ المفوّف حاتى نسقَ الشذور على نحر الحور
شأو القصور قصورها عن رتبة لى بالسنا الممدود فى المقصور
فى المبتنى المراكشى وأفقه أزرى على الزوراء والخابور
أعلى مقامى البارِع الأسْمى الذى قد حاز سبق النظم والمنشور
فإذا أقبل بنائه أَقلامُهُ نفث عقود السحر بين سطور
عبد العزيز أخو الجلالة كاتب سر الخليفة أحمد المنصور
لا زال فى يمن وأمن ما شدّت وُرُقُ بروض بالنّدى ممطور

(١) المعلّى : أوفر قداح الميسر نصيبا ، وإجالتة : تحريكه فى الخريطة ، والقداح : جمع قدح ، بكسر القاف وسكون الدال .

وبعضه كتبته بالمعنى من حفظى لطول العهد ، والغاية فى هذا الباب ما أنشدنيه لنفسه الوزير أبو فارس عبد العزيز القشتالى المذكور ، وهى جملة من قصائد كتبت فى المباني الملوكية المنصورية بالحضرة المراكشية حاطها الله تعالى ! فمنها ما كتب خارج القبة الخمسينية أى التى فيها خمسون ذراعاً بالعمل ، وذلك قوله رحمه الله تعالى على لسان القبة :

سموتُ فخرَ البدرِ دونىَ وانحطاً	وأصبح قرص الشمس فى أذنى قرطاً
وصُغتُ من الإكليل تاجاً لمفرق	ونيطت بى الجوزاء فى عنق سمطاً
ولاحت بأطواقى الثريا كأنها	نشيرُ جُحَّابٍ قد تتبعته لَقَطاً (١)
وعديت عن زهر النجوم لأننى	جعلت على كيوان رحلى منحطاً
وأجريت من فيض الساحة والندى	خليجاً على نهر الجسرة قد غطى
عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت	إليه وفود البحر تغرق ما أنطى
فنفض ما بين الغروس كأنه	وقد رقرقت حصباؤه حية رقطاً
حواليه من دَوَّحِ الرياض خرائد	وغيد تجر من خمائلها مرطاً
إذا أرسلت لدن القروع وفتحت	جنى الزهر لاح فى ذوائبها وخطاً
يرنحها مر النسيم إذا سرى	كما مال نشوان تشرب إسفطاً
يشق رياضاً جادها الجود والندى	سواء لديها الغيث أسكب أم أخطاً
وسالت بسلسال الأَجَيْنِ حياضه	بحارا غدا عرض البسيط لها شطاً
تطلع منها وسط وسطاه دمية	هى الشمس لاتخشى كسوفاً ولا غمطاً

(١) الثريا : سبعة كواكب فى عنق الثور ، والنشير : ما ينثر على العروس فى حفل زفافها ، وكان السراة ينثرون عليها حبات من الفضة ومن الذهب ومن المسك والعنبر ونحو ذلك ، ونثر الحسن بن سهل على بوران ابنته عند زفافها إلى المأمون بنادق فى كل بندق ورقة ، كتب فيها صك بضعة أو بمبلغ كبير من المال ، وأعطى كل من لقط بندق ما كتب فى الرقعة التى بداخلها .

حكّت وحبّاب الماء في جنباتها
 إذا غازلتها الشمس ألقى شعاعها
 توست فيها من صفاء أديمها
 إذا اتسقت بيض القباب قلادة
 تكفني بيض الدمى فكأنها
 قدود ولكن زانها الحسن عريها
 نمت صعدًا تيجانها فتكسرت
 فيالك شأوا بالسعادة أهلا
 وكعبة مجد شادها العز فانبرت
 ومسرح غزلان الصريم كئناسها
 فلكن به ما طاب لا الأثل والخمط
 تراه من المسك الفتيت مدبرا
 وإن باكرته نسمة لسرى بها
 أقرت له الزهراء والخلد وانتقت
 جناب رواق المجد فيه مطنب
 إمام يسير الدهر تحت لوائه
 وفتح أقطار البلاد بفيلق
 تطلع من خرصانه الشهب فانشئت
 كتائب نصر إن جرت لمعة
 إذا ما عقدن راية علوية
 فما للسماتلك الأهلة إنما
 يطاوع أيدي العلوات عنانها

سنى البدر حل من نجوم السما وسطا
 على جسمها القضى نهرا بها لطا
 نقوشا كأن المسك ينقطها نقطة
 فإني لها في الحسن درتها الوسطى
 عذاري نضت عنها القلائد والريطا
 وأجل في تنعيمها النحت والخرطا
 قوارير أفلاك السماح بها ضغطا
 بأكنافه رحل العلا والهدى خطا
 تطوف بمغناها أمانى الورى شوطا
 حنايا قباب لا الكئيب ولا السقطا
 ووسدن فيه الوشى لا السدر والأرطى
 إذا ما زجته السحب عاد بها خلطا
 إلى كل أنف عرف غيره قسطا
 أووين كسرى القوس تغبطه غبطا
 على خير من يعزى لخير الورى سبطا
 وترسى سفان للعلا حينما وطا
 يفلق هامات العدا بالظبا خبطا
 ذوائب أرض الزنج من ضوءها شمطا
 جرت قبلها الأقدار تسبقها فرطا
 جعلن ضمان الفتح في عقدتها شرطا
 سنايكها أبقت مثالا بها خطا
 فيعتاد من فيض الزمان بها بسطا

يد لأُمير المؤمنين بكفها زمام يقود الفرس والروم والقبطا
أدار جداراً للعلا وسرادقا يحوط جهات الأرض من رعيه حوطا
وقوله مما كتب بيتهوها بمرمر أسود في أبيض :

لله بهوٌ عزٌّ منه نظير	لما زها كالروض وهو نصير ^(١)
رصفت نقوش حلاه رصفَ قلائد	قد نضدتها في النحور الحور ^(٢)
فكأنها والتبرسال خالها	وشى وفضة تربها كافور
وكأن أرض قراره ديباجة	قد زان حسن طرازها تشجير
وإذا تصمدنده نوءاً في	أنماطه نورٌ به ممطور
شأواً القصور قصورها عن وصفه	سيان فيه خورنق وسدير
فإذا أجلت اللحظ في جنباته	يرتد وهو بحسنه محسور
وكأن موج البركتين أمامه	حركات سجع صاخته دهور
صفت بصفتها تماثل فضة	ملك النفوس بحسنها تصوير
فتدير من صفو الزلال معتقا	يسرى إلى الأرواح منه سرور
ما بين آساد يهيج زئيرها	وأساود يسلى لمن صفير
ودحت من الأنهار أرض زجاجة	وأظلمها فلك يضيء منير
راقت فن حصبائها وفواقع	تطفو عليها اللؤلؤ المنشور
يا حسنه من مصنع فبهاؤه	باهى نجوم الأفق وهى تنور
وكأنما زهر الرياض بجنبه	حيث التفت كواكب وبدور
ولدسته الأسمى تخير رصفه	فخر الورى وإمامها المنصور
ملك أناف على الفراقد رتبة	وأفله فوق السياك سرير

(١) عز منه نظير : يريد أنه لا نظير له .

(٢) الحور : جمع حوراء ، وهى الشديدة بياض بياض العين مع شدة سواد سوادها

قطب الخلافة تاج مفرق دولة
 رميت بحُفَلها اللّهُام الكور^(١)
 وجرى إلى أقصى العراق لرعبها
 جيش على جسر الفرات عبور
 نجل النبي ابن الوصى سليل من
 حقن الدماء وعَفَّ وهو قدير
 بحر الندى لكنه متموج
 سيف العلا لكنه مطرور
 طود يخف لحلمه ووقاره
 ولجيشه يوم النزال ثبير
 دامت معاليه ودام ومجده
 طوق على جيد العلا مزرور
 وتعاهدته عن الفتوح بشائر
 يغدو عليه بها المسا وبكور
 ما دام منزل سعدة يرتاده
 نصر يرف لواؤه المنشور
 ومشت به مرحا جياذ مسرة
 وأدار كاس الأنس فيه سيمير
 وقوله مما كتب بداخل القبة المذكورة :

جمال بدائي سحر العيانا
 ورواق منظري بهر الجفونا
 وقد حسنت نقوشى واستطارت
 سنَى يُعْشَى عيون الناظرينا
 وأطلع سمكى الأعلى نجموما
 ثواقب لا تغور الدهر حيننا
 وجوى من دخان الند ألقى
 على أرضى الغياهب والدجوننا
 علوت دوائر الأفلاك سبعا
 لذاك الدهر ما ألفت سكوننا
 فصغت من الأهلة والحنايا
 أساور والخالخل والبُرِينا
 تكفنى حياض مأمحات
 على أرمى الشمال أو اليمينا
 يقيد حسنها الطرف انفساحا
 ويمجرى الفلك فيها والسفيننا
 تدافع نهرها نحوى فلما
 تلاقى البحر فى جرى دفيننا
 ترى شهب السماء بهن غرقى
 فتحسبها بها الدر المصوننا

(١) الجحفل : الجيش ، واللّهُام : الكثير العدد ، والكور : جمع كورة ،
 وهى المدينة أو الصقع من الأرض ، وأصل الجمع بفتح الواو ، ولكنه حذف الفتحة
 حين اضطر لإقامة الوزن .

وقد نشر الحجاب على سماها لآلى تزدري العقد الثمين^(١)
 فخرت وحق لي لما اجتبانى مجلسه أمير المؤمنين
 هو المنصور حائز خصل سبق وباني الجحد بنيانا مكينا
 وليث وغنى إذا زار امتعاضا يروع زئيره هندا وصينا
 إذا أمت كتائبه الأعادى بعث برعيه جيشا كينا
 يدير عليهم من كل حرب تدقهم رحي أو منجنونا
 إمام بالمغرب لاح شمس بها الشرق اكتسى نورا مبينا
 بقيت بذى القصور الغربدرا تلوح بأفقهن مدى السنين
 تحف بكم عواكف عند بابي ملائكة كرام كاتبونا
 لك البشرى أمير المؤمنين أذ خلوها مع سلام آمينا^(٢)
 وقوله في بعض المبانى المنصورية :

معانى الحسن تظهر فى المغانى ظهور السحر فى حديق الحسان
 مشابه فى صفات الحسن أضحت تمنى بها المغانى للغوانى
 بكل عمود صبح من لجين تكون فى استقامة خوط بان
 مفصلة القودود مثلثات مواصلة العناق من التدانى
 تردت سابري الحسن يزرى بحسن السابري الخسروانى
 وتعطو الخيزرانة من دماها بسالفة القطيع البرهاني
 لجحدك تلتنى لكن نماها إلى صنعاء ما صنع اليدان
 يدين لك ابن ذى يزنى ويعنو لها غمدان فى أرض اليماني
 غدت حرما ولكن حل فيها لوفدكم الأمان مع الأمانى

(١) سماها : أراد سماها ، فقصر المدود حين اضطر ، وتزدري : تراها أقل قيمة منها .
 (٢) يشير إلى قوله تعالى : (ادخلوها بسلام آمين) وهو خطاب للمؤمنين ، والمعنى دخول الجنة ، شبه القبة بالجنة .

مبارك بالخلافة آهلات بها يتلو الهدى السبع المثاني
 هي الدنيا وساكنها إمام لأهل الأرض من قاص وداني
 قصور ما لها في الأرض شبه وما في الجسد للمنصور ثاني
 وقوله رحمه الله تعالى مما كتب في المصرية المطلة على الرياض المرتفعة على القبة
 الخضراء من بديع المنصور ، وكان أنشأها في جمادى الأولى من عام خمسة
 وتسعين وسبعائة :

باكر لدى من السرور كؤوسا	وارض النديم أهلة وشموسا
واعرج على غرقي المنيف سماؤها	تلق الفراق في حماي جلوسا
وإذا طلعت بأوجها قمر العلا	لا ترتضى غير النجوم جليسا
شرق القصور بريقها لما اجتلت	منى على بسط الرياض عروسا
واعتضت بالمنصور أحمد ضيفا	وردا تحيز من بديعي خيسا
ملك أرى كل الملوك ممالكا	لعلاء والدنيا عليه حيسا
دامت وفود السعد وهي عواكف	تصل المقيّل لديه والتعريسا
وهناك يا شرف الخلافة دولة	تلقى برايتها طلائع عيسى ^(١)

وقوله من جملة قصيدة من نط ما تقدم لم أستحضر أولها :

سلبت تماثلها الحجالما اغتدث	تزهو بحسن طرازها تذهيبا
ولقد تشامخ في العلو سماكها	فجوى على الفلك المنير جنبا
وسما إلى الشهب الزواهر فاغتدى الإكليل منها	تاجها المعصوبا
هذا البديع يعز شبه بدائع	أبدعتن به فجاء غريبا
أضنى الغزالة حسنه حسدا لذا	أبدى عليها للأصيل شحوبا ^(٢)

(١) يريد الدعاء لدولته بالدوام إلى قيام الساعة ؛ لأن عيسى عليه السلام إنما

ينزل بين يدي الساعة . (٢) أراد بالغزالة الشمس .

وانقضت الزهر المنيرة إذ رأت زهر الرياض به ينور عجيبا
شديتهن مصانعا وصنائعا أنجزن وعدك للعلا المرقوبا
وجريت في كل الفخار لغاية أدركتهن وما مست لغويا
فانعم بملكك فيه دام مؤبدا تجنى به فنن النعيم رطيبا
وإليكها عذراء فكر أهديت وجعلت مدحك مهرها الموهوبا
ونظمت من درر البلاغة عقدها ففدا يروق بجيدها ترتيبا
ورفعتها لمقامكم تمشي على استحياء فيزعجها الولا ترغيبا
فأتت على شرف لكم فتوقفت لما رأت ذاك الجلاك مهيبا
شفت إليك بحب جدك أحد لتنيلها منك الرضا المرغوبا
دامت بك الدنيا يروق جمالها وإلى القيامة أمركم مرهوبا
وكلاكم الله العظيم كلاءة يرضى بها خلفا لكم وعقبيا^(١)

ومحاسن صاحبنا المذكور في النظم والنثر يضيق عنها هذا التأليف ، وكنت أثبت^٢ من عبد العزيز
منها جملة في غير هذا الموضع ، ولما أحس بعزومي على الرحلة إلى الحجاز ، واقتضائي^٣ القشتالي إلى
من سلطان المغرب في وعده لي بها النجّاز ، كتب إلى من حضرة مراكش وأنا مؤلف هذا
حينئذ بفاس ، ما صورته بعد سطر الافتتاح :

يأسمة عطست بها أنف الصبا فتضمخت بغيرها فنن الربا
هي على ساحات أحمد وشرحي شوقى إلى لقياه شرحا مطمئنا
وصفى له بالمنحني من أضلعي قلبا على جمر الغضى متقلبا
بان الأوبة عنه ، حتى قد توى منهم ، وآخر قد نأى وتعبيا^(٢)
ففساك تسعد يا زمان بقرهم فأقول أهلا باللقاء ومرحبا

(١) كلام : أصله كلامكم ، فقلب الهمزة ألفا ، ومعناه حفظكم ورعاكم .

(٢) بان الأوبة عنه : بعدوا ، وتوى : هلك

السيادة التي سَوَّاهَا اللهُ من طينة الشرف والحسب ، وَغَرَسَ دَوَّحَهَا الطيبة بمعدن العلم الزاكي المحدث والنسب، سيادة العالم الذي تمشي تحت علم فُتْيَاهُ العلماء الأعلام ، وتخصع لفصاحته وبلاغته صَيَّارِفَةُ النثر والنظام، وحمله الأقلام، كلما خط أو كَتَبَ ، وإذا استطار بفكره الوقاد سواجع السجع ائثال عليه من كل أوكارها ونسلت من كل حَدَبَ ، وحكت بانسجامها السيل والقطر في صَبَبَ ، الفقيه العالم العلم ، والمحصل الذي ساجلت العلماء لتدرك في مجال الإدراك شأوه فلم^(١) ، سيدنا الفقيه الحافظ حامل لواء الفُتْيَا ، ومالك المملسكة في المنقول والمعقول من غير شرط ولا ثُنْيَا ، أبو العباس سيدي أحمد بن محمد المقرئ أبقاه الله تعالى للعلم يَفْتَضُّ أَبْكَارَهُ ، وَيَخْنِي من روضه اليانع ثماره ، سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته كتبه المحبُّ الشاكر عن وَدَرٍ راسخ العباد ، ثابت الأوتاد مَزْهُو الأغوار والأنجاد ، ولا جديد إلا الشوق الذي تحنَّ إلى لقياءكم ركاثُهُ وترتاح ، ونَحْوُ على مورد الأنس بكم حَوَمَ ذات الجناح على العذب القراح ، جمع الله تعالى الأرواح المؤتلفة على بساط السرور وأسيرة الهنا ، وأتاح للنفوس من حسن محاضرتكم قَطَفَ المشتهى وهو غَضُّ الْجَنَى ، وقد اتصل بالحب الودود الرقيم الذي رافت من سواد النقش وبياض الطرس شِيَاتِهِ ، وأرانا معجز أحمد فبهرت آياته ، وَخَبَا سَقَطُ الزند لما أشرقت من سماء فكركم آياته ، فأطربنا بتغريد طيور هزانه على أغصان ألقاته ، وعَوَّذْنَا بالسبع المثاني بنانا أجادت نثر زهراته على صفحاته ، ثم مررنا بتضاعيفه بسوق الرقيق ، فَرُمْنَا السلوك على مَنَحَاهَا فُعْمَى علينا الطريق ، وقلنا : واهاً على سوق ابن نباتة وكساد رقيقها ، واستلاب البهجة عن نفيس دررها وأنيقها ، لا كسوق نفق فيها سوق الغزل ، وعلا كعب الرامح والأعزل ، وتظافر على

(١) حذف مجزوم لم ، وأصل الكلام : فلم تدرك شأوه ، ولذلك نظائر في شعر

العرب ، ومنه قول إبراهيم بن هرمة الفرشي :

احفظ وديعتك التي استودعتها يوم الأعازب إن وصلت وإن لم

سحر النفوس والألباب هاروت وماروت الهزل ، وقد ألقينا السلاح وجفحنا
 للسلم ، وتهيأنا للسباحة فوقنا بساحل اليم ، وسلمنا لمن استوت به سفينة البلاغة
 على الجودي ، فأبنا والحمد لله على السلامة بالفهاهة والعي ، وقلنا : مالنا وللإنشاء ،
 فهو فضل الله يؤتیه من يشاء ، وعُذراً أيها الشيخ عن البيت الذي عطست به أنفُ
 الصبا ففقدت به البديهة من القم ، وشرقت به صدْرُ قناة القلم ، كما شرقت صدر
 القناة من الدم ^(١) ، وأما ما تحمل الرسول من كلام ، في صورة ملام ، لابل مدام ،
 أترع به من سلاف المحبة كأس ووجام ، فلا وربك ما هي إلا نفعة نفحت ،
 لا سموم لقت ، هزنا بها جذع أدبكم كي يتساقط علينا رطباً جنيئاً ، ويهني
 ودقه على الربع الخيل من أفكارنا ونمياً وولياً ، فجاد وأزوى ، وأجاد فيما روى ،
 وأحيا من القرائح ميتاً كان حديثاً يُروى ، وطرسا بين أنامل الأيام ينشر ويطوى ،
 أحيا الله تعالى قلوبنا بمعرفته ونواسم رحمته ، وعرج بأرواحنا عند المات إلى الحل
 الأخص بالمؤمن من حضرته ، وأهدى السلام ، المُرعى بمسك الختام ، إلى الفقيهين
 الأبحدين ، الصدرين الأبحدين ، الفذين التوأمين ، الفاضلين الجيدين ، فارسي
 البراعة والبراعة ، ورئيسي الجماعة في هذه الصناعة ، رضيي لبنان الأدب وواسطي
 عقده ، ومجيبَي قدحه المعلى ومُورِي زنده ، الممتعین بشميم عراره ورنده ، الكارعين
 بالبحر الفياض من هزله وجده ، الآتين بالجنس والفصل من رسمه وحده ، الكاتب
 البارع أبي الحسن سيدي علي بن أحمد الشامي ، والكاتب البليغ أبي عبد الله سيدي
 محمد بن علي الوجدي ، وأقرّ لها الود المستحکم المعاهد ، الصافي المناهل العذب الموارد ،
 وإني قائم بورد الثناء عليكم وعليهما لدى المقام العلي ، الإمامي الناصري ، دام
 سلطانه ! وتمهدت أوطاره وأوطانه ! ونهني إليكم أن الفقيه المحب الأستاذ سيدي محمد بن

(١) هذا عجز بيت للأعشى ميمون بن قيس ، وصده قوله :

* وتشرق بالقول الذي قد أذعته *

يوسف طَلَّقُ اللسان بالشكر، صادق^(١) على أليك الثناء عن تكم السيادة بما أوليتموه به من جزيل الإحسان ، وقابلتموه به عند الورود والصدر من البشر والكرامة وجميل الامتنان ، والسلام التام مُعَاد عليكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبه وجب الكتب إليكم ، والله سبحانه يرعاكم ، في يوم الخميس موفى عشرين من محرم الحرام فاتح سبعة وعشرين وألف ، المحب الودود الشاكر عبد العزيز بن محمد القشتالي لطف الله تعالى به ، وخار له بمنه وكرمه ، انتهى .

ومن أراد شيئاً من أخباره فعليه بكتابي الموسوم « بروضة الآس ، العاطر الأنفاس ، في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » وقد بلغتني وفاته رحمه الله تعالى وأنا في مصر بعد عام ثلاثين وألف ، رحمه الله تعالى ! فلقد كان أُوحد عصره ، حتى إن سلطان المغرب كان يقول : إن القشتالي نفتخر به على ملوك الأرض ، ونباري به لسان الدين بن الخطيب ، رحمهم الله تعالى الجميع !

والشامي الذي أشار إليه هو من أعيان أهل فاس وذوى البيوت بها ، وجده قدم من الشام على حضرة فاس ، فشهّر بنوه بالنسبة إلى الشام ، وقد بلغتني وفاته أيضاً بعد الثلاثين بعد الألف ، وقد أجاب عن الأبيات البائية التي خاطبني بها الوزير سيدي عبد العزيز القشتالي المذكور رحم الله تعالى الجميع بقوله :

نَمَتْ نَوَافِحَ عَرَفَ أَنْفَاسَ الصَّبَا فَمَا بِهَا رَوْضَ الْوَدَادِ وَأَخْصَابَا^(٢)

نثرت جواهر سلكها فتتوج الغصن النضير بدرها وتعصبا

ورمت محاجر منحني ذاك الحمى فعدا بها خيف القلوب محصبا

وروت أحاديث الغرام صحيحة فشفت فؤاداً من عبادك موصبا

لاغرو أن طارت حشاشة لبه طرباً فما خلو الغرام كمن صَبَا

(١) صادق : اسم الفاعل من « صدح يصدح » من باب فتح - أي غنى

(٢) نمت : أراد وشت وأخبرت ، والنوافح : جمع ناختة ، وهي الفواحة بطيب

الرائحة ، والعرف - بالفتح - الرائحة الذكية ، ونما : زاد وأنبع .

لا زاتم والزهر ينشق عَرَفَكم والزهر تحسد من كمالك منصبا
ولنُمسِكُ عِنانَ البنان ، ونرجع إلى ما كنا بصدد من شأن لسان الدين بن الخطيب
المريع منه بمنزلة البلاغة والفصاحة جنان الجنان ، فنقول والله سبحانه ولى التوفيق
والإمداد ، وليس إلا عليه الاعتماد :

وقال ابن الصباغ العقيلي : كان أبو الحسن بن الجياب رئيس كتاب الأندلس
وهم رؤساء غيرهم ، واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب اختصاصا
تامًا ، وأورثه رتبة من بعده ، وعهد بها إليه ، مشيرًا بذلك على من استشاره من
أعلام الحجاب عند حضور عمره ، وتدرّب بذلك حتى استحق أزمته فأنسى
بحسن سياسته شيخه المذكور ، ونال التي لا فوقها من الخطوة وبعد الصيت
وسعادة البخت ، انفق له يوماً بعد ما عزم النصراني على ورود البلد وضاعت به
الصدور ، فأشد ابن الجياب بديها بمحضر الكتاب :

هذا العدو قد طغى وقد تعدى وبغى
وقال لابن الخطيب : أجزأنا عبد الله ، فأنشده بديها :

وأظهر السلم وقد أَمَرَ حَسَوًا فِي ارْتِغَاءٍ^(١)

فبلغ الرحمن سيف النصر فيه ما ابتغى

ورده رد ثَمُو د والفصيلُ قد رَغَا^(٢)

حتى يرى وليمة لكل مرهوب النغا

فقال الجياب : هكذا وإلا فلا ، وعجب الحاضرون من هذه البديهة ، انتهى :

من أبي يحيى
وما خوطب به لسان الدين قول الفقيه أبي يحيى البلوى المرى رحم الله الجميع : البلوى إلى
لسان الدين عللوني ولو بوعد محال وصلوني ولو بطيف خيال

(١) يشير إلى قولهم في مثل « أَسْرَحَسُوا فِي ارْتِغَاءٍ » يضرب لمن يظهر شيئاً

وهو يضم شيئاً آخر (٢) الفصيل : ولد الناقة ، ورغا : صوت

واعلموا أنني أسير هواكم
فدموعي من بينكم في انسكاب
يا أهيل الحمى كفاني غرامي
من مجيري من لحظ ريم ظلوم
ناعس الطرف أسهر الجفن مني
بابلي اللحاظ أصمى فؤادي
وكسا الجسم من هواه نحولا
ما ابتدئ في الوصال يوما بعطف
ليس لي منه في الهوى من مجير
علم الدين عزه وسـنـاه
هو غيث الندى وبحر العطايا
إن وثني في الرقاع بالنقش قلنا
أودجا الخطب فهو فيه شهاب
أو نبا الأمر فهو في الأمر عصب
لست تلقى مثاله في زمان
قد نأى بي حبي له عن ديارى
لكن اشتقت أن أرى منه وجهها
وكما همت فيه أنم كفا
ها كما ابن الخطيب عذراء جاءت
وتوفى حق الوزارة عن
لست أنفك دائما عن عقال
وفؤادي من هجركم في اشتعال^(١)
لا تزيدوا حسبي بما قد جرى لي
حلل الهجر بعد طيب الوصال
طال منه الجفا بطول الليالي
ورماه من غنجه بنبال
قصده في النوى بذاك انتحالي
مذ روى في الغرام باب اشتغالي
غير تاج العلا وقطب السكال
ذروة المجد بدر أفق الجلال
هو شمس الهدى فريد المعالي
صفحة الطرس حليت بالآلى
زانه الصبح في ظلام الضلال
صادق العزم عند ضيق المآجال
جل في الدهر يا أخى عن مثال
لا لجدوى ولا لنيل نوال^(٢)
نوره فاضح لنور الهالال
جاد لي بالنوال قبل السؤال
تلثم الأرض قبل شسع النعال
هو ملك لها على كل حال

(١) اشتعال - بالعين المهملة - التهاب وانتقاد من حرقة الحب

(٢) الجدوى - بفتح الجيم - العطاء

ومن نظمه قوله يخاطبه مهنثا في إعداره أولادهُ بعد نشر نصه : يعتذر عن خدمة الإعدار ، ويصل المدح والثناء على بعد الدار ، بتاريخ الوسط من شهر شعبان عام تسعة وأربعين وسبعائة :

من أبي يحيى
إلى لسان الدين

ولا عذر لي عن خدمة الإعدار	ولئن نأى وَطْنِي وَشَطَّ مَزَارِي (١)
أو عاقني عنه الزمان وصرفه	تقضى الأمانى عادة الإعصار
قد كنت أرغب أن أفوز بخدمتي	وأحط رحلى عند باب الدار
بادى المسرة بالصنيع وأهله	متشعرا فيه بفضل إزارى
من شاء أن يلقي الزمان وأهله	ويرى جلالا شاع في الأقطار
فليأت حَيَّ ابن الخطيب ملبيا	فيفوز بالإعظام والإكبار
كم ضم من صيدٍ كرام قدرهم	يسمو ويعلو في ذوى الأقدار
إن جئت ناديه فنبُ عني وقل	نلت المنى بتلطف ووقار
يا من له الشرف القديم ومن له	الحسب الصميم العى يوم فخار
يهنيك ما قد نلت من أمل به	في الفرقدين النيرين لسارى
نجمك قطبا كل مجد باذخ	أملان مَرْجُوانٍ في الإعصار
عبد الإله وصنوه قر العلاء	فرعان من أصل زَكَا ونجار (٢)
ناهيك من قرين في أفق العلاء	ينميها نور من الأنوار
زاكى الأرومة معرق في مجده	جم الفضائل طيب الأخبار
رقت طبائعه وراق جماله	فكأنما خلقا من الأزهار
وحلت شمائل حسنه فكأنما	خلعت عليه رقة الأسحار
فإذا تكلم قلت طال ساقط	أو وَقَعُ در من نحور جواري

(١) شط : بعد ، ومزاري : المسكان الذى أزوره منه

(٢) النجار - بكسر النون - الأصل

أوفت حبر المسك في قرطاسه فالروض غبّ الواكف المدرار^(١)
تتبسم الأقلام بين بنانه فتريك نظم الدر في الأمطار
فتخال من تلك البنان كأنما ظلت تفتح ناضر النوار
تلقاه فياض الندى متهللاً يلقيك بالبشرى والاستبشار
بحر البلاغة قسّها وإيادها سحبانها حبر من الأحبار
إن ناظر العلماء فهو إمامهم شرف المعارف واحد النظائر
أربي على العلماء بالصيت الذي قد طار في الآفاق كل مطّار
ما ضره أن لم يحىء متقدماً بالسبق يعرف آخر المضار
إن كان آخره الزمان لحكمة ظهرت وما خفيت كضوء نهار
الشمس تحجب وهي أعظم نير وترى من الآفاق إثر درارى
يا ابن الخطيب خطبتها لعلكم بكرأ تزف لكم من الأفكار
جاءتكم من خجل على قدم الحيا قد طيبت بثنائك المعطار
وأنت تؤدى بعض حق واجب عن نازح الأوطان والأوطار
مدّت يد التطفيل نحو علاكم فتوشحت من حليكم بنضار
فابذل لها في النقد صفحك إنها تشكو من التقصير في الأشعار
لا زلت في دعة وعز دائم ومسرة تترى مع الأعمار

قال لسان الدين في حق المذكور في « الإحاطة » : هو محمد بن محمد بن عبد الواحد ابن محمد البلوى ، من أبناء النعم وذوى البيوتات ، كثير السكون والحياء ، آل به ذلك أخيراً إلى لؤثة^(٢) ، لم يستفق منها لطف الله به ، حسن الخط ، مطبوع الأدب ، سيال الطبع معينه ، وناب عن بعض القضاة ، وهو الآن رهين ما ذكر يتمنى أهله موته ، والله ولى المعافاة .

(١) الواكف : أراد المطر الذى يكف : أى يسيل

(٢) اللؤثة : شبه الجنون

وجرى ذكره في « الإكليل » بما نصه : من أولى الاتصال ، بأولى الخلال
البارعة والخصال ، خطا رائقا ، ونظما بمثله لائقا ، ودعابة يسترها تجهّم ، وسكونا
في طيه إدراك وتفهم ، عني بالدراية والتقيد ، ومال في النظم إلى بعض التوليد ،
وله أصالة نبئت في السر وعروقه ، وتألفت في سماء المجادة بروقها ، وتصرف بين
النيابة في الأحكام الشرعية ، وبين الشهادات العلمية المرعية ، انتهى .

ورأيت بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين على هامش هذا الحل من
« الإحاطة » ما صورته : رحمة الله عليه ! ما أعذب حلاوته ، وأعظم مروءته ،
وأكرم أصالته ، وبنو البلوى ذوو حسب ، وأهل نعيم ، وتربية ملوكية ، حياهم
الله وبيّاهم ! قال ذلك حبيّبهم وأخوهم علي بن الخطيب ، انتهى .

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى عند ذكر الخطيب الرئيس أبي عبد الله محمد
ابن مرزوق التلمساني ماصورته : ولما قدمت على مدينة فاس في غرض الرسالة
خاطبني بمنزل الشاطبي على مرحلة منها بما نصه :

يا قادما وافي بكل بحاح	أبشر بما تلقاه من أفراح
هذي ذرّا ملك الملوك فلذبحها	تللّ المنى وتفرّج بكل سمّاح
معنى الإمام أبي عنان يَمَنَّ	تظفر ببحر في العال طفاح
من قاس جود أبي عنان في الندى	بسواه قاس البحر بالصّحاح ^(١)
ملك يفيض على العفاة نواله	قبل السؤال وقبل بسطة راح
فلجود كعب وابن سعدى في الندى	ذكر تحاه عن نداه ما حي ^(٢)
ما إن سمعت ولا رأيت بمثله	من أريحى للندى مرتاح
بسط الأمان على الأنام فأصبحوا	قد أخفوا منه بظل جناح

(١) الضحاح : الماء القليل . (٢) كعب : هو كعب بن مامة الإيادي ،

يضرّب به المثل في الجود والإيثار وكرم الجوار ، وابن سعدى : هو أوس بن حارثة
ابن لأم الطائي ، وقد جمعهما جرير في قوله لعمر بن عبد العزيز :

فما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا

وَهَمَى عَلَى الْعَافِينَ سَيْبُ نَوَالِهِ حَتَّى حَكَى سَحَ الْغَمِّ السَّاحَى
فَنَوَالِهِ وَجْهَ لَالِهِ وَفَعَالِهِ فَاقَتْ وَأَعَيْتَ أَلْسَنَ الْمَدَاحِ
وَبِهِ الدُّنَا أَضْحَتْ تَرُوقُ وَأَصْبَحَتْ كُلُّ الْمَنَى تَنْقَادُ بَعْدَ جَمَاحِ
مَنْ كَانَ ذَا تَرَحٍ فَرُؤِيَّةٍ وَجْهَهُ مَتَالِفَةُ الْأَحْزَانِ وَالْأَنْزَاحِ
فَانْهَضَ أَبَا عَمْدٍ الْإِلَهُ تَفَرَّ بِمَا تَبَغَّيْتَهُ مِنْ أَمَلٍ وَنِيلِ نَجَاحِ
لَا زَلْتَ تَرْتَشِفُ الْأَمَانَى رَاحَةً مِنْ رَاحَةِ الْمَوْلَى بِكُلِّ صَبَاحِ

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ يَا سَيِّدِي وَأَخِي عَلَى نِعْمَةِ الَّتِي لَا تُحْصَى ، حَمْدًا يُؤْمَ بِهِ جَمِيعُنَا الْمُقَصِّدُ
الْأَسْنَى فَيَبْلُغُ الْأَمْدُ الْأَقْصَى ، فَطَالَمَا كَانَ مُعْظَمُ سَيِّدِي لِلْأَسْنَى فِي حَبَالٍ ، وَلِلْأَسْفِ
بَيْنَ اشْتِغَالِ بَالٍ ، وَاشْتِعَالِ بَلْبَالٍ ، وَلَقَدْ دُومَكُمْ عَلَى هَذَا الْحُلِّ الْمَوْلَوِيِّ فِي ارْتِقَابٍ ،
وَلِمَوَاعِيدِكُمْ بِذَلِكَ فِي تَحْقِيقِ وَقُوعِهِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا ارْتِيَابٍ ، فَهَا أَنْتَ تَجْتَلِي مِنْ
هَذَا الْمَقَامِ الْعَلِيِّ بِتَشْيِيعِكَ وَجْوهَ الْمَسْرَةِ صَبَاحًا ، وَتَقْلِقِي أَحَادِيثَ مَكَارِمِهِ وَمَوَاهِبِهِ
مُسْتَنْدَةً صَحَاحًا ، بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلِسَيِّدِي الْفَضْلِ فِي قَبُولِ مَرْكُوبِهِ الْوَاصِلِ إِلَيْهِ
بَسْرَجِهِ وَجَلَامِهِ ، فَهُوَ مِنْ بَعْضِ مَالِدِي الْمُعْظَمِ مِنْ إِحْسَانِ مَوْلَاهُ وَإِنْعَامِهِ ، وَلَعُمْرِي
لَقَدْ كَانَ وَافِدًا عَلَى سَيِّدِي فِي مُسْتَقَرِّهِ مَعَ غَيْرِهِ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَسِّرُ فِي إِيْصَالِهِ ،
عَلَى أَفْضَلِ أَحْوَالِهِ ، فَرَا جَعَلْتَهُ بِمَا نَفَّسَهُ :

وَالْقَرَبُ يَخْفِضُ لِلْجَنُوحِ جَنَاحِي	رَاحَتٌ تَذَكِّرُنِي كُؤُسَ الرَّاحِ	مِنْ لِسَانِ الدِّينِ
دَلَّ النَّسِيمُ عَلَى انْبِلَاجِ صَبَاحِ	وَسَرَتْ تَدَلُّ عَلَى الْقَبُولِ كَأَنَّمَا	إِلَى ابْنِ مَرْزُوقٍ
عَنْ دَمَلَجٍ وَقَلَادَةٍ وَوَشَاحِ	حَسَنَاءُ قَدْ غَنِيَتْ بِحَسَنِ صِفَاتِهَا	
بَسْعُوْدِهِ الْأَفْلَامُ فِي الْأُلُوحِ	أُمْسَتْ تَحْضُ عَلَى اللَّيَازِ بِمَنْ جَرَتْ	
شَمْسُ الْمَعَالَى الْأَزْهَرِ الْوَضَاحِ	بِخَلِيفَةِ اللَّهِ الْمُؤَيَّدِ فَارَسِ	

(١) هَمَى : أصله قولهم « هَمَى المطر يَهْمِي » أى انصب ، والعافين : طلاب معروفه ، والسبيب — بفتح السين وسكون الياء — العطاء ، وسح الغمام : أراد به انهمال المطر .

ماشئت من شيم ومن هم غدت كالزهر أو كالزهر في الأدواح
 فضل الملوك فليس يدرك شاوه أننى يقاس العمر بالضحاح
 أسنى بنى عباسهم بلوانه المنصـور ، أو بحسامه السفاح
 وغدت مغانى الملك لما حلها ترى بيدى هدى وبحر سماح
 وحياة من أهداك تحفة قادم فى العرف منها راحة الأرواح
 ما زلت أجعل ذكره وثناءه روحى وريحانى الأريج وراحى
 ولقد تمازج حُبّه بجوارحى كتمازج الأجسام بالأرواح
 ولو أننى أبصرت يوما فى يدى أمرى لطرت إليه دون جناح
 فالآن ساعدنى الزمان وأيقنت من قربى نفسى بفوز قداحى
 إليه أبا عبد الإله ، وإنه لنداء ودفى علاك صراح
 أما إذا استنجدتنى من بعدما ركدت لما خبت الخطوب رياحى
 فإليكها من زولة وأنا امرؤ قررت عجزى واطرحت سلاحي
 سيدى أبقاك الله لعهده تحفظه ، وولاء بعين الوفاء تلحظه ، وصلتني رقتك التى
 أبدعت ، وبالحق من مولى الخليفة صدعت ، وألفتني وقد سطت بي الأوجال^(١) ،
 حتى كادت تتلف الرجال ، والحاجة إلى الغذاء قد شمرت كشح البطين ، وثانية
 العجاوين^(٢) قد توقع فوات وقتها وإن كانت صلاتها صلاة الطين ، والفكر قد غاض
 معينه ، وضعف وعلى الله جزاء المولى الذى يُعينه ، فغزتنى بكتيبة بيان أسدّها
 هصور ، وعلمها منصور ، وألفاظها ليس فيها قصور ، ومعانيها عليها الحسن مقصور ،
 واعتراف مثلى بالعجز فى المضائق حول ومنه ، وقول « لا أدري » للعالم فكيف لغيره
 جنّه ، لكنها بشرتنى بما يقلّ لمؤديه بذلّ النفوس وإن جلت ، وأطعنى من

(١) ألفتني : وجدتني ، وسطت : هجمت على ، والأوجال : المخاوف .

(٢) ثانية العجاوين : أراد صلاة العصر ، وأولاهما صلاة الظهر ؛ لأنهما لا يجهر

فيهما بالقراءة .

السراء على وجه تحسده الشمس إذا تَجَلَّتْ ، بما أعلمتني به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله في عبده ، وصدق المَخِيلَة في كرم مجده ، وهذا هو الجود المَحْضُ^(١) ، والفضل الذي شكره هو القرض ، وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات مَنْ يبدأ بالنوال ، من قبل الضَّرَاعَة والسؤال ، من غير اعتبار للأسباب ، ولا مجازاة للأعمال ، نسأل الله تعالى أن يبقى منها على الإسلام أَوْفَى الظلال ، ويبلغها من فضله أقصى الآمال ، ووَصَلَ ما بعثه سيدي صحبتها من الهدية ، والتحفة الودّية ، وقبلتها امتثالاً ، واستجليت منها عِتْقاً وَجَمَالاً ، وسيدي في الوقت أنسب لا تخاذ ذلك الجنس ، وأقدر على الاستكثار من إناث البَهْم والإنس ، وأنا ضعيف القدرة ، غير مستطيع على ذلك إلا في الندرة ، فلو رأى سيدي ورأيه سَدَاد ، وقَصْدَه فضل ووداد ، أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة ، مع وجود الحقوق المترتبة ، لبَسَطَ خاطري وَجَمَعَه ، وعمل في رفع المؤنة على شاكلة حالي معه ، وقد استصحبت مركوباً يشق على هجره ، ويناسب مقامى شكله ونَجْرَه ، وسيدي في الإسعاف على الله أجره ، وهذا أمر عرض ، وفرض فرض ، وعلى نظره المعول ، واعتماد إغضائه هو المعقول الأول ، والسلام على سيدي من معظم قدره ، وملتزم بره ، ابن الخطيب ، في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي قعدة خمس وخمسين وسبعائة ، والسما قد جادت بمطر سهرت منه الأجفان ، وظن أنه طوفان ، واللاحق في غدها بالباب المولوى مؤمل بحول الله ، انتهى .

من أبي القاسم
البرجى إلى
لسان الدين
وكتب القاضى أبو القاسم البرجى لسان الدين فى غرض الشفاعة لبعض
قرايته قوله :

أيا سابقاً فى مجال البراعة وفارس مِيدَان أهل البراعة

(١) الجود المحض : السكرم الخالص من شائبة المن أو انتظار سؤال السائل

وَمَنْ بَدَّرُهُ فِي سَمَاءِ الْمَعَالَى يَزِينُ بِوَصْفِ الْكَمَالِ ارْتِفَاعَهُ
بِمَالِكٍ فِي الْفَضْلِ مِنْ حُجَّةٍ وَمِنْ إِمْرَةٍ فِي ذَوِيهِ مَطَاعَهُ
قَضَاؤُكَ فِي مَعْسَرٍ حَلَّ دِينَ عَلَيْهِ فَاِرْجَاؤُهُ قَدْ أَضَاعَهُ
وَقَدْ كَانَ يَبْنِي لَدَيْكُمْ شَفِيعًا تَوَسَّطَ عَنْدَكُمْ فِي شَفَاعَتِهِ
عَلَى أَنَّهُ فِي اقْتِضَاءِ الْوَدَادِ يَوْفَى مُوَازِينَهُ أَوْ صُوعَاغَهُ
وَمَا هُوَ فِي سَوْقٍ تَقْرِيطُكُمْ وَنَشْرٍ حَلَاكُمُ بُمَزْجَى الْبُضَاعَةِ

كُتِبَتْ بِإِسْدَى - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَاكُمُ ، وَحَرَسَ بِمَجْدِكُمُ الطَّاهِرِ وَسَنَاكُمُ ! - وَأُنَابِينَ
حَجَّلَ مَفْجَمُ ، وَعَجَّلَ مَقْعَمُ ، أَتَذَكَّرُ تَسْوِيفِي بِلِقَائِكُمْ ، حِينَ سَمَحَ الدَّهْرُ بِافْتِرَائِكُمْ ،
فَأَحْجَمُ وَأَفْكَرُ فِي أَنْ إِحْجَامِي عِنْدَ ذَلِكَ بِإِرْجَائِي ^(١) ، عَسَى أَنْ يَكُونَ وَفْقِي رَجَائِي ،
أَفَاتَنِي الْمَقْصُودُ فَأَرَى الْحَزْمُ فِي أَنْ أَقْدِمُ ، وَمَوْقِفَهَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ ، فَلَانِ يَطْلُبُنِي مَطَالِبَةُ
الْغَرِيمِ ^(٢) ، وَأَرُومُ مِطَالَهُ فَلَا يَبْرَحُ وَلَا يَرِيمُ ، وَالْإِقْيَادُ فِي زِمَامِ طَاعَتِهِ مِمَّا تَوَجَّهَ الْمَرْوَةُ
بَعْدَ مَا أَوْجَبَهُ الشَّارِعُ إِذْ جَعَلَ لَهُ حِظًا فِي الْأَبْوَةِ ، وَقَدْ أَعْلَقْتَهُ مِنْ ذِمَامِ عِلَائِكُمْ
بِالْحَبْلِ الْمَتِينِ ، وَأَنْزَلْتَهُ مِنْ حِمَاكُمُ بِرَبَوْتِهِ ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ، فَإِنْ أَعْرَقْتُمُوهُ مِنْ
لَحْظِكُمُ الْجَمِيلِ طَرَفَ اهْتِبَالٍ ، وَأَقْبَلْتُمُوهُ مِنْ اعْتِنَائِكُمُ الْجَزِيلِ وَجْهَ إِقْبَالٍ ، فَقَدْ
عَادَ دَهْرُهُ بَعْدَ النِّفَارِ مُوَاتِيَا ، وَنَزَلَ عَلَى أَهْلِ الْمُهَابِّ شَانِيَا ، وَبَجْدِكُمْ كَفِيلَ بَتْلِيغِ
أَمَلِهِ ، وَتَوْسِيعَ جَذَلِهِ ، وَذَلِكَ يَدُ عَلَى مَعْظَمِكُمْ شُكْرَهَا ، وَعَلَى اللَّهِ أَجْرَهَا ، انْتَهَى

ترجمة
والبرجى المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن على بن إبراهيم ، الفسائى أبى القاسم محمد
البرجى ، يكنى أبا القاسم ، من أهل غَرْناطَة ، قال فى « الإحاطة » : هو فاضل بن يحيى البرجى
مجمع على فضله ، صالح الأبوة ، طاهر النشأة ، بادرى الصيانة والعفة ، طرف فى الخير
والحشمة ، صدر فى الأدب ، جم المشاركة ، ثاقب الفهم ، جميل العشرة ، ممتع

(١) أحجم : أتأخر ، والإرجاء : التأخير

(٢) الغريم : الدائن ، ولا يريم : لا يبرح ولا يفارق مكانه

الجالسة ، حسن الشعر والخط والكتابة ، فذ في الانطباع ، صنّاع اليدين^(١) ، محكم العمل الكثير من الآلات العلمية ، ويجيد تفسير الكتب ، رَحَلَ إلى العُدوة ولقي جلة ، وتوسَّل إلى ملكها مجدِّد الرسم ، ومقام أولى الشهرة ، وعامر دست الشعر والكتابة ، أمير المسلمين أبي عنان ، فاشتمل عليه ، ونوّه به ، وملاً بالخير يده ، فاقتنى جِدَّةً وحُظوةً ، وذكرها وشهرةً ، واتقبض مع استرسال الملك لفضل عقله ، حتى نشكى إلى سلطانه بَثَّ ذلك عند قدومي عليه ، وآثر الراحة ، وجهد في التماس الرحلة الحجازية ، ونبذ الكل ، وقصر الخطوة ، وسلا الخطوة ، فأسمعنه سلطانه بَغْرَضَه ، وجعل حَبْلَ هَمِّه على غاربه^(٢) ، وأصحبه إلى النبي الكريم صلوات الله عليه رسالةً من إنشائه وقصيدةً من نظمه ، وكلاهما يعلن في الخلفاء ببعده شأوه ، ورسوخ قدم عليه ، وعرافة البلاغة في نسب خصله ، ولما هلك وولى ابنه ملكه وضاعف له التنويه ، فأجرى الخطوة على سبيل من السداد والنزاهة ، ثم لما ولى السلطان أبو سالم عمه أجراه على الرسم المذكور ، واستجلى المشكلات بصدقه ، وهو الآن بحاله الموصوفة مفخر من مفاخر ذلك الباب السلطاني على تعدد مفاخره .

شعره - ثبت في كتاب « نفاضة الجراب » من تأليفنا عند ذكر المدعي الكبير بباب ملك المغرب ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر مَنْ أنشد ليلتئذ من الشعراء ما نصه : وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضي حملة السذاجة وكرم الخلق وطيب النفس وخذن العافية وابن الصلاح والعبادة ونشأة القرآن المتحيز إلى حزب السلامة المنقبض عن الغمار العزوف عن فضول القول والعمل جامع الحاسن من عقل رصين وطلب ممتع وأدب نقاوة ويد صنّاع أبو القاسم ابن أبي زكريا البرّجى فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة :

(١) صنّاع اليدين : يريد أنه مجيد ماهر ، وجعل عمله بكلتا يديه كناية عن ذلك
(٢) تقول « ألقيت حبله على غاربه » تريد بذلك أنك تركته وشأنه ، وأصله السائمة تخلى في المربع ويجعل زمامها (حبلها الذي تربط به) على ظهرها لترتاد ماشاءت

أَصْنَعِي إِلَى الْوَجْدِ مَا جَدَّ عَاتِبَهُ
لَمْ يَعْطِ لِلصَّبْرِ مِنْ بَعْدِ الْفِرَاقِ يَدًا
لَوْلَا النَّوَى لَمْ يَبْتَ حِرَانٍ مَكْتُوبًا
يَسْتَوْدِعُ اللَّيْلَ أَسْرَارَ الْغَرَامِ وَمَا
لِلَّهِ عَصْرٌ بِشَرْقٍ الْحَى سَمَحَتْ
يَا جَبْرَةَ أَوْدَعُوا إِذْ وَدَعُوا حُرْقًا
يَا هَلْ تَرَى تَجْمَعُ الْأَيَّامُ فِرْقَتَنَا
وَيَا أَهْيَلْ وَدَادِي وَالنَّوَى قَذْفٌ
هَلْ نَاقِضُ الْعَهْدِ بَعْدَ الْبَعْدِ حَافِظُهُ
وَيَا رُبَّوعَ الْحَى لَا زِلْتَ نَاعِمَةً
يَا مَنْ لِقَابٍ مَعَ الْأَهْوَاءِ مُنْعَظُفٌ
يَسْمُو إِلَى طَلَبِ الْبَاقِي بَهْمَتِهِ
وَفَتْنَةُ الْمَرْءِ بِالْمَأْلُوفِ مُعْضَلَةٌ
أَبْكِي لِعَهْدِ الصَّبَا وَالشَّيْبِ يَضْحَكُنِي
وَلَنْ تَرَى كَالْهَوَى أَشْجَاهُ سَالِفُهُ
وَهَمَّةُ الْمَرْءِ تَغْلِيهِ وَتَرْخِصُهُ
مَا هَانَ كَسْبُ الْمَعَالَى أَوْ تَنَاوَلَهَا
لَوْلَا سُرَى الْقَمَلِكِ السَّامِي مَا ظَهَرَتْ
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ رَكْبٌ لِلْعَلَا رَكِبُوا
يَرْمُونَ عَرَضَ الْفَلَا بِالسَّيْرِ عَنْ غُرُضٍ

صَبَّ لَهُ شُغْلٌ عَنْ يِعَاتِبِهِ^(١)
فَضْلٌ مِنْ ظُلِّ إِرْشَادَا يَخَاطِبِهِ
يَغَالِبُ الْوَجْدَ كَيْمَا وَهُوَ غَالِبُهُ
تَمْلِيهِ أَشْجَانَهُ فَالِدَمْعِ كَاتِبِهِ
بِالْوَصْلِ أَوْقَاتِهِ لَوْ عَادَ ذَاهِبُهُ
يَصَلِّي بِهَا مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ ذَاتِبِهِ
كَعَهْدِنَا أَوْ يَرِدُ الْقَلْبُ سَاكِبِهِ
وَالْقَرَبُ قَدْ أَهْمَتْ دُونِي مَذَاهِبُهُ
وَصَادِعُ الشَّمْلِ يَوْمَ الشَّعْبِ شَاعِبِهِ
يَبْكِي عَهْدَكَ مُضْنَى الْجِسْمِ شَاكِبِهِ
فِي كُلِّ أَوْبٍ لَهُ شَوْقٌ يَجَازِبُهُ
وَالنَّفْسُ بِالْمِلِّ لِلْفَانِي تَطَالِبُهُ
وَالْأَنْسُ بِالْإِلْفِ نَحْوَ الْإِلْفِ جَازِبُهُ
يَا لِلرِّجَالِ سَبَبَتْ جَدَى مَلَاعِبِهِ
وَلَا كَوَعْدِ الْمَنَى أَحْلَاهُ كَازِبِهِ
مَنْ عَزَّ نَفْسًا تَقْدَعَتْ مَطَالِبِهِ
بَلْ هَانَ فِي ذَلِكَ مَا يَلْقَاهُ طَالِبُهُ
آثَارُهُ وَلَمَّا لَاحَتْ كَوَاكِبُهُ
ظَهَرَ السَّرَى فَأَجَابَتْهُمْ نَجَائِبُهُ
طَى السَّجَلِ إِذَا مَا جَدَّ كَاتِبُهُ

(١) أصغى : مال ، والوجد : شدة العشق ، وجد في الشيء : اهتم به وبذل فيه وسعه ، يقول : كان اهتمام العذال بتركي هواه داعيا إياي إلى الوجد به ، وهو مأخوذ من قول أبي نواس :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالى كانت هى الداء .

كأنهم في فؤاد الليل سِرُّ هَوَى
 شدُّوا على لُهب الرمضاء وطأنهم
 وكلفوا الليل من طول السرى شَططا
 حتى إذا أبصروا الأعلام ماثلة
 بحيث يأمن من مولاه خائفه
 فيها وفي طيبة الغراء لى أمل
 لم أنس لا أنس أياما بظلمهما
 شوقى إليها وإن شَطَّ المزار بهما
 إن ردها الدهر يوماً بعد ما عبثت
 معاهد شَرُفَتْ بالمصطفى فلهما
 محمد المجتبي الهادى الشفيع إلى
 أوْفى الورى ذمما ، أسماهم هما
 هو المكمل فى خلق وفى خلق
 عناية قبل بدء الخلق سابقة
 جاءت تبشرنا الرُّسلُ الكرام به
 أخباره سر عِلم الأولين وسل
 تطابق الكون فى البشرى بمولده
 فالجن تهتف إعلانا هواتفه
 ولم تزل عصمة التأييد تكنفه
 سرى وجنح ظلام الليل منسدل

لولا الضَّرام لما خفت جوانبه
 فغاص فى لجسة الظالماء راسبه
 فخلقوه وقد شابت ذوائبه (١)
 بجانب الحرم الحمى جانبه
 من ذنبه وينال القصد راغبه
 يصاحب القلب منه ما يصاحبه
 سقى ثراه عميم النيث ساكبه
 شوق المقيم وقد سارت حبايبه
 فى الشمل من يداه لا نعانبه
 من فضله شرف تعلو مراتبه
 رب العباد أمين الوحي عاقبه (٢)
 أعلام كرمًا ، جلت مناقبه
 زكت حلّاه كما طابت مناسبه
 من أجلها كان آتية وذاهبه
 كالصبح تبدو تباشيرا كواكبه
 بدير تيماء ما أبداه راهبه
 وطبق الأرض أعلاما تجاوبه
 والجن تقذف إحراقا ثواقبه
 حتى انجلى الحق وانزاحت شوائبه
 والنجم لا يهتدى فى الأفق ساربه

(١) كلفوه : حملوه فعل مافى فعله كلفة وجهد ومشقة ، والسرى - بضم أوله ،
 بزة الهدى - السير ليلا ، والدوائب : جمع ذؤابة ، وهى الشعر فى مقدم الرأس
 (٢) يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قل « أنا العاقب » وفسروه بأنه
 الذى يعشر الناس على عقبه ، أو بأنه الذى ليس بعده نبى .

يسمو نكل سماء منه منفرد
لمتقني وقف الروح الأمين به
لقاب قوسين أو أدنى فما علمت
أراه أسرار ما قد كانت أودعه
وآب والبدر في بحر الدجى غرق
فأشرقت بسناء الأرض واتبعت
وأقبل الرشد والتاحت زواهره
وجاء بالذكر آيات مفصلة
نور من الحكم لا تحبو سواطعه
له مقام الرضا المحمود شاهده
والرسل تحت لواء الحمد يقدمها
له الشفاعات مقبولا وسائلها
والخوض يروى الصدى من عذب مورده،
محامد المصطفى لا ينتهي أبدا
فضل تكفل بالدارين يوسعها
حسبي التوسل منها بالذي سمحت
حياته من صلوات الله صوب حيا
وخلد الله ملك المستعين به
إمام عدل بتقوى الله مشتمل
مسدد الحكم ميمون تقيته

عن الأنام وجبرائيل صاحبه (١)
وامتاز قربا فلا خلق يقاربه
نفس بمقدار ما أولاه واهبه
في الخلق والأمر بادية وغائبه
والصحيح لمتا يؤب للشرق آية (٢)
سبل النجاة بما أبدت مذاهبه
وأدبر الغي فأنجيات غياهبه (٣)
يهدى بها من صراط الله لاجبه
بحر من العلم لا تنفى عجائبه
في موقف الحشر إذ نابت نوابه
محمد أحمد السامى مراتبه
إذا دهم الأمر واشتدت مصاعبه
لا يشتكى غلة الظمان شاربته
تعدادها، هل يعد القطر حاسبه ؟
نعمى ورحى فلا فضل يناسبه
به القوافي وجلتها غرائبه
تُحذى إلى قبره الزاكي نجائبه
مؤيد الأمر منصوراً كتابته
في الأمر والنهي يرضيه يراقبه
مظفر العزم صدق الرأي صائبه

(١) جبرائيل : لغة في جبريل ، وهو اسم ملك الوحي

(٢) آب يؤوب : رجع يرجع

(٣) أنجيات : انجلى وانكشفت ، والغيايب : الظلمات

ودمت في نعم تصفو ملابسها في ظل عز علّا تصفو مشاربه
ثم الصلاة على خير البرية ما سارت إليه بمشتاق ركانبه
ومن شعره ما قيده لى بخطه صاحب قلم الإنشاء بالحضرة المرينية الفقيه الرئيس
الصدر المتغن أبو زيد بن خلدون :

صح القلب عما تعلمين فأقلعا وعطلّ من تلك المعاهد أربعا^(١)
وأصبح لا يلوى على حدّ منزل ولا يتبع الطرف الخلى المودعا
وأضحى من السلوان في حرز معقل بعيد عن الأيام أن يتضعضا^(٢)
يرد الجفان النجل عن شرفاته وإن لحظت عن كل أجيد أتلعا^(٣)
عزيز على داعى الغرام انقياده وكان إذ ناداه للوجد أهطعا
أهاب به للشيب أنصح واعظ أصاخ له قلبا منيبا ومسمعا
وسافر فى أفق التفكر والحجا زواهره لا تبرح الدهر طلعا
لعمري لقد أنضيت عزمى تطلبا وقضيت عمرى رقة وتطلعا
وخضت عباب البحر أخضر مزبدا ودست أديم الأرض أغبر أسفعا
وقال حسبا قيده المذكور :

نهاه النهى بعد طول التجارب ولاح له منهج الرشدا حب
وخاطبه دهره ناصحا بالسنة الوغظ من كل جانب
فأضحى إلى نصحه واعيا وألقى حديث الأمانى الكواذب
وأصبح لا تستبيح الغواني ولا تزدرى حظوظ المناصب
ثم قال فى « الإحاطة » : وإحسانه كثير فى النثر والنظم والقصار والمطولات ،
واستعمل فى السفارة إلى ملك مصر وملك قشتالة ، وهو الآن قاضى حضرة الملك

(١) صح القلب : ترك ما كان فيه من الصباية والعشق ، وأقلع : كف وترك

(٢) يتضعع : ينكسر ويذل ويخضع ويضعف

(٣) الأجد : الطويل الجيد (العنق) والأتلع : مثله

نسيجُ وَخِدِه في السلامة والتخصص واجتتاب فضول القول والعمل ، كان
الله له ! انتهى .

وكتب ابن المصنف بهامش ترجمة المذكور من « الإحاطة » ما صورته :
سيدى وشيخى عالمة المغرب اليوم ، وحائزرتبه العلية من خطابة وقضاء وعالمة
وهو أحق بها ؛ لخلاله الحيدة ، أبقاه الله تعالى ! قاله محبه على ابن الخطيب ، انتهى
وكتب على القصيدة الميلادية المقدمة ما نصه : رويتها عنه ، وسمعتها من
لفظه ، وأجازني إياها بتلمسان ، انتهى .

وكتب على حاشية قصيدته « صحا القلب - إلى آخره » ما صورته : سمعتها
من لفظ سيدى وشقيق روحى الإمام العلامة الرئيس أبى زيد بن خلدون بالأندلس
أمتع الله به تعالى ! قال ذلك أخوه على بن الخطيب ، انتهى .

وقال فى « الإحاطة » فى ترجمة ابن زمرى ما صورته : وشعره مترام إلى
هَدَف الإجابة ، خفاجى النزعة ، كلف بالمعانى البديعة والألفاظ الصعبة ، غزير
المادة ، فمن ذلك ما خاطبني به وهى من أول ما نظمه قصيدة مطلعها :

* أما وانصداع النور من مطلع الفجر *

من الوزير
ابن زمرى إلى
لسان الدين

يقول فيها بعد أبيات :

لك الله من فَدَّ الجلالة أوحـد

لك القلم الأعلى الذى طال فخره

يقلد أجساد الطروس تماثما

تَهَيَّبَكَ القراطيس فاحمر إذ غدا

كان رياض الطرس خدّ مورد

يطرزه وشى العذار من الحبر^(٢)

(١) المرهفات : السيوف المحددة ، والبيض : جمع أبيض ، والأسل الهمر :

أراد بها الرماح (٢) الطرس - بالكسر - الورق الذى يكتب فيه ، شبهه بخد جميل
مورد ، وشبه الكتابة فيه بالعذار ، وهو شعر الوجه

فشارة هذا الملك راتقة الحلي
وماروضة غناء عاهدًا الحيا
تُغنى قيان الطير في جنباتها
تمدلاً كواس العرّار أناملا
ويحرس خدّ الورد صارم نهرها
يفاخر مرآها السماء محاسنا
إذا مسحت كف الصبا جفن نورها
بأعطر من رِيّ ثنائك في السرى
عجبت له يحكى خلال خيالة
إذا أضرمت من بأسها الحرب جاحها
وإن كلع الأبطال في حومة الوغى
لك الحسب الواضح والسود الذي
تشرّف أفق أنت بدر كماله
تكلل تاج الملك منك محاسنا
بعزّة مضمون السعادة أوحد
طوى الحيف منشور اللواء مؤيدا
ومد ظلال الأمن إذ قصر العدا
إذا احتفل الإيوان يوم مشورة
صدعت بفصل القول غير منازع
فإن تظفر الخيل المغيرة بالضحي

بألويه حُخِر وبالصحف الحمر
تحوك بها وثنى الربيع يدُ الفطر^(١)
فيرقص غصن البان في حلل خضر
من السوسن الغض الختم بالتبر
ويمنع ثغر النور بالذابل النضر
وتزرى نجوم الزهر منها على الزهر
تنفس ثغر الزهر عن غبر الشجر
وأبهر حسنا من شمائلك الغر
وتفرق منه الأسد في موقف الذعر
تأجج منه الغضب في لجة البحر
ترقق ماء البشر في صفحة البدر
يضيق نطاق الوصف فيه عن الحصر
فغرناطة تحتال تبيها على مصر
وفاخرت الأملاك منك بنو نصر
وغرة وضاح المسكارم والنجر
فعرّجى الإسلام بالطى والنشر
فيتلى سناء الملك بالمد والقصر
وتضطرب الآراء من كل ذى حجر
وأطلعت آراء قبسَن من الفجر
فمن رأيك الميمون تظفر بالنصر

(١) عاهدها : تعاهدها ولم يغب عنها ، والحيا : المطر ، وتحوك : تنسج ، وفي نسخة تحرى : وأصله تتحرى فحذف إحدى التاءين ، ووثى الربيع : صنوف النبات التى يهيجها المطر في زمن الربيع ، شبهها بالوشى ، وهو النقش في الثوب ونحوه ، والقطر - بالفتح - المطر

فلا زلت للعلياء تحمى ذمارها وتسحب أذيال الفخار على النسر
وللعلم فخر الدين والفتك بالعدا بأوت به يا ابن الخطيب على الفخر^(١)
فيهنيك عيد الفطر من أنت عيده ويشئ بما أوليت من نعم غر
جبرت مهبضا من جناحي ورشته وسهلت لي من جانب الزمن الوعر^(٢)
وبواتني من ذروة العز معتلى وشرفتني من حيث أدرى ولا أدرى
وسوغتني الآمال عذبا مسلسلا وأسميت من ذكرى ورفعت من قدرى
فدهرى عيىد بالسرور وبالمنى وكل ليالى العمر لي ليلة القدر
فأصبحت مغبوطا على خير نعمة يقل لأدناها الكثير من الشكر
وهي طويلة ، انتهى .

قلت : هذا الرئيس ابن زمرّك صرح هنا بأنه بجاه لسان الدين بن الخطيب
أدرك من العز ما أدرك ، ثم أنقلب عليه مع الدهر وكفر نعمته وبها أشرك ،
وحرك من دواعي قتله ما حرك ، وكم من صديق لك ضرك ، وعقّك بعد ما برك ،
وساءك إثر ما سرك ، ولذا رأيت بخط ابن لسان الدين على هامش قوله في هذه
القصيدة « ومد ظلال الأمن - إلخ » ما صورته : هذا مدحه لحاء الله ، وعلى قوله
« وبواتني من ذروة العز - إلخ » ما مثاله : هكذا شهادتك لحقه ، ثم تحوّل عنه ،
وكفر نعمته ، أغرب أخزأك الله ! انتهى .

وكتب بهامش أول ترجمته من « الإحاطة » ما نصه : أتبعه الله خزيا ،
وعامله بما يستحقه ! فهذا ترجمه والذى مولاه الذى رفع من قدره فيه ، ولم يقتله
أحد غيره ، وكفانا الله تعالى شر من أحسنا إليه .

وكتب أيضاً تحت هذا ماثاله : هذا الوغد ابن زمرّك من شياطين الكتاب

(١) بأوت : خفرت (٢) أصل الجبر خاص بإصلاح ما انكسر من العظم ،
ورشت جناحي : أصلة ألصقت به الريش ، وهذه العبارة كناية عن أن به قوته ومنه
استمداده وعليه اعتماده ، والوعر - بالفتح - الصعب المرتقى ، وصف من الوعورة

ابن حداد بالبيازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضربا فمات من ذلك ، وهو
أخسُّ عباد الله تربية ، وأحقرهم صورة ، وأخلمهم شكلا ، استعمله أبي في
الكتابة السلطانية ، فجنينا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شر ، وهو كان
السبب في قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذي ربَّاه وأدبه واستخدمه ، حسبا هو
معروف ، وكفاما الله شر من أحسنا إليه وأساء إلينا ، انتهى .

وقد ألمنا بترجمته في هذا الكتاب في باب تلامذة لسان الدين
فلتراجع هنالك .

ومما كتب به ابن زمرك المذكور إلى لسان الدين ابن الخطيب جوابا عن
رسالة قوله :

حيث صباحا فاحت ساكني القصبه	واسترجعت أنفسا بالشوق مغتصبه	من ابن زمرك
قضى البيان لها أن لا نظير لها	فأحرزت من معاني خصله قصبة ^(١)	إلى لسان الدين
ناجت طليح سرى لا يستفيق لها	هدت جوارحه واستوهنت عصبه	
فحركته على فتك السلال به	وأذهبت بسرور الملتقى نصبة ^(٢)	
وأذكرت عهد مهديها على شحط	فعاود القلب من تذكاره وصبة ^(٣)	
ما كنت أسمع من دهرى بجوهره	لو كان يسمع لى بالقلب من غصبه	
سل أدمع الصب من أعدى السحاب بها	وقلبه بجمار الشوق من حصبه	
فالله يحفظ مهديها ويشكره	فوجهها بعصاب الحسن قد عصبه	
من كان وارث آداب يشعشعها	بالقرض إني في إرثي لها عصبه	
هو الملاذ ملاذ الناس قاطبة	سبحان من لغيث الخلق قد نصبه	

(١) يقال « أحرز فلان قصب السبق » وأصله أن المتسابقين كانوا يجعلون عند
آخر الشوط قصبه فن سبق أخذها ، ويكنى بهذا عن كونه سباقا إلى إدراك خصال المسجد
(٢) النصب - بفتح النون والصاد جميعا - النعب ، والوصب مثله

وخاطبه كذلك بقوله :

يكلفنى مولاي رَجَعَ جوابه	وما لتعاطى المعجزات وما ليا
أجيبك للفضل الذى أنت أهله	وأكتب مما قد أهدت الأماليا
فأنت الذى طوقتني كل منة	وأحسبت آمالى وأكسبت ماليا (١)
وأنت الذى أعدى الزمان كماله	وصيرت أحرار الزمان مَوَالِيَا (٢)
فلا زلت للفعل الجميل مواصلا	ولا زلت للشكر الجزيل مَوَالِيَا (٣)

وخاطبه كذلك بقوله :

طلعتها دون الصباح صَبَاحًا	لما جلت غرر البيان صَبَاحًا
ولقد رأيت وما رأيت كحسنها	وجهها أغر ومبسمها وضاحا
عذراء أرضعها اللبن أن لَبَانَهُ	وأطال مَقْدَى عندها ومَرَاخًا
فأنت كما شئت وشاء نجيها	تذكي الحجا وتنعم الأرواحا
لا بل كمثل الروض باكره الحيا	وسقى به زهر الكام قفاحا
وطوت بساط الشوق متى بعدما	نشرت على من القبول جناحا

وخاطبه كذلك بقوله :

ذروني فإني بالعلاء خبير	أسير فإن النيرات تسير
وكم بت أطوى الليل في طلب العلا	كأنى إلى نجم السماء سفير
بعزم إذا ما الليل مدَّ رواقه	يكر على ظلماته فينير
أخو كلفٍ بالمجد لا يستغزه	مهتاد إذا جن الظلام ويثير
إذا ما طوى يوما على السر كَشَحَه	فليس له حتى المماتِ نشور
وإني وإن كنت للمنع جاره	لنسي فؤادى أعين وثغور

(١) أحسبت آمالى: أكرت وأعظمت وأجزلت، وانظر ص ١٨٢ من هذا الجزء

(٢) الموالى : جميع مولى ، وهو هنا العبد ، ويطلق أيضا على السيد وعلى ابن العم

(٣) الموالى ، هنا : اسم الفاعل من « والى فلان نعمه » أى تابعها وألحق

بعضها ببعض

وماتعتربني فترة في مدى العلا
وفي السَّربِ من نجد تعلقْتُ ظبيَّة
وتمتع ميسور الكلام أبا الهدى
أسكانَ نجدٍ جادها واكفُ الحيا
وياسكني بالأجرع الفرد من منى
ذا كرتك فوق البحر والبعء بيننا
وأومض خفاق الذؤابة بارق
ويهفو فؤادي كلما هبت الصبا
ووالله ما أدري أذكرك هزني
فمن مُبلغ عني النوى ما يسوءها
بأننا غداً أو بعده سوف نلتقي
إلى كم أرى أكنى ووجدى مصرح
أمنجد آمالي ومغلى كاسدى
أنسى ولا أنسى مجالسك التي
تزورك في جنح الظلام ونثنى
على أنى إن غبت عنك فلم تغب
روح ونغدو كلَّ يومٍ وعندها
فظلك فوق حيثما كنت وارف
وعذراً فإنى إن أطلت فإنما

إلى أن أرى لحظاً عليه فتور
تصول على ألباننا وتغير
وتبخل حتى بالخيال يزور
هواكم بقلبي مُنجدٌ ومغير^(١)
وأيسر حظ من رضاك كثير
فدنته من فيض الدموع بحور
فطارت بقلبي أنه وزفير
أما لفؤادي في هواك نصير
أم السكاس ما بين الخيام تدور
وللبين حكم يعتدى ويحور
ونمسي ومنا زائر ومزور
وأخفى أسم من أهواء وهو شهير
ومصدر جامى والحديث كثير
بها تلتقيني نضرة وسرور
وبين يدينا من حديثك نور
لطائف لم يحجب لهن سفور
رواح علينا دائماً وبكور
ومورد آمالي لديك تمسير
قصارى من بعد البيان قصور

(١) أصل المنجد : الذى أتى النجد ، وهو المرتفع من الأرض ، والمغير : الذى أتى الغور ، وهو المنخفض من الأرض ، ويقال « أنجد هذا الأمر وأغار » والمراد منه أنه جاء كل مكان وذكر بكل لسان ، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس :
نبي يرى مالا ترون ، وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

وكتب إليه خاتمة رسالة كذلك :

وحقك ما استطعت بعدك غمضة
وعارضتُ مَسْرَى الرِّيحِ قلتُ لعلها
إلى أن بدا وَجْهُ الصُّباح كأنه
فقلت لقلبي استشعر الأنس وابتهج
وسِرُّ في ضمان الله حيث توجهت
من النوم حتى آذن النجم بالغروب
تم بر يا منك عاطرة المبوب
محياك إذ يحلو بغرته الخطوب
فإن تبعد الأجسام لم تبعد القلوب
ركابك لا تخشى الحوادث أن تنوب
قلت : هذه غاية في معناها ، لولا خُروجها عن القواعد في ترتيب قافيتها ومبناها ،
فانظر إلى تحوُّله عن لسان الدين بعد هذه المدائح ، ونسبته بعده القبايح ، والإنسان
خَوَّان ، إلا النادر من الإخوان ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله .

قال في « الإحاطة » في ترجمة ابن سلبطور مانصه : وما خاطبني به :

تالله ما أورى زناد القلق سوى بريق لاح لى بالأبرق (١)
أيقنت ما لحين فلولا نفحة نجدية منكم تلافت رَمَقِي (٢)
لسكنت أفضى بتلظى زفرة وحسرة بين الضلوع تلتقى
فاه من هول النوى وما جَنَى على القلوب موقفُ التفرق
يا حاكى الغصن اثنى متوججا بالبدر تحت لمة من غَسَقِ
الله فى نفس مُعَتَّى أقصدت من لاعج الشوق بما لم تطق
أتى على أكرها بَرَحُ الأسى دع ما مضى منها وأدرك ما بقى
ولو باللام خيال فى الكرى إن ساعدَ الجفن رقيب الأرق
فربَّ زور من خيال زائر أقرعيني وإن لم يصدق
شقيت من برح الأسى لو أن من أصبح رِقَى فى يديه مُعَتَّقِي

من
ابن سلبطور
إلى لسان الدين

(١) أورى الزناد : قدحه فأخرج منه النار ، والقلق : الاضطراب ، والبريق :

الضوء ، والأبرق : اسم مكان

(٢) الرمق - بالتحريك - بقية النفس فى الجسم ، وتلافته : تداركته

ففى معاناة الالى عائق
 وفى ضمان ما يعانى المرء من
 هذا العمرى مع أنى لم أبت
 فقد أخذت من خطوب غدرها
 فخر الوزارة الذى ما مثله
 ومذ أرائيه زمانى لم أبل
 لا سيما منذ حطت فى حى
 أيقنت أنى فى رجائى لم أحب
 ندب له فى كل حسن آية
 فى وجهه مسحة بشر إن بدت
 تعتبر الأبصار فى اللألاء ما
 كالدهر فى استينائه وبطشه
 إن بخل الغيث استهلت يده
 وإن وشت صفحة طرس أنجلي
 بمثلها من حبرات أخجلت
 مارق فى الآذان أشناف سوى
 تود أجياذ الفوانى أن يرى
 فسل به هل آده الأمر الذى
 إذا رأى رأى فلا يخطئه
 إيه أبا عبد الإله هاكها

عن التصابى وفون القلق
 نواب الدهر مشيب الفرق
 منها بشكوى روعة أوفرق^(١)
 بابن الخطيب الأمن مما أتقى
 بدر علا فى مغرب أو مشرق
 من صرفه بمزعد أو مبرق^(٢)
 مقامه الأمن رخل أينقى
 وأن مسعى بغيقى لم يخفيق
 تناسبت فى الخلق أوفى الخلق
 تهرجت أنوار شمس الأفق
 عليه من نور السباح المشرق
 كالسيف فى حد الظلم والرونق
 بوابل من غيث جود غدق
 ليل دجاها عن سنى مؤتلق
 حواشى الروض حدود المهرق
 ملتقطات لفظه المغترق
 حليها من در ذاك المنطق
 حمل فى شرح الشباب المونق
 يمين اختيار للطريق الأوفق
 عذراء تحثو فى وجوه السبق

(١) الفرق - بفتح الفاء والراء جميعا - الخوف والوجل

(٢) لم أبل : أصله لم أبال ، وقد حذفوا الألف وجعلوا علامة الجزم على حرف

اللام فى هذه الكلمة لكثرة الاستعمال ، ومعناه : لم أكرت ولم أهتم ولم أعره صاغية

خذها إليك بكرّ فكرٍ يزدرى لديك بالأعشى لدى المخلق^(١)
لا زلت مرهوب الجنب مرتجى موصول عز في صعود ترتقى
مبلغ الآمال فيما تبتغى مؤمن الأغراض مما تنقى
وابن سلبطور هو : محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور ، الهاشمي .

ترجمة
ابن سلبطور

قال في « الإحاطة » : من أهل المرية ، يكنى أبا عبد الله ، من وجوه بلده وأعيانه ، نشأ بنية البيت ساحبا بنفسه وبماله ذيل الخطوة ، متحليا بخصل من خط وأدب ، وزيرا ، متجنذا ، ظريفا ، دربا على ركوب البحر وقادة الأساطيل ، ثم انحطّ في هواه انحطاطا أضاع مروءته ، واستهلك عقاره ، وهَدَّ بيته ، وألجأه أخيرا إلى اللحاق بالعدوة فهلك بها .

وجرى ذكره في « الإكليل » بما نصه : مجموع شعر وخط ، وذكاء عن درجة الظرفاء غير منحط ، إلى مجادة أثيلة البيت ، شهيرة الحى والميت ، نشأ في حجر الترف والنعمة ، محفوقا بالمالية الجمة ، فلما عقل عن ذاته ، وترعرع بين لذاته ، أجرى خيول لذاته ، فلم يدع منها ربعا إلا أفقره ، ولا عقارا إلا عقره ، حتى حط بساحلها ، واستولى بسفر الإنفاق على جميع مراحلها ، إلا أنه خلص بنفس طيبة ، وسراوة سماؤها صنيبة ، وتمتع ما شاء من زير وبم ، وتأنس لم يعط القياد لهم ، وفي عفو الله سعة ، وليس مع التوكل عليه ضعة .

شعره - من شعره قوله يمدح السلطان ، وأنشدها إياه بالمضارب من وادي الغيران ، عند قدومه المرية :

أثرك أم سمط من الدر ينظم وريقك أم مسك به الراح تحتم
ووجهك أم باد من الصبح نير وفرعك أم داج من الليل مظلم

(١) بكر فكر : يريد لم يسبق صاحبها إليها ، ويزدرى : يمتن وينتقص ، والأعشى : هو أعشى قيس ، واسمه ميمون ، والمخلق : رجل من الدهاء استضاف الأعشى ونحر له وسقاء خرا ، ثم شكاه أن له بنات لم يتزوجن ، فلما قدم الأعشى عكاظ أنشدها قصيدة يقول فيها :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمخلق
فلم يحل الحول حتى كانت كل بنت من بناته في بيت عظيم من عطاء العرب

أعلل منك الوجد والليل ملتي وهل ينفع التعليل والخطب مؤلم
وأقنع من طيف الخيال بزورة لو أن جفوني بالنام تنعم
ثم سررد لسان الدين القصيدة ، وهي طويلة .

ثم قال : ومن شعره مذيلا على البيت الأخير حسبما نُسب إليه ببلده :
نامت جفونك يا سؤلى ولم أتم ما ذاك إلا لقرط الوجد والسقم
أشكو إلى الله ما بى من محبتكم فهو العليم بما ألقى من الألم
إن كان سفك دمي أقصى مرادكم فما غلت نظرة منكم بسفك دمي
ومما ينسب إليه كذلك :

قف بى وناد بين تلك الطلول أين الألى كانوا عليها نزول
أين ليالينا بهم والمنى نجنيه غضا بالرضا والقبول
لا تحمّلوا بعض الذى حمّلوا يوم تولت بالقياب الحمول
إن غبتم يا أهل نجد ففى قلبى أتم وضلوعى حُلُول
ثم قال : ناب فى القيادة البحرية عن خاله القائد أبى على الرنداحى ، وولى أسطول
للركب برهة ، وتوفى بمراكش عام خمسة وخمسين وسبعائة ، رحمه الله تعالى !
اتمى .

وقال لسان الدين : كتب إلى : أبو عبد الله بن راجح التونسي بما يظهر من
آياته ، وهي :

أما والذى لى فى حلاك من الحمد ومالك ملاكى لدى من الرقد
لقد أشعرتنى النفس أنك معرض عن المسرف الآتى لفضلك يستجدى (١)

(١) أشعرتنى : أعلمتنى ، وأستجدى : أطلب الجدى ، وهو العطاء

فإن زلة منى بدت لك جهرة
فراجمته بقولى :

أجلك عن عتب يغض من الود وأكرم وجه العذر منك عن الرد^(١)
ولكننى أهدى إليك نصيحتى وإن كنت قد أهديتها ثم لم تجردى^(٢)
إذا مقول الإنسان جاوز حده تحولت الأغراض منه إلى الضد
فأصبح منه الجد هزلاً مذمماً وأصبح منه الهزل فى معرض الجد
فما استطعت قبضاً للعنان فإنه أحق السجايا بالعلاء وبالجمد

وقال فى « الإحاطة » فى حق ابن راجح المذكور ما محصله : محمد بن على بن الحسن بن راجح ، الشريف الحسنى باعترافه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، تونسى ، أبو عبد الله ، يعرف بابن راجح ، صاحب رؤاء وأبهة ، نظيف البزة ، فاره المركب ، مطفف مكيال الإطراء ، ججوح فى إيجاب الحقوق ، مترام إلى أقصى آماد التوغل ، سخى اللسان بالثناء لثرائه ، مرسل لعنائه فى كل المحافل ، متواضع متودد فكه مطبوع حسن الخلق عذب الفكاهة ، مخصوص حيث حل من الملوك والأمراء بالأثرة ، ومن دولهم بالمداخلة والصحبة ، ينظم الشعر ، ويحاضر بالآبيات ، ويقوم على تاريخ بلده ، ويثابر على لقاء أهل المعرفة ، والأخذ عن أولى الرواية ، قدم الأندلس عام خمسين وسبعائة مفلتاً من الوقعة بالسلطان أبى الحسن ، فهد له سلطانها كنف برّه ، وآواه إلى سعة رعيه ، وتأكدت بينى وبينه صحبة ، كتبت إليه أول قدومه بما نصه أخذوا حذو آبيات ذكر أن شيخنا أبا محمد الحضرمى خاطبه بها :

من لسان الدين أمن جانب الغربى نفحة بارح سرت منه أرواح الجوى فى الجوارح؟
إلى ابن راجح

(١) يغض من الود : ينزل من درجته وينقص منزلته

(٢) لم تجردى : لم تنفد ولم تفد لأنك لم تعمل بها

قدحت بها زند الغرام وإنما
وما هي إلا نسمة حاجرية
رَجَحْنَا لها من غير شك كأنها
فتى هاشم سبقا إلى كل غاية
أصيل العلا جَمُّ السيادة ، ذكره
وفرقان مجد يصدع الشك نوره
وفارس ميدان البيان إذا انتضى
رقيق كما رافتك نعمة ساجع
إذا ما احتبى مستحضرا في بلاغة
وقد شرعت في مجمع الحفل نحوه
فما ضعفت منه لصولة صادع
تذكرت قسا قائما في عكاظه
ليهنك شمس الدين ما حزت من علا
رعى الله ركبا أطلع الصبح مسفرا
ولله ما أهدته گوّماء أوضعت
أقول لقومي عندما حط كورها
ذروها وأرض الله لا تعرضوا لها
إذا ما أردنا القول فيه كَمَنْ لَنَا
بقيت مئى نفس وتحفة قادم
ولا زلت تلقى البر والرحب حينما

تجافيت في دين السلو لقادح
رمى الشوق منها كل قلب بفادح
شمانل أخلاق الشريف ابن راجح
وصبرا ، مغار التمتك في كل فادح^(١)
طراز نُضَارٍ في برود المدائح
حبا الله منه كل صدر بشارح
صحائفه أنست مضاء الصفايح^(٢)
وجزّل كما راعتك صولة جارج
وخوض خِصَمَ القول منه بسامح
أسنة حربٍ للعيون اللوامح
ولا ذهبت منه بحكمة ناصح
وقد غصّ بالشّم الأنوف الجحاجح
خواتمه موصولة بالقـوائم
لمراك من فوق الربا والبطائح
برحلك في قفر عن الأنس نازح
وساعدها السعدان وسط الأباطح
بمعرض سوء فهي ناقة صالح
بطوع التفواى وانبعاث القرائح
ومورد ظمآن وكمبة مادح
أرحت الشرى من كل غاد ورائح

(١) أصل المغار الجبل الذى أحكم فتله ، والفادح : الخطب يتقل حمله
(٢) الصحائف : جمع صحيفة وهى ما يكتب فيه ، والصفائح : السيوف ،

من ابن راجح فأجابني بما نصه :
إلى لسان الدين

أمن مطلع الأنوار لمحمة لامح
وهل بالمني من مَورد الوصل يرتوي
فيافيض عين الدمع مالك والحمى
مربع آراعى ومورد ناقتى
سقى الله ذاك الحمى ودَقاً فإنه
وأبدى لنا حور الخيام تزف فى
ترى حَى تلك الحور للهور مهيح
ويادوحه الريحان هل لى عودة
وهل أنت إلا حلة حاتمية
أقام بها الفخر الخطيب منابراً
وشقَّع بالإنجيل حمد مديحه
وفرق بالفرقان كل فريقة
وهل هو إلا للبرية مرشد
فبشرى لسان الدين ساد بك الورى
متى قلت لم تترك مقالا لقائل
فمن حام بالحمى الذى أنت ربه
يحق له أن يشفع الحمد بالثنا
ويا فوز ملك دمت صدر صدوره
بأرائك اللاتى تدل على الهدى

تعاد لمفؤد عن الحمى نازح (١)
غليل عليل للتواصل جانح (٢)
ورند الحمى والشيخ شيخ الأشايح
فسقياً لها سقياً لنافقة صالح
حمى أمحت العين عن لمح لامح
حلى الحسن والحسنا وحلى الملامح
يدل وهل جسم لداء التبارح
لعفو غفار الأنس بين الأباطح
تقص نواديها بغاد ورائح
لترتيل آيات النسدى والمدائح
وأوتر بالتوراة شفع المدائح
نأت عن رشاد فيه محض النصائح
لكل هدى هاد لأرجح راجح
وأورى الهدى للرشد أوضوح واضح
وإن لم تقل لم يغن مدح لمادح
وعام ببحر من عطايك طافح
ويغدو بذاك البحر أصبح سابح
وبشرى له قد راح أريح راجح
وتبدى لمن خصصت سبل المناجح

(١) نازح : بعيد

(٢) جانح : مانل

ملكك خصال السبق في كل غاية وملكك ماملكت يا ابن الجحاح
مطامح آمال لأشرف همه أقول مراميهما أجل المطامح
فدونكها يا مهدي المدح مدحة أجبت بها عن مدح أشرف مادح
تهنئك بالعام الذي عم مدحه مواهب هاتيك البحار الطوافح
فخذها سمي الفخر يا خير مسبل على الخلق إغضاء ستور التسامح
وَدُمَّ خَاطِبَ العُلَيا بها خير خاطب وأتوق تواقٍ وأطمح طامح^(١)

ثم قال لسان الدين : توفي يوم الخميس ثالث شعبان سنة خمسة وستين وسبعائة ، وقد ناهز السبعين ، ودفناه بروضتنا بيساب البيرة ، وأعفى شارب الشعر من ثاني مقصّه ، عفا الله تعالى عنا وعنه ! انتهى .

قلت : رأيت بخط البدر البشتكي في اختصاره لإحاطة لسان الدين وسماء « بمرکز الإحاطة » في هذا الحل مانصه : قال كاتبه : لو وفق الله تعالى هذا الرجل لم يجب عن مثل تلك الحائية بهذا الهداء ، ولعل مافي كتاب أبي البركات الذي اسمه « شعر من لا شعر له » أنزل من هذه الطبقة ، انتهى .

وقد أشار لسان الدين لهذا بقوله السابق : وأعفى شارب الشعر من ثاني مقصّه ، فله دره من لودعي زان خاتم البراعة بقصّه ، فلكم له من عبارة وجيزة يقضى بها ما لم يستطع غيره أن يعبر عنه بإطنابه ، فعلى كل من يروم التعبير ، عمافي الضمير ، أن يتمسك بإطنابه .

وقال ابن خاتمة : حدثني الشريف الأديب أبو عبد الله بن راجح التونسي مقدّمه علينا بالمرية قال : سجن القاضي أبو عبد الله بن عبد السلام شابا وسيما لحق تعين عليه ، فأنشدته مداعبا :

(١) تواق : صيغة مبالغة لتائق ، وتقول : تاق إلى الشيء يتوق فهو تائق وتثق ، تريد أنه اشتاق إليه ، والطماع : المتطلع إلى الشيء الطامع فيه

أفاضى المسلمين حكمت حكما غدا وجه الزمان له عبوسا
 سجنت على الدراهم ذاجمال ولم تسجنه إذ غصب النفوسا
 فأجابني بأن قال : إنما شكاه لى أربابُ الدراهم ، دون أرباب النفوس ، انتهى .
 رجع إلى ما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى :

من أبي عبد الله
 العتاب إلى
 لسان الدين

ومما خاطبه به أبو عبد الله العتاب التونسي فى بعض الأعياد قوله :
 يمين أبى عبد الإله محمد تيمن هذا القَطْرُ وانسجم القَطْرُ (١)
 أفاض علينا من جزيل عطائه بحورا تديم المَدَّ ليس له جَزْرُ
 وآنسنا لما عدنا مغائبا إذا ذكرت فى القلب ليس لها دعر
 هنيئا بعيد القطر يا خير ماجد كريم به تسمو السيادة والفخر
 ودمت مدى الأيام فى ظل نعمة تطيع لك الدنيا ويعتولك الدهر

من
 ابن عبد الملك
 المراكشى إلى
 لسان الدين

وقال لسان الدين فى ترجمة ابن عبد الملك المراكشى ما صورته : وخاطبني بقوله :
 وليت ولاية أحسنت فيها ليعلم أنها شَرُفَتْ بقدرك
 وكم والٍ أساء فقليل فيه ذنى القدر ليس لها بمدرك
 وقال أيضا يخاطبني فى المعنى :

وليت فقليل أحسن خير وال ففاق مَدَى مداركها بفضله
 وكم والٍ أساء فقليل فيه دنا ففحا محاسنها بفعله

ترجمة
 محمد بن محمد
 ابن عبد الملك
 الأوسى

وفى « الإحاطة » ما محصله أن المذكور محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد
 الأنصارى الأوسى ، كان شديد الانقباض ، محبوب الحاسن ، تنبو العين عنه
 جَهامة ووَخْشة ظاهرة وغرابة شكل ، وفى طى ذلك أدب غض ، ونفس حرة ،
 وحديث ممتع ، وأبوّة كريمة ، أحد الصابر بن على الجُهْد ، المستمسكين بأسباب

(١) اليمين : البركة وسعد الطالع ، وتيمن : عدّه فألا حسنا ، والقطر — بالضم —
 الناحية والصقع ، والقطر — بالفتح — المطر ، وبينهما نوع من الجناس

الحشمة ، الراضين بالخصاصة ، وأبوه قاضي القضاة نَسِيحٌ وَخَدِهَ الإمام العالم التاريخي المتبحر في الآداب ، تقلبت به أيدي الليالي بعد وفاته لتبعة سلطت على تشبهه ، فاستقر بمالقة مقدورا عليه ، لا يهتدى لمكان فضله إلا من عثر عليه ، ومن شعره قوله :

من لم يصن في أمل وجهه عنك فَصُنْ وجهك عن رده
واعرف له الفضل وعرف له حيث أحل النفس من قصده
ثم قال : توفي في ذى القعدة عام ثلاثة وأربعين وسبعائة ، انتهى .

وبما مَدَحَ به لسان الدين قولُ أبي عبد الله محمد المَكُودِي القاسي رحمه الله تعالى :

من أبي عبد الله
محمد المَكُودِي
إلى لسان الدين

رحماك بي فلقد خَلَدْتَ في خلدي هوى أكابد منه حرقة الكبد
حللت عقد سُلوَى عن فؤادي إذ حللت منه محل الروح من جسدي
مرآك بدري وذكريك التذاذ في ودين حبك إضماري ومعتدي
ومن جمالك نور لآح في بصري ومن ودادك روح حل في خلدي
لا تحسبن فؤادي عنك مصطبرا فقبل حُبِّكَ كان الصبر طوع يدي
وهاك جسمي قد أودى النحول به فلو طلبت وجودا منه لم تجد^(١)
بما بطرفك من غننج ومن حور وما بثغرك من در ومن برَدِ
كن بين طرفي وقلبي منصفا فلقد حايت بعضهما فاعدل ولا تحد
فقال لي قد جعلت القلب لي وطنا وقد قضيت على الأجفان بالشَّهْدِ
وكيف تطلب عدلا والهوى حكم وحكمه قط لم يعدل على أحد
من لي بأغيد لا يرثي لذي شجن وليس يعرف ما يلقاه ذو كمد

(١) أودى به : أهلكه وذهب به ، والنحول : الهزال ، وقد أخذ هذا

من قول المتنبي

كفى بجسمي نحولا أني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني
روح تردد في مثل الخلال ، فلو أطارث الريح عنه الثوب لم بين

ما كنت من قبل إذعاني اسطوته
إن جاء بالوعد لم تصدق مواعده
أخال أن الرشا يسطو على الأسد
فإن قنعت بزور الوعد لم يعد
شكوته عِلَّتِي منه فقال : ألا
سر للطيب فما برء الضنى يدي
فقلت : إن شئت برئ أو شفا ألى
فبارتشاف لماك الكوثرى جُدِ
وإن بخلت فى مولى يجود على
ضعفى ويبرىء ما أضنيت من جسدى
وخرج بعد هذا إلى مدح لسان الدين فأطال وأطاب ، وكيف لا وقد ملأ من
إحسانه الوطاب ؟ رحم الله تعالى الجميع !

وقال لسان الدين : كتبت إلى أبى عبد الله اليتيم أسأل منه ما أثبت فى كتاب
« التاج » من شعره ، فكتب إلى بهذه الأبيات :

من
أبى عبد الله
اليتيم إلى
لسان الدين

أما الغرام فلم أخلل بمذهبه
يا معرضاً عن فؤاد لم يزل كلفاً
فلم حرمته فؤادى نيل مطلبه
بجبه ذا حذار من تحنبه
قطعت عنه الذى عودته فعدا
وحظه من رضاه برق خلبه^(١)
أيام وصلك مبذول ، وبرك بى
مجدد ، قد صفالى عذب مشربه
وسمع ودك عن إفك العواذل فى
شغل وبدر الدجى ناس لمغربه
لا أنت تمنعنى نيل الرضا كرما
ولا فؤادى بوارف فى تطلبه
لله عرفك ما أذكى تنسمه
لو كنت تمنحنى استنشاق طيبه
أنت الحبيب الذى لم آخذ بدلا
منه وحاشى لقلبى من تقلبه
يا ابن الخطيب الذى قد فقت كل سنى
أزال عن ناظرى إظلام غيبه
محمد الحسن فى خلق وفى خلق
أكملت باسمك معنى الحسن فازة به
حضرت أو غبت مالى عن هواك غنى
لا ينقص البدر حسنا فى تغيبه

(١) البرق الخلب — بزة السكر — الذى يطمع فى المطر وليس وراءه مطر ،
ويضرب مثلاً فى الشيء الذى لا منفعة وراءه

سيان حال التداني والبعاد ، وهل لمبصر البدر نيل في ترقبه ؟
يا من أحسن ظني في رضاه وما ينفك يهدي قبيحا من تفضيه
إن كان ذنبى الهوى فالقلب منى لا يصغى لسمع ملام من مؤنبه

فأجبت هذه الرسالة ، وهى ظريفة فى معناها : يا سيدى الذى إذا رفعت راية ثنائى من لسان الدين
تلقيتها باليدى^(١) ، وإذا قسمت سهام وداده على ذوى اعتقاده كنت صاحب
الفرىضة والدين ، دام بقاؤك لطرفة تبتديها^(٢) ، وغريبة تردفها بأخرى تلبها ، وعقيلة
بيان تجلبها ، ونفس أخذ الحزن بكظمها ، وكلف الدهر بشت نظمها ، تؤنسها
وتسليها ، لم أزل أشد على بدائعك يد الضنين^(٣) ، وأقتنى درر كلامك ، ونفثات
أقلامك ، اقتناء الدر الثمين ، والأيام بلفائفك تعد ولا تسعد ، وفى هذه الأيام
اشالت على سماؤك بعد قحط ، وتواترت لدى آلاؤك على شحط ، وزارتنى من
عقائل بيانك كل فاتنة الطرف ، عاطرة العرف ، رافلة فى حلل البيان والظرف ،
لو ضربت بيوتها بالحجاز ، لأقرت لها العرب العاربة بالإعجاز ، ماشئت من رصف
المبنى ، ومطاوعة اللفظ لغرض المعنى ، وطيب الأسلوب ، والتشبت بالقلوب ، غير
أن سيدى أفرط فى التنزل ، وخلط المخاطبة بالتغزل ، وراجع الالتفات ، ورام
استدراك ما فات ، ويرحم الله تعالى شاعر المعرة فلقد أجاد فى قوله ، وأنكر مناجاة
الشوق بعد انصرام حوله :

أبعد حَوْلٍ تناجى الشوق ناجية هلا ونحن على عشر من العشر
ولقد تجاوزت فى الأمد ، وأنسيت أخبار صاحبك عبد الصمد ، فأقسم بالفاث
القدود ، وهمزات الجفون السود ، وحامل الأرواح مع الألواح ، بالغدو والرواح ،
لولا بُعد مزارك ، ما أمنت غائلة ما تحت إزارك ، ثم إنى حققت الغرض ، وبحث

(١) أخذ هذا من قول الشماخ بن ضرار فى عرابة الأوسى :

إذا ما راية رفعت لجحد تلقاها عرابة باليمن

(٢) الطرفة — بالضم — الأمر تعده طريقا بديعا ، وتبديها : تظهرها

(٣) الضنين : البخيل ، والعبارة كناية عن تحفظه بها وأنه لا يفرط فيها

عن المشكل الذى عَرَضَ ، فقلت : للخواطر انتقال ، ولكل مقام مقال ، وتختلف
الحوائج باختلاف الأوقات ، ثم رفع اللبس خبر الثقات :

ومنها - وتعرفت ما كان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم ،
والحنين إلى العهد القديم ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله ، وإن لاحظ
اللاحظ ، ما قال الجاحظ ، فاعتراض لا يرد ، وقياس لا يطرده ، حبذا والله عيشُ
التأديب ، فلا بالضنك ولا بالجديب^(١) ، معاهدة الإحسان ، ومشاهدة الصور
الحسان ، يمينا إن المعلمين ، لسادة المسلمين ، وإني لأنظر منهم كلما خطرت على
المكاتب ، أمراء فوق المراتب ، من كل مسيطر الدر ، منقطب الأسره ، متمم
للوارد تنمر الهره ، يغدو إلى مكتبه ، كالأمير فى موكبه ، حتى إذا استقل فى فرشه ،
واستوى على عرشه ، وترنم بتلاوة قالونه وورثه^(٢) ، أظهر للخلق احتقارا ، وأزرى
بالجبال وقارا ، ورفعت إليه الخصوم ، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم ، فتقول :
كسرى فى إيوانه ، والرشد فى أوانه ، أو الحجاج بين أعوانه ، فإذا استولى على
البدر السرار ، وتبين للشهر الغرار ، تحرك إلى الخرج ، تحرك العود إلى الفرج ،
أستغفر الله مما يشق على سيدى سماعه ، وتشمز من ذكره طباعه ، شيم اللسان ،
خلط الإساءة بالإحسان ، والغفلة من صفات الإنسان ، فأى عيش كهذا العيش ؟
وكيف حال أمير هذا الجيش ؟ طاعة معروفه ، ووجوه إليه مضرُوفه ، فإن أشار
بالإنصات ، لتحقق القصصات ، فكأنما طمس على الأفواه ، ولأم بين الشفاه ،
وإن أمر بالإفصاح ، وتلاوة الألواح ، علا الضجيج والعجيج ، وحف به كما حف
بالبيت الحجيج ، وكم بين ذلك من رشوة تدس ، وغزوة لا تحس ، ووعد يستنجز ،
وحاجة تستعجل وتحفز ، هنا الله سيدى ما خوله ، وأنساه بطيب أخراه أوله ، وقد

(١) الضنك — بالفتح — أراد المزور المقتر فيه ، والجديب : أصله المكان
المقفر الذى لا نبات فيه

(٢) قالون وورش : مقرئان تحمل عنهم قراءة القرآن الكريم

بعثت بدُعَايَتي هذه مع إجلال قدره ، والثقة بسعة صدره ، فليتلقها يمينه ، ويفسح لها في المرتبة بينه وبين خدينه ، ويفرغ لمراجعتها وقتاً من أوقاته عملاً بمقتضى دينه ، وفضل يقينه ، والسلام .

ثم قال : ومن المداعبة التي وقعت إليها الإشارة ما كتب به صديقه إليه أبو عبد السلام :

بين
أبي عبد السلام
وأبي عبد الله
اليتيم

أبا عبد الإله نداء خِلٍّ وفيّ جاء يمتحك النصيحة
إلى كم تالف الشبان غيا وخذلانا أما تخشى الفضيحة
فأجابه بقوله :

فديتك صاحب السمة المايحه ومن طابت أرومته الصريحه^(١)
ومن قلبي وضعت له محلا فما عنه يحل بأن أزيحه
نأيت فدمع عيني في انسكاب وأكبادي لفرقتكم قريحه^(٢)
وطرفي لا يتأجج له رقاد وهل نوم لأجفان جريحه
وزاد تشوقي أبيات شعر أنت منكم بألفاظ فصيحه
ولم تقصد بها جداء ولكن قصدت بها مداعبة وفيحه
فقلت : أتالف الشبان غيا وخذلانا أما تخشى الفضيحة
ففيهم حرفتي وقوام عيشي وأحوالي بخلطتهم نجيحة
وأمرى فيهم أمر مطاع وأوجههم مضاييح صبيحه
وتعلم أنني رجل حصور وتعرف ذلك معرفة صحيحة^(٣)
ثم قال لسان الدين — بعد إirاده مامر — ما صورته : ولما اشتهر المشيب بعارضة ولته ، وخفر الدهر بعهود صباه وأذيمته ، أفلح واسترجع ، وتألّم لما فرط وتوجع ،

(١) الأرومة : الأصل

(٢) قريحه : مجروحة

(٣) الحصور — بفتح الحاء — الذي انقطع عن النساء وتفرغ للعبادة

وهو الآن من جلة الخطباء طاهر العِرْض والثوب ، خالص من الشُّوب ، بادٍ عليه قبول قابل التوب ، وتوفى في أخريات صفر سنة خمسين وسبعائة في الطاعون ، رحمه الله تعالى وغفر له ! انتهى .

واليتيم المذكور هو أبو عبد الله محمد بن علي العبدري الملقب ، وفي حقه يقول لسان الدين في « التاج » ما مثله : هو مجموع أدوات حسان ، من خط ونعمة لسان ، أخلاقه رَوْضٌ تتضوُّع^(١) نسائه ، وبشره صبح تتألق قسَماته^(٢) ، ولا تخفى سَماته ، يُقرطس أغراض الدعابة ويضميها ، ويفوق سهام الفكاهة إلى مرَاميها ، فكلمًا صَدَرَتْ في عصره قصيدة هازله ، أو أبيات منحطة عن الإجادة نازله ، تحس أبياتها وذيلها ، وصرف معانيها وسيلها ، وتركها سمر الندمان ، وأضحوكة الأزمان ، وهو الآن خطيب المسجد الأعلى بمالقة ، متحلٍ بوقار وسكينة ، حالٍ من أهلها بمكانة مكينة ، لسهولة جانبه ، واتضاح مقاصده في الخير ومذاهبه ، واشتغل لأوّل أمره بالكتيب ، وبلغ الغاية في التعليم والترتيب ، والشباب لم ينصل^(٣) خضابه ، ولا سلت المشيب عضابه ، ونفسه بالحاسن كلفة صَبَّه ، وشأنه كله هوى ومحبة ، ولذلك ما خاطبه بعض أودائه ، وكلاهما رمى أخاه بدائه ، حسبما يأتي خلال هذا القول وفي أثنائه ، انتهى .

وذكر نحو ما تقدم ذكره ، سامح الله الجميع بفضله !

وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي القاسي نزيل مالقة ماصورته : وأنشدني وأنا بمالقة أحاول لَوثَ العامّة ، وأستعين بالغير على الإحكام لها :

أمعما قرأ تكامل حسنه / أربى على الشمس المنيرة في النّها

من
أبي عبد الله
الكرسوطي
إلى لسان الدين

(١) تضوُّع : يفوح منهاريج طيبة (٢) تتألق : تضيء ، والقسمات : معالم وجهه

(٣) الخضاب : صبغ الشعر الأبيض ، وينصل : أصله أن يذهب لون الخضاب

فيظهر الشعر أبيض كما كان

لا تلتبس من لديك زيادة فالبدر لا يمتار من نور السَّهْبا
قال لسان الدين : وهو فقيه محدث متكلم ، ألف كتباً منها « الغرر » في تكميل الطرر ،
طرر أبي إبراهيم الأعرج ، ثم كتاب « الدرر » في اختصار الطرر المذكور ،
وتقييدان على الرسالة كبير وصغير ، وخلص « التهذيب » لابن بشير ، وحذف
أسانيد المصنفات الثلاثة ، والنزم إسقاط التكرار ، واستدرك الصحاح الواقعة في
الترمذى على البخارى ومسلم ، وقيد على مختصر الطائىلى ، وشرع في تقييد على
قواعد الإمام أبي الفضل عياض بن موسى برسم ولدى ، ويصدر منه الشعر
مصدراً لا تكيفه منه العناية ، وكانت له اليد الطولى في عبارة الرؤيا ، ومولده
بغاس عام تسعين وستائة ، انتهى ملخصاً .

وقال في ترجمة أبي عمرو بن الزبير ماصورته ، ومما خاطبني به عند إيابي من
المدوّة في غرض الرسالة قوله :
من أبي عمرو
ابن الزبير إلى
لسان الدين

نوالى الشكر للرحمن فرضاً على نعم كست طولاً وعرضاً
وكم لله من لطف خفي لنا منه الذى قد شا وأمضى (١)
بمقدمك السعيد أتت سعود ننال بها نعيم الدهر محضاً (٢)
فيا بشرى لأندلس بما قد به والاك بارينا وأرضى (٣)
ويا لله من سفر سعيد قد أقرضك المهيمن فيه قرضاً
ورحت بنية أخلصت فيها فأبت بكل ما يبغي ويرضى (٤)
وثبت لنصرة الإسلام لما إليك علمت أن الأمر أفضى
لقد أحيت بالتقوى رؤسوماً كما أرضيت بالتمهيد أرضاً
وقت بسنة المختار فينا تمهد سنة وتقيم فرضاً

(١) شا : أراد شاء ، حذف الهمزة ، وأمضى : أنفذ

(٢) محضاً : خالصاً لا يشوبه تنقيص ولا م

(٣) بارينا : خالفنا (٤) أبت : رجعت

ورضت من العلوم الصَّعْبَ حتى جنيت ثمارها رَطْبًا وَغَضًّا (١)
 فأريك راجح فيما تراه وعزمك من مواضي الهند أمضى (٢)
 تدبر أمر مولانا فيلقى المسمى لديك إشفافا وإغضًا (٣)
 فأعقبنا شفاء وانهدسا طا وقد كانت قلوب الناس مرضى
 ومن أضحى على ظمأ وأمسى يرد إن شاء من نعامك خوضا
 أبا عبد الإله إليك أشكو زمانى حين زاد الفقر عضا
 ومن نَعْمَاك أستجدى لباسا تفيض به على الجاه فيضا
 بقيت مؤملاً ترجى وتخشى ومثلك من إذا ما جاد أرضى

ترجمة أبي عمرو وأبو عمرو المذكور هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، أبوه الأستاذ أبو جعفر محمد بن أحمد ابن الزبير أستاذ الزمان شيخ أبي حيان وغيره ، وقال في « الإحاطة » في حقه : إنه فكه ، حسن الحديث ، ركض طرف الشيبية في ميدان الراحة منكبا على سنن أبيه وقومه ، مع شغوف إدراك ، وجودة حفظ ، كانا يطعمان والده في نجابته ، فلم يعدم قادحا في شرف ، فنال حظوة ، وجرت عليه خطوب ، ثم عاد إلى الأندلس ، فتطور بها ، وهو الآن قد نال منه السكبر يزجى لوقته بمالقة متمللا برمق من بعض الخدم الخزونية ، استجاز له والده العلم والرم من أهل المغرب والمشرق ، وبضاعته في الشعر مُزجاة ، ثم قال : مات تاسع الحرم عام خمسة وستين وسبعائة ، انتهى .

من ترجمة أبي يحيى محمد بن أحمد بن محمد بن الأكل ما صورته : شيخ هُدُوري الذقن ، خدوع الظاهر ، خلوب اللفظ ، شديد الهوى إلى الصوفية ، والكلف بإطراء أهل الخير ، من بيت صَوْن وحشمة ، متقدم في معرفة الأمور الأكل

- (١) رضى : ذلت وسهلت ومهدت ، وأصله رياضة الدابة الجموح حتى يلين قيادها
 (٢) مواضي الهند: أراد السيوف ، واحدها ماض ، وكانوا يجلبون السيوف من الهند
 (٣) إغضا: أصله إغضاء ، خذف الهمزة ، والإغضاء عن الذنب: إغماض العين عنه

العلمية ، خائض في غمار التصوف ، وانتحال كيمياء السعادة ، راكب متن دعوى عريضة في مقام التوحيد ، تكذبها أحواله الراهنة ، لمعاصرة خلقه على الرياضة ، واستيلاء الشره ، وغلبة سلطان الشهوة ، والمشاحة أيام الولاية ، والسباب الشاهد بالشدة ، والحلف المتصل بياض اليوم في ثمن الخردلة باليمين التي فيها فساد الأنكحة والغضب الذي يقلب العين ، خاطبني بين يدي نكبته ولم أكن أظن الشعر مما تلوكة حَجَفَتَه ، ولكنه من أهل الكفاية :

رجوتك بعد الله يا خير منجد	وأكرم مأمول وأعظم مرفد ^(١)
وأفضل من أملت للحادث الذي	فقدت به صبري وماملكت يدي
وحاشا وكلا أن يخيب مؤملي	وقد علقت بابن الخطيب محمد
وما أنا إلا عبد نعمته التي	عهدت بها يميني وإنجاح مقصدي
وأشرف من حصّ الملوك على التقى	وأبدى لهم رشدا نصيحة مرشد
وساس الرعايا الآن خير سياسة	مباركة في كل غيب ومشهد ^(٢)
وأعرض عن دنياه زهدا وإنها	لمظهرة طوعا له عن تودد
وما هو إلا الليث والغيث إن أتى	له خائف أوجاء مغناه مجتدي ^(٣)
وبحسب علوم درّه كلماته	إذا رددت في الحفل أي تردد
صقيل مرأى الفكر ربّ لطائف	محاسنها تجلي بحسن تعبد
بديع عروج النفس للملأ الذي	تجلت له الأسرار في كل مصعد
شفيق رفيق دائم الحلم راحم	ورأى جميل للجميل معبود
صفوح عن الجاني على حين قدرة	مواصل تقوى الله في اليوم والغد
أيا سيدي يا عمدتي عند شدتي	ويا مشربي مهما ظمئت ومورد

(١) المنجد : المعين ، والمرفد : المعطى

(٢) المشهد : الحضور (٣) المجتدي : طالب النوال والعطاء ، وقوله « إن أتى خائف » يعود إلى الليث ، يريد أنه يدافع عنه ، وقوله « أوجاء مجتدي » راجع إلى الغيث ، يريد أنه يعطيه ما أمل

حنانيك والطفُ بي وكن لي راحا
رجاك رجاء للذي أنت أهله
وأُمَّك مضطرا لرحمك شاكيا
وعندي افتقار لا يزال مواصلا
ترفق بأولادٍ صغار بكأؤهم
وليس لهم إلا إليك تطلع
أنلهم أيا مولاي نظرة مشفق
وعامل أخا الكرب الشديد برحة
ولا تنظرن إلا لفضلك ، لا إلى
وإن كنت قد أذنت إنى تأتب
بقيت بخير لا يزال وعزة
وسخرك الرحمن للعبد ؛ إنه

ثم قال : وهو الآن من مسطرى الأعمال على تهوّر واقتحام كبره ، من خط لانهائية وراءه في الركافة ، كما قال المعري :

تمشت فوقه حمر المنايا ولكن بعد مأمسيخت نملالا

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عياش بن مشرف الأحمي : إنه من أهل الأصالة والحسب ، ظهرت منه على حداثة السن أبيات ، ونسب إليه شعر توسل به ، وتصرف في الإشراف ، حمدت سيرته ، وكتب إلى بقوله :

سفرت شمس اليمين والإقبال وبدت بدور السعد ذات كمال^(١)
لقدوم سيدنا الوزير محمد أعزز به من سيد مفضل

من أبي عبد الله
محمد بن علي بن
عياش إلى
لسان الدين

(١) أصل معنى «سفرت» أزاحت عن وجهها النقاب الذي يغطيه ، وسفور الشمس : ظهورها واضحة لا يحجبها غيم ، وإضافة الشمس إلى اليمين والإقبال من إضافة المشبه به إلى المشبه ، وهذا خير من أن يجعل الكلام استعارة بالكناية وتكون الإضافة تخيلا

قمر تجلى بين زهر تجلى يهدى لفعل الخير لا الإضلال
سر آملنا لا تنكثرت ، فلأنت في حفظ الإله الواحد المتعالى
برأ وبجراً لا تخاف مُلّة وعدوّ ذاتك خاف ظهرك صالى
لا يستقر له قرار بعدكم مما يحل به من الأوجال
والآن ترجع سالماً ومبشراً ببلوغ كل مسرة ومنال

وهى طويلة ، نَمَطُهَا متخلف عن الإجادة ، وهى من مثله مما يستظرف ، انتهى

وقال فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن محمد العراقى الوادى آشى : فاضل الأبوة ،
بأدى الاستقامة ، حسن الأخلاق ، تولى أعمالاً ، كتب إلى وقد أبى عملاً عرض
عليه بقوله :
من محمد بن محمد
الوادى آشى إلى
لسان الدين

أصمت ألفاً ثم أنطق بالخلف وأقصد إلغائهم آنس بالجلف (١)
وأمسك دهرى ثم أفطر علقماً ويمحق بدرى ثم ألحق بالخلف
وعزكم لا كنت بالذل عاملاً ولوأن ضعفى ينتهى بى إلى الخلف
فإن تعملونى فى تصرف عزة وعدل وإلا فاحسموا علة الصرف
بقيت وسُحِبُ العفو منكم تظّلنى وحظ ثنائى دائماً ثنائى العطف

وقال فى ترجمة أبى محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدى ما صورته : وخاطبنى لما وليت
خطلة الإنشاء وغيرها فى أواخر عام تسعة وأربعين وسبعائة بما نصه :
من أبى محمد
الأزدى إلى
لسان الدين

حُشاشة نفس أعلنت لمذيبها بتذكّار أيام الوصال وطيبها
ونادته رحى أختها نفس مدنف تموت إذا لم تحبها بوجيبها
فداو بقرب منك لا عِجْ وجدها وفيض أمايقها وطول نحيبها
وقد بلغت حدّاً به صح فى الهوى وأحكامه ثوب الضنى فى نصيبها

(١) أخذ معنى هذا البيت من قولهم فى مثل « سكت ألفاً ونطق خلفاً » وفى
معناه « سكت دهرًا ونطق كفراً » والإلف — بكسر الهمزة — الأليف الحبيب
إلى القلب ، والجلف — بالكسر أيضاً — الجافى الغليظ .

وهل يتداوى داء نفس تعيسة
 لعل أوار المجد تحمد ناره
 إليك حدّاه الشوق يابدرها الذى
 سلكت بهاسبل الهوى ففى تبغى
 أجبها بإبقاء عليها فإنها
 ومِلْ نحوها بالود ففى قد أذعنت
 وحيد الزمان الماهر الباهر الحلى
 إمام معاليها ، وبحر علومها
 مُصَرِّفُهَا كيف اثنت ومعيدها
 ورافع أعلام البلاغة والذى
 وحامل رايات الرياسة رفعة
 من الفر من أوجبت لشبابها
 من أبناء أرباب الزمان الألى بها
 خلال ابن عبد الله طود الحجا أبى
 أجاد وأجدى فاسل عن ذكر طىء
 ففى كل ما يبدى محمد عبدة
 تحيب القوافى إن دعا ببعيدها
 تخير أخلاق الكرام فلم يكن
 تقدّم فى دار الخلافة حاجبا
 إذا كان يوما داوها من طيبها
 فيبرد عنها ما بها من لهيبها^(١)
 يعز عليها منه طول مغيبها
 لثامك وتبغى غفلة من رقيبها
 مستغنى إذا مالم تكن بمجيبها
 كما تدعن الأقلام لابن خطيبها
 وجهد آداب العلا وأديها
 وبدر دياجيبها ، وصدر شعوبها
 ومبدئها حيث انتهت ومصيبها
 أنى نائراً أو ناظماً بمجيبها
 قضى المجد تخصيصاً له بوجوبها
 معاليهم الفضل العظيم وشيئها
 سما فخرهم بين الورى بركوبها
 محمد باد حسننها من ضروبها
 وحاتمها زهواً به وحبيبها^(٢)
 محاسنها تنبى بسر غيوبها
 وتنقاد طوعاً إن دعا بقريبها
 بها ولها يرضى بغير رحيبها
 لينجدها فى سلمها وحروبها

(١) أوار الحب — بضم الهمزة — لهيبه وحرارته ، وتحمد ناره : أراد به أنها همدت وسكنت وبردت .

(٢) حاتم : مضرب المثل فى الجود ، وحبيب : هو أبو تمام حبيب بن أوس ، وكلاهما من طي .

وقام لها في ساحة العز كاتبها
فأبدى من أنواع الفضائل أوجها
هنيئاً به يمناً بأسعد مائل
فللسعد تأثير يحىء إذا جرى
أموقد نار الفسك يقدح زندها
حداني إليك الحب قدما ومال بي
فقدمتها نظماً قوافي قصرت
وكنت كمن وافى لدى الدار بالخصى
فصلها وخذ بالعفو فيها فلم أصل
وصاحب هذا النظم من أهل بلش ، وله اقتدار على النظم والنثر ، قال في «الإحاطة»
ما محضه : وما وقع له أثناء مقامات وأغراض تشهد باقتداره مهملًا :

رعى الله عهداً حوى ما حوى
أراهم أموراً حَلاً ورُدّها
ولما حلا الوصل صالوا له
وأوردهم سر أسرارهم
وما أمل طال إلا وهى
لأهل الوداد وأهل الهوى
وأعطاهم السؤل كلا سوى^(١)
وراموه مأوى وماء روى
ورد إلى كل داء دوا
وما أمل صال إلا هوى

وقال معجزة :

بث بيني يميني فيض جفني
فتنتني بغمج ظبي تجني
بزة زينت قضيب تنني
خفت تشيت بنيتي فجفتني
شغفي شغفي فشبت بيني
تبتغي نقض نيتي بتجني
قضيت بعتي فقرت بغن
ثقة تنثني فخيب ظني

(١) وردّها — بكسر الواو وسكون الراء — ورودها ، وأصله الورود على

الماء للشرب .

وقال كلمة وكلمة :

أدعما تنثنى دَمَا بثنى الهوى شفى وأهل جفى
 تقض العهد بين طول بجى أحور شبَّ حرَّ بى لما
 شغف لم يحبَّ لمسه ظنى حاكم يتقى ولا ذنب إلا
 ولها ينثنى مُسهَّد جفن ماله ينقض العهد فيشجى
 يقتضى حل بغيكى كل فن لم يجز وصله فبت محالا
 وقال يرئى ديكاً فقدّه ، ويصف الوجد الذى وجده ، ويبكى عدم أذانه ، إلى
 غير ذلك من مستظرف شانه :

أودى به الحنف لما جاءه الأجل ديكاً فلا عَوْضُ منه ولا بدَلُ
 قد كان لى أمل فى أن يعيش فلم يثبت مع الحنف فى بُقْيَاه لى أمل
 فقدته فلمعمرى إنها عظة وبالمواعظ تدرى دمعها المَقْلُ (١)
 ما كان أبدع مرآه ومنظره وصفاً به كل حين يضرب المثل
 كأن مُطَرَفَ وشى فوق ملبسه عليه من كل حسن باهر حُلل
 كأن إكليل كسرى فوق مفرقه وتاجه فهو على الشكل محتفل
 مَوَقَّت لم يكن يعزى له خطأ فيما يرتب من ورد ولا خَلَلُ
 كأن زرقال فيما مر علمه علم المواقيت مما رَتَّب الأول
 يرحلُ الليل يحى بالصراخ فما يصده كل عنه ولا مَلَلُ
 رأيتَه قد وَهَتْ منه القوى فهوى للأرض فعلا يريه الشارب التَّمِلُ
 لو يفتدى بديوك الأرض قلَّ له ذاك الفداء ولكن فاجأ الأجل
 قالوا الدواء فلم يغن الدواء ولم ينفعه من ذاك ما قالوا وما فعلوا

(١) تدرى دمعها : أراد تسكيه بغزارة ، وأصل معنى « تدرى » ترخص .
 والمقل : جمع مقلة ، وهى العين .

أَمَلْتُ فِيهِ ثَوَابًا أَجْرَ مُحْتَسِبٍ إِنْ نَلْتُ ذَلِكَ صَحَّ الْقَوْلُ وَالْعَمَلُ
 وَأَمْرَهُ السَّاطِطَانُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ سَادِسُ الْمُلُوكِ النَّصْرِيِّينَ ، وَقَدْ نَظَرَ إِلَى شَلِيرٍ وَقَدْ تَرَدَّى
 جَالِثُجٍ وَتَعَمَّ ، وَكَمَّلَ مَا أَرَادَ مِنْ بَزْتِهِ وَتَمَّ ، أَنْ يَنْظُمَ فِي وَصْفِهِ ، فَقَالَ بِدِيهَا :
 وَشَيْخٌ جَلِيلٌ الْقَدَرُ قَدْ طَالَ عَمْرُهُ وَمَا عِنْدَهُ عِلْمٌ بِطُولٍ وَلَا قِصَرٍ
 عَلَيْهِ لِبَاسٌ أَبْيَضٌ بَاهِرٌ السَّنَى وَلَيْسَ بِثَوْبٍ أَحْكَمْتَهُ يَدُ الْبَشَرِ
 فَطُورًا تَرَاهُ كُلَّهُ كَأَسْيَا بِهِ وَكُسُوتُهُ فِيهَا لِأَهْلِ النَّهْيِ عِزٌّ
 وَطُورًا تَرَاهُ عَارِيًا لَيْسَ يَكْتَسِي بِحَرٍّ وَلَا بَرْدٍ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
 وَكَمْ مَرَّتِ الْأَيَّامُ وَهُوَ كَمَا تَرَى عَلَى حَالِهِ لَمْ يَشْكُ ضَعْفًا وَلَا كِبَرًا
 وَذَلِكَ شَلِيرُ شَيْخٍ غَرْنَاطَةِ الَّتِي لِبَهْجَتِهَا فِي الْأَرْضِ ذَكَرٌ قَدْ اشْتَهَرَ
 بِهَا مَلِكٌ سَامِي الْمَرَاتِي أَطَاعَهُ كِبَارُ مُلُوكِ الْأَرْضِ فِي حَالَةِ الصَّغَرِ
 تَوَلَّاهُ رَبَّ الْعَرْشِ مِنْهُ بَعْصَمَةٌ تَقِيهِ مَدَى الْأَيَّامِ مِنْ كُلِّ مَا ضَرَرَ
 وَتَوَفَّى الْمَذْكُورُ فِي بَلَدِهِ بَلَشَ فِي طَاعُونَ عَامِ خَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، انْتَهَى .

وَقَالَ فِي « الْإِحَاطَةِ » فِي تَرْجُمَةِ صَاحِبِ الْقَلَمِ الْأَعْلَى بِالْمَغْرِبِ أَبِي الْقَاسِمِ
 ابْنِ رِضْوَانَ النَّجَارِيِّ مَا صَوَّرْتَهُ : وَلَمَّا وَلِيَ الْإِنْشَاءَ بِيَابَ مَلِكِ الْمَغْرِبِ ظَهَرَ لِسُلْطَانِنَا
 بَعْضُ قُصُورٍ فِي الْمَرَاجِمَاتِ ، فَكُتِبَتْ إِلَيْهِ :
 مِنْ لِسَانِ الدِّينِ إِلَى أَبِي الْقَاسِمِ
 ابْنِ رِضْوَانَ

أَبَا قَاسِمٍ لَا زِلْتُ لِلْفَضْلِ قَاسِمًا بِمِيزَانِ عَدْلٍ يَنْصُرُ الْحَقَّ مِنْ نَصْرِ
 مَدَادِكَ وَهُوَ الْمَسْكُ طَيِّبًا وَمَنْظَرًا وَإِلَاسْوَادِ الْقَلْبِ وَالْفُؤْدِ وَالْبَصْرِ
 عَهْدَنَاهُ فِي كُلِّ الْمَعَارِفِ مَطْنًا فَمَا بَالُهُ فِي حُرْمَةِ الْوَدِّ مُخْتَصَرٌ (١)
 أَظْنُكَ مِنْ لَيْلِ الْوَصَالِ انْتَخَبْتَهُ إِلَيْنَا ، وَذَلِكَ اللَّيْلُ يُوصَفُ بِالْقَصْرِ
 أَرَدْنَا بِكَ الْعِذْرَ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَمِثْلُكَ لَا يُرْمَى بِعِيٍّ وَلَا حَصَرٍ (٢)

(١) مطنب : اسم الفاعل من الإطناب ، وأراد به هنا الإطالة في العبارة مع الجودة
 (٢) العي : العجز ، والحصر : مثله

فراجعني ، ولا أدري أم نظمه أم نظم غيره :

حقيق أبا عبد الإله بك الذي لمذهب في البر يتضح الأثر
وإن الذي نهبت مني لم يكن تؤما وحاشي الود أن أعط الأثر
ورب اختصار لم يشن نظم ناظم ورب اقتصار لم يعب نثر من نثر
وعذرک عني من محاسنك التي نظام حلاها في المادح ما انتثر
ومن عرف الوصف المناسب منصفاً تأتّى له نهج من العذر ما دثر

من ابن رضوان
إلى لسان الدين

وهو عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري ، من أهل مالقة ، صاحب العلامة
العلمية ، والقلم الأعلى بالمغرب ، قرأ على جماعة منهم بتونس قاضي الجماعة
ابن عبد السلام ، قال في « التاج » فيه أيام لم يفهم حوضه ، ولا أزهر روضه ،
ما نصه : أديب أحسن ما شاء ، ومنح قلبه فملاً الدلو وبلّ الرشاء ، وعانى على
حدائته الشعر والإنشاء ، وله ببلده بيت معمور بفضل وأمانة ، ومجد وديانة ، ونشأ
هذا الفاضل على أتم العفاف والصّون ، فما مال إلى فساد بعد الكون ، وله خط
بارع ، وفهم إلى الغوامض مسارع ، وقد أثبت من كلامه ، ونفثات أفلامه ،
كلّ محكم العقود ، زار بابنة العنقود ، فمن ذلك قوله :

لعلكم أن ترعيا لي مسائل فبالله عوجا بالركاب وسائل

ومنها :

لقد خان دهري إذ نأى بمطالبي وظل بما أبني من القرب ماطلا^(١)
عتبت عليه فاعتدى لي عاتبا وقال : أصبح لي لا تكن قط عاذلا
أتعتني أن قد أفدتك موقفا لدى أعظم الأملاك حلما ونائلا
ملك حباه الله بالخلق والرضا وأعلى له في المكرمات المنازلا^(٢)

(١) في ب « لقد خار دهري » وأحسبه محرفا عما أثبتته

(٢) حباه الله : منحه وأعطاه

وهي طويلة .

ومن نظم ابن رضوان المذكور :

تَبَرَّأْتُ مِنْ حَوْلِي إِلَيْكَ وَأَيَقَنْتُ بِرَحْمَاكَ أَمَالِي أَصَحَّ يَقِينٍ ^(١)
فَلَا أُرْهِبُ الْأَيَّامَ إِذْ كُنْتُ مُلْجَأً وَحَسْبِي يَقِينِي بِالْيَقِينِ يَقِينِي ^(٢)

وكلفه أبو عنان وصف صيد من غدير فقال من أبيات :

ولرب يوم في حماك شهدته والسَّرحُ ناشرة عليك ظلالها
حيث الغدير يريك من صفحاته درعا تجيد به الرياح صقالاتها
وللنشآت به تدير حبائلا للصيد في حيل تدير حبالاتها
وتريك إذ يلقي بها اليم الذي أخفت جوانحه وغاب خلاها
فحسبتها زَرَدًا وَأَنْ عَوَالِيَا تركتُ به عند الطعان نصالها

وقال فيه أيضاً :

أبصرت في يوم الغدير عجائبها جاءت بآيات العجائب مبصرة
سمكا لدى شبك فقل ليل بدت فيه الزواهر للنواظر نيرة
فكان ذا زَرَدٍ تضاعف نسجه وكان تلك أسنة متكسره

ومما نظمه عن أمر الخلافة المستعينية ليكتب في طرقة قبة رياض الغزلان من حضرته :

هذا محل المني بالأمن مغمور مَنْ حله فهو بالأمال مجبور
مأوى النعيم به ماشئت من تَرَفٍ تهوى محاسنه الولدان والخور
ويطلع الروض منه مصنعا عجبا يضاحك النور من لألائه النور
ويسطع الزهر من أرجائه أرجا ينافح الند نشر منه منشور

(١) الحول : القوة ، أو الحيلة

(٢) يقيني في آخر البيت فعل مضارع من الوقاية

مَغْنَى السرور سقاء الله ما حملت
انظر إلى الروض تنظر كل معجبة
مر النسيم به يبغي القرى فقري
وهامت الشمس في حسن الظلال به
والدوح ناعمة تهتز من طرب
كأنما الطير في أفهامها صدحت
والنهر شق بساط الروض تحسبه
ينساب للجنة الخضراء أزرقه
هذي مصانع مولانا التي جمعت
وهذه القبة الغراء ما نظرت
ولا يصورها في الفهم ذو فكر
ولا يرام بحصر وصف ما جمعت
فيها المقاصير تحميها مهابته
كأنها الأفق تبدو النيرات به
وينشأ المزن في أرجائه وله
وينهي القطر منه وهو منسكب
وتحقق الريح منه وهي نائمة
ويشرق الصبح منه وهو من غرر
وتطلع الشمس فيه من سنى ملك
لله منه إمام عادل بهرت

غر الغمام وحامته الأزهير
مما ارتضاه لرأى العين تحبير
دراهم النور تبديد وتثبير
ففرقت فوقها منه دنانير^(١)
همسا وصوت غناء الطير مجهور
بشكر مالكمها والفضل مشكور
سيفا ولكنه في السلم مشهور
كأليم جد أنسياب وهو مذعور
شمل السرور وأمر السعد مأمور
لشكها العين بالأعز تنظير
إلا ومنه لكل الحسن تصوير
من المحاسن إلا صد تقصير
لله ما جمعت تلك المقاصير
ويستقيم بها في السعد تسيير
من عنبر الشجر إنشاء وتسخير
ماء من الورد يذكو منه تقطير
مما أهب به مسك وكافور
غر تاللاً منهن الأسارير
تبسم الدهر منه وهو مسرور
أوصافه فهي للأمداح تحبير

(١) أراد بالدنانير قطع الشمس الصغيرة المدورة التي تظهر من بين فرج الأشجار وهو من قول أبي الطيب :

وألقي الشرق منها في ثيابي دنانير تفر من البنان

غيث السماح وليث البأس فآلق به
قل للمبارى وإن لم تلقه أبدا
فخر الأنام أحلّ الفخر منزله
إذا أبو سالم مولى الملوك بدّا
فأى خطب يخاف الدهر آمله
بشراك بشراك ياجل الخلافة ما
لك الخلود بعز الملك فى نعم
فانعم هنيئا بلذات مواصلة
لا زلت تلقى المنى فى غبطة أبدا
وقال وكتب به على قلم فضة :

إذا شهدت بالنصر خطية ألقنا
كفى شاهدا منى بفضلك ناطقا
وقال وكتب به على سكين :

أروح بأمر المستعين وأغتنى
ويفعل فى الأفلام حدّى مصلحا
قال : وبما كتب به على قصيدة عيدية :

لما رأيت هدايا العيد أعظمها
ولم أجد فى ضروب العاطرات شذى
أهديت نحوك منه كل ذى أرج
وفى القبول منال السعد فآلق به
هدية الطيب فى حسن وتعجيب
يحكى ثناءك فى نشر وفى طيب
أنفاسه بين تشريق وتغريب
تلق الأمانى بتأهيل وترحيب

(١) تنبير : إهلاك

(٢) الخطية : الرماح ، منسوبة إلى الخط ، وهو اسم مكان

وقال في رجل يلقب بالبعير :

وذى لقب عنت له عند صحبه
دَعَوُهُ بعيرا فاستشاط فقال مه
فقلت له عُدْ نحوهم لتعود من
فقال وقد غص الفضاء بصوته
لئن عدت نادوني بعيرا كمثلاها
مأرب لم يُسْعِدْ عليهن مسعد
أبا أحمد وارتد عنهم يهدهد
مرامك بالمطلوب توفى وتحمد
وقد هدرت منه الشقاشق تزيد
فقلت له لا تمش والعود أحمد

وقال :

وبخيل لما دعوهُ اُسْكِنِي
قال لى مخزن بدارى فيه
قلت وُقِّتَ للصواب فخاذر
لا تخرج على الجنان بسكنى
وقال رحمه الله تعالى فى مركب :

يا رب منشأة عجبت لسانها
سكنت يجنبها عصابة شدة
فتحركت بإرادة مع أنها
وَجَرَتْ كما قد شاء سكانها
وقال رحمه الله تعالى :

وذى خدع دَعَوُهُ لاشتغال
فأظهر زهده وغنى بمال
وأقسم لا فعلت يمين خب
وما عرفوه غثا من سمين
وجيش الحرص منه فى كمين
فيا عجبا لحلاف مهين

(١) تورية بجهنم لأن اسم خازنها من الملائكة مالك

(٢) السكان - بضم السين وتشديد الكاف مفتوحة - خشبه تدار بها السفينة ،

وأهل مصر يسمونها (الدفة) وفى البيت تورية بديعة

يغر بيسره ويمين حنث ليأكل باليسار وباليمين
وهو الآن بحاله الموصوفة ، انتهى .

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : خاطبني أبو بكر عبد الرحمن بن عبد الملك
مستدعياً إلى إغذار ولده بقوله :

أريد من سيدي الأعلى تكلفه إلى الوصول إلى داري صباح غد
يزيدني شرفاً منه ويبصر لي صناعة القاطع الحجام في ولدي
فأجبتة :

يا سيدي الأوحد الأسمى ومعتمدي وذا الوسيلة من أهلي ومن بلدي
دعوت في يوم الاثنين الصحاب ضحى وفيه ما ليس في سبت ولا أحد
يوم السلام على المولى وخدمته فاصفح وإن عثرت رجلى فخذ بيدي
والعذر أوضح من نار على علم فعد إن غبت عن لوم وعن فند^(١)
بقيت في ظل عيش لا نفاد له مصاحبا غير محصور إلى أمد
وأبو بكر المذكور أصله من باغة ، ونشأ بلوثة ، وهو محسوب من الغرناطين .

وفي «التاج» في حقه ما صورته : مادح هاجي ، مداهن مداجي ، أخبث من
نظر من طرف خفي ، وأعذر من تلبس بشعار وفي ، إلى مكيدة مبثوثة الحبال ،
وإغراء يقطع بين الشعوب والقبائل ، من شيوخ طريقة العمل ، المتقلبين من
أحوالها بين الصّحْو والتمل ، المتعللين برسومها حين اختلط المرعى بالهمل^(٢) ، وهو
ناظم أرجاز ، ومستعمل حقيقة ومجاز ، نظم مختصر السيرة ، في الألفاظ اليسيرة ،
ونظم رجزاً في الزجر والقال ، نبه به تلك الطريقة بعد الإغفال ، انتهى .

قال : ومن شعره :

(١) الفند : الكذب

(٢) الهمل - بفتح الهاء والميم جميعاً - الذي ترك مهملاً لا راعي له ولا حافظ

بين أبي بكر
ابن عبد الملك
ولسان الدين

ترجمة أبي بكر
ابن عبد الملك

إن الولاية رفعة لكنها أبدا إذا حققتها تنقـل
فانظر فضائل من مضى من أهلها تجد الفضائل كلها لا تعزل
توفى بالطاعون بغر ناطة عام خمسين وسبعمائه ، انتهى .

وقال في ترجمة أبي سلطان عبد العزيز بن علي الغرناطي بن يشث ماصورته :
ومما خاطبني به قوله :

من ابن يشث
إلى لسان الدين

أطلت عتب زمان قل من أملى
عائته ليلين العتبُ جانبـه
فعدت أمنحه العتبى ليشفق لى
فالعتب عندى كالعتبى فلست أرى
فقلت للنفس كفى عن معاتبـة
من يعلو في الدنايا بن الخطيب فقد
قالت فمن لى بتقرى لخدمته
فقال للناس كفووا عن محادثتى
قد اشتغلت عن الدنيا بأخرتى
وقدر عيت وما أهملت من منح
ولست أرجع للدنيا وزخرفها
ألست تبصر أطمارى وبعدى عن
فقلت ذلك قول صح مجله
ما أنت جالب أمر تستعين به
ولا تحل حراماً أو تحرم ما

وسمته الدم فى حل ومرتحل
فما تراجع عن مظل ولا يحل
فقال لى إن سمى عنك فى شغل
أصغى لمحكك إذ لم أصغ للعدل
لانتفضى وجواب صيغ من وجل (١)
سما عن الذل واستولى على الجذل (٢)
فقد أجاب قريباً من جوابك لى
فليس ينفعكم حولى ولا حيلى
وكان ما كان من أيامى الأول
فكيف يختلط المرعى بالهمل
من بعد شيب غدا فى الرأس مشتعل
نيل الحظوظ وإغذاذى إلى أجلي (٣)
لكن من شأنه التفصيل للجمال
على المظالم فى حال ومقتبـل
أحل ربك فى قول ولا عمل

(١) الوجل : الخوف (٢) الجذل : السرور

(٣) إغذاذى : إسرعى ، مصدر «أغذ السير» أسرع فيه

ولا تتبع آجل الدنيا بعاجلها كما الولاية تتبع اليم بالوشل^(١)
 وأين عنك الرشا إن ظلت تطلبها هذا لعمري أمر غير منفعل
 هل أنت تطلب إلا أن تعود إلى كتب المقام الرفيع القدر في الدول
 فما لأوحد هذا الكون قاطبة وأسمح الخلق من حاف ومنفعل
 لم يلتفت نحو ما تبغيه من وطر ولم يسدّ الذي قد بان من خلل
 إن لم تقع نظرة منه عليك فما يصفو لديك الذي أملت من أمل
 فدونك السيد الأعلى فطلبكم قد نيط منه بفضل غير منفصل
 فقد خبرتُ بنى الدنيا بأجمعهم من عالم وحكيم عارف وولى
 فما رأيت له في الناس من شبه قلّ النضير له عندى فلا تسَلِ
 وقد قصدتك يا أسمى الورى هما وليس لى عن حى عليك من حول^(٢)
 فما سواك لما أملت من أمل وليس لى عنك من زبغ ولا ميل
 فانظر لحالى فقد رق الحسود لها واحسم زمانة ما قد ساء من علل
 ودم لنا ولدين الله ترفعه ما أعقبت بذكر الإصباح بالأصل^(٣)
 لازلت معتلياً عن كل حادثة كما علت ملة الإسلام فى الملل

والمذكور هو عبد العزيز بن على بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز ترجمة ابن يشت
 ابن يشت ، من غرناطة ، يكنى أبا سلطان ، قال فى « الإحاطة » فى حقه : فاضل
 حى حسن الصورة ، بادرى الحشمة ، فاضل البيت سريته ، كتب فى ديوان الأعمال
 فأتقن ، وترقى إلى الكتابة السلطانية ، وسفر فى بعض الأغراض الغريبة ، ولازم
 الشيخ أبا بكر عتيق بن مقدم من مشيخة الصوفية بالحضرة فظهرت عليه آثار ذلك
 فى نظمه ومقاصده ، فمن نظمه ما أنشده ليلة الميلاذ المعظم :

- (١) الوشل — بالنحريك — القليل من الماء .
 (٢) حول — بزنة عنب — أى تجول وانتقال
 (٣) البكر : جمع بكرة — بالضم — وهى أول النهار ، والأصل — بضميتين —
 جمع أصيل ، وهو الوقت قبيل غروب الشمس

القلب يعشق والمدامع تنطق
 إن كنت أكنتم ما كن من الجوى
 وتذلى عند اللقا وتلقى
 فلكم سترت عن الوجود محبتى
 ولكم أموه بالطلول وبالكنى
 ظهر الحبيب فلست أبصر غيره
 مافى الوجود تكثر لمكث
 فمتى نظرت فانت موضع نظرتى
 يا سائلى عن بعض كنه صفاته
 فاسلك مقامات الرجال محققاً
 مزق حجاب الوهم لا تحمل به
 واخلص إذا شئت الوصول ولا نسل
 إن التحلى فى التخلى فاقصد
 ولتقتبس نار الكايم ولا تحف
 ومتى تجلى فيك سر جماله
 دع رتبة التقليد عنك ولا تته
 واقطع حبال علائق وعوائق
 جرّد حسام النفس عن جنم الهوى
 فإذا فهمت السر منك فلا تبخ
 بالذوق لا بالعلم يدرك علمنا
 برح الخفاء فكل عضو منطق
 فشحوب لوفى فى الغرام مصدق
 إن الحب إذا دنا يتملق
 والدمع يفضح ما يسر المنطق^(١)
 وأخوض بحر الكتم وهو الأليق
 فبكل مرئى أرى متحقق
 إن المكث بالباطل يعلق
 ومتى نطقت فما بعيرك أنطق
 كلّ اللسان وكلّ عنه المنطق
 إن المحقق شأوه لا يلحق
 فالوهم يستر ما العقول تحقق
 فالعجز عن طلب المعارف موبق
 ذاك الجنب ، فبأبه لا يغلق
 والغ السوى إن كنت منها تفرق
 وصعقت خوفاً فالسكلم يصعق
 تلق الذى قيدت وهو المطلق
 إن العوائق بالمكاره تطرق
 إن العوائد بالتجرد تحرق
 فالسيف من بث الحقائق أصدق
 سر بمكنون الكتاب مصدق

(١) هذا من قول العباس بن الأحنف :

لا جزى الله دمع عيني خيرا
 كنت مثل الكتاب أخفاء طي
 وجزى الله كل خير لسانى
 فاستدلوا عليه بالعنوان

وبما أتى عن خير من وطىء الثرى سر الوجود وغيشه المتدفق
خير الورى وابن الذبيحين الذى أنواره فى هديها تتألق (١)
من أخبر الأنباء قبل ببعثه ولنصه سر الكتاب يصدق
رفعت له الحجب التى لم ترتفع إلا إليه فكل ستر يخرق
ورقى مقاما قصرت عن كنهه رتب الوجود وكع عنه السبق
وطىء البساط تدللا وجرى إلى أمد تنهى ما إليه مسبق
إنسان عين الكون مبلغ سره قطب الجبال وغيشه المتدفق
سر الوجود ونكته الدهر الذى كل الوجود بجوده يتعلق
من جاء بالآيات يسطع نورها والذكر فهو عن الهوى لا ينطق
ياسيد الأرسال غير مدافع وأجلهم سبقا وإن هم أعنقوا
بالفقر جئتك موئلى لا بالغنى فالذل والإذعان عندك ينفق
فاجبر كسير جرائر وجرائم فالقلب من عظم الخطايا يقلق
أرجوك يا غوث الأنام فلا تدع باب الرضا دونى يسد ويفلق
حاشاك تطرد من أناك مؤملا فلأنت لى منى أحن وأرفق
ومحبتى تقضى بأنك منقذى مما أخاف فما بفيرك أعلق
يا هل تساعدنى الأمانى والمنى وأحل حيث سنى الرسالة يشرق
إن كان ثبطنى القضا بمقيد فعنان عزمى نحو مجدك مطلق

(١) ابن الذبيحين : هو النبي صلى الله عليه وسلم ، والذبيحان أولهما أبوه عبدالله ابن عبد المطب ، كان أبوه عبد المطب قد نذر إن ولد له عشرة ذكور أن ينحر أحدهم فلما اكتملوا عشرة اقترع عليهم فخرجت القرعة على عبدالله ، ثم فداء بمائة من الإبل ، فى قصة مشهورة ، وثانى الذبيحين هو إسماعيل نبى الله بن إبراهيم خليل الرحمن ، ونسب النبي يرتفع إليه صلوات الله عليهم ، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أنا ابن الذبيحين »

ولئن ثوى شخص بأقصى مغرب
 فعليك يا أسنى الوجود تحية
 وعلى صحابتك الذين تأتقوا
 وعلى الألى آووك في أوطانهم
 أعظم بأنصار النبي وحزبه
 من مثل سعد أو كقيس نجله
 أكرم بهم وبمن أتى من سرهم
 من مثل نصر أو بنيه ملوكنا
 بمحمد نجل الخليفة يوسف
 مولى الملوك وتاج مفرق عزهم
 ملك يرى أن التقدم مغنم
 تروى أحاديث الوغى عن بأسه
 ملك البسالة والمكارم والنهى
 ملئت قلوب عداه منه مهابة
 مولاي يا أسنى الملوك ومن غدت
 لا تقطعوا عني الذي عودتم
 لا تحرموني مطلبى فحبتى
 فانم بردى فى بساطك كاتباً
 فاسلم أمير المسلمين لأمة
 واهناً بها من ليلة نبوية
 صلى عليه الله ما هبت صبا

فتشوق منى إليك يشرق
 من طيب نفحتها البسيطة تعبق
 رتب الكمال ومثلهم يتأقن
 نالوا بذلك رتبة لا تلحق
 وبمن أتى بعباءة يتعلق
 عرف السيادة من حاهم ينشق
 عز النظر فمجدهم لا يلحق
 كل الأنام لعزهم يتملق
 عز الهدى فجاه ما إن يطرق
 وأجل من تحدى إليه الأئبق
 مهما تعرض موكب أو فيلق
 فالسيف يسند والعوالى تطلق
 فعداته منه تغص وتشرق
 فغرب من خوفه ومشرق
 عين الزمان إلى سناه تحدق
 فالعبد من قطع العوائد يشفق
 تقضى لسعي أنه لا يخفق
 وأعد لما قد كنت فهو الأليق
 أفواههم ما إن بغيرك تنطق
 جاءت بأكرم من به يتعلق
 واهتز غصن فى الحديقة موزق

ثم قال : وهو الآن بحالته الموصوفة ، انتهى .

ومما خوطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ما حكاه فى « الإحاطة » فى

ترجمة القاضي أبي الحسن النباهي ، إذ قال ما نصه : وخاطبني بسبته وأنا يومئذ
بسلامة بقله : يا أيها الآية البالغة وقد طُمست الأعلام ، والغرة الواضحة وقد تنكرت
الأيام ، والبقية الصالحة وقد ذهب الكرام ، أبقاكم الله تعالى البقاء الجليل ، وأبلغكم
غاية المراد ومُنْتَهَى التأميل ، أبي الله أن يتمكن المقام بالأندلس بعدكم ، وأن يكون
سكون النفس إلا عندكم ، سر من الكون غريب ، ومعنى في التشاكل عجيب ، اختصر
لكم الكلام ، فأقول بعد التحية والسلام : تفاقمت الحوادث ، وتعاطمت الخطوب
الكوارث ، واستأسدت الذئاب الأخابث ، ونسكت الأكر من ولد سام وحام
ويافت ، فلم يبق إلا كاشح باحث ، أو مكافح عابث ، ويا ليت شعري مَنْ
الثالث ؟ فحينئذ وجهت وجهي للفاطر الباعث ، ونجوت بنفسي لكنْ مَنْجَى
الحارث^(١) ، وقد عبرت البحر كسير الجناح ، دامى الجراح ، وإني لأرجو الله
سبحانه بحسن نيتكم أن يكون الفرج قريباً ، والصنع عجيباً ، فعمادى أعان الله على
القيام بواجبه ، هو الركن الذي ما زلت أميل على جِوَانِه ، ولا تزيدني الأيام إلا
بصيرة في الإقرار بفضلِهِ والاعتداده ، وقد وصاني خطابُ سيدي الذي جَلَّى الشكوك
بنور يقينه ، ونصح النصيح اللائق بعلمه ودينه ، وكأنه نظر إلى الغيب من وراء
حجاب ، فأشار بما أشار به على سارية عمر بن الخطاب^(٢) ، ومن العجب أني عملت
بمقتضى إشارته ، قبل بلوغ إضبارته ، فله ما تضمنه مكتوبكم الكريم من الدر ،
وحرره من الكلام الحر ، وأيم الله لو تجسم لكان ملكاً ، ولو تنسم لكان
مسكاً ، ولو قبس لكان شهاباً ، ولو لبس لكان شاباً ، فخل مني علم الله تعالى
محل البرء من المريض ، وأعاد الأنس بما تضمنه من التعريض ، والكلم المزرية

(١) يشير بهذا إلى قول حسان بن ثابت :

إن كنت صادقة الذي حدثني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

(٢) يشير إلى ما روى أن عمر وهو بالمدينة نادى سارية وهو يقاتل بمصر قائلاً

« ياسارية ، الجبل الجبل » .

بِقِطْعِ الرَوْضِ الْأَرِيضِ ، فَقَبِلْتَهُ عَنْ رَاحَتِكُمْ ، وَتَخَيَّلْتُ أَنَّهُ مُقِيمٌ بِسَاحَتِكُمْ ،
ثُمَّ وَرَدَتْ مُعِينَهُ الْأَصْفَى ، وَكَلَّتْ مِنْ بَرَكَاتِ مَوَاعِظِهِ بِالْمُسْكِيَالِ الْأَوْفَى ، وَلَيْسَتْ
بِأَوَّلِ أَيَادِيكُمْ ، وَإِحَالَتُكُمْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي يُجَازِيكُمْ ، وَبِالْجُمْلَةِ فَالْأُمُورُ بِيَدِ الْأَقْدَارِ ،
لَا إِلَى الْمَرَادِ وَالِاخْتِيَارِ .

وَمَا كُلُّ مَا تَرْجُو النَفُوسُ بُنَافِعَ وَلَا كُلُّ مَا تَخْشَى النَفُوسُ بَضَرَّارَ
قُلْتُ : أَيْنَ هَذَا السِّكِّتَابُ مِنَ الَّذِي قَدِمْنَاهُ عَنْهُ فِي الْبَابِ الثَّانِي ، حِينَ أَظْلَمَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ لِسَانِ الدِّينِ الْجَوْ وَعِطْفُهُ إِلَى مُهَاجَاتِهِ ثَانِي ، وَسَقَرٌ^(١) فِي أَمْرِهِ إِلَى الْعُدُوَّةِ ،
وَاجْتِهَدَ فِي ضَرَرِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُ بِهِ الْقُدُوءُ ، وَقَدْ قَابَلَهُ لِسَانُ الدِّينِ بِمَا أَذْهَبَ عَنْ
حِفْظِهِ الْوَسْنَ^(٢) ، وَأَلْفَ فِيهِ كَمَا سَبَقَ « خَلْعُ الرِّسَنِ » عَلَى أَنَّهُ عَرَفَ بِهِ فِي « الْإِحَاطَةِ »
أَحْسَنَ تَعْرِيفَ ، وَشَرَفَهُ بِجَلَالِهِ أَجْمَلَ تَشْرِيفَ ، إِذْ قَالَ مَا مَلَخَصَهُ : عَلَى بْنِ عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ ، الْجَدَامِيِّ ، الْمَالِقِيِّ ،
أَبُو الْحَسَنِ ، وَيَعْرِفُ بِالنَّبَاهِيِّ ، هَذَا الْفَاضِلُ قَرِيبُ بَيْتِ مَجَادَةِ وَجَلَالَةِ ، وَبَقِيَّةِ
تَعْيِينِ وَأَصَالَةِ ، عَفِ النَّشْأَةِ ، ظَاهِرِ الثُّوبِ ، مُؤَثِّرِ الْوَقَارِ وَالْحُشْمَةِ ، خَاطِبِ الشَّيْخُوخَةِ ،
مُسْتَعَجِلِ الشَّيْبَةِ ، ظَاهِرِ الْحَيَاءِ ، مُتَحَرِّكٍ مَعَ السَّكُونِ ، بَعِيدِ الْغَوْرِ ، مَرْهَفِ
الْجَوَانِبِ مَعَ الْإِنْكَشَافِ ، مُقْتَصِدٍ فِي الْمَلْبَسِ وَالْآلَةِ ، مُتَظَاهِرٍ بِالسَّذَاجَةِ ، بَرِيءٍ مِنَ
النُّوْكِ وَالْفُغْلَةِ ، يَقْطُ الْعِمَارِيضَ ، مُهْتَدِيٌّ إِلَى الْمَلَاخِنِ ، طَرَفٌ فِي الْجُودِ ، حَافِظٌ مُقِيدٌ
طَلْعَةِ أَخْبَارِي ، قَائِمٌ عَلَى تَارِيخِ بَلَدِهِ ، شَرَعَ فِي تَكْمِيلِ مَا صَنَفَ فِيهِ ، مَلَاظِمٌ
لِلتَّقْيِيدِ وَالتَّطْرِيفِ ، مُتَفَرِّغٌ عَنِ الْإِجَادَاتِ وَالْفَوَائِدِ ، اسْتَفَدَتْ مِنْهُ فِي هَذَا الْغَرَضِ
وغيره كثيرا ، حَسَنَ الْخَطِّ ، نَازِلٌ نَازِلٌ ، نَثَرَهُ يَشْفَى عَلَى نَظْمِهِ ، ذَاكِرٌ لِلْكَثِيرِ ،
اسْتَظْهَرَ مَحْفُوظَاتِهَا « النُّوَادِرَ » لِلْقَالِي ، وَنَاهِيكَ بِهِ مَحْفُوظًا مَهْجُورًا ، وَمُسْلِكَ
غَفْلًا ، فَمَا ظَنُّكَ بِسِوَاهِ ، نَشَأَ بِلَدِهِ حَرُّ الطَّعْمَةِ ، فَاضِلُ الْأَبُوَّةِ ، وَقَرَأَ بِهِ ، ثُمَّ وَلِيَ

ترجمة القاضي
أبي الحسن
النباهي

(١) سفر سفارة — على مثال ولي ولاية — كان سفيرا بين القوم .

(٢) الوسن : النوم .

القضاء بملتماس ثم بيلش وعملها ، فسيح الخطاة ، مطلق الجراية ، بعيد المدى في باب النزاهة ، ماضيا غير هيبوب ، حتى أربى في الزمن القريب على المحتكين ، وعَبَّرَ في وجوه أهل الدربة ، وجرت أحكامه مستندة إلى الفتيا ، جارية على المسائل المشهورة ، ثم نقل منها إلى النظر في أمور الحل والعقد بماقعة مضافة إليه الخطط النبئية ، وصدر له منشور من إملأى ، إلى أن قال في ترجمة نظمه : قال نظمت سمح الله تعالى لى قطعتين مَوْطئا فيهما على البيتين المشهورين : إحداها :

بنفسى من غزلان حُزَوَى غزالة جمال يحياها عن النسك زاجر^(١)

تصيد بلحظ الطرف من رام صيدها ولو أنه النسر الذى هو طائر

مُعطرة الأنفاس رائقة الحلى هواها بقلبي فى المهامه سائر

إذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحب : ميعاد السلو المقابر

والأخرى :

وقائلة لما رأت شيب لمتى لئن ملت عن سلمى فعذرک ظاهر

زمان التصاى قد مضى لسبيله وهل لك بعد الشيب فى الحب عاذر

فقلت لها : كلا وإن تلف القتي فما لهواها عند مثلى آخر

سبقى لها فى مضمرة القلب والحشى سريرة وُدِّ يوم تُبلى السرائر

وكتب على مثال النعل الكريم ، وأهداه لمزمع سفر :

فديتك لا يهدى إليك أجل من حديث نبي الله خاتم رُسله

ومن ذلك الباب المثال الذى أنى به الأثر الماثور فى شأن نعله

ومن فضله مهما يكن عند حامل له نال ما يهواه ساعة حمله

ولا سيما إن كان ذا سفر به فقد ظفرت يمينه بالأمن كله

(١) الغزلان : جمع غزالة ، ويراد بها الحسناء من النساء ، وتشبههن بالغزلان فى كلام العرب مما لا يحتاج إلى الإشارة إليه ، وجمال يحياها : أراد صباحة وجهها ، يريد أن جمالها لا يترك الزاهد العابد يتمكن من عبادته ، بل يدعوهُ إلى تركها .

فدونك منه أيها العلم الرضا مثالا كريما لا نظير لمثله
وقال مراجعا عن أبيات يظهر منها غرضها :

إذا كنت بالقصد الصحيح لنتهوى فسلم لنا في حكمنا ودع الشكوى
ولا تتبع أهواء نفسك والتفت لنا حيث كنا في الرخاء وفي الألوأ^(١)
وكم من محب في رضانا وحبنا محبا كل ما يبدو سوانا له نحوا
رأنا عيانا عين معنى وجوده فعاج عن الشكوى وفؤوض في البلوى
وقال تحكم كيف شئت بما ترى رضيت بما تقتضى وهمت بما تهوى
فخل لدينا بالخلوص وبالرضا محل اختصاص نال منه المنى صفوا
فإن كنت ترجو في الصباية والهوى لحاقا بهم فاسلك طريقهم الأضوا^(٢)
وئمت في سبيل الحب إن كنت مخلصا لنا في الهوى تحيا حياة أولى التقوى
هنالك تؤؤ ما تريد وتقتضى ديونك منادون مَطْل ولا دعوى
وتشرب من عين اليقين وتغتذى بخمر الصفا الصرف الزلال لكي تروى

وقال :

لا تلجأن لخلق من الناس من يافث كان أصلا أو من الياس^(٣)
وثق بربك لا تيأس تجدد عجبا فلا أضر على عبد من الياس

وقال :

فديتك لاتصحب لثيما ، ولا تكن معينا له إن اللئيم خؤن
فلا عهد يرعى ، لا ، ولا نعمة يرى ولا سر خل عن عداه يصون

وقال يخاطب أبا القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان :

لك الله قلبي في هواك رهين وروحي عني إن رحلت ظعين

(١) الألوأ : أصله اللأواء ، خذف الهمزة حين اضطر ، والألوأ : الشدة

(٢) الأضوا : أصله الأضوا فسهل الهمزة بقلبها ألفا ، ومعناه الأكثر ضوئا

(٣) الياس : هو ابن مضر بن زرار بن معد بن عدنان

ملككت بحكم الفضل كلّي خالصا
فهب لي من نطقى بمقدار مابه
فقد شملتنا من رضاك ملابس
أعنت على الدهر الغشوم ولم تزل
وقصر من لم تعلم النفس أنه
وإني بحمد الله عنه لفي غنى
أبى لي مجد عن كرام ورثته
ونفس سمت فوق السماكين همة
ولما رأت عيني محيّاك أقسمت
وعاد لها الأنس الذي كان قد مضى
بحيث نشأنا لابسين حلى التقى
أما وسنى تلك الليالى وطيبها
وفتيان صدق كالشموس وكالحيا
لئن نزحت تلك الديار فوجدنا
إذا مر حين زاده الشوق جدّة
وأنى بمسلاها وللبين لذعة
لقد عبثت أيدي الزمان بجمعنا
وبعد التقينا في محل تغرب
فقابلت بالفضل الذي أنت أهله
وغبت وما غابت مكارمك التي

وملكك للحر الصريح يزين
يترجم سرفى القواد دفين
وسحّ لدينا من نذاك معين^(١)
بدنيّاك في الأمر المهم تعين
خذول إذا خان الزمان يخون
وحسبي صبر عن سواك يصون
وقوفا بباب للكريم يهين
وما كل نفس بالهوان تدين^(٢)
بأنك للفعل الجميل ضمين
بريّة إذ شرخ الشباب خدين^(٣)
وكلّ بكل عند ذاك ضنين
ووجد غرامى والحديث شجون
حديثهم ما شئت عنه يكون
عليها له بين الضلوع أنين
وليس بعاب للربوع حنين
أقل أذاها للسلیم جنون
وحان افتراق لم نخله يحين
وكل الذي دون الفراق يهون
ومالك في حسن الصنيع قرين
على شكرها الرب العظيم يعين

(١) سح : انسكب وسال ، والندى : أراد به ههنا الجود ، وأصل المعين الماء

الصافي العذب ، شبه جوده بالمطر

(٢) تدين : تخضع (٣) خدين : صديق و خليل و حبيب

يميناً لقد أوليتنا منك نعمة
 وتلذ بها عند العيان عيون
 ويقصر عنها الوصف إذ هي كلها
 لها وجه حر بالحياء مصون
 ولما قدمت الآن زاد سرورنا
 ومقدمك الأسنى بذاك قين
 لأنك أنت ازوج منا وكلنا
 جسمك ، فعند البعد كيف نكون
 ولو كان قدر الحب فيك لقاونا
 إليك لكنا باللزوم ندين
 ولكن قصداً نأرا راحة الجهدنا
 فراحته شمل الجميع تصون
 هنيئاً هنيئاً أيها العلم الرضا
 بمالك في طي القلوب كمين
 لك الحسن والإحسان والعلم والتقوى
 فحبك دنيا المحب ودين
 وكم لك في باب الخلافة من يد
 أقرت لها بالصدق منك مرين
 وقامت عليها الملوك أدلة
 فأنت لديها ما حيت مكين
 فلا وجه إلا وهو بالبشر مشرق
 ولا نطق إلا عن علاك مبين
 بقيت لربع الفضل تحمى ذماره
 صحيحاً كما قد صح منك يقين
 ودونك يا قطب المعالي بنية
 من المكر عن حال الحب تبين
 أنتك ابن رضوان تمت بودها
 وما لسوى الإغضاء منك ركون
 فخل انتقاد البحث عن هفواتها
 ومهد لها بالسمع حيث تكون
 وخذاها على علانها فحديثها
 حديث غريب قد عراه سكون
 وهو بحاله الموصوفة ، انتهى باختصار .

بين لسان الدين ولما كتب لسان الدين إلى شيخه الرئيس الكاتب أبي الحسن الجياب
 وأبي الحسن قصيدة أولها :
 الجياب
 أمستخرجاً كنز العقيق بآماق أنشدك الرحمن في الرَّمَقِ الباقي^(١)

(١) أراد بكنز العقيق دموع عينيه ، والآماق : جمع مؤق ، وهو طرف العين
 مما يلي الأنف ، وهو مجرى الدمع ، والرمق — بالتحريك — بقية الروح في البدن

فقد ضعفت عن حمل صبرى طاقتي عليك وضائق عن زفيرى أطواقى
وهى طويلة ، أجابه عنها بقوله :
سقتنى فأهلاً بالمدامة والساقى سلاًفاً بها قام السرور على ساق^(١)
ولا نَقَلَ إلا من بدائع حكمة ولا كأْس إلا من سطور وأوراق
فقد أنشأت لى نشوة بعد نشوة تمد بروحانية ذات أذواق
فمن خطها الفانى متاع لناظرى وسمعى وحظ الروح من خطها الباقي
أعادت شبابى بعد سبعين حجة فأثوابه قد جُدَّت بعد إخالق^(٢)
وما كنت يوماً للمدامة صاحباً ولا قبلتها قط نشأة أخلاق
ولاخالطت لحي ولا مازجت دمي كفى شرها مولاى فالفضل للواق
وهذا على عهد الشباب فكيف لى بها بعد ماء للشببية مُهْرَاق ؟
تبصر فحكماً القهوتين تخالفاً فكم بين إثبات لعقل وإزهاق
وشتان ما بين المدامة فاعتبر فكم بين إنجاح لسعى وإخفاق
فذلك تهادى بين ظلم وظلمة وهذى تهادى بين عدل وإشراق
أيا علم الإحسان غير منازع شهادة إجماع عليها وإصفاق^(٣)
فضائلك الحسنى على تواترت بمنهمر من سُحْب فكرك غَيْدَاق^(٤)
خزائن آداب بعثت بدورها إلى ولم تمنن بخشيه إنفاق
ولا مثل بكر حرة عربية زكية أخلاق كريمة أعراق
فأقسم ما البيض الحسان تبرجت تنافجيك سرا بين وحنى وإطراق
بدور بدت من أفق أطواقها على رياض شَدَّتْ فى قطبها ذات أطواق^(٥)
فناظر منها الأفحوان ثغورها وقابل منها نرجس سحر أحداق

(١) السلاف — بضم السين — الحمر ، و « قام على ساق » كناية عن التشمير
فى الأمر والعناية به
(٢) أخلق الثوب : بلى ورت
(٣) الإصفاق : الإجماع
(٤) غيداق : كثير الانهمال
(٥) ذات أطواق : هى الحمالة

وناسب منها الورد خدًا موردا
وألسن من صنعاء وشيئا منمنما
بأحلى لأفواه وأبهى لأعين
رأيت بها شهب السماء تنزلت
ألا إن هذا السحر لا سحر بابل
لقد أعجزت شكري فضائل ماجد
تقاضى ديون الشعر مني منها
فلو نشر الصادان من ملحدتيهما
فخذ بزمام الرفق شيخا تقاصرت
فلا زلت تحيي للمكارم رسمها
سقاء الشباب النَّضْرُ بُورِكَ من ساق
وخليل من در نفاس أعلق
وأحي لألباب وأشهى لعشاق
إلى تحييني تحية مشتاق
فقد سحرت قلبي المعنى فمن راق
أبر بأحباب وأوفى بميثاق
رويدك لا تعجل على يارهاق
لأنصاف هذا الدين لاذا بإملاق^(١)
خطاه وعاهده بمعهود إشفاق
وقدرك في أهل العلا والنهى راق

قال : وكتبت إليه في غرض العتاب قصيدة أولها :

أدركنا وضوء الأفق قد صدع الفضا
فلله عينا من رآنا وللحيا
نفر إلى عدل الزمان الذى أتى
ونأسوكلوم اللفظ باللفظ عاجلا
مدامة عتب بيننا نقلها الرضا
جنى بأفاق البشاشة أو مضى
ونبرا من جور الزمان الذى مضى
كذا قدح الصهباء داوى وأمرضا^(٢)

فراجعني عنها بهذه القصيدة :

ألا حبذا ذاك العتاب الذى مضى
أغارت له خيل فما ذعرت حمى
تألق منه بارق صاب مزنه
تلاؤا نورا للصدقة حافظا
وإن جره واش بزور تمضمضا
ولسكنها كانت طلائع للرضا
على معهد الحب الصميم فروضا
وإن ظن سيفا القطيعة منتضى

(١) لعله يريد بالصادين الصابي والصاحب ، وهما من مشاهير الكتاب في العصر

العباسي (٢) نأسو : نعالج ونداوى

فإن سود الشيطان منه صحيفة
وما كان حب أحكم الصدق عهده
أعيد ودادا زاكى القصد وافيا
ونية صدق فى رضا الله أخلصت
من الآفك الساعى ليخفى نورها
وكيف يحل المبطون بإفكهم
تعرض يبغي هدمها فكأنه
وحرص فى تنفيره فكأنما
وأوقد نارا فهو يصلى جحيمها
أيا واحدى المعداد بالألف وحده
بعثت من الدر النفيس قلاندا
نتيجة آداب وطبع مهذب
ولا مثل بكر باكرتى آفا
هى الروضة الغناء أينع زهرها
أو الغادة الحسناء راقى فينقضى
تطابق منها شعرها وجينها
أو الشهب منها زينة وهداية
أتت ببديع الشعر طورا مصرحا
ومهدت الأعدار دون جنابة
لك الله من بروقى وصاحب

أتى ملك الرضى عليها فيبضا
أيرى بوسواس الوشاة فيرفض
تخلص من أدراجه فتمحض (١)
سناها بأفاق البسيطة قد أضا (٢)
أينفى شعاع الشمس قد ملاً الفضا ؟
معاقد حب أحكمها يد القضا
لتشيد مبناها الوثيق تعرضا
على البر والتسكين والحب حرصا
يقلب منها القلب فى موقد الغصا (٣)
ويا ولدى البر الزكى إن ارتضى
على ما ارتضى حكم المحبة واقتضى
أطل مداه فى البيان وأعرضا
كزورة خل بعد ما كان أعرضا
تفاطر حسنا مذهبها ومفضضا
مدى العمر فى وصفى لها وهو ما انقضى
فذا الليل مسودا وذا الصبح أبيض
ورجم ليطان إذا هو قيصا (٤)
بآياتك الحسنى ، وطورا معرضا
ولو أنك الجانى لكنت المعصيا
محضت له صدق الضمير فأمحضا

(١) تمحض الشيء : تخلص من كل شائبة

(٢) أضا : أراد أضاء ، أى أثار

(٣) الغصا . شجر شديد الاشتعال

(٤) قيض : تهيأ

لسانك في شكرى مفيض تفضلا فيا حُسنَ ما أهدي وأسدى وأقرضا
وقلبك فاضت فيه أنوار خلتي فآلتي يدئ تسليمه لى مفوضا
وقصدك مشكور وعهدك ثابت وفضلك منشور وفعلك مُرتضى
فهل مع هذا ريبة فى مودة بحال؟ وإن رابت فما أنا معرضا
فثِقْ بولائى إتنى لك مخلص هوى ثابتا يبقى فليس له انقضا
عليك سلام الله ما هبت الصبا وما بارق جنح الدجنة أومضا

وقال لسان الدين : من غريب ما خاطبني به قوله :

أقسم بالقيسين والنابعين وشاعرى طيء المولدين^(١)
وبابن حجر وزهير وابنه والأعشىين بعدُ ثم الأعميين^(٢)
ثم بعشاق الثريا والرقيات وعزة ومي وبش^(٣)
وبأبى الشيص ودعبل ومن كشاعرى خُزامة الخضرمين
وولد المعتز والرضي والسرى ثم حسن وابن الحسين
واختم بقس وبسحبان وإن أوجب حق أن يكونا أولين
وحلبتي نثرهم ونظمهم فى مشرق أقطارهم والمغربين
إن الخطيب ابن الخطيب سابق بنثره ونظمه للحلبتين
راقتنى الصحيفة الحسنات التى شاهدت فيها المكرمات رأى عين
تجمع من براعة المعنى إلى براعة الألفاظ كلتا الحسينين
أشهد أنك الذى سبقت فى طريقى الآداب أقصى الأمدين
شعر حوى جزالة ورقة تصاغ منه حلة للشعريين
رسائل أزهارها منشورة سرور قلب ومتاع ناظرين

- (١) النابتين : النابتة الديباني ، والنابتة الجعدى ، وشاعرى طيء : أبو تمام
والبحترى (٢) ابن حجر : امرؤ القيس
(٣) عاشق الثريات : عمر بن أبى ربيعة ، وعاشق الرقيات : قيس الرقيات بن شريح
بن مالك ، وعاشق عزة كثير بن عبد الرحمن ، وعاشق مية : ذو الرمة غيلان بن
عقبة ، وعاشق بثينة : جميل بن معمر العذرى

يا أحوذياً يانسيجَ وَخَدِهْ شهادة تنزهت عن قول مين^(١)

بقيت في مواهب الله التي نقر عينيك وتملأ اليدين

وحكى لسان الدين أن سعيد بن محمد الغرناطى الغسانى استعار منه كتابا ، فأرسله من سعيد بن محمد الغرناطى إلى لسان الدين ، وعلى ظهره هذه الأبيات :

هذا كتاب كله معجم أحنى معناه إغاما

أعجمه منشئه أولا وزاده الناسخ إعجاما

أسقط من إجماله جملة وزاد في التفصيل أقساما

وغير الألفاظ عن وضعها وصير الإيجاد إعداما

فليس في إصلاحه حيلة ترجى ، ولو قوبل أعواما

ولم أقف على جواب لسان الدين له عنها ، والله تعالى أعلم .

وولد سعيد المذكور سنة ٦٩٩ .

ومما خوطب به لسان الدين لما تقلد الكتابة العليا قولُ أبي الحسن على

ابن محمد بن على بن البناء الوادى أشى رحمه الله تعالى :

بين أبي الحسن
على بن البناء
ولسان الدين

هو العلاء جرى بالين طأثره فكان منك على الآمال ناصره

ولو جرى بك ممتداً إلى أمد لأعجز الشمس ما آبت عساكره

لقد حباه منيع العز خالفه بغاضل منك لا تحصي مآثره

فليزه فخرا فما خلق يعارضه ولا علاء مدى الدنيا يفاخره

لله أوصافك الحسنى لقد عجزت من كل ذى لسن عنها خواطره

هيهات ليس عجيبا عجز ذى لسن عن وصف بحر رمى بالدر زاخره

هل أنت إلا الخطيب بن الخطيب ومن زانت حلى الدين والدنيا مفاخره

(١) الأحوذى : الحفيف الحركة السريع إلى الحاجات ، ونسيج وحده : أى

الذى لا نظير له ، والمين - بالفتح - الكذب

فإن يقصر عن الأوصاف ذو أدب فما بدا منك في التقصير عاذره
يا ابن الكرام الألى ماشب طفلهم إلا ولمجد قد شدت مآزره
مهلا عليك فما العلياء قافية ولا العلاء بسجع أنت نأثره
ولا المكارم طرسا أنت راقه ولا المناقب طبا أنت ماهره
ماذا على سابق يسرى إلى سنن إن كان من رفقهِ خل يسيره
سِرْ حيث شئت من العلياء متئداً فما أمامك سباق تحاذره
أنت الإمام لأهل الفخر إن فخروا أنت الجواد الذي عزت أوافره
ما بعد ما حُزنته من عزة وعُلا شاو يطارد فيه المجد كابره
نادت بك الدولة الفصرى محتدها نداء مستنجد أزرا يوازره
حَلَّتْهَا برداء البر مرتديا وصبح يملك فجر السعد سافره
فالملك يرفل في أبراده مَرَحًا قد عمت الأرض إشراقا بشأره
فأهنا بها نعمة ما إن يقوم لها من اللسان ببعض الحق شاكره
وليئنها أنها ألت مقالدها إلى زكى زكت منه عناصره
فإنه بدرتم في مطالعهم ——— قد طَبَّقَ الأرضَ بالأنوار نأثره

وقال لسان الدين : وأهدى إلى قباقب خشب جوز وكتب معها :

هاكها ضمرا مطايا حسانا نشأت في الرياض قُضْباً لِدَانَا^(١)
وثوت بين روضة وغدير مرضعات من النمير لبانا
لابسات من الظلال بروداً دونها القُضْبُ رقة وليانا
ثم لما أراد إكرامها الله وسَنَى لهُ ——— المنى والأمانا
قصدت بابك العلى ابتداراً ورَجَّتْ في قبولك الإحسانا

(١) الضمر : جمع ضامر ، أصله الفرس إذا كان طاوي البطن ، جعل القباقب جيادا ، والقضب : جمع قضيب ، وهو الغصن ، وأصل القضب بضم الفاف والضاد جميعا فسلكن الضاد هنا للتخفيف ، واللدان : جمع لدن ، وهو الغصن الطرى

قال : فأجبتة :

قد قبلنا جياذك الدم لما أن بلونا منها العتاق الحسانا
أقبلت خلف كل حجر تبيع خَلَعَتْ وصفها عليه عيانا
فغنيننا برعيها وفسحنا في ربوع العلا لها ميدانا
وأردنا امتطاءها فاتخذنا من شرك الأديم فيها عنانا
قدمت قبلها كتيبة سحر من كتاب سَبَتْ به الأذهانا
مثل ما تجنبُ الجيوش المذاكي عُدَّةً للقاء مهما كانا^(١)
لم يرق مقاتلي ولا راق قلبي كعلاها براعة وبيان
من يكن مُهديا فمثلك يهدي لم أجد للشنا عليك لسانا

وقال لسان الدين : ومن أبدع ما هز به إلى إقامة سوقه ، ورعى حقوقه ، قوله :

يامعدن الفضل موروثا ومكتسبا وكل مجد إلى عليائه انتسبا
بباب مجدكم الأسمى أخو أدب مستصرخ بكم يستنجد الأدبا
ذل الزمان له طورا فبلغه من بعض آماله فوق الذي طلبا
والآن أركبه من كل نائبة صَعَبَ الأعنة لا يألو به نصبا
فحملته دواعي حبكم وكفى بذاك شافع صدق يبلغ الأربا
فهل سرى نسمة من جاهكم فيها خليفة الله فينا يطر الذهبا

وقال لسان الدين في « الإكليل » في حق المذكور ما صورته : فاضل يروقل
وقاره ، وصقر بعد مطاره ، قدم من بلده يروم اللحاق بكتاب الإنشاء وتوسل بنظم
أنيق ، ونسيب في نسب الإجابة عريق ، تُعَرَّب براعته عن لسان ذليق ، وطبع
طليق ، وذكاء بالأثرة خليق ، وبينما هو يلحم في ذلك الغرض ويُسدِّي ، ويعيد

ترجمة
أبي الحسن
ابن البناء

(١) تجنب : تجعلها إلى جانب دوابها التي تركبها لتسترج إليها إذا أعت دوابها
والمذاكي : الخيل الجياد ، واحدها مذك ، وقالوا : « جرى المذكيات غلاب »

ويبدى ، وقد كادت وسائله أن تفجح ، وليل رجائه أن يصبح ، اغتاله الحمى ،
وخانتة الأيام ، والبقاء لله تعالى والدوام ، توفى بالطاعون فى عام واحد وخمسين
وسبعائة وسنة دون الثلاثين ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

ولما خوطب لسان الذين من سلطان تونس بما لم يحضرنى الآن أجاب عنه بما
نصه : المقام الإمامى الإبراهيمى المولوى المستنصرى الحفصى ، الذى كرم فرعا
من لسان الدين
إلى سلطان
تونس
وأصلا ، وشرف جنسا وفصلا ، وتملأ فى رعاية المجد ، من لدن المهد ، كرما وخصلا ،
وصرفت متجردة الأفلام ، إلى مثابة خلافته المنصورة الأعلام ، وجوه عبارة
الكلام ، فاتخذ من مقام إبراهيم مصلى ، مقام مولانا أمير المؤمنين الخليفة الإمام
أبى إسحاق ابن مولانا أبى يحيى أبى بكر ابن الخلفاء الراشدين ، أبقاه الله تعالى
تهوى إليه الأفتدة كلما انتشت بذكره ! وتنافس الألسنة فى إحراز غاية حمده
وشكره ! وتشكفل الأقدار بإنفاذ نهيه وأمره ! وتغرى عوامل عوامله^(١) بمحذف زيد
عدوه وتمخره ! ويتبرع أسمر الليل وأبيض النهار بإعمال بيضه ومُخره ! ولا زال
حُسامه الماضى يغنى يومه فى النصر عن شهره ، والروض يحببه بمباسم زهره ، ويرفع
رُقع إليه الحمد ينان قضبه الناشئة من معصم نهره ، وولى الدنيا والآخرة يمتعنا بهما
بعد الإعانة على مَهره ، يُقبَلُ بساطه الموعود الاستلام بصفحات الحدود ، الرافع
عماده ظل العدل الممدود ، عبدُ مقامه الحمود ، وواردُ غمر إنعامه غير المنزور
ولا المُمود ، المثنى على نعمه العميمة ، ومنحه الجسيمة ، ثناء الروض المَجُود ،
على العُهود ، ابن الخطيب ، من باب المولى الموجب حقه ، المتأكد القروض ،
الثابت العهد ، المعتد منه بالود الجامع الرسوم والحدود ، والفضل المتوارث عن
الآباء والجدود ، يسم على مثابتها سلام متلو على مثلها إن وجد المثل فى الثانى ،

(١) عوامل الأولى : جمع عامل بمعنى صاحب العمل ، وكأنه مال به إلى معنى
العامل عند النجاة ، وعوامل الثانية : جمع عامل بمعنى صدر الرمح .

ويعوذ كمالها بالسمع المثاني ، ويدعو الله تعالى لسلطانها بتشييد المباني ، وتيسير
 الأمانى ، ويُنبئ إلى علوم تلك الخلافة الفاروقية المقدسة بما يناسب التوحيد ،
 المستولية من مدارك الآمال على الأمد البعيد ، أن مخاطبتها المولوية تاهت على
 الملوك فارعة العلا ، مزعرة الحلل والحلى ، ذهبية الحلى ، تفيد العز المسكين ،
 والدنيا والدين ، وترعى فى الآباء والبنين ، على مر السنين ، صفراء فاقع لونها تسر
 الناظرين ، قد حملت من مدحها الكريم ما أخفى للملوك من قرة عين ، ودرة
 زين ، جبين الشرف الوضاح ، ومستوجب الحق على مثله من الخلق بالنسب
 الشراح ، والغرر والأوضح ، والأرج الفواح ، فاقتنى دره النفيس ، ووجد المروع
 فى جانب الخلافة التنفيس ، وقراه لما قرأه التعظيم والتقدیس ، وقال يا أيها الملأ إني
 ألقى إلى كتاب كريم وإن لم يكن بلقىس^(١) ، ألقى الله تعالى تلك اليد مَطْوِقة
 الأيادي ، ونخجلة الغائم والغواذى ، وأبقاها عامرة النوادي ، غالبية الأعادي ،
 وجعل سيفها السفاح ورأيها الرشيد وعلمها الهادي ، ووصل ما ألطف به رعيها من
 أشنات بر بلغت ، وموارد فضل سوغت ، أمدتها سعادة المولى بمدد لم يضر معه
 البحر الهائل ، ولا العدو الغائل ، وأقام أودها عند الشدائد الفلك المائل ، لا بل
 الملك الذى له إلى الله الوسائل ، وحسب الجفن رسالتكم الكريمة لحظا فضان
 وأكرم ، وغوذة فتعوذ بها وتحرم ، وتولى المملوك تنفيق عروضها بانشرح
 صدره ، وعلى قدره ، فوقعت الموقع الذى لم يقعه سواها ، فأما الخيل فأكرم
 مثواها ، وجعلت جنان الصون مأواها ، ولو كسيت الربيع المزهر حلالا ، وأوردت
 فى نهر المجرة علاً ونهلاً ، وقلدت النجوم العواتم صحلا ، ومسحت أعطافها بمنديل

(١) بلقيس : ملكة سبأ فى عهد سليمان بن داود ، عليهما السلام ! وكان سليمان
 قد أرسل إليها خطاباً يأمرها فيه بالإذعان والتسليم ، فلما وقع لها هذا الكتاب جمعت
 أهل المشورة من قومها وقالت لهم : (إني ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان ،
 وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وأتوني مسلمين) وقد قص الله تعالى شأنها
 فى القرآن الكريم فى سورة النمل .

النسيم ، وألحقت بأردية الصباح الوسيم ، وافترشت لمرابطها الحشأيا ، وانضمت
حبات القلوب بالعشايا ، لسان بعض ما يجب ، لحقها الذى لا يحجد ولا يحتجب ،
وما عداها من الرقيق والقيان ، رعاة ذلك الفريق تكفله الاستحسان ، وأظنب
الاعتقاد وإن قصر اللسان ، تولى الله تعالى تلك الخلافة بالشكر الذى يُحْسِبُ
العطاء ، والحفظ الذى يُسْبِلُ الفِطاء ، والصنع الذى يبسر من مطا الأمل الامتطاء ،
وأما ما يختص بالملوك فقد خصه بقبوله تبركا بتلك المقاصد التى سددها الدين ،
وعدها الفضل المبين ، وأنشد الخلافة التى راق من مجدها الجبين :

قَدْ تَنَى بِفَرَايِدَ أَخْرَجَتْهَا مِنْ بَحْرِ جُودِكَ وَهُوَ مُلْتَظَمُ الثَّبَجِ
وَرَعِيَتْ نَسَبَهَا فَإِنْ سَبِيكَةً مِمَّا يَلَأُمُ لَوْنَهَا قَطْعُ السَّبَجِ

والمملوك بهذا الباب النصرى أعزه الله تعالى على قدم خدمة ، وقائم بشكر منه لكم
ونعمة ، وحاضر فى جملة الأولياء بدعائه وخُجِّه ، ومتوسل فى دوام بقاء أيامكم ونصر
أعلامكم إلى ربه ، وإن بَعْدَ بِجَسْمِهِ فلم يبعد بقلبه ، والسلام الكريم ، الطيب
البر العيم ، يخصها دائما متصلا ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

من ابن البرزى ومما خوطب به لسان الدين قول أبى الحسن على بن يحيى الفزارى المالى
إلى لسان الدين المعروف بابن البرزى ، وكان ممن يمدح الملوك والكبراء :

لِبَابِكَ أُمَّ الْآمِلُونَ وَيَمُومُوا وَفِي سَاحَتِي رَحْمَاكَ حَطَوُا وَخِيمُوا
وَمِنْ رَاحَتِي كَفِيكَ جُدُوكَ تَهْمَى فَتَرَوِى عَطَاشَ مَنْ نَدَاكَ وَتَنَعَمَ
وَأَنْتَ لِمَا رَامُوهُ كَعِبَةِ حُجَّهِمْ إِذَا شَاهَدُوا مَرَاكَ لَبَّؤُا وَأَحْرَمُوا
يَطُوفُونَ سَبْعَا حَوْلَ بَابِكَ عِنْدَمَا يَلُوحُ لَهُمْ ذَاكَ الْمَقَامُ الْمَعْظَمُ
فَيُثَمِّتُكَ يَمِنْ لِلرَّعَايَا وَمَنْزِلَةٌ وَيَسْرَاكَ يَسِرُ لِلْعَفَاةِ وَمَغْنَمُ (١)
وَلَقِيَاكَ بَشَرًا لِلنَّفُوسِ وَجَنَّةٌ تَرْنُ بِهَا وَرُقُ الْمُنَى وَرَزَنَمُ (٢)

(١) العفاة ، جمع عاف ، وهو طالب المعروف .

(٢) ترن : أراد تغنى ، والورق : جمع ورقاء ، وأراد بها الحماسة .

فيا واحد الأزمان علما ومنصبا
وَمَنْ وجهه كالبدر يشرق نوره
ومن ذكره كالمسك فض ختامه
لقد حُزَّتْ فضل السبق غير منازع
حويت من العلياء كل كريمة
وباهيت أقلام الفئام براعة
إذا فاخر الأبحاد يوما فإنما
وإن سكتوا كنت البايغ لديهم

ومنها :

فيا صاحبي نجواي عوجا براعة
وقولا له عبدٌ ببابك يرتجى
فليس له إلا علاك وسيلة
فجد بالذي يرجوه منك فما له
بقيت ونجم السعد عندك طالع
توفي المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعائة ، انتهى .

ومما خوطب به قول أبي القاسم قاسم بن محمد الحرالي الملقب القاضي بانتقيرة

قبل وفاته :

عليك قصرت المدح يا خير ماجد
ويا كهف ملهوف وملجأ خائف
لقد شُهرت بالمجد منك شمائل
وأفضل موصوف بكل الحمد
ومورد جود قد كفى كل وارد (٣)
محاسنها أركى وأعدل شاهد

(١) عوجا : ميلا (٢) اللبانات : الحاجات ، وهي بضم اللام

(٣) كهف ملهوف : أراد أنه يلجأ إليه ويعوذ بجنابه .

وكل الذى يبدو من الفضل بعضُ ما حُبِيت به ، أُعْظِمَ بها من مشاهد^(١)
 إذا أملت منك المكارم ألفت^(٢) تنادى هلموا فزُتُم بالمساعد
 عطاؤكم جَزَل فمن أَمَلَ الغنى فمَثَلكم يبعث فى سعد قاصد^(٣)
 ورائة مجد كابر بعد كابر وأصل زكى الفرع عذب الموارد

وتوفى المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعائة ، وفى حقه يقول فى « الإكليل » :
 مشمر فى الطلب عن ساق ، مُتأبر على اللحاق ، بدرجات الخذاق ، منتحل
 للعربية ، جاد فى إحصاء خلفها ، ومُعاطاة سُلَافها ، وربما شُرست فى المذاكرة
 أخلاقه ، إذا بُهِرَجت أعلاقه ، ونوزع تمسكه بالحجة واعتلاقه .

وقال لسان الدين فى ترجمة شعر المذكور : إنه ضعيف مهزول ، انتهى

ومما خطب به قول أبى الحجاج يوسف بن موسى الجذامى المنتشافرى من

ترجمة
أبى القاسم
الحزالى

من أبى الحجاج
الجذامى

أهل رُندة ، ونصه :

حَبَاكَ فَوَادَى نِيلَ بشرى وأحياكا وحيدٌ بآدابِ نفائسَ حياكا
 بدائع أبداها بديع زمانه فطاب بها ياعاطر الروض رَيَّاكا
 أمهدىها أودعت قلبى علاقة وإن لم يزل مُغرَى قديما بعلياكا
 إذا ما أشار العصر نحو فريده فإياك يعنى بالإشارة إياكا
 لأتحفى لقياك أسنى مؤملى وهل تُحَمِّة فى الدهر إلا بلقياكا
 وأعقت إتخافى فرائدك التى وجوب ثناها يالسانى أعيكاكا

ووصل هذا النظم بنثر صورته : خصصتنى أيها المخصوص بما تَرَّ أعياء عَدُّها
 وحَصَرُها ، ومكارم طَيِّبَ أرواح الأزهار عَطُرُها ، وسارت الركبان بثنائها ، وشملت
 الخواطر محبة علائها ، بفرائدك الأنيقة ، وفوائدك المزرية جمالا على أزهار الحديقة ،

(١) يبدو : يظهر ، وحيت - بالبناء للعجول - منحت

(٢) جزل : كثير عظيم ، ويبغى : يقصد

ومعارفك التي زكت حقاً وحقيقة ، وهَدَّت الضالَّ عن سبيل الأدب مَهْمَعَه
وطريقه ، وسبق تحفَّتْك أعلى التحف عندى وهو مأمول لقائك ، والتمتع بالتماح
سَمَاك الباهر وسنائك ، على حين امتدت لذلك اللقاء أشواقى ، وعظم من فوت
استنارتى بنور بحياك إشغافى ، وتردد لَهَجى بما يبلغنى من معاليك ومعانيك ،
وما شاده فكرك الوفاة من مبانيك ، وما أهلت به بلاغتك من دارسه ، وما أضفيت
على الزمان من رائق ملابسه ، وما جمعت من أشقائه ، وأحييت من أمواته ،
وأيقظت من سِنَانِه ، وما جاد به الزمان من حَسَنَاتِه ، فلترداد هذه المحاسن من
أنبائك ، وتصرف الألسنة بثنائك ، علقت النفسُ من هواها بأشدَّ علاقة ،
وجنحت إلى لقائك جنوحَ والهة مشتاقة ، والحوادث الجارية تَصْرِفُهَا ، والعوائق
الحادثة كلما عطفت أملها إليه لا تنحفها به ولا تَعْطِنُهَا ، إلى أن ساعد الوقت ،
وأسعد البخت ، بلقائكم فى هذه السفرة الجهادية ، وجاد إسعاف الإسعاد من أمنيته
بأسنى هدية ، فلقيتكم لُقْيَا حَجَل ، ولحت أنواركم لحمة على وَجَل ، ومجبتى فى
محاسنكم الرائقة ، ومعاليكم الفائقة ، على ما يعلمه ربنا عز وجل ، وتذكرت عند
لقائكم للمأمول ، إنشاءً فأنل يقول (١) :

كانت مساءلة الركبان تخبر عن محمد بن خطيب أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذننى بأحسن مما قد رأى بصرى

قسم لعمرى أقوله وأعتقده ، وأعتده وأعتمده ، فلقد بهرت منك المحاسن ، وفُتَّتْ
من يُحَاسِن ، وقَصَّرَ عن شأوك (٢) كل بلغ لَسِن ، وسبقت فطنتك النارية النورية
بلاغة كل فِطْن ، وشهد لك الزمان أنك وَحِيدُهُ ، ورئيس عصبته الأدبية وفريده ،
غُبُورِكَ لك فيما أنلت من الفضائل ، وأوتيت من آيات المعارف التي بها نور الغزالة

(١) البيتان لابن هانى فى جعفر بن فلاح ، وقد غير فى عجز ثانيهما

(٢) الشاؤ : الغاية والأمد ، يريد أنه لا يلحقه ولا يباريه أحد .

من لسان الدين
إلى أبي الحجاج
الحقاي

ضائل ، ولا زلت ترقى في مراتب المعالي ، مُوقِّ صروف الأيام والليالي ، انتهى

وهذا الخطاب جواب من المذكور لكلام خاطبه به لسان الدين نصه :

حدثت على فرط المشقة رحلة أناحت اعينى اجتلاء محياكا

وقد كنت بالتذكار في البعد قانعا وبالريح أن هبت بعاطر رياكا

خلت لي النعمى بما أنعمت به على فحياها الإله وحياكا

أيها الصدر الذي بمخاطبته يُبأهى ويتشرف ، والعلم الذى بالإضافة إليه يتعرف ، والروض الذى لم يزل على البعد بأزهاره الغضة يُتجف ، دمت تنزاحم على موارد ثنائك الألسن ، ويروى الرواة من أنبائك ما يصح ويحسن ، طالما مالت إليك النفوس منا وجنحت ، وزجرت الطائر الميمون من رقاعك كلما سَنَحَتْ ، فالآن اتضح البيان ، وصدق الأثر العيان ، ولقد كنا للمقام بهذه الرحال نرتعض ، ويجنُّ الظلام فلا نغمض ، هذا يقلقه إصفار كيبه ، وهذا يتوجع لبعد أنيسه ، وهذا تروعه الأهوال ، وتضجره بتقلباتها الأحوال ، فمن أنه لا تنفع ، وشكوى إلى الله تعالى ترفع ، فلما ورد بقدمك البشير ، وأشار إلى ثنية^(١) طلوعك المشير ، تشوفت^(٢) النفوس الصدية^(٣) إلى جلائها وصيقلها ، والعقول إلى حل عقالها^(٤) ، والأنفس المُفحمة إلى فصل مقالها ، ثم إن الداهر راجع التفاته ، واستدرك ما فاتته ، فلم يسمح من لقائك إلا بلحمة ، ولا بعث من نسيم روضك بغير نفحة ، فما زاد أن هيج الأشواق فالتهمت ، وشن غاراتها على الجوانح فانتهمت ، وأعلّ القلوب وأمرضها ، ورمى ثغرة الصبر فأصاب غرضها ، فإن رأيت أن تنفس عن نفس شد الشوق مُحَنَّقها ، وكدر مشارب أنسها وأذهب روتها ، وتتحف من آدابك بدر تفتنى ، وروضة طيبة الجنى ، فليست بيدع في شيمك ، ولا شاذة في باب كرمك ، ولولا شاغل

(١) أصل الثنية المسكان الصاعد في جبل (٢) تشوفت : تطلعت

(٣) الصدية : العطشي (٤) العقال — بكسر أوله — أصله ما تربط به الدابة

لا يبرح ، وعوائق أكثرها لا يشرح ، لنافست هذه السحابة^(١) في القدوم عليك ،
والثول بين يديك ، فتشوّقني إلى اجتلاء أنوارك شديد ، وتشيعني إلى إبلاء الزمان
جديد ، انتهى .

ترجمة
أبي الحجاج
الحقاي :
ووصف لسان الدين في « التاج الحلي » أبا الحجاج المذكور بما صورته :
حسنة الدهر الكثير العيوب ، وتوبة الزمان الجمّ الذنوب ، ما شئت من أدب يتألق ،
وفضل تعطر به النسمات وتتخلق ، ونفس كريمة الشائل والضرائب ، وقريحة
يقذف بحرّها بدرر الغرائب^(٢) ، إلى خشية الله تعالى تحول بين القلوب وقرارها ،
وتذني النفوس عن اغترارها ، ولسان يبوح بأشواقه ، وجفن يسخو بدرر آماقه ،
وحرص على لقاء كل ذي علم وأدب ، ومن يمتّ إلى أهل الديانة والعبادة بسبب ،
سبق بقطره الخلبة ، وفرع^(٣) من الأدب الهضبة ، ورفع الراية ، وبلغ في الإحسان
الغاية ، فطارت قصائده كل المطار ، وتغنى بها راكب القلك وحادي القطار ،
وتقلد خُطّة القضاء ببلده ، واتهت إليه رئاسة الأحكام بين أهله وولده ، فوضحت
المذاهب بفضل مذهبه وحسن مقصده ، وله شيمة في الوفاء تعلم منها الأس ، ومؤانسة
عذبة لا تستطيعها الأكوس ، وقد أثبت من كلامه ما تتحلى به مراتب المهارق ،
ويجعل طيبه فوق المفارق ، وكنت أشوق إلى لقائه ، فلقيته بالحلة من جبل الفتح
لقيا لم تبل صدّا ، ولا شفت كمدّا ، وتعذر بعد ذلك لقاءه ، فخطبته بهذه الرقعة .
* حمدت على فرط المشقة رحلة *

فذكر لسان الدين ما قدمنا إلى آخره .

وقد أورد جملة من مطولاته وغيرها ومؤلفاته ، ولنلخص بعض ذلك فنقول :
ومن شعر أبي الحجاج المذكور يمدح الجهة الكريمة النبوية ، مُصَدِّراً
بالنسب لبسط الخواطر النفسانية قوله :

- (١) السحابة - بزة السحابة - أراد بها الورقة التي كتب فيها
(٢) الغرائب : جمع غريبة ، وأراد بها هنا التي لا يعرف لها نظير
(٣) فرع : أراد طلع وصعد ، والهضبة : الأرض المرتفعة

لما تنهى الصبُّ في تشويقه درر الدموع اعتاضها بعقيقه
متلهف وفؤاده متلهب كيف البقا بعد احتدام حريقه ^(١)
متموج بحرُ الدموع بخده أئى خلاصٌ يرتجى لغريقه
متجرع صاب النوى من هاجر ما إن يحن لِلْأَعْيَاتِ مشوقه
يسبى الخواطرَ حسنه ببديعه يُضْبِي النفوسَ جماله بأنيقه
قيدُ النواظر إذ يلوح لرامق لا تنتنى الأحداق عن تحديقه
للبدن أمحتته كبشر ضيائه للمسك نفحته كنشر فتيقه ^(٢)
سكرت خواطر لالحية كأنهم شربوا من الصهباء كأس رحيقه ^(٣)
عطشوا لثغر لا سبيل لريقه إلا كلمهم للمع بريقه
ماضر مولى عاشقوه عبده لورق إشفافا لحال رقيقه
عنه اضطبارى ما أنا بمطيعه مثلُ السلو ولا أنا بمطيعه
سَجَّعَ الحمام يشوق ترجيع الهوى فأثار شجو مشوقه بمشوقه
وبكت هديلاً راعها تفرقه ويحق أن يبكى أخو تفرقه
وبكاء أمالى أحق لأننى لم أقض للمولى أكيد حقوقه
وغفلت في زمن الشباب المنقضى أقبح بنسخ بروره بعقوقه
وبدا المشيب وفيه زجر ذوى النهى لو كنت مزدجرا لشم بروقه ^(٤)
حسبى ندامة آسف مما جنى يصلُ النشيجَ لوزره بشميقه
ويروم ماخرم الهوى زمن الصبا ويروم من مولاه رتق فتوقه
ويردُّ الشكوى لديه تذلا علَّ الرضا يحببه درك لحوقه
فيصح من سكر التصابى سكره نسخا لحكم صبوحه وغبوقه

(١) احتدام : التهاب واشتعال

(٢) اللمعة : النظرة . ويلوح : يظهر ، والنفحة : الريح ، والنشر - بالفتح -

طيب الرائحة ، والفتيق : المسك تستخرج رائحته بضم شئ إليه

(٣) الرحيق : الخمر (٤) شيم : مصدر « شام البرق » إذا نظر أين يقع مطره

لو كنت يمت التقي وصحته
لأفدت منه فوائد وفوائد
لله أرباب القلوب فإنهم
قاموا وقد نام الأنام فنورهم
وتأنسوا بحبيبتهم فلم به
قصرت عنهم عندما سبقوا المدي
لولا رجاء تلميح من نورهم
وتأرج يستاف من أرواحهم
لعنت من جرّا جرّائري التي
ومع رجاء توصل أعدده
حبي ومدحى أحمد الهادي الذي
أسمى الوري في منصب بمنسب
الحق أظهره عقيب خفائه
ونفى هداه ضلالة من جائر
سبحان مرسله إلينا رحمة
والمعجزات بدت بصدق رسوله
كالظبي في تكليمه والجدع في
والنار إذ خمدت بنور ولادة
والزاد قلّ فزاد من بركاته
ونبوع ماء الكف من آياته

وساكت إشاراً سواً طريقه^(١)
عرضت تسام لرائج في سوقه
من حزب من نال الرضا وفريقه
هتك الدجى بضياته وشروقه
بشر لصدق الفضل في تحقيقه
ولسابق فضل على مسبوقه
يحيى القواد بسيره وطروقه
سبب انتعاش الروح طيب خلوقه^(٢)
من خوفها قلبي حليف خفوقه
ذخراً لصدمات الزمان وضيقه
فوز الأنام يصح في تصديقه
من هاشم زاكى النجار عريقه
والدين نظمه لدى تفريقه
مستوثق بيقوئه ويعوقه
يهدى ويهدي الفضل من توفيقه
وحقيقه بالمأثرات خليفه
تحنيه والبدر في تشقيقه
وأجاج ماء قد حلا من ريقه
فكفى الجيوش بثمره وسويقه
وسلام أحجار بدت بطريقه

(١) يمت : قصدت ، وسواء الطريق : نهجه المستقيم

(٢) الخلق - بفتح الحاء - الطيب

والنخل لما أن دعاه مشى له
والأرض عاينها وقد زويت له
وكذا ذراع الشاة قد نطقت له
ورمي عداه بكف حصبا فاشتت
وعليه آيات الكتاب تنزلت
وأذيق من كأس المحبة صرفها
حاز السناء وناله بعروجه
ولكم له من آية من ربه
يا خيرة الأرسال عند إلهه
عَلِّقْتُ أَمَالِي بِجَاهِكَ عَمْدَةً
وَعَلِّقْتُ مِنْ حَبْلِ اعْتِمَادِي عَمْدَةً
ولئن غدوت أحيّد ذنبي إنني
وكساد سوقى مذ لجأت لبابكم
ويجنّ قلبي وهو في تعريبه
وتزید لوعته متى حثّ السرى
وأرى قشيب العمر أمسى بالياً
وأخاف أن أقضى ولم أقض المني
فتى أخطأ على اللوى رحلى وقد
وأمرغ الخدين في ترب غدا
وأعيد إنشائي وإنشادى الثنا

ذا سرعة بعدوقه وعروقه
فقريب ما فيها رأى كسحيقه^(١)
نطق اللسان فصيحاً وذليقه
هرباً كمذعور الجنان فروقه^(٢)
تتلى بعلو جناحه وبسوقه^(٣)
سبحان ساقيه بها ومذيقه
جاز السماء طباقها بخروقه
وعناية ورعاية بحقوقه
يا محرز العليا على مخلوقه
والقصد ليس يخيب في تعليقه
لتمسكى بقويّه ووثيقه^(٤)
أرجو بقصدك أن أرى كطليقه
يقضى حصول نفوذه ونفوقه
لمزاره لرُبّك في تشريقه
حادثاً بحمّاله وبنوقه
ومرور دهرى جد في تمزيقه
بنفوذ سَهْم منيتى ومُروقه
بلغت ركابى لِلْحِمَى وعقيقه
كالمسك في أرج شذا منشوقه
بيديع نظم قريحتى ورقيقه

(١) السحيق : البعيد (٢) الفروق ، والفروقة : الجبان الشديد الدعر

(٣) بسق بسوقاً : ارتفع (٤) الوثيق : المحكم

حَتَّى أَمِيلُ الْعَاشِقِينَ تَطَرُّبَا كَالْعَصْنِ مَرَّ صَبًّا عَلَى مَمْشُوقِهِ
وَتَحِيمةُ التَّسْلِيمِ أَبْلَغُ شَافِعٍ وَثَنًا الْمَدِيحِ حَدِيثِهِ وَعَتِيقَهُ ^(١)
وَلَذَى الْفَخَارِ وَذَى الْحُلَى وَوَزِيرِهِ صِدِّيقِهِ وَأَخَى الْهُدَى فَارُوقِهِ
مَنِ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ كَالزُّهْرِ فِي تَأْلِفِهَا وَالزُّهْرُ فِي تَأْنِيقِهِ

وقال :

هَوَاكُم بَقْلِي مَا لِأَحْكَامِهِ نَسْخٌ وَمِنْ نَشْأَتِي مَا إِنْ تَحَتَّ مِنْهُ نَشْوَتِي
عَلَيْهِ حَيَاتِي مَذْ تَمَادَتْ وَمِيتَتِي سَوَاءٌ بِهِ عَصْرُ الْمَشِيبِ أَوِ الشَّرْحِ ^(٢)
وَلِي خَلَدٌ أَضْحَى يَبْيِضُ غَرَامِهِ وَبَعْنِي إِذَا بِالْصُّورِ يَتَفَقُّ النَّفْخُ
قَتَلْتُ سَلَوِي حِينَ أَحْيَيْتُ لَوْعَتِي وَلَا شَرَّكَ يَدْنِي إِلَيْهِ وَلَا فِخْ
وَأَغْدُو إِلَى سَعْدِي بِكَرْخِ عِلَاقَتِي وَمَا اجْتَبِجَ بِالْإِفْرَارِ فِي حَالَتِي لَطْخُ
وَنَاصِحَ كَتَمْتَنِي إِذْ زَكَّتْ بَيْنَاتِهِ وَقَصْدِي قَصْدِي لَيْسَ سَعْدِي وَلَا الْكَرْخُ
وَأَرْجُو بِتَحْقِيقِي هَوَاكُم بَأَنْ أَفِي يَجُولُ عَلَيْهِ مِنْ دُمُوعِ الْأَسَى نَضْخُ
وَمَا الْحُبُّ إِلَّا مَا اسْتَقَلَّ ثُبُوتُهُ فَعَهْدٌ وَلَا نَقْضُ وَعَقْدٌ وَلَا فَسْخُ
إِذَا مَسَلَّكَ لَمْ يَسْتَقِمْ بِطَرِيقِهِ لِمَبْنَاهِ رِصٌّ فِي الْجَوَانِحِ أَوْ رَسْخُ
بَدَا لَضَمِيرِي مِنْ سَنَاكُم تَلْمِجُ سَلَكْتُ اعْتِدَالًا مِثْلَ مَا يَسْلُكُ الرِّخُ
عَلَى عَوْدِ ذَاكَ اللَّمَحِ مَا زَلَّتْ نَادِيَا فَبِخٍّ لِعَقْلِ لَمْ يَطْرُقْ عَنْدهَا نِجْ
يَدِي بِأَيَادِيكُمْ وَقَلْبِي شَاغِلُ كَمَا تَنْدُبُ الْوَرَقَاءَ فَارَقَهَا الْفَرَخُ
فَمِنْ فَكْرَتِي نَسَجَ وَمِنْ أُنْمَلَى نَسْخُ

وقال :

إِلَيْكَ تَحَنُّ النَّجْبُ وَالنَّجَبَاءُ فَهُمْ وَهَى فِي أَشْوَاقِهِمْ شُرَكَاءُ ^(٣)
تَحَبُّ بِرِكَابٍ تَحَبُّ وَصُولَهَا لِأَرْضٍ بِهَا بَادَسَنِي وَسَنَاءُ

(١) العتيق ، هنا : القديم ، ضد الحديث .

(٢) شرخ الشباب : ميعته وقوته وفتاؤه .

(٣) النجب : أراد بها الإبل ، واحدها نجيب ، والنجباء : أراد الأناشي ذوي النجابة

فأنفاسها ما إن ثنى صعداؤها وأنفسهم من فوقها سعداء
 همُ عالجوا إذ عجل السير داءهم وأشباه مثلى مُدَنفُون بِطَاء^(١)
 فعدت ودوني للحبيب ترحلوا وما قاعد والراحلون سواء
 له وعليه حب قلبي وأدمعي وقد صح لي حب وسَحَّ بكاء
 بطيبة هل أرضى وتبدو سماؤها وإن تلك أرضاً فالحبيب سماء
 شذا نَفَحِهَا واللمح منها كأنه ذكاء عير والضياء ذُكَاء^(٢)
 فيا حاد يا غنى وللركب حاديا عنائي بعد البعد عنك عناء
 بسَاعِ فسل عما أفاसी من الهوى وسَل بقاء إذ يلوح بقاء
 وفي عالج مِئِّي بقلبي لاعج فهل لي علاج عنده وشفاء
 وفي الرقتين أرقم الشوق لادغ ودر يافه أن لو يُبَاح لقاء
 أما كن نمكين وأرض بها الرضا وأرجاء فيها للمشوق رجاء

وقال :

أدبُ الفتى في أن يرى متيقظاً لأوامر من ربه ونواه
 فإذا تَمَسَّكَ بالهوى يهوى به والجليل منه لمن تيقن واه^(٣)

وقال :

يا من بدنياء ظل في لجج حقق بأن النجاة في الشاطي
 تطمع في إرثك الفلاح وقد أضعت ما قبله من أشرط
 كن حذراً في الذي طمعت به من حجب نقص وحجب إسقاط

وقال :

ترى شعروا أني غبطت نسيمة ذكَّتْ بتلاقى الروض غبَّ الغمام

(١) مدنفون : مرضى ، واحد مدنف .

(٢) ذكاء عير — بفتح الدال — انتشار الرائحة الطيبة ، وذكاء — بضم

الدال — الشمس . (٣) واه : ضعيف ، وهى يهى وهيا : ضعف .

كما قابلت زهر الرياض وقبلت تغور أقاحيه بلا لوم لأثم
وقال :

وَرَدَ المَشِيبُ مُبَيَّضًا بوروده ما كان من شعر الشيبية حالكا^(١)
ياليتـه لو كان بَيَّضَ بالتقى ماسودته مآثم من حالكا^(٢)
إن المشيب غدار داء للردى فإذا علاك أجَدَّ في ترحالكا^(٣)

وقال :

لوعة الحب في فؤادي تعاصت أن تُدَاوِي ولو أُنَى ألف راق
كيف يَبْرَأ من علة وعليها زائد علة النوى والفراق
فانسكابُ الدموع جارِ فجار والتهاب الضلوع راق فراق
ومن غرائب الاتفاق أنه قال : كنت جالسا بين يدي الخطيب أبي القاسم
التاكروني صبيحة يوم بمسجد مالقة ، فقال لي أثناء حديثه : رأيت البارحة
في عالم النوم كأن أبا عبد الله الجلياني يأتيني ببيتى شعر في يده ، وهما :

كلُّ علم يكون للمرء شُغْلًا بسوى الحق قاذخ في رشاده
فإذا كان فيه لله حظ فهو مـمـا يعدّه لمعاده

قال : فلم ينفصل المجلس حتى دخل علينا الفقيه الأديب أبو عبد الله الجلياني ،
والبيتان معه ، فعرضهما على الشيخ ، فأخبره أنه صنعهما البارحة ، فقال له كل من
في المجلس : أخبرنا بهما الشيخ قبل مجيئك ، فكان هذا من العجائب .

ولأبي الحجاج المذكور تأليف ، منها كتاب « ملاذ المستمعين » ، في بعض خصائص
سيد المرسلين « أربعمائة حديثا ، وكتاب « تخصيص القرب ، وتحصيل الأرب »
و « قبول الرأي الرشيد ، في تخميس الوترية النبوية لابن رشيد » و « انتشاق

(١) الحالك هنا : الشديد السواد .

(٢) « حالكا » هنا هو « حال » مضاف إلى كاف المخاطب .

(٣) الترحال : أحد مصادر « رحل يرحل » وأراد به هنا الانتقال إلى العالم الآخر بالموت .

النسمات النجدية ، وأنساق النزعات الجدية « و » غرر الأمانى المسفرات ، فى نظم المكفرات « و » النفحات الرندية ، والممحات الزندية « مجموع شعره ، و » حقائق بركات المنام ، فى مرأى المصطفى خير الأنام « و » الاستشفاء بالعدة ، والاستشفاع بالعمدة ، فى تخميس البردة « و » توجع الرأى ، فى تنوع المرائى « و » اعتلاق السائل ، بأفضل الوسائل « و » ملح البهيج ، ونفح الأريج « فى ترجيز كلام الشيخ أبى مدين من عبارات حكمية وإشارات صوفية ، وكتاب « تجريد رؤس مسائل البيان والتحصيل ، لتيسير البلوغ لمطالعنها والتوصليل « وفهرسة روايته ، ورجز ذكر مشايخ أبى عمر الطنجى ، وكتاب « أرج الأرجاء ^(١) ، فى مزج الخوف والرجاء » أربعون حديثاً فى الرجاء والخوف .

وكان رحمه الله تعالى حيا حين ألف لسان الدين « الإحاطة » رحم الله تعالى الجميع ! ورأيت على ظهر أول ورقة من « الريحانة » بخط الإمام الكبير الشهير الشيخ إبراهيم الباعونى الدمشقى رحمه الله تعالى ما نصه : قال كاتبه إبراهيم بن أحمد الباعونى — غفر الله ذنوبه ، وستر عيوبه ، وبلغه من فضله مطلوبه ! — صاحب كتاب الريحانة ، آية من آيات الله سبحانه ، لوجه أدبه طلاقه ، وللسان ذلاقه ، وللقلوب به علاقه ، وفى خطه غلافه ، يعرفها من عرف اصطلاحه بمطالعته ، وينفتح له باب فهمها بتكرير مراجعته ، فليتأمل الناظر إليه ، والمقبل عليه ، ما فيه من الجواهر ، والنجوم الزواهر ، بل الآيات البواهر ، وليسبح الله تعالى تعجبا من قدرته جل وعلا ، ومواهبه التى عذب ماؤها النَمِيرُ وَحَلَا ، وليقل عند تأمل دره النظم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ا هـ .

وقوله رحمه الله تعالى « وفى خطه غلافه » ليس المراد به إلا صعوبة الخط

(١) الأرج — بفتح الهمزة والراء — طيب الرائحة ، والأرجاء : جمع رجا — مثل عصا — وهو الناحية .

المغربى على أهل المشرق حسبما يعلم مما بعده ، وإلا فإن خط لسان الدين رحمه الله تعالى محمود عند المغاربة ، ولنقتصر من هذا الغرض على ما ذكر ، فإن تتبعه يطول ؛ إذ هو بحر لا ساحل له .

وكان لسان الدين رحمه الله تعالى مؤثرا لقضاء حاجة مَنْ أمّله ، وقصد بابه وأمله ، ثناء ابن عاصم
سواء كان من أودائه ، أو من أعدائه ، وقد ذكر الوزير الرئيس الكاتب أبو يحيى
ابن عاصم رحمه الله تعالى عنه فى ذلك حكاية فى أثناء كلام رأيت أن أذكر جملة
لما اشتمل عليه من الفائدة ، وهو أنه ذكر فى ترجمة شمس العصر من ملوك بنى
نصر من كتابه المسمى « بالروض الأريض » فى اسم السلطان الذى كان
ابن الخطيب وزيره ، وهو الفنى بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر
الخرجى ، بعد كلام ما صورته : كان قد جرى عليه التخصيص الذى أزعجه عن
وطنه إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بنى مرّين ، فأفادته الحنكة والتجربة هذه
السيرة التى وقف شيوخنا على حقيقتها ، وانتهجوا واضح طريقتها ، وبلغتنا منقولة
بالسنة صدقهم ، معبرا عنها فى عرف التخاطب بالعادة ، فلم يكن الوزير الكيس
والرئيس الجليذ يجران من الاستقامة على قانون ، ولا يطردان من الصواب على
أسلوب ، إلا بالحفاظة على مارسم من القواعد ، والمطابقة لما ثبت من العوائد ، وكان
ذوو النبل من هذه الطبقة وأولو الخلق من أرباب هذه المهن السياسية يتعجبون
من صحة اختياره لما رَسَم ، وجودة تمييزه لما قصد ، ويروّون المفسدة فى الخروج عنها
ضَرْبَةَ لازِبٍ^(١) ، وأن الاستمرار على مراسمها أكد واجب ، فيتحرّونها^(٢) بالالتزام
كما تتحرى السنن ، ويتوخونها بالإقامة كانتوخى الفرائض ، وسواء تبادر لهم^(٣) معناها
فقهوموه ، أو خفى عليهم وجّه رسمها فجھلوه ، حدثنى شيخنا القاضى أبو العباس أحمد

(١) ضربة لازب : أى أمرا لا مفر منه ولا معدى عنه

(٢) تحرى الأمر يتحرأ : قصده وتعمده ، وكذلك توخأ

(٣) تبادر لهم : أصله بمعنى سبق إلى فهمهم وإدراكهم ، ولكن المراد به ههنا

ظهر لهم ، لمقابلته بقوله بعد « أو خفى عليهم »

ابن أبي القاسم الحسنى أن الرئيس أبا عبد الله بن زمرّك دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب يستأذنه فى جملة مسائل مما يتوقف عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد الله بن زمرّك ، قال الشريف : فأمضاها كلها له ، ماعدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة ، فقل له ذو الوزارتين بن الخطيب : لا ، والله يا رئيس أبا عبد الله لا آذن فى هذا ، لأننا ما استقمنا فى هذه الدار إلا بحفظ العوائد .

ثم قال صاحب الروض : فلما تأذن الله تعالى للدولة بالاضطراب ، واستحكم الوهن بتمكن الأسباب ، عدل عن تلك القواعد الراسخة ، واستخف بتلك القوانين الثابتة ، فنشأ من المفاسد ما أعوز رفعه ، وتعدّد وتره وشفعه ^(١) ، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه ، وتعذر فيه الدواء الذى يُرجى نفعه ، وكان قد صحبه من الجلد ما سنى آماله ^(٢) ، وأبجح بإذن الله تعالى أقواله وأفعاله ، فكان يجرى الأمر على رسم من السياسة واضح ، ونظر من الآراء السديدة راجح ، ثم يحفه من الجلد سياج لا يفارقه إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله ، وتمكن مقتضى الإرادة السلطانية من فروعه وأصوله ، انتهى كلام ابن عاصم .

وإذ جرى ذكره فلا بأس أن نلمع بشيء من أحواله ، لأن أهل الأندلس كانوا يسمونه ابن الخطيب الثانى ، فنقول :

ترجمة

الوزير أبى يحيى هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الجامع محمد بن عاصم الكامل الشاعر الملقب النائر الحجة ، خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق ، ومالك خدم البراعة بالاسترقاق ، أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم ، القيسى ، الأندلسى ، القرناطى ، قاضى الجماعة بها ، كان - رحمه الله تعالى ! -

(١) الوتر : الفرد من الأعداد ، والشفع : الزوج

(٢) سنى آماله : يسرها وجعل قضاءها سهلا

من أكابر فقهاءها وعلمائها ورؤسائها، أخذ عن الإمام المحقق أبي الحسن بن سمعت والإمام القاضي أبي القاسم بن سراج ، والشيخ الراوية أبي عبد الله المنشوري ، والإمام أبي عبد الله البياني ، وغيرهم ، ومن تأليفه شرح تحفة والده ، وذكر فيه أنه ولي القضاء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ، ومنها كتاب «جنة الرضا» في التسليم لما قدر الله تعالى وقضى « وكتاب «الروض الأريض» ، في تراجم ذوى السيوف والأقلام والقريظ» كأنه ذيل به إحاطة لسان الدين بن الخطيب ، وله غير ذلك ، وقد أطلت الكلام في ترجمته من كتابي «أزهار الرياض» ، في أخبار عياض ، وما يناسبها مما يحصل للنفس به ارتياح وللعقل ارتياض .

ووصفه ابن فرج السبتي بأنه الأستاذ العلم الصدر المفتي القاضي رئيس الكتاب ، ومعدن الساحة ، ومنبع الآداب ، انتهى .

وقد تقدم بعض كلامه فيما مرّ ، ومن بديع نثره الذي يسلك به نهج ابن الخطيب رحمه الله تعالى قوله من كلام جللت جلته في «أزهار الرياض» ، واقتصرت هنا على قوله بعد الحمدلة الطويلة ما صورته : أما بعد فإن الله على كل شيء قدير ، وإنه بعباده خبير بصير ، وهو لمن أهل نيته ، وأخلص طويته ، نعم المولى ونعم النصير ، بيده الرفع والخفض ، والبسط والقبض ، والرشد والغي ، والنشر والطمى ، والمنح والمنع ، والضر والنفع ، والبطء والعجل ، والرزق والأجل ، والمسرّة والمساءة ، والإحسان والإساءة ، والإدراك والقوّة ، والحياة والموت ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، وهو الفاعل على الحقيقة وتعالى الله عما يقول الأفكون^(١) ، وهو الكفيل^(٢) بأن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ، وإن في أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعبرة

(١) الأفكون : جمع آفك ، وهو الكاذب

(٢) الكفيل : الضامن ، ويظهر دينه : يقويه ويعليه

لمن يفهم قوله تعالى (إن الله يفعل ما يشاء وإن الله يحكم ما يريد) بينا الدسوت^(١) عامرة ، والولادة آمرة ، والفئة مجموعة ، والدعوة مسموعة ، والإمرة مطاعة ، والأجوبة سمعا وطاعة ، وإذا بالنعمة قد كُفِرَتْ^(٢) ، والذمة قد خفرت ، إلى أن قال : والسعيد من انعط بغيره ، ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا جعلنا الله تعالى ممن قضى عمره بخيره ، وبينما القرقة حاصلة ، والقطيعة فاصلة ، والمضرة واصلة ، والحبل في انبتات^(٣) والوطن في شتات ، والخلاف يمنع رعى متات^(٤) ، والقلوب شتى^(٥) من قوم أشتات ، والطاغية يتمطى لقصم الوطن وقضمه ، ويلحظه لحظ الخائف على هضمه ، والأخذ بكظمه ، ويتوقع الحسرة أن يأذن الله بجمع شمله ونظمه ، على رغم الشيطان وزرعه ، وإذا بالقلوب قد اثقلت ، والمتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت ، والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله تعالى وازدلفت ، والمتضرعة إلى الله تعالى قد ابتهلت ، في إصلاح الحالة التي سَلَفَتْ ، فألقت الحرب أوزارها ، وأدنت القرقة النافرة مزارها ، وجلت الألفة الدينية أنوارها ، وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ، ورفعت الوحشة الناشبة أظفارها أعدارها ، وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها ، وغضت الفئة المتعرضة أبصارها ، وأصلح الله تعالى أسرارها ، فجمعت الأوطان بالطاعة ، والتزمت نصيحة الدين بأقصى الاستطاعة ، وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعة ، وألقت إلى الإمامة الفلانية يد التسليم والضراعة ، فتقبلت فيآتهم ، وأحمدت جَيَّآتهم ، وأسعدت آمالهم ، وارتضيت أعمالهم ، وكلت مطالبهم ، وتممت مآربهم ، وقضيت حاجاتهم ، واستمعت مناجاتهم ، وألسنتهم بالدعاء قد انطلقت ، ووجهتهم في الخلوص قد صدقت ، وقلوبهم على جمع الكلمة قد انفتحت ، وأكفهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتقلت ، وكانت الإدالة في الوقت على عدو الدين قد ظهرت

(١) الدسوت : جمع دس ، وهو صدر المجلس

(٢) كفرت : جحدت وغمطت

(٣) انبتات : انقطاع وانجذاب

(٤) متات : مصدر « مت إليه » أي توسل

(٥) شتى : متفرقة

وبرقت ، إلى أن قال : وكفت القدرة القاهرة ، والعزة الباهرة ، من عدوان الطاغية غوائل ، بإعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فوائح وأوائل ، ومعلوم بالضرورة أن الله تعالى لطيف بعباده حسبا شهد بذلك برهان الوجود ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها دليل على ما سوغ من الكرم والجود ، انتهى المقصود منه ، وهو كلام بايع ، ومن أراد جملة فعلية بأزهار الرياض .

ومن نظم ابن عاصم المذكور قوله مخاطبا شيخه قاضي الجماعة أبا القاسم ابن سراج ، وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة ، فظن أنه يستخبره عن سر من أسرار السلطان ، فأعده معذرا ، ولم يصدق الظن :

فديتك لا تسأل عن السر كاتباً فتلقاه في حال من الرشد عاطل
وتضطره إما لحالة خائن أمانته أو خائض في الأباطل
فلا فرق عندي بين قاض وكاتب وشي ذا بسرٍ أو قضي ذا بباطل

ومن بديع ما نظم في مدح الرئيس أبي يحيى بن عاصم المذكور قول العلامة ابن الأزرق رحمه الله تعالى :

خضعت لمعطفه الفصوص الميسر ورنا فهام بمقلتيه الترجس
ذو مبسم زهر الربا في كسبه متنافس عن طيبه متنفس
ومورّد من ورده أو ناره يقنم القلب العميد ويبأس
فالورد فيه من دموى يرتوى والنار فيه من ضلوعى تقبّس
كملت محاسنه فقد ناضر ولواحظ نجّل وثغر العس (١)
صعب التعطف بالغرام حبيته فالحب يحبي والتعطف يحبس
غرس التشوّق ثم أغرى الوجد بي فالوجد يغري والتشوق يغرس

(١) القد : القامة ، والواحظ : العيون ، والنجل : الواسعة ، والألس : الوصف من اللبس وهو سمرة في الشفة .

ما كنت أشقى لو حلت بجنة من وصله تحيا لديها الأنفـ^س
 الحـاظـه ورُضـابـه وعِذاره حـوربـها أو كـوثر أو سـنـدس
 وليال أنس قد أمنت بهن من واشٍ ينم ومن رقيب يحرس
 أطلعت شمس الراح فيها فاهتدى عاشٍ إلينا في الدجى ومُغـلـسُ
 صفراء كالعقيان في الألوان للندمان كالشهبان منها كؤـسُ
 صُبَّتْ شقيقا فاستحالت نرجسا في مزجها فورد ومورسُ
 وحبابها يغنى بأسنى جوهر أنفى لغم المـعـدـمين وأنفسُ^(١)
 يحلى بها للغم منها حـنـدِسـا قـر عليه من الذؤابة حـنـدسُ
 حتى إذا عمشت مرأة البدر من صبح بدا تلقاه إذ ينفـسُ
 ناديته وسَنَى الصباح محصـصـ ينـجـاب عنه من الظلام معـسـسُ
 يا مطلع الأنوار زهراً يـجـتـنى ومـشـعـع الصبـاء نارا تـلمـسُ
 بك مجلس الأنس اطمأن وبابن عا صم اطمأن من الرياسة مجلسُ
 بدر بأوار الهدى متطلع غيث بأشتات الندى متـجـسُّ
 حامى فلم ترتع لخطب يعترى ووفى فلم نخل بدهر يـمـخـسُ
 شيم مهذبة وعلم راسخ ومكارم هُتُن ومجد أقـمـسُ
 لو كان شخصا ذكره لبدا على أعطافه من كل حد مـلـبـسُ
 ذاكم أبو يحيى به تحمى العلا وبه خلال الفخر طـرـا تـحـرسُ
 بيت على عمد الفخار مُطـنـب مجد على متن السماك مؤسسُ
 حَيِّمٌ وعرس في حماه فكم حوى فيه المراد نخيم ومعرسُ
 إنا لنغمدو هيمًا فينيلنا ريا ويوحشنا النوى فيؤنسُ

(١) الحندس : الظلام الشديد ، و « قر » فاعل يحلى ، والذؤابة : الشعر ،
 وشبهه بالظلام الشديد في السواد وستره ما يقع عليه .

حتى أقننا والأمانى منهضا ت وابتسمنا والزمان مُعْبَس
لم ندر قبل يراعه وبنانه أن الذوايل بالغائم تبجس
هن اليراع بها يؤمن خائف ويحاط مذعور وَيَغْنَى مُفْلَس
مهما انبرت فهي السهام بُرَى لها وقع لأغراض البيان مُقَرَّطس
يشقى بئامه الشكى المعترى يحى بئامه الحمام المؤيس
فنقص حين تشق منها ألسن وتسير حين تقط منها أروس
من كل وشاء بأسرار النهى دَرِبَ بإظهار السرائر يهيجس
قد جمع الأضداد في حركاته فلذا اطراد فخاره لا يعكس
عطشان ذورى ، يبيس مثمر ، غضبان ذو صفح ، فصيح أخرس
لله من تلك اليراع جواذب للسحر منك كأنها المغنيطس
رُضْنَا شِمَاسَ القول فى أوصافها فهى التى راضت لنا ما يشمس
وإليكها حللا تشابه نسجها مثلى يفصاها ومثلك يلبس
واهنأ بعيدي باسم مهلل واذك يجهر بالسرور ويهمس
واحبس لواء الفخر موقوفا فإن الحمد موقوف عليك محبس
قلت : وعندى الآن شك فى صاحب هذه القصيدة ، هل هو قاضى الجماعة بغرناطة
محمد بن الأزرق أو ابن الأزرق الثانى القائل فيما يكتب على السيف ؟ :
إن عمت الأفق من نفع الوغى سُحِبَ فَشِمَ بها بارقا من لمع إيماضى ^(١)
وإن نوت حركات النصر أرض عدا فليس للفتح إلا فعلى الماضى
والله سبحانه أعلم .

(١) النقع : الغبار ، والوغى : الحرب ، وشم : انظر ، والإيماض : مصدر
« أومض يومض » إذا لمع وبرق وأضاء .

ومن إنشاء الرئيس ابن عاصم المذكور ما كتب به يخاطب الكاتب أبا القاسم ابن طر كاط ، وهو : القضاء - حفظ الله تعالى كمالك ، وأنجح آمالك ! - إذا لم يحطه العدل من كلا جانبيه سبيل معوج ، ومذهب لا يوافق عليه مناظر ولا ينصره محتج ، كما أنه إذا حاطه العدل جادة^(١) للنجاة ، وسبب في حصول رحمة الله تعالى المرتجاء ، وسوق النفاق بضاعة العبد المُرَجَّاة ، وأجل العدل ما تحلى به في نفسه الحكم ، وجرى على مقتضى ما شهدت به الآراء المشهورة والحكم ، حتى يكون عن البغي رادعا ، وبالقسط صادعا ، ولأنف الأنفة من الإذعان للحق جادعا^(٢) ، وأنت أجلك الله تعالى على سعة أطلاعك ، وشدة ساعد قيامك بالطريقة واضطلاعك ، بمن لا يُدَبِّه على ما ينبغي ، ولا يرد على طلبته من الإنصاف المبني ، فلك في الطريقة القاضوية التبريز ، وأنت إذا كان غيرك الشبه^(٣) الذهب الإبريز ، ولعلمية عدلك التوشية بالنزاهة والتطريز ، وليتني كنت لمظهرك الحكمى حاضرا ، ولإعلام القضية بآرائك المرتضاة محاضرا ، والوازع قد تمرس بالخصوم ، وجعل المتصدى للإذن في محل الخصوم ، وأنت حفظك الله تعالى قد قمت من غلظ الحجاب بالمقام المعصوم ، ومثلت من سعة المنزل في الفضل والطول كالشهر المعصوم ، والباب قد سد ، وداعى الشفاعة قد رد ، والميقات للإذن قد حد ، ومطلب الأجرة المتعارفة قد بلغ الأشد ، حتى إذا قضى الواجب ، وأذن في دخول الخصمين الحاجب ، وأولج السابقين إلى الحد الذى لا يَعدُّونه ، وحفز إيمانهم من تعداه أو وقف دونه ، وقد حصل باللحظ واللفظ التساوى ، وأنتج المطالب الأربعة هذا اللازم المُساوى ، ومجلسك قد رجح وقاره برضوى ، ومجتلاك قد فضح نوره البدر الأضوا ، وقد امتزت عن سواك من القضية بمراسم لا تليق بجملتهم معارفها ،

(١) الجادة : الطريق الواضحة التى يسهل السير فيها

(٢) جادعا : قاطعا ، وهو خاص بالاستعمال في قطع الأنف

(٣) الشبه - بالتحريك - النحاس الأصفر

وتخصّصت عنهم بملابس تعج عجيجا من جذامهم مَطَارِفُهَا ، بحيث تحدّ نخلع
 النعلين حدا لا يتجاوز طَوَاهُ ، وتسد في بعض الأوقات الباب سدا لا ترفع بالحاجر
 كَوَاهُ ، وتفصل بين الخصمين أحيانا بالنية دون الكلام ونسكل امرئ ما نَوَاهُ ،
 وهذه أعانك الله تعالى مكملات من العدل في الحكم وقف عياض دون تحقيق
 مَنَاطِهَا ، وأعيت ابن رُشْدٍ فلم يهتد بيانه ولا تحصيله لاستنباطها ، فما بال النازحة
 عنك حسا ومَعْنَى ، النازلة من تقاضى دَيْنُكَ بمنزلة المطول المعنى ^(١) ، المعتقلة من
 ملكة رَقٍّ بحيث أفصاها لآعج الشوق ، المعذبة من الصباية فيك بما شبَّ عمره
 عن الطَّوق ^(٢) ، تنفس العصداء مما شاهده منك من مبتدعات الجَوَر ، وتردد البكاء
 على ضياع ما استعار الحسن لصفاتها من النجد والغور ، وتقضى العجب مما تسمع
 من عدلك الذي لم تجلّ لحظة من نوره ، ومن حلمك الذي أشقاها فلم تحضر لدكة
 طَوْرِهِ ، وتستصوب أنظار النحاة في منع التهيئة والقطع في العامل ، وتستجلب
 اصطلاح العروضيين في المديد والبسيط دون الطويل والكامل ، فهلا راجعت
 فيها النظر ، وأنجزت لها الوعد المنتظر ، وكففت من عيونها دموعا مستهلة ،
 واجتليت من جبينها الوضاح ما أخجل بدورا مشرقة وأهلة ، ولم تحوجها إلى أن
 ينطق قرينها الروحاني بالشعر على لسانها ولسانك ، ولم تضطرها في هذه المعاملة
 إلى ما لا ترتضيه من كفر إحسانك ، والعذر أظهر ، والبرهان أبهر ، وخلافك في
 العالم أشهر ، وأنت إن لم يكن ما يعصم الله تعالى منه لمقتضى الطبيعة أقهر ، وقد
 أدرجت لك في طي هذا ما يصل إلى يدك ، وتلبيح به في يومك وغدك ، منتظرة
 منك إطفاء الجوى بالجواب ، وبحو ما سبق من الخطأ بالخطاب ، إن شاء الله تعالى ،
 والله تعالى يصل سعادته ، ويحفظ مجادته ، ومعاد السلام من الشاكر الذاكر

(١) يشبر إلى قول كثير عزة :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة مطول معنى غريمه

(٢) أخذه من مثل يقوله جذيمة الأبرش في عمرو ابن أخته رقاش «شب عمرو

عن الطوق»

ابن عاصم وقفه الله تعالى في أوائل ذي الحجة عام خمسة وأربعين وثمانمائة ، انتهى ، وهو مما لم أذكره في أزهار الرياض .

ولنذكر هنا الظهير الذي جلبته فيها بتقديم المذكور للنظر في أمور الفقهاء وغيرهم ، ونصه : هذا ظهير كريم إليه انتهت الظواهر شرفا عليا ، وبه تقررت الآثار برهانا جليا ، ورافت الفاخر قلائدا وحليا ، وتميزت الأكابر الذين افتخرت بهم الأقاليم والحابر ، اختصاصاً مولويا . فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعددت ، وتواتت المنشورات وتجددت ، أكرم مرسوم تم في الاعتقاد نظراً خطيرا ، وأحكم في التفويض أمراً كبيرا ، وأبرم في الاختصاص عزما أيما . اعتمد بمسطوره العزيز ، واختص بمنشوره الذي تلقاه اليُمن بالتعزيز ، من لم يزل بالتعظيم حقيقاً^(١) ، وبالإكبار خليقا ، وبالإجلال حريّا . فهو شهير لم يزل في الشهرة سابقا ، هاد لم يزل بالهدى ناطقا ، بليغ لم يزل بالبلاغة دريّا . عظيم لم يزل في النفوس معظما ، علم لم يزل في الأعلام مقدما ، كريم لم يزل في الكرام سنيا^(٢) . اشتملت منه محافل الملك على العقد الثمين ، وحلّت به المشورة في الكنف الحوط والحرم الأمين ، فكان في مشكاة الأمور هاديا ، وفي ميدان المرشد جريّا^(٣) . فإلى مقاماته تبلغ مقامات الإخلاص ، وإلى مرتبته تنتهي مراتب الاختصاص ، فيمن حاز خصلا ، وزين خفلا ، وشرف نديّا^(٤) . واستكمل هما ، واستعمل قلما ، واستخدم مشرفيا . فله ما أعلى قدر هذا الشرف ، الجامع بين المتلد والمطرف ، السابق في الفضل أمداً قصيّا . الحال من الاصطفاء مظهراً ، الفارع من العلاء منبرا ، الصاعد من العز كرسيا . حاز الفضل إرثا وتعصيا ، واستوفى الكمال حقاً ونصيبا ، ثناء أرجه كالروض لو لم يكن الروض ذابلا وهديا . نوره كالبدر لو لم يكن البدر آفلا ، ومجد

ظهير بتعيين
ابن عاصم
القضاء

(١) الحقيق ، والخليق ، والخرى : كلها ألفاظ بمعنى واحد ، وهو المستحق لما يذكر الجدير به (٢) سنيا : رفيع القدر (٣) جريا : أي جريشا ، وصف من الجراءة (٤) الندي ، والنادي : مجتمع الناس للندوة والمشورة

علوه كاشها لوم يكن السها خفيا . فما أشرف الملك الذي اصطفاه ، وكل له حق التقريب ووفاء ، وأحله قراره التمكن ، ومن باخنتصاه بالمسكان المسكين ، فسبق في ميدان التفويض وسمًا ، ورأى من الأنظار الحميدة مارأى ، صادعا بالحق إماماعلمًا ، موضعًا من الدين نهجًا أممًا^(١) ، هاديا من الواجب صراطا سويًا . بانيا للمجد صرحًا مشيدا ، مشهرا للعدل قولًا مؤيدا ، مبرما للخير سببا قويا . فالله تعالى يصل لمقام هذا الملك الذي طلع في سمائه بدرادونه البدور ، وصدرًا تلوه به الصدور ، سعدا لا تمطله الأيام في تقاضيه ، ونصرًا يمضي به نصل الجهاد فلا يزال ماضيه ، على الفتح مبنيًا . ويوالى له عزا يذود^(٢) عن حرم الدين ويمنحه تأييدا يصبح في أعناق الكفر حديث سيفه قطميا . أمر به مرسوما عزيزا لا تبلغ المرسومات إلى مداه ، ولا يبدى بآثار الاختصاص مثل ما أبداه ، عبد الله أمير المسمين محمد الغالب بالله أيد الله تعالى مقامه ، ونصر أعلامه ، وشكر إناعمه ، وبشر مرماه ، لإمام الأئمة وعلم الأعلام ، وعماد ذوى العقول والأحلام ، وبركة حملة السيوف والأفلام ، وقودة رجال الدين وعلماء الإسلام ، الشيخ الفقيه أبى يحيى ابن كبير العلماء ، شهير العظماء ، حجة الأكابر والأعيان ، مصباح البلاغة والبيان ، قاضى القضاة وإمامهم ، أوحدا للجلّة وطود شمامهم ، الشيخ الفقيه أبى بكر بن عاصم بقاء الله تعالى ، ومناطق^(٣) الشكر له فصيحة اللسان ، ومواهب الملك به معهودة الإحسان ، وقلائد الأيادى منه متقلدة بجيد كل إنسان ، قد تقرر والمفاخر لا تنسب إلا لبينها ، والفضائل لا تعتبر إلا بمن يشيد أركانها وبينها ، والكمال لا يصفى شره ، إلا لمن يؤمن سره ، أن هذا العلم الكبير ، الذى لا ينفى بوصفه التعبير ، علم بآثاره يقتدى ، وبأنظاره يهتدى ، وبإشارته يستشهد ، وبإدارته يسترشد ، إذ لا أمد علو إلا وقد

(١) النهج: الطريق ، والأمم : القريب (٢) يذود : يدفع

(٣) مناطق : جمع منطق ، وهو هنا موضع النطق ، وهو الفم

تخطاه ، ولا مركب فضل إلا وقد تمطاه ، ولا شارقة هدى إلا وقد جلاها ، ولا لبة
فخر إلا وقد حلاها ، ولا نعمة إلا وقد أسداها ، ولا سومة إلا وقد أبداها ، لما له
في دار الملك من الخصوصية العظمى ، والمساكنة التي تسوغ النعمى ، والرتب التي
تسمو العيون إلى مُرتقآها ، وتستقبلها النفوس بالمعظيم وتتلقاها ، حيث سر الملك
مكتوم ، وقرطاسه محتوم ، وأمره محتوم ، والأفلام قد روضت الطروس وهى ذاوية ،
وقسمت الأرزاق وهى طاوية ، شقت ألسنتها فنطقت ، وقطت أرجلها فسيقت ،
وبيست فأثمرت إنعاما ، ونكست فأظهرت قواما ، وخطت فأعطت ، وكتبت
فوهبت ، ومشتتت ففرقت ، وأبرمت فأنعمت ، فكلم يسرت الجبر ، وعقرت المزبر ،
وشنفت السامع ، وكيفت المطامع ، وأقلت فيما ارتفع من المواضع ، وأحلت لما
امتنع من المراضع ، فهى تنجز النعم ، وتحجز النقم ، وتبث المذاهب ، وتحث المواهب ،
وتروض المراد ، وتنهض المراد ، وتحرس الأكناف ، وتغرس الأشراف ، مصيخة
لنداء هذا العباد الأعلى ، طامحة لمساكنه الذى سما واستعلى ، فيما يملئ عليها من
البيان الذى يقرله بالفضل ، الملك الضليل^(١) ، ويشهد له بالإحسان ، لسان حسان ،
ويحكم له بهرى القوس ، حبيب بن أوس ، ويهيم بما من الأساليب عنده ، شاعر
كئنه^(٢) ، ويستمطر سحبه الثرة ، فصيح المعرة^(٣) ، إلى منشور تزيل الفقر فقره ،
وتدر الزرق درره ، لو أنهس إلى قس إياك لشكر فى الصنيعة أياديه ، واستمطر سحبه
وغواديه ، أو بلغ إلى سحبان لسحره ، وما فارقه عشيته ولا سحره ، ولورآه الصابى
لأبدى إليه من صبوته ما أبدى ، أو سمعه ابن عباد لكان له عبدا ، أو بلغ بديع
الزمان لهجر بدآئعه ، واستنزر بضائعه ، أو أتحف به البستى لاتخذ به ستانا ،
أو عرّض على عبد الحميد لأحمد من صوبه هتانا ، فأعظم به من عال لا ترقى ثنيتيه ،

(١) الملك الضليل : هو امرؤ القيس بن حجر السكندى

(٢) شاعر كئنه : هو أبو الطيب المتننى

(٣) فصيح المعرة : هو أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرى

ولا تحاز مزيته ، ولا يُرْجَمُ أفعه ، ولا يكتم حقه ، ولا ينام له عن اكتساب الحمد ناظر ، ولا ينقاس به في الفضل مناظر ، وهل تقاس الأجادل بالبعث^(١) ، أو الخفاف بالأسفا ، ألا وإن بيته هو البيت الذي طلع في أفعه كل كوكب وقاد ، ممن وشج به للعلوم اتقاء وانتقاد ، وترامى به المدارك ذكاء وانتقاد ، فأعظم بهم أعلاما وصدورا ، وأهله وبدورا ، خلدت ذكرهم الدواوين المسطرة ، وسرت في محادهم الأنفاس المعطرة ، إلى أن نشأ في سمائهم هذا الأوحـد ، الذي شهرة فضله لا تجحد ، فكان قمرهم الأزهر ، ونيرهم الأظهر ، ووسيلة عقدهم الأنفس ، ونتيجة مجدهم الأفس ، فأبعد في المذق آماده ، ورفع الفخر وأقام عماده ، وبني على تلك الأساس المشيدة ، وجرى لإدراك تلك الغايات البعيدة ، فسبق وحلّى ، وشنف بذكره المسامع وحلّى ، ورفع المشكل ببيانه ، وحرر الملتبس ببرهانه ، إلى أن أحله قضاء الجماعة ذروة أفعه الأصعد ، وبوّه عز يز ذلك المقعد ، فشرف الخطّة ، وأخذ على الأيدي المشتطة ، لا يراقب إلا ربه ، ولا يضمّر إلا العدل وحبّه ، والمجلس السلطاني أسماء الله تعالى يختصه بنفسه ، ويفرغ عليه من حلل الاصطفاء ولبسه ، ويستمطر فوائده ، ويجرب بأنظاره حقوق الملك وعوائده ، فكان بين يديه حكما مقسّطا ، ومقسما لحظوظ الإنعام مقسّطا ، إلى أن خصّه بالكتابة المولوية ، ورأى له ذلك حق الأولوية ، إذ كان والده المقدس نعم الله تعالى ثراه ومنحه السعادة في أخراه ، مشرف ذلك الديوان ، ومعلى ذلك الإيوان ، يحبر رفاع الملك فتروق ، وتلوح كالشمس عند الشروق ، فحلّ ابنه هذا الكبير شرفا ، الشهير سافا ، مرتبته التي سمت ، وافترت به عن السعد وابتمت ، فسحبت به للشرف مطارف ، وأحرزت به من الفخر التالد والطارف ، فهو اليوم في وجهها غرّه ،

(١) الأجادل : جمع أجدل ، وهو الصقر ، وهو من كواسر الطير ، والبعث -- مثلث الباء -- طير ضعيف .

وفي عينها قُرَّة ، والله هو في ملاحظة الحقائق ورعيها ، وسمع الحجج ووعياها ، فلقد فضل بذلك أهل الاختصاص ، وسبقهم في تبين ما يشكل منها وما يعتاص ، إذ المشكلة معه جليلة الأغراض ، والآراء لديه آمنة من مأخذ الاعتراض ، فسكن رتبة عمرها بذويها ، فأكسبها تشريفا وتنويها^(١) ، وعلى ذلك فأعلام قضاة الوطن ، ومن عبر منهم وقطن^(٢) ، مع أقدارهم السامية ، ومعاليمهم التي هي للزهر مسامية ، إنما رقتهم وساطتهم التي أحسنت ، وزينت بهم المجالس وحسنت ، فبه أمضوا أحكامهم ، وأعملوا في الأباطيل احتكامهم ، وكتبوا الرسوم ، وكتبوا الخصوص ، وحلوا دسّ القضاء ، وسلواسيف المضاء ، وفي زمانه تخرجوا ، وفي بستانه تأرجوا ، ومن خلقه اكتسبوا ، وإلى طرقه انتسبوا ، وعلى موارد حاموا ، وحول فوائده قاموا ، وبتعريفه عرفوا ، وبتشريفه شرفوا ، وبصفاته كلفوا ، وبعرفاته وقفوا ، فأمِنُوا مع انسكاب سحب إفادته من الجذب ، وقاموا بذلك الفرض بسبب ذلك الندب ، وهل العلماء وإن عمت فوائدهم ، وانتظمت بحياد الأذهان فرائدهم ، إلا من أنواره مستمدون ، وإلى الاستفادة من أنظاره متمدون ، وببركاته معتدون ، وبأسبابه مشتدون ، فيه اجتنيبت من أفنان المنابر ثمراتهم ، وتأرجت في روضات المعارف زهراتهم ، وبه عمروا الخلق ، واثلق من أنوارهم ما اثلق ، إذ كل من اصطناعه محسوب ، وإلى بركته منسوب ، فهو بدرهم الأهدى ، وغنيهم الأجدى ، وعقدهم المقتنى ، وروضهم المجتنى ، وبدر منازلهم ، وصدر محافلهم ، وعلى ما أعلى المقام المولوى من مكانه ، وقضى به من استمكانه ، واعتمد من إبرامه ، وأبرم من اعتماده ، ومهد من إكرامه ، وكرم من مهاده ، واختص من علاه ، وأعلى من اختصاصه ، واستخلص من خلّاه ، وحلا من استخلاصه ، ووفى من تكرمه ،

(١) نوه به : ذكره وأشاد به وأعلى قدره

(٢) قطن : أقام ، وعبر — هو هكذا في كل الأصول بالعين المهملة — ويراد به سافر ، وتقول « عبر فلان البحر يعبره » إذا انتقل من أحد شاطئيه إلى الآخر

وكرم من وفائه ، واصطفي من مجده ، ومجد من اصطفائه ، وقدم من براعته ، وحكم من براعته ، وشقق من كتابته ، وأنطق من خطابته ، وسجل من أنظاره ، وعجل من اختياره ، فذكا ذكره^(١) ، وسطا سطره ، وأمعن معناه ، وأغنى مغناه ، أشار أيده الله تعالى باستئناف خصوصيته وتجديدها ، وإثبات مقاماته وتجديدها ، لتعرف تلك الحدود فلا تتخطى ، وتكبر تلك المراتب فلا تستعطي ، فأصدر له شكر الله تعالى إصداره ، وعمر بالنصر داره ، هذا المنشور الذي تأرجح بمحامده نشره ، وتضمن من مناقبه البديع فراق طيه ونشره ، وغدا وفرائد المآثر لديه موجدة مكوّنه ، وأصبح للمفاخر مالكا لما أتى به مدونه ، وخصه فيه بالنظر المطلق الشرط ، الملازم للتفويض ملازمة الشرط للمشروط ، المستكمل للفروع والأصول ، المستوفى الأجناس والفصول ، في الأمور التي تختص بأعلام القضاة الأكابر ، وكتاب القضاة ذوي الأفلام والحابر ، وشيوخ العلم وخطباء المنابر ، وسائر أرباب الأفلام القاطن منهم والعابر ، بالحضرة العلية ، وجميع البلاد النصيرية ، تولى الله تعالى جميع ذلك بمعهود ستره ، ووصل لديه ما تعود من شفع اللطف ووتره ، يحوط مراتبهم التي قطفت من روضاتها ثمرات الحكم وحنيت ، ويراعى أمورهم التي أقيمت على العوائد وبنيت ، وحقوقهم التي حفظت لهم في المجالس السلطانية ورعيت ، ويحل كل واحد منهم في منزلته التي تليق ، ومرتبته التي هو بها خليف ، على ما يقتضي ما يعلم من أدواتهم ، ويخبر من تباين ذواتهم ، ويُرشّح كل واحد إلى ما استحقّه ، ويؤتى كل ذي حق حقه ، اعتماداً على أغراضه التي عدلت ، وصدحت^(٢) على أفنانها من الأفواه طيور الشكر وهذّكت ، واستناداً في ذلك إلى آرائه ، وتفويضاً لفي هذا الشأن بين خلصاء الملك وظهرائه^(٣) ، وذلك على مقتضى

(١) ذكا ذكره : أراد ارتفع ، وأصله بمعنى أضاء

(٢) صدحت ، وهذّكت : أي غنت

(٣) ظهراء : جمع ظهير ، وهو الناصر والمعين

ما كان عليه أعلام الرياسة الذين سبقوا ، واتهمضوا بهمهمهم واستبقوا ، كالشيخ الرئيس الصالح أبي الحسن بن الجيَّاب ، والشيخ ذى الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب ، رحمهما الله تعالى ! فليقم أبقاه الله تعالى بهذه الأعمال التي سمت واعتزت ، ومالت بها أعطاف العدل واهتزت ، وسار بها الخبر حثيث السرى^(١) ، وصار بها الحق مشدود العرى ، وعلى جميع القضاة الأمضياء ، والعلماء الأرضياء ، والخطباء الأولياء ، والمقرئين الأزكيا ، وحملة الأقاليم الأحظياء^(٢) ، أن يعتمدوا هذا الولي العماد في كل ما يرجع إلى عوائدهم ، ويختص في دار الملك من مرتباتهم وفوائدهم ، وما يتعلق بولاياتهم وأمنياتهم ، ويليق بمقاصدهم ونياتهم ، فهو الذي يسوِّغهم المشارب ، ويبلغهم المآرب ، ويستقبل العلى بالعلی ، والعاطل بالخلی ، والمشكل بالخلی ، والمفرق بالتاج ، والمقدمة بالإنتاج ، وعلى ذلك فهذا المنشور الكريم قد أقرهم على ولایاتهم وأبقاهم ، ولقاهم من حفظ المراتب ما رفاهم ، فليجروا على ما هم بسبيله ، وليهتدوا برشد هذا الاعتناء ودليله ، وكتب في صفر عام سبعة وخمسين وثمانمائة ، انتهى .

قلت : وإنما أتيت به لوجوه : أحدها ، ما يتعلق بلسان الدين إذ وقعت الإشارة إلى مرتبته في آخره ، والثاني ما اشتمل عليه من الإنشاء الغريب ، والثالث معرفة حال الرئيس أبي يحيى بن عاصم وتمكنه من الرياسة ، لأننا بنينا هذا الكتاب على ذكر ما يناسبه من أبناء أهل المغرب ، لكون أهل هذه البلاد المشرقية ليس لهم بها عناية ، والرابع أن بعض أكابر شيوخننا من ألف في طبقات المالكية لما عرّف بأبي يحيى ذكره في نحو أسطر عشرة ، وقال : هذا الذي حضرني من التعريف به ، والخامس أن ابن عاصم المذكور كما قاله الوادى آشى وغيره كان يدعى في الأندلس بابن الخطيب الثاني ، ويعنون بذلك البلاغة والبراعة والرياسة والسياسة .

(١) حثيث السرى : سريع السير

(٢) الأحظياء : جمع حظى ، وهو ذو الحظوة

رجع إلى أخبار لسان الدين فتقول :

وأما كتب التأليف باسم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فقد قال في الإحاطة لما أجرى ذكر ذلك ما صورته : وأما ما رفع إلى من الموضوعات العلمية ، والوسائل الأدبية ، والرسائل الإخوانية ، لما أقامني الملك صنما يعتمد ، وخيالا إليه يستند ، صادرة عن الأعلام ، وحمله الأفلام ، ورؤساء النثر والنظام ، فجَمَّ يضيق عنه الإحصاء ، ويعجز عن ضم نشره الاستقصاء^(١) ، ورماتضمن هذا الكتاب كتاب الإحاطة منه كثيرا ، ومنظوما أثيرا ، ودرأ نثرا ، جرى في أثناء الأسماء ، وانتمى إلى الإجابة أكرم الانتاء^(٢) ، غفر الله تعالى لي ولقائله ، فما كان أولاني وإياه بستر زوره ، وإغراء الإضراب بغيره فأهون بما لا ينفع ، وإن ارتفع السكلم الطيب لا يرفع^(٣) ، اللهم تجاوز عنا بفضلك وكرمك ، انتهى :

وقد تقدم في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي القاسمي نزيل مالقة وصاحب التأليف العديدة أنه ألف تقييدا على قواعد الإمام القاضي أبي الفضل عياض رحمه الله تعالى برسم ولد لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، وكذلك غير واحد من أهل عصره ، قصدوه بالنظم والنثر ، وهي سنة الله سبحانه وتعالى في عبادته ، إذ السلطان سوق يُجَلَّب إليها ما ينفق فيها ، والله - سبحانه وتعالى - ! ولي المكافأة ، لا إله غيره ، ولا مأمول سواه .

(١) ضم نشره : جمع متفرقه ، والاستقصاء : التتبع

(٢) انتمى : انتسب واعتزى

(٣) أخذ هذه الفقرة من قوله تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل

الصالح يرفعه)

الباب الخامس

في إيراد جملة من نثره الذي عَيقَ أريجُ البلاغة من نفحاته ، ونظمه الذي تألق نور البراعة من لحانه وصفحاته ، وما يتصل به من أزجاله وموشحاته ، ومناسبات رائعة في فنون الأدب ومصطلحاته .

اعلم - سلك الله تعالى بي وبك أوضح حَجَّه^(١) ، وجعلنا ممن انتحى صَوْب الصواب^(٢) ونهجه ! - أن هذا الباب ، هو المقصود بتأليف هذا الكتاب ، وغيره كالتبعية له ، وها أنا أذكر ما حضرني الآن من بنات أفكار لسان الدين التي هي بالحاسن متقنة ، وللبدائع منتعلة ، فأقول :

أما نثره فهو البحر الزخار ، بل الدر الذي به الافتخار ، وناهيك أن كتبه الآن في المغرب قبلة أرباب الإنشاء التي إليها يُصلون ، وسوق دُررهم النفيسة التي يزينون بها صدور طروسهم^(٣) ويحكمون ، وخصوصا كتابه « ربحانة الكتاب ، ونبذة المختار » فإنه وإن تعددت مجلداته على فن الإنشاء والكتابة مقصور ، وقد اشتمل على السلطانيات وغيرها ومخاطبانه لأهل المشرق والمغرب على لسان ملوك الأندلس الذين عَلمَ بلاغتهم منصور ، وقد تركت نسختي منه في المغرب ، ولو حضرني لكفتني عن هذه الفوائد التي أتعبت خاطري في جمعها من مُقيداتي التي صحبتها معي ، وهي قليلة .

وقد مرَّ في هذا الكتاب جملة من نثره ونظمه ، والذي نجلبه هنا زيادة على ما سبق .

وقال رحمه الله تعالى في « الإحاطة » عند ترجمة نثره ما صورته : وأما النثر

(١) المحجة : الطريق

(٢) انتحى : قصد ، وصوب الشيء - بالفتح - جهته

(٣) الطروس : جمع طرس ، وأراد ما يكتبون فيه

فبحر زاهر ، ومدى طوله مستاخر ، وإنك لم يفخر عليك كفاجر ، وقد مرّ منه
 في تضاعيف هذا الديوان كثير ، ونحن نجلب منه ما يشير إليه مُشير ، انتهى .
 فمن ذلك قوله في غرض التّحميد مما افتتح به الكتاب في التاريخ المتضمن
 دولة بني نصر : الحمد لله الذي جعل الأزمنة كالأفلاك ، ودُول الأملاك كأنّهم
 الأحلاك ، تطلعها من المشارق نيرة ، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة ، ثم تذهب
 بها غائرة متغيرة ، السائق بحل ، وطبع الوجود مرتجل ، والحى من الموت وحل ،
 والدهر لا معتذر ولا خجل ، بينما ترى الدّست عظيم الزّحام ، والموكب شديد
 الانتحام ، والوزّعة تشير ، والأبواب يقرعها البشير ، والسرور قد شمل الأهل
 والعشير ، والأطراف تلتهمها الأشراف ، والطاعة يشهرها الاعتراف ، والأموال
 يحوطها العدل أو يبيحها الإسراف ، والرايات تُعقّد ، والأعطيات تُنقّد ، إذ رأيت
 الأبواب مهجورة ، والدسوت لا مؤمّلة ولا مزورة ، والحركات قد سكنت ،
 وأبدى الإدالة قد تمكنت ، فكأنما لم يسمر سامر^(١) ، ولا نهى ناه ولا أمر آمر ،
 ما أشبه الليلة بالبارحة ، والغادية بالرائحة ، إنّما مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من
 السماء فاختلف به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح .

ومن نثره قوله في استدعاء إمداد وحضّ على الجهاد : أيها الناس رحمكم الله
 تعالى ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو قصمه الله تعالى ساحتهم ، ورام
 الكفر خذله الله تعالى استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم ، ومد
 الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر
 والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم الغريب فلا تحفروه ، وسبيل الرشد قد
 وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد فقد تعين ، الجارّ الجارّ فقد قرر الشرع حقه وبيّن ،

(١) أخذه من قول مضاض بن عمرو الجرهمي

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر

تحميد
 من إنشاء
 لسان الدين

من نثره في
 الحض على
 الجهاد

الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد ، صلوا رحم السكامة ، واسؤوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين أيديكم ، والسنة الآيات تنادىكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله سبحانه يقول فيه (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم) ومما صح عنه قوله « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار » « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم » « من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا » أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت ، بادروا لعل الإسلام قبل أن يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عبادته ، جاهدوا في الله بالأسلح والاقوال حق جهاده .

ماذا يكون جوابكم لنبيكم وطريق هذا العذر غير مُمَهَّد^(١)

إن قال لِمَ فرطتم في أمتي وتركتموهم للعدو المعتدى

تالله لو أن العقوبة لم تُخَفَّ لكفى الحيامن وجهه ذاك السيد

اللهم أعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بث لنا الحمية^(٢) في البلاد ، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبابك وأوليائك ، يا خير الناصرين ، اللهم أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، انتهى . ومن ذلك قوله في صداق أمره السلطان بإنشائه الكبير الشرفاء بفاس

(١) مهدت الطريق : سوبته وجعلته صالحا للسير فيه من غير مشقة ، استعمله

هنا مجازا

(٢) بث : أراد أذعها ونشرها ، والحمية : الغضب لما يجب على الإنسان حمايته

في فصل منه تضمن ذكر أوليتهم واستيطانهم لتلك المدينة ما صورته : فضرب
بغاس — عمرها الله تعالى ! — حلتها ، وأورث منها بالبقعة الزكية الرفيعة سراته ^{من إنشائه}
وجِلَّتْه ^(١) ، فتبوؤا من ذلك القُور ، المعشب الروض الأريج النُور ، هالة سعد ، وأفق
برق ورعد ، ودست وعيد ووعد ، يفتاقلون رُتب الشرف الصريح كابرأ عن كابر ،
ويروى مساسل الجدد عن بيتهم الرفيع الجد كل حريص على عوالي المعالي مثابر .
فالكف عن صلة ، والأذن عن حسن والعين عن قرّة ، والقاب عن جابر
حيث الأنوف الشّم والوجوه الغر ، والعزة التّعساء والنسب الحر ، والقواطم في
صدف الصون من لدن الكون كأنهن الدر ، آل رسول الله ونعم آل ، والموارد
الصادقة إذا كذب الآل ^(٢) ، ومن إذا لم يُصلّ عليهم في الصلاة حَبِطَتْ منها الأعمال ،
طَلِبَةَ الراكب ، ونِشْدَةَ الطالب ، وسرارة لؤى بن غالب ، وماتقى نور الله تعالى ما بين
فاطمة الزهراء وعلى بن أبي طالب ، انتهى ، وهو طويل لم يحضرني منه الآن
سوى ما ذكرته .

ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى : كتبت إلى بعض السادة الفضلاء ، وقد
بلغني مرضه أيام كان الانزعاج عن الأندلس إلى الإيالة المرينية : وردت على من
فتى التي إليها في معركة الدهر أتميز ، وبفصل فضلها في الأقدار المشتركة أتميز ،
سَخَاءَ سرت وساءت ، وبلغت من القصدين ما شاءت ، أطلع بها صنيعه وده
من شكواه على كل عابث في السويداء ، موجب اقتحام البيداء ، مضرم ناز
الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلا القليل ، ولا من إفصاح لسانه إلا الأنين
والأليل ، ونوى مدت لغير ضرورة يرضاهما الخليل ، فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد
إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع في تقبل أعماله ، أو أمل ضويق في فذلكة آماله ،

(١) السراة : جمع السرى ، وهو الوصف من السراوة ، وهي المروءة والكرم ،
والجلة : جمع الجليل ، وهو العظيم القدر

(٢) الآل الثاني : ما يرى في وسط النهار كأنه الماء وليس بماء .

سكنى رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق ، وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخط^(١) يهبر والحمد لله ويروق ، واللفظ الحسن تومض في حبره للمعنى الأصيل بروق ، فقلت : ارتفع الوَصَب^(٢) ، ورَدَّ من الصحة المغتصب ، وآلة الحسن والحركة هي العصب ، وإذا أشرق سراج الإدراك دل على سلامة سَلِيْطَه^(٣) ، والروح خليط البدن والمرء بخليطه ، وعلى ذلك فتليد احتياطي لا يقنعه إلا الشرح ، فيه يسكن الظمأ البرح ، وعُذْرًا عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار ، والإطناب والإكثار ، وزندُ القلق في مثلها أَوْرى ، والشفيق بسوء الظن مُغْرَى ، والسلام .

ومن نثر لسان الدين ما ذكره في « الإحاطة » في ترجمة أبي عبد الله الشاذلي وهو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري الجبالي الأصل ثم المالقي ، إذ قال ما صورته : جملة جمال من خط حسن واضطلاع بحمل كتاب الله ، بُلْبُل دَوْح السبع المثاني ، وماشطة عروس أبي الفرج بن الجوزي ، وآية صُفْعَه ، ونسيج وَحْدِهِ ، في حسن الصوت وطيب النغمة ، اقتحم لذلك دسوت الملوك ، وجر أذيال الشهرة ، عذب الفكاهة ، ظريف المجالسة ، قادرًا على الحماكة ، متسورًا حمى الوقار ، ملهياً داعي الانبساط ، قلد شهادة الديوان بماقة فكان مُغَارَ حَمَل الأمانة ، شامخ مارن النزاهة ، لوحا للألقاب ، وعُزُزَتْ ولايته ببعض الألقاب النبيلة ، وهو الآن الناظر في أمور الحِسْبَةِ ببلده ، ولذلك لخاطبته برقة أداعبه بها وأشير إلى أضداده بما نصه :

يا أيها المحتسب الجزل ومن لديه الجد والهزل
يهنيك والشكر لمولى الورى ولاية ليس لها عزل

(١) في ب « الحظ » وأحسبه محرفاً عما أثبتته

(٢) الوصب : المرض ، وبابه فرح (٣) السليط : الزيت

خطاب
من لسان الدين
إلى من ولي
الحسبة

يكتب أيتها المحتسب ، المتعمى إلى النزاهة المنتسب ، أهنئك ببلوغ تمنيك ،
وأحذرك من طمع نفس بالغرور تمنيك ، فكأننى بك وقد طافت بركابك الباعة ،
ولزم أمرك السمع والطاعة ، وارتفعت في مصانعتك الطاعة ، وأخذت أهل الريب
بغته كما تقوم الساعة ، ونهضت تقعد وتقيم ، وسطوتك الريح العقيم ، وبين يديك
القسطاس المستقيم ، ولا بد من شرك ينصب ، وجماعة على ذى جاه تغصب ،
ودالة يمت بها الجناح الأخصب ، فإن غضضت طرفك ، أمنت على الولاية
حرفك ، وإن ملأت ظرفك ، رحلت عنها حرفك ، وإن كفت فيها كفك ،
حفك العز فيمن حفك ، فسكن القالى المجنبه قاليا^(١) ، ولحوت السلالة سالياً ، وأبد
لديق الحواري زهد حواري^(٢) ، وازهد فيما بأيدي الناس من العواري ، وسرفى
اجتناب الخلواء ، على السبيل السواء ، وارفض في الشواء ، دواعى الأهواء ،
وكن على المهراس وصاحب ثريد الراس شديد المراس ، وثب على طيخ الأعراس
ليثاً مرهوب الافتراس ، وأدب أطفال الفسوق فى السوق ، سيما من كان قبل
البلوغ والبسوق ، وصمم على استخراج الحقوق ، والناس أصناف فمنهم خسيس
يطمع منك فى أكلة ، ومُستعد عليك بوكرة أوركلة ، وحاسد فى مطية تركب ،
وعطية تسكب ، فاخضع للحاسد جناحك ، وسدد إلى حربيه رماحك ، وأشبع
الخسيس منهم مرقه فإنه حنق ، ودس له فيها عظامه لعله يحنق ، واحفر لشريرهم حفرة
عميقة ، فإنه العدو حقيقة ، حتى إذا حصل ، وعلمت أن وقت الانتصار قد انصل ،
فأوقع وأوجع ولا ترجع ، وأولياءه من الشياطين فأفجع ، والحق أقوى ، وأن تغفو
أقرب للتقوى ، سددك الله تعالى إلى غرض التوفيق ، وأعانك من الحق بالسبب
الوثيق ، وجمل قدومك مقروناً برخص اللحم والزيت والدقيق ، انتهى .

(١) قالى : اسم الفاعل من « قلا الشيء يقليه قليا » والمجنبة : ضرب من الطعام
يصنع بالجبن ، وقاليا : كرها (٢) الحواري : لباب الدقيق وخالصة ، والحواري :
من يكون من أنصار الأنبياء ، وسمي أصحاب عيسى عليه السلام « الحواريون »

ومما كتب به لسان الدين إلى علي بن بدر الدين الطوسي بن موسى بن روح
بن عبد الله بن عبد الحق من مدينة سلا ما نصه :

يا جملة الفضل والوفاء ما بمعاليك من خفاء
عندي بالود فيك عقد صفه الدهر باكتفاء
ما كنت أقضى حلاك حقا لو جئت مدحا بكل فاء
فأول وجبة القبول عذري وحسبك الشك في صفاء

سيدى الذى هو فضل جنسه ، ومزية يومه على أمسه ، فإن افتخر الدين من أهلك
بيدته افتخر منك بشمسه ، رحلت على المنشأ والقرارة^(١) ، ومحل الصبوة والقرارة^(٢) ،
فلم تتعلق نفسى بذخيرة ، ولا عهد جيرة خيرة ، كتملقها بتلك الذات التى لطف
لطفه الراح ، واشتملت بالمجد الضراح ، شفقة أن تصيبها مرة والله تعالى يقيها ،
ويحفظها ويُبقيها ، إذ الفضائل فى الأزمان الرذلة غوائل ، والضد عن ضده
منحرف بالطبع ومائل ، فلما تعرفت خلاص سيدى من ذلك الوطن ، وإبقاء
وراء الفرضة بالعطن ، لم تبق لى تعلّة ، ولا أحرصتنى له علة ، ولا أوتى جمعى
من قلة ، فكثبت أهنى نفسى الثانية بعد هناء نفسى الأولى ، وأعترف للزمان باليد
الطولى ، فالحمد لله الذى جمع الشمل بعد شتاته ، وأحيا الأنس بعد مماته ، سبحانه
لا مبدل لكلماته ، وإياه أسأل أن يجعل العصمة حظ سيدى ونصيبه ، فلا يستطيع
حادث أن يُصيبه ، وأنا أخرج له بث كين ، ونصح أنا به قمين ، بعد أن أسبر غوره ،
وأخبر طوره ، وأرصد دوره ، فإن كان له فى التشريق أمل ، وفى ركب الحجاز ناقة
وجمل ، والرأى فيه قد نجحت منه نية وعمل ، فقد غنى عن عرف البقرات ،
بأزكى الثمرات ، وأطفا هذه الجمرات ، برمى الجمرات ، وتأنس بوصل السرى

(١) كذا ، وأصل العبارة « رحلت عن المنشأ والقرارة » والمنشأ : المكان
الذى نشأ فيه ، والقرارة : موضع استقراره

(٢) الفرارة : الكشف عن أحواله ، وقالوا « الجواد عينه فراره » أى ظاهره
يدل على باطنه

وواصل السرات ، وأنا به إن رضى أرضى مرّافق ، ولواء عزى به خافق ، وإن كان على السكون بناؤه ، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه ، فأمر له ما بعده ، والله يحفظ من الغير^(١) سعه ، والحق أن تحذف الأبهة وتختصر ، ويحفظ اللسان ويفض البصر ، وينخرط في الغمار ، ويختلّ عن المضار ، ويجعل من المحذور مداخلة من لا خلاق له ، ممن لا يقبل الله تعالى قوله ولا عمله ، فلا يكتم سرا ، ولا يتطوق من الرجولة زرا ، ويرفض زمام السلامة ، وترك العلامة على النجاة علامة ، وأما حالى فكما علمت ملأزم كين^(٢) ، ومهبط تجربة وسن ، أزجى الأيام ، وأروم بعد التفرق الالتئام^(٣) ، خالى اليد ، إلى القلب والخلد ، بفضل الواحد الصمد ، عامل على الرحلة الحجازية التى اختارها لكم ولنفسى ، وأصل فى التماس الإعانة عليها يومى بأمسى ، أوجب ما قررت لكم ما أنتم أعلم به من ود قررت الأيام والشهور ، والخلوص المشهور ، وما أطلت فى شئ عند قدومى على هذا الباب الكريم إطالتي فيما يختص بكم من مولاته ، وبذل مجهود القول والعمل فى مرضاته ، وأما ذكركم فى هذه الأوضاع فهو مما يُقر عين المجادة ، والوظيفة التى ينافس فيها أولو السيادة ، والله يصل بقاءكم ، ويُيسر لقاءكم ، والسلام ، انتهى .

ومن نثر لسان الدين ما أثبتته فى « الإحاطة » فى ترجمة ابن خلدون صاحب التاريخ الذى تكرر نقلنا منه فى هذا التأليف .

ولندكر الترجمة بجملة فنقول : قال رحمه الله تعالى فى « الإحاطة » مانصه :
 عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون ، الحضرى ، من ذرية عثمان أخى كريب المذكور فى نهج ثوار الأندلس ، وينسب سلفهم إلى وائل بن حجر ، وحاله عند القدوم

(١) غير الدهر : نوازله

(٢) السكن : الحب ، وأراد البيت

(٣) الالتئام : الاجتماع

ترجمة
 ابن خلدون
 من إنشاء
 لسان الدين

على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة ، انقل سلفه من مدينة إنبيلية عن
 بأكهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك ، فاستقر بقونس منهم ثانی
 الحمدین محمد بن الحسن ، وتنازلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة ، وتصرف
 جد المترجم به في القيادة ، وأما المترجم به فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم
 الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل الجدة ، وقور المجلس ،
 خاصي الزی ، عالی الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المكافحة ، قوى الجأش ،
 طامح لقنن الرياسة^(١) ، خاطب للحظ ، متقدم في فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ،
 شديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مغرى بالتجلة ، جواد ،
 حسن العشرة ، مبذول المشاركة ، مقيم لرسم التعمين ، عاكف على رعى الخلال
 الأضالة ، مفخر من مفاخر الترخوم المغربية ، قرأ القرآن ببلده على المكتب
 ابن برال ، والعربية على المقرئ الزواوي وغيره ، وتأدب بأبيه ، وأخذ عن المحدث
 أبي عبد الله بن جابر الوادي أشي ، وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله بن عبد
 السلام ، وروى عن الحافظ أبي عبد الله السطی ، والرئيس أبي محمد عبد المهيمن
 الحضرمي ، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الأبلی وانتفع به ، انصرف من إفريقية
 منشئه بعد أن تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة ، وإقامته لرسم العلامة بحكم
 الاستنابة ، عام ثلاثة وخمسين وسبعائة ، وعرف فضله ، وخطبه السلطان منفق
 سوق العلم والأدب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان ، واستحضره بمجلس المذاكرة
 فعرف حقه ، وأوجب فضله ، واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين ،
 ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبه الحضرة لبعده عن حسن التأني ، وشفوفه بثقوب
 الفهم وجودة الإدراك ، فأغروا به السلطان إغراء عَصْدَه ماجبل عليه عهد^(٢) من

(١) القنن : جمع قنة ، بضم القاف - وهي أعلى الجبل ، مثل القلة

(٢) عهدئذ : أى في ذلك العهد ، كما تقول حينئذ ووقتئذ ، وأشباهاها

إغفال التحفظ مما يريب لديه ، فأصابته شدة تخلصه منها أجله ، كانت مغزبة في جفاء ذلك الملك وهنة جواره ، وإحدى العواذل لأولى الهوى في القول بفضلها وعدم الخشوع وإهمال التوسل وإيادة المكسوب في سبيل النفقة والإرضاخ على زمن الحنة وجار المنزل الخشن ، إلى أن أفضى الأمر إلى السعيد ولده ، فأعتبه قيم الملك حينه ، وأعاده إلى رسمه ، ودالت الدولة إلى السلطان أبي سالم ، وكان له به الاتصال قبل تسوغ الحنة بما أكد حُظوته ، فقلده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات ، محرر السهام ، نبيه الرتبة ، إلى آخر أيامه ، ولما ألفت الدولة مقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله مدبر الأمر ، وله إليه وسيلة ، وفي حليه شركة ، وعنده حق ، رابه نقصيره عما ارتقى إليه أمله ، فساء ما بينهما بما آل إلى انفصاله عن الباب المريني ، وورد على الأندلس في أول ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة ، واهتزله السلطان ، وأركب خاصته لثقيفه ، وأكرم وفادته ، وخلع عليه وأجلسه بمجلسه ، ولم يدخر عنه راوؤاكلة ومراكبة ومطانية وفكاهة .
وخاطبني لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرني الآن .

فأجبتة عنها بقولي :

حلات حلول النيث في البلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسمل (١)
يمينا بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المهدي والكهل (٢)
لقد نشأت عندي للقياك غبطة تَمَسَّى اغتباطي بالشيبه والأهل
أقسمت بمن حجت قر يش لبيتة ، وقبر صرفت أزممة الأحياء لميته ، ونور ضربت
الأمثال بمشكاته وزيتته ، لوخيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية ، السنية ،
والعارفة ، الوارفة ، واللطيفة ، المطيفة ، بين رَجْع الشباب يَقْطُرُ ماء ، ويرف ثناء ،

(١) البلد المحل : المقفر المحذب

(٢) تعنو الوجوه : تخضع

و يغازل عيون الكواكب فضلا عن الكواكب إشارة وإيماء ، بحيث لا الوَحْطُ
 يلم بسياسج لمتة ، أو يَقْدَحُ ذبالة في ظلمته ، أو يقوم حواريه في ملته ، من الأحابش
 وأمتة ، وزمانه رَوْح وراح ، ومعدى في النعيم وَمَرَّاحٌ ، وقصف صُرَّاح ، ورقى
 وجراح ، وانتحاب وافتراح ، وصدور ما بها إلا انشراح ، ومسرات تردفها أفراح ،
 وبين قدومك خليع الرسن ، ممتعا والحمد لله باليقظة والوسن ، محكما في نسك
 الجنيذ أو فتك الحسن ، ممتعا بظرف المعارف ، مائلا أ كف الصيارف ، ماحيا
 بأنوار البراهين شبه الزخارف ، لما اخترت الشباب وإن راقني زمنه ، وأعياني ثمنه ،
 وأجدت سحائب دمعى دِمْنُهُ ، فالحمد لله الذى رقى جنون اغترابى ، وملكنى أزمة
 آرابى ، وغبطنى بمأى وترابى ، ومألف أترابى ، وقد أغصنى بلذيث شرابى ، ووقع
 على سطوره العترة إضرابى ، وعجلت هذه مغبطة بمناخ المطية ، ومنتهى الطية ،
 وملتقى السعود غير البطية ، وتهى الآمال الوثيرة الوطية ، فما شئت من نفوس
 عاطشة إلى ريك ، متجلمة بريك ، عاقلة خُطى مَهْرِيك ، ومولى مكارمه نشيدة
 أمثالك ، ومظان مثالك ، وسيمصدق الخبر ما هنالك ، ويسع فضل مجدك في
 التخلف عن الإبحار ، لا بل اللقاء من وراء البحار ، والسلام .

ولما استقر بالحضرة جرت بينى وبينه مكاتبات أقطعها الظرف جانبه ، وأوضح
 الأدب مذاهبه ، فمن ذلك ما خاطبته به وقد تَسَرَّى جارية رومية اسمها هند
 صبيحةً الابتناء بها :

أوصيك بالشيخ أبى بكره لا تأمنن في حالة مكره
 واجتنب الشك إذا جثته جنبك الرحمن ما تكره
 سيدى لا زلت تتصف بالوالج ، بين الخلاخل والامالج^(١) ، وتركض فوقها ركض

(١) الخلاخل : جمع خلخال ، وهو حلية تلبسها النساء في سوقهن ، والدمالج :
 جمع دملج ، وهى حلية تلبسها النساء في سواعدهن ، وأراد بين الأيدي والأرجل

المهاج ، أخبرني كيف كانت الحال ، وهل حُطَّت بالقاع من خير البقاع الرحال ،
وأحكم بمردود المرادة الاكتحال ، وارتفع بالسقيا الإحمال ، وصح الالتحال ،
وحصَّصَ الحق وذهب المحال ، وقد طولعت بكل بشري وبشر ، وزفت هند
منك إلى بشر ، فله من عشية ، تمتعت من الربيع بفُرش مؤشية ، وأبدلت منها
أى آساد وحشية ، وقد أقبل ظبي السكّاس ، من الديماس ، ومطوق الحُمام ، من
الحُمام ، وقد حسنت الوجه الجميل التطرية^(١) ، وأزيلت^(٢) عن الفرع الأثيث الإبرية ،
وصُقلت الخلود فكأنها الأمرية ، وسُلطَ الدَّلْكُ على الجلود ، وأغريت النورة
بالشعر المولود ، وعادت الأعضاء يزلق عنها اللبس ، ولا تنالها البنات الخمس ،
والسحنة يجول في صفحتها الفضية ماء النعيم ، والسواك يلبي من ثنية التنعيم ،
والقلب يرمى من السكف الرقيم بالمقعد المقيم ، وينظر إلى نجوم الوشوم فيقول : إني
سقيم ، وقد تفتح ورد الخفر ، وحكم لزنجي الظفيرة بالظفر ، واتصف أمير الحسن
بالصدود المغفر ، ورش بماء الطيب ، ثم أعلق بباله دخان العود الرطيب ، وأقبلت
البغاة ، يهديها اليمن وتزفها السعادة ، فهي تمشي على استحياء ، وقد ذاع طيب الريا
وراق حسن الحياء ، حتى إذ نزع الخف ، وقبلت الأكف ، وصخب المزمار
وتجاوب الدف ، وذاع الأرج ، وارتفع الحرج ، وتجوّز اللواء والمنعرج ، ونزل على
بشر بزيارة هند الفرج ، اهتزت الأرض وربّت ، وعوصيت الطباع البشرية
فأبت ، والله در القائل :

ومرت فقالت : متى نلتقى ؟ فهشّ اشتيافا إليها الخبيث

وكاد يمزق سر باله فقلت : إليك يساق الحديث

فلما انسدل جنح الظلام ، وانتصفت من غريم العشاء الأخيرة فريضة السلام ،

(١) تطرية الوجه : تحسينه وتزيينه ، ووقع في ب « الجميل النظرية » محرفا

(٢) أزيلت : نحيت وبعدت ، والفرع الأثيث : شعر الرأس ، والإبرية بكسر

الهيمزة - قشر الرأس يزال بالمشط ونحوه ، ووقع في ب « وأذبلت » تحريف

وخاطت خيوط المنام عيون الأنام ، تأتى دنو الجلسة ، ومسارقة الخلسة ، ثم غصّة
النهد ، وقبلة الغم وانخد ، وإرسال اليد من النجد إلى الوهد ، وكانت الإمالة القليلة
قبل المد ، ثم الإفاضة فيما يغبط ويرغب ، ثم الإماطة لما يشوش ويشغب ، ثم
لإعمال المسير ، إلى السرير .

وصرنا إلى الحسنى ، ورق كلامنا ورُضْتُ فذلت صعبةً أىّ إذلال^(١)
وهذا بعد منازعة للأطواق يسيرة ، يراها الغيد من حسن السيرة ، ثم شرع في التكة
ونزع الشكة ، وتهيئة الأرض العزاز عمل السكة ، ثم كان الوحي والاستعجال ،
وحى الوطيس والمجال ، وعلا الجزء الخفيف ، وتضافرت الخصور الهيف ، وتشاطر
الطبع العفيف ، وتواتر التقبيل ، وكان الأخذ الويل ، وامتاز الأتوك من النبيل ،
ومنها جائر وعلى الله قصد السبيل ، فيالها من نعم متداركة ، ونفوس في سبيل القصة
متهالكة ، ونفس يقطع حروف الحلق ، وسبحان الذى يزيد فى الخلق ، وعظمت
المانعة ، وكثرت باليد المصانعة ، وطال التراوغ والتراور ، وشكى التحاور ، وهنالك
تختلف الأحوال ، وتعظم الأهوال ، وتخسر أو ترح الأموال ، فمن عصا تنقلب
تعباناً مينا ، ونونة تصير تينا ، وبطل لم يهمله المعتكف الهائل ، والوهم الزائل ،
ولا خال بينه وبين قرنه الحائل ، فتعدى فتكة السليك إلى فتكة البراض ،
وتقلد مذهب الأزارقة من الخوارج فى الاعتراض ، ثم شق الصف ، وقد خضب
الكف ، بعد أن كان يصطبب البوسى بطعنته ، ويؤء بمقت الله ولعنته

طعنت ابن عبد الله طعنة نائر لها نَفَذُ لولا الشعاع أضاءها^(٢)
وهناك هدا القتال ، وسكن الخبال ، ووقع المتوقع فاستراح البال ، وتشوف إلى
مذهب الثنوية من لم يكن للتوحيد بمبال ، وكثر السؤل عن المبال ، بما بال ،

(١) البيت من لامية امرى القيس التى أولها * ألا عم صباحا أيها الظلل البالى *

(٢) البيت لقيس بن الخطيم ، وهو من شعر الحماسة (انظر شرح التبريزى

وجعل الجريح بقول وقد نظر إلى دمه ، يسيل على قدمه :

إنى له عن دمي المسفوك مُعْتَذِر أقول حَمَلْتُهُ فِي سَفْكَهِ تَعْبَا
ومن سنان عاد عنانا ، وشجاع صار جباناً ، كلما شابته شائبة رَيبه ، أدخل يده في
جيبه ، فأنحجرت الحية ، وماتت الغريزة الحية ، وهناك يزغ البصر ، ويخذل
المنتصر ، ويسلم الأسر ، ويغلب الحصر ، ويحجف اللعاب ، ويظهر العاب^(١) ، ويحقق
الفؤاد ، ويكبو الجواد ، ويسيل العرق ، ويشتد السكر والأرق ، وينشأ في محل
الأمن الفرق ، ويدرك فرعونَ العَرَق ، ويقوى اللجاج ويعظم الخرق ، فلا تزيد
الحال إلا شدة ، ولا تعرف تلك الجائحة المؤمنة إلا رده

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما ينجى عليه اجتهاده
فكم مغرى بطول اللبث ، وهومن الخبث ، يؤمل الكرة ، ليزيل المعرة ، ويستنصر
الخيال ، ويعمل باليد الاحتيال .

إنك لا تشكو إلى مصمت فاصبر على الحمل الثقيل أو مت
ومعتذر بمرض أصابه ، جرّعه أوصابه^(٢) ، ووجع طرّقه ، جلب أرقه ، وخطيب أرتج
عليه أحيانا ، فقال : سيحدث الله بعد عسر يسرا وبعد عي بيانا ، اللهم إنا نعوذ بك
من فضائح الفروج إذا استغاثت أفعالها ، ولم تنسم بالنجيع أغفالها ، ومن مَعَرَّات
الأقذار ، والنكول عن الأبكار ، ومن النزول عن البطون والشرر ، والجوارح
الحسنة الغر ، قبل ثقب الدرر ، ولا تجعلنا ممن يستحي من البكر بالغداة ، وتعلم
منه كلال الأداة ، وهو مجال فضحت فيه رجال ، وفراش شكيت فيه أوجال ،
وأعملت روية وارتجال ، فمن قائل :

أرفعه طورا على أصبعي ورأسه مضطرب أسفله

(١) العاب : العيب ، لغة فيه

(٢) جرعه : سقاه ، والأوصاب : جمع وصب وهو المرض ، شبهه بالشراب

كالخنش المقتول يلقى على عود لكي يطرح في مزبلة

وقائل :

عدمت من أيرى قووى حسه يا حسرة المرء على نفسه
تراه قد مال على أصله كحائط خر على أسفه

وقائل :

أبحسنى إبليس داءين أصبحا برجلي ورأسى دُملاً وزكاما
فليتهما كما به وأزيدة رخاوة أير لا يطيق قياما
إذا نهضت للنيك أزباب معشر تومد إحدى خصيتيه وناما

وقائل :

أقول لأيرى وهو يرقب فتكة به : خبت من أير وعالتك ذاهيه
إذا لم يكن للأير بخت تعذرت عليه وجوه النيك من كل ناحيه

وقائل :

تعقف فوق الخصيتين كأنه رشاء إلى جنب الركبة ملتف
كفرخ ابن ذى يومين يرفع رأسه إلى أبويه ثم يدركه الضعف

وقائل :

تكشر أيرى بعد ما كان أملسا وكان غنياً من قواه فأفلسا
وصار جوابى للهأ إن مرزئ بى مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى

وقائل :

بنفسى من حبيته فاستخف بى ولم يخطر الهجران يوما على بالى
وقابلنى بالغور والنجد بعد ما حططت به رحلى وجردت سر بالى

وما أرتجى من موسر فوق تكة عرضت له شيئا من الحشف البالى
هموم لا تزال تُبسكى ، وعلل الدهر تشكى ، وأحاديث تقص وتحكى ، فإن كنت
أعزك الله سبحانه من النمط الأول ، ولم تقل :

* وهل عند رسم دارس من معول *^(١)

فقد جنيت الثمر ، واستطبت السمر ، فاستدع الأبق من أقصى المدينة ،
واخرج على قومك في ثياب الزينة ، واستبشر بالوفود ، وعرف المسمع عازفة الجود ،
وتبجح بصلابة العود ، وإنجاز الوعود ، واجن رمان النهود ، من أغصان القدود ،
واقطف بينان اللثم أقاح الثغور وورد الخدود ، وإن كانت الأخرى فأخف الكد ،
وارض النمد ، وانتظر الأمد ، وأكذب التوسم ، واستعمل التبسم ، واستكتم
النسوة ، وأفض فيهن الرشوة ، ونقلد المغالطة وارتكب ، وجىء على قيصه بدم
كذب ، واستنجد الرحمن ، واستعن على أمرك بالسكتان :

لا تظهرن لعاذل أو عاذر حاليك في الضراء والسراء
فلرحمة المتفجعين حرارة في القلب مثل شماتة الأعداء

وانتشق الأرج ، وارقب الفرج ، فكم غمام طمأ ، وما رميت إذ رميت ولكن
الله رمى ، وأملك بعدها عنان نفسك حتى تمسكك الفرصة ، وترفع إليك القصة ،
ولا تسرع إلى عمل لا تقى منه بتمام ، وخذ عن إمام ولله در الحارث بن هشام :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا مهرى بأشقر مزبد
وعلمت أنى إن أقاتل دونهم أقتل ، ولم يضر عدوى مشهدى
فقررت منهم والأحبة فيهم طمعا لم يعقاب يوم مفسد

واللبنات تلين وتجمح ، والمآرب تدنو وتنزح ، وتحزن ثم تسمع^(٢) ، وكم من شجاع

(١) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس بن حجر وصدره قوله :

* وإن شفاى عبدة مهراقة *

(٢) تحزن : تجمح ، وتسمع هنا : تلين ويسهل قيادها بعد صعوبة

خام^(١) ، ويقظ نام ، ودليل أخطأ الطريق ، وأضل الفريق ، والله عز وجل يجعلها خلة موصولة ، وشملاً أكنافه بالخير مشمولة ، وبنية أركانها لركائب اليمين مأمولة ، حتى تكثر خدم سيدى وجواريه ، وأسرتهم ومتراريه ، وتصفو عليه نعم باريه ، ما طورد قنيص ، واقتحم عيص ، وأدرك مرام عويس ، وأعطى زاهد وحرم حريص ، والسلام .

توالمفه — شرح البردة شرحاً بديعاً دل به على انفساخ ذرعه ، وتقن إدراكه ، وغزارة حفظه ، وخلص كثيراً من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أيام نظرد في الدقيات تقييداً مفيداً في المنطق ، وخلص محصل الإمام فخر الدين الرازى ، وبه داعبته أول لقيه ، فقلت له : لى عليك مطالبة فإنك لخصت محصلى ، وألف كتاباً فى الحساب ، وشرع فى هذه الأيام فى شرح الرجز الصادر عنى فى أصول الفقه بشئ لا غاية فوقه فى الكمال .

وأما نثره وسلطانياته السجعية فخلج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع ، يفرغ عنها يراعه الجرى ، شبيهة البداآت بالخواتم ، فى نداوة الحروف ، وقرب العهد بحرية المداد ، ونقوذ أمر القريحة ، واسترسال الطبع .

وأما نظمه فنهض لهذا العهد قدماً فى ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه فانثال عليه جوّد ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة .

خاطب السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعائة بقصيدة طويلة أولها :

أُسْرِفَنَ فى هجرى وفى تعذيبى وأطآنَ موقفَ عَبرَتى ونحيبى^(٢)
وأبين يوم البين وقفة ساعة لوداع مشغوف الفؤاد كئيب^(٣)

(١) خام : جبن (٢) العبرة — بالفتح — الدفعة ، والنحيب : البكاء .

(٣) مشغوف الفؤاد : وصل الحب إلى شغاف قلبه .

لله عهد الظاعنين وغادروا قلبي رهين صباية ووجيب^(١)
 غربت ركايبهم ودمعي سافح فشرقت بعدهم بماء غروبي^(٢)
 يا ناقعا بالعتب غلة شوقهم رحاك في عذلي وفي تأنيبي
 يستعذب الصب الملام وإنتي ماء الملام لدى غير شريب^(٣)
 ماهاجني طرب ولا اعتاد الجوى لولا تذكر منزل وحيب
 أهفو إلى الأطلال كانت مطلعا للبدر منهم أو كناس ريب
 عبثت بها أيدي البلى وترددت في عطنها للدهر آي خطوب
 تبلى معاهدها وإن عهودها ليجدها وصفي وحسن نسبي
 وإذا الديار تعرضت لمقيم هزته ذكرها إلى التشيب
 إيه على الصبر الجليل فإنه أوى بدين فؤادي المنهوب
 لم أنسها والدهر يثنى صرفه ويفض طرفي حاسر ورقب
 والدار موقنة محاسنها بما لبست من الأيام كل قشيب^(٤)
 ياسائق الأظمان تعسف الفلا وتواصل الإسآد بالتأويب^(٥)
 متهافتا عن رحل كل مذل نشوان من أين ومس لغوب
 تتجاذب النفحات فضل ردايه في ملتقاها من صبا وجنوب
 إن هام من ظم الصباية صحبه نهلوا بمورد دمع المسكوب
 أو تعرض مسراهم سدوف الدجي صدعوا الدجي بقرامه المشبوب
 في كل شعب منية من دونها هجر الأمانى أو لقاء شعوب
 هلا عطقت صدورهن إلى التي فيها لبانة أعين وقلوب
 فتوهم من أكتاف يثرب مأمنا يكفيك ما نخشاه من تريب

(١) الظاعنين : المفارقين ، والصباية : السير مع دواعي النفس ، والوجيب : خفقتان القلب واضطرابه . (٢) الغروب : جمع غرب ، وهو عرق في العين يسيل منه الدمع . (٣) شريب : مشروب ، فعيل بمعنى مفعول . (٤) القشيب : الجديد . (٥) الإسآد : الإغذاء في السير ، أي الإسراع فيه ، أو هو سير الليل كله بغير تعريس

حيث النبوة آيتها مجلوة
سر غريب لم يحجب به الثرى
وتلو من الآثار كل غريب
ما كان سر الله بالحجوب
ومنها بعد تعديد معجزاته :

يا سيد الرسل الكرام ضراعة
عاقبت ذنوبى عن جنابك والمنى
تقضى مئى نفسى وتذهب حوبى^(١)
فيها تعللى بكل كذوب
لا كالألى صرّفوا العزائم لللقى
لم يخلصوا لله حتى فرقوا
هبا لى شفاعتك التى أرجو بها
إن النجاة وإن أتيت لامرى
إنى دعوتك واثقا بإجابتى
قصرت فى مدحى فإن يك طيباً
ماذا عسى يبنى المطيل وقد حوى
ياهل تبلغنى اللى الى زورة
أحو خطيئأتى بإخلاصى بها
فى فتية هجروا المنى وتعودوا
يطوى صحائف ليلهم فوق القلا
إن رنم الحادى بذكرك رددوا
أوغرد الركب الجلى بطيبة
ورثوا اعتساف اليد عن آبائهم
الطاعنون الخليل وهى عوايس
تدنى إلى الفوز بالمرغوب
وأحط أوزارى وإصر ذنوبى^(٢)
إنضاء كل نجية ونجيب^(٣)
ما شئت من حبيب ومن ت قريب^(٤)
أنفاس مشتاق إليك طروب
حنّوا لمغناها حنين النيب
إرث اخلافة فى بنى يعقوب
يعشى مئار النقع كل سيب

(١) الحوب - بضم الحاء - الذنب والإثم

(٢) الأوزار : جمع وزر - بالكسر - وهو الذنب ، والإصر - بالكسر أيضاً -

ثقل الذنب (٣) أنضى ناقته إنضاء : حملها على السير حتى أهزلها

(٤) الحجب والتقريب : ضربان من السير السريع

والواهبون المقربات هواتنسا
والمانعون الجبار حتى عرضهم
تُخَشَى بوادهم وَيُرْجَى حلهم
من كل خوَار العنان لعوب (١)
في منتدى الأعداء غير معيب
والعز شـيعة مرْتَجَى ومهيب

ومنها :

سائل به طامى العُباب وقد سرى
تهديه شهبُ أسنة وعزائم
حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه
يا ابن الألى شادوا الخلافة بالتقى
جمعوا بحفظ الدين آى مناقب
الله مجـدك طارفا أو تالدا
كم رهبة أو رغبة لك والاعلا
لا زلت مسروراً بأشرف دولة
تجني المعالى غاديا أو راحا
تزجي بريح العزم ذات هبوب
يصدغن ليل الحادث المرهوب (٢)
وسطا الهدى بفريقها المغلوب
واستأثروك بتاجها العصوب
كرموا بها فى مشهد ومغيب
فلقد شهدنا منه كل عجب
تقتاد بالترغيب والترهيب
يبدو الهدى من أفقها المرقوب
وجديدُ سعدك ضامن المطلوب
وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هدية ملك السودان إليه وفيها الزرافة :

قدحت يد الأشواق من زندي
ونبذت سلوانى على ثقة
ولرب وصل كنت آمله
لا عهد عند الصبر أطلبه
يلجى العذول فما أعنفه
وأعارض النفحات أسألها
وهفت بقابى زفرة الوجد
بالقرب فاستبذات بالبعد
فاعتضت مقه مؤلم الصد
إن الغرام أضاع من عهدى
وأقول صل فأتبنى رشدى
بزد الجوى فزيد فى الوعد

(١) المقربات : الخيل

(٢) صدعه يصدعه : شقه وكسره ، وأراد هنا أن نورها ظهر فى ظلام الليل ،
فكانها فلتت الظلام فلما .

تهدى الغرام إلى مسالكها لتعلى بضعيف ما تهدي
يا سائق الوجناء معتسفا طى الفلاة لطية الوجـد^(١)
أريح الركاب فى الصَّبَا نبأ يغنى عن المسنة الجرد^(٢)
وسل الربوع برامة خبرا عن ساكني نجد وعن نجد
مالى تلام على الهوى خلقى وهى التى تأبى سوى الحمد
لايت إلا الرشد مذ وضحت بالمستعين معالم الرشد
نعم الخليفة فى هدى وتقى وبناء عز شامخ الطود
نجل السراة الفر شأنهم كسب العلا بمواهب الوجد

ومنها :

لله مِنِّى إِذ تَأَوَّبَنِ ذكراه وهو بشاهق فرد^(٣)
شهم يفل بوارا قضا وجوع أفيال أولى أيد
أوريت زند العزم فى طلي وقضيت حق الحمد من قصدى
ووردت عن ظمأ مناهله فرويت من عز ومن رفد^(٤)
هى جنة المأوى لمن كلفت آماله بمطالب المجد
لو لم أعلَّ بورد كوثرها ما قلت هذى جنة الخلد
من مبالغ قومي ودونهم قذِفُ النوى وتَنوِّفُ البعد
أبى أنفت على رجائهم وملكت عز جميعهم وحدى

ومنها :

ورقيمة الأعطاف حالية مؤشية بوشائع البرد
وحشية الأنساب ما أنست فى موخش البيداء بالقرد

(١) الوجناء : الناقة السريعة السير (٢) المسنة الجرد: أراد الخيل القصيرة الشعر

(٣) تأوَّبني : عاودنى ورجع إلى (٤) الرفد - بالكسر - العطاء

تسمو بجيد بالغ صُعُداً شرف الشُّروح بغير ما جهد
طالت رؤس الشاخات به ولربما قصرت عن الوهد
قطعت إليك تنافوا وصلت إشادها بالنص والوخد^(١)
تحدى على استصعابها ذُللاً وتبيت طوع اقن والقُد^(٢)
بسعودك اللأى ضمن لنا طول الحياة بعيشة رغد
جاءتك في وفد الأحابش لا يرجون غيرك مكرم الوفد
وافوك أنضاء تـقلبهم أيدي الشرى بالقور والنجد
كالطيف يستقرى مضاجعه أو كالحسام يسـل من غمد
يثنون بالحسنى التي سبقت من غير إنكار ولا جحد
وبرون لحظك من وفادتهم فخرأ على الأتراك والهند
يا مستعينا جل في شرف عن رتبة المنصور والمهدى
جازاك ربك عن خليفته خير الجزاء فنعم ما تسدى
وقيت للدنيا وساكنها في عزة أبدا وفي سـعد

وقال يخاطب عمر بن عبد الله مدبر ملك المغرب .

ياسيد الفضلاء دعوة مشفق نادى لشكوى البث خير سميع
مالى وللإقصاء بعد تـعلة بالقرب كنت لها أجل شفيع
وأرى الميالى رنقت لى صافيا منها فأصبح فى الأجاج شروى
ولقد خلصت إليك بالقرب التى ليس الزمان لشلها بصدوع
ووفقت منك بأى وعد صادق إنى المصون وأنت غير مُضيع
وسما بنفسى للخليفة طاعة دون الأنام هراك قبل نزوع

(١) الإساد : السير ، والنص والوخد : ضربان من السير السريع

(٢) الدل : جمع دلول ، وهى التى ريض حتى سهل قيادها . والقن والقُد : أراد بهما ما تربط به من حبل ونحوه .

حتى انتحاني الكاشحون بسعيهم
 رغمت أنوفهم بنُججٍ وسائلي
 وبغوا بما تقوموا على خلائقي
 لا تطعمهمُ ببذل في التي
 أني أضام وفي يدي القلم الذي
 ولي الخصاص ليس تأبى رتبة
 قسما بمجدك وهو خير ألية
 إني لتصطحب الهمومُ بمضجعي
 عطفًا على بوخذتي عن معشر
 أغدو إذا باكرتهم متجلدا
 حيران أوجس عند نفسي خيفة
 أطوى على الزفرات قلبا آده
 ولقد أقول لصرف دهر رابي
 مهلا عليك فليس خطبك ضأري
 إني ظفرت بعصمة من أوحد

وقال يخاطب بعض الوزراء في حال وحشة :

هنيئا بصوم لا عداه قبولُ
 وهنيئا من عزة وسعادة
 سقى الله دهرًا أنت إنسان عينه
 فمعصرك ما بين الليالي مواسم

وبشري بعيد أنت فيه منيل
 تتابع أعوامها وفصول
 ولا مَسَّ ربعًا في حماك محول^(١)
 لها غرر وضاحة وحجول

(١) انتحاني : قصدني ، والكاشحون : المبغضون ، ومنيعي : مانعي منهم

(٢) مروع : اسم المفعول من « راعه يروعه » أي أخافه .

(٣) أجن دروع : أكرها وقاية (٤) محول : جمع محل ، وهو الجذب

وجانبك المأمول للوجود مشرع
عساك وإن ضنّ الزمان منوّلى
أجرنى وليس الدهر لى بمسالم
وأوليتنى الحسنى بما أنا آمل
ووالله ما رُمْتُ الترحل عن قلى
ولا رغبة فى هذه الدار إنها
ولكن نأى بالشعب عنى حباب
يهيج بهن الوجد أنى نازح
عزيز عليهن الذى قد لقيته
توارت بأنبأى البقاع كأننى
ذكرتك يا مغنى الأحبة والهوى
وحيت عن شوق ربك كأنما
أحبابنا والعهد بينى وبينكم
إذا أنا لم ترض الجول مدامى
إلام مقامى حيث لم ترد العلا
أجاذب فضل العمر يوماً وليلة
ويذهب فيما بين يأس ومطمع
تعلانى منه أمانى خوادع
أما لليال لا ترد خطوبها
يروعنى من صرفها كل حادث

يحوم عليه عالم وجهول
فرسم الأمانى من سواك تحيل^(١)
إذا لم يكن لى فى ذراك مقيل^(٢)
فمثلك يولى راجياً وينيل
ولا سخط للعيش فهو جزيل
لظلّ على هذا الأنام ظليل
دعاهنّ خطب للفراق طويل
وأن فؤادى حيث هنّ خلول^(٣)
وأن اغترابى فى البلاد يطول
تخطّفت أو غالت ركابى غول
فطارت بقلبى أنه وعويل
يمثّل لى نؤى بها وطلول^(٤)
كريم ، وما عهد الكريم يحول
فلا قرّبتنى للقاء حول
مرادى ولم تعط القياد ذلول ؟
وساء صباح بينها وأصيل
زمان بنيل المكرمات بخيل
ويؤيسنى ليّان منه مطول
ففى كبدى من وقعهن فلول
تكاد له صمّ الجبال نزول

(١) تحيل : دارس متغير (٢) ذراه - بفتح الذال - جانبه وناحيته

(٣) خلول : مقيمون

(٤) النؤى - بضم النون - حيرة تجعل حول الخيمة لئلا يدخلها المطر .

أذاري على رغم العدا لا لريبة
وأغدو بأشجاني غليلا كأنما
وإني وإن أصبحت في دار غربة
وصدّقتني الأيام عن خير منزل
لأعلم أن الخير والشر ينهني
وأني عزيز بآب من ماسى مكثر
وقال يمدح :

هل غير بابك للغريب مؤمل
هي همة بعثت إليك على النوى
متبوءاً الدنيا ومنتجع المنى
حيث القصور الزاهرات منيفة
حيث الخيام البيض ترفع للاملا
حيث الحمى للعزود بحاله
حيث السكرام ينوب عن نار القرى
حيث الجياد أمهلن بنو الوغى
حيث الوجوه الغر قمعها الحيا
حيث الملوك الصيّد والنفر الألى
وأشذ السلطان أبا عبد الله بن الحجاج لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم عام أربعة وستين وسبع مائة هذه القصيدة :

حي المعاهد كانت قبل تُخَيِّنِي بواكف الدمع يرويهها ويُظْمِنِي

- (١) الغليل : حرارة الباطن (٢) يدل : يجعل لى الدولة عليهم
(٣) شحذ : صقل ، والحسام : السيف ، والصيقل : الذى أحد وصار قاطعا
(٤) العارض : السحاب (٥) الوشيح الذبل : أراد الرماح
(٦) الكبراء - بزنة الكتاب - وكذا المنديل : ضربان من العود الطيب الرائحة

إن الألى نزلت دارى ودارهم
وقفت أنشد صبرا ضاع بعدهم
أمثل الربع من شوق وألمه
وينهب الوجد منى كل لؤلؤة
سقت جفونى مغانى الربع بعدهم
قد كان للقلب عن داعى الهوى شغل
أحبائنا هل لعهد الوصل مدد كـ
مالى وللطيف لا يعتاد زائره
يا أهل مجد وما نجد وساكنها
أعندكم أنى مامرّ ذكركم
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكم
يا نازحا والمنى تدنيه من خلدى
أسلى هواك فؤادى عن سواك وما
ترى الليالى أنستك أدكارى يا
ومنها :
أبعد مرّ الثلاثين التى ذهبت
أضعت فيها نفساً ماوردت به
واحسرتى من أمانى كلها خدع
ومنها فى وصف المشور المبني لهذا العهد :
يا مصنعا شيدت منه السعود حتى
أولى الشباب بإحسانى وتحسينى
إلأسراب غرور لا يروينى
تريش غيى ومر الدهر يبرينى (٣)
لا يطرق الدهر مبناه بتوهين

(١) أنشد صبرا : أطابه ، من قولهم « نشد فلان الضالة » والرسم : أمر الديار

(٢) اثنت : عدت ورجعت ، وكان الراح تثنى : يريد أنه ذاهب العقل

(٣) تریش : يريد تقوى ، ويرينى : يريد يضعفى

صرح يحار لديه الطرف مفتتنا فيما يروقك من شكل وتسكوين
 بُعداً لا يوان كسرى إن مشورك السامى لأعظم من تلك الأواوين
 ودع دمشق ومغناها فقصرُك ذا أشهى إلى القلب من أبواب جبرون
 ومنها في التعريض بالوزير الذى كان انصرافه بسببه :

مَنْ مَبْلَغَ غنى الصَّحْبِ الألى جهلوا وَدَى وضاع حمام إذ أضاعونى
 أنى أوتيتُ من العليا إلى حرم كادت مغانيه بالبشرى تحمينى (١)
 وأننى ظاعن لم ألق بعدهم دهرأ أشاكى ولا خصما يشا كينى
 لا كالتى أخفرت عهدى ليالى إذ أقلب الطرف بين الخوف والهون
 سقيا ورعيا لأيامى التى ظفرت يدانى منها بحظٍّ غير مغبون
 أرتاد منها مليا لا يماطلنى وعدا وأرجو كريماً لا يُعَنِّينى (٢)

ومنها :

وهاك منها قوافٍ طيَّها حكم مثل الأزاهر فى طى الرياحين
 تلوح إن جُلِّيتْ درا ، وإن تليتْ تثنى عليك بأنفاس البساتين
 عانيت منها بجهدى كل شاردة لولا سعودك ما كانت تواتينى (٣)
 يمانع الفكر عنها ما تقسمه من كل حزن بطى الصدر مكنون
 لسكن بسعدك ذلتُ لى شواردها فرُضْتُ منها بتجبير وتزين (٤)
 بقيت دهرُك فى أمن وفى دعة ودام ملكك فى نصر وتمكين

(١) أويت : ركنت ، وكأنه جعله مأوى له

(٢) لا يعنينى : لا يتبعنى ولا يشق على

(٣) تواتينى : تسعفى

(٤) ذلت : خضعت وانقادت ، وشواردها : نوافرها ، واحدها شاردة ، وأصلها
 اللابة تنفر من راحبها وتصب عليه فلا يزال يروضها وينلها حتى يسلس له قيادها ،
 شبه القوافى بها ، والتجبير : أراد به التحسين .

وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة قد استعمل في السفارة إلى ملك قشتالة فراقه وعرف حقه .

مولده بتونس بلده في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعائه ، انتهى كلام لسان الدين في حق ابن خلدون .

قلت : هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادئ أمره وأواسطه ، فكيف لو رأى تاريخه الكبير الذي نقلنا منه في مواضع وسماه « ديوان العبر ، وكتاب المبتدأ والخبر ، في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ورأيت به نفاس وعليه خطه في ثمان مجلدات كبار جداً ، وقد عرف في آخره بنفسه ، وأطال ، وذكر أنه لما كان بالأندلس وحظى عند السلطان أبى عبد الله شمس من وزيره ابن الخطيب رائحة الانتباض ، فقوض الرحال^(١) ، ولم يرض من الإقامة بحال ، ولعب بكرته صوالجة الأقدار ، حتى حل بالقاهرة المعزية واتخذها خير دار ، وتولى بها قضاء القضاة وحصلت له أمور ، رحمه الله تعالى ! .

وكان - أعنى الولي بن خلدون - كثير الثناء على لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى ! .

ولقد رأيت بخط العالم الشهير : الشيخ إبراهيم الباعوني الشامي فيما يتعلق بابن خلدون مانص محل الحاجة منه : تقلبت به الأحوال حتى قدم إلى الديار المصرية ، وولى بها قضاء قضاة المالكية ، في الدولة الشريفة الظاهرية ، وصحبته - رحمه الله تعالى ! - في سنة ٨٠٣ عند قدومه إلى الشام صحبة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق في فتنة تمرلنك عليه من الله تعالى ما يستحقه ، وأكرمه تمرلنك غاية الإكرام ، وأعادته إلى الديار المصرية ، وكنت أكثر الاجتماع به بالقاهرة المحروسة للمودة الحاصلة بيني وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين

(١) قوض الرحال : أراد أنه انتقل عن هذه البلاد ، وأصله أن العرب كانت يوتهم خياما ، وكانوا أصحاب رحلة ؛ فكانوا إذا أرادوا الانتقال قوضوا خيامهم أي هدموها وحملوها على إبلهم ؛ ولذلك يقولون في هذا المعنى أيضا « شدوا رحالهم » و « تحملوا » .

ابن الخطيب ، ويورد من نظمته ونثره ما يشنف به الأسماع ، وينعقد على استحسانه الإجماع ، وتتقاصر عن إدراكه الأطماع ، فرحمة الله تعالى عليهما ، وأزكى تحيياته تهدي إليهما ! ولقد كان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان ، وله من النظم والنثر ما يزري بعقود الجنان ، مع الهمة العالية ، والتبحر في العلوم القلابة والعقلية ، وكانت وفاته بالقاهرة العزيزية سنة ٨٠٧ ، سقى الله تعالى عهده ! ووطأ في الفردوس مهده ! قاله وكتبه الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن أحمد الباعوني الشافعي ، غفر الله تعالى له زلله ، وأصلح خله ! انتهى .

ترجمة يحيى
البرغواطى
من انشاء
لسان الدين

ومن نثر لسان الدين ما ذكره في « الإحاطة » في ترجمة يحيى بن إبراهيم ابن يحيى البرغواطى من بنى الترجمان ، ولنذكر الترجمة بجملة لاشتمالها على ما ذكر وغيره في حق المذكور بعد قوله « إنه من بنى الترجمان » ما صورته : عزف عنهم^(١) وانقطع إلى لقاء الصالحين ، وصحبة الفقراء المتجربين ، وكان نسيجاً وخديراً في طلائف اللسان ، حافظاً لكل غريبة من غرائب الصوفية ، يتكلم في مشكلاتهم ، حفظ « منازل السائرين » للهروي ، وتائية ابن الفارض ، مליح الملبس ، مترفع عن الكدزية^(٢) ، حسن الحديث ، صاحب شهرة ، ومع ذلك فمغضوض منه ، محمول عليه ، لما جبل عليه من رفض الاصطلاح ، واطراح التغافل ، مولى بالنقد ، والخافقة في كل ما يطرق سمعه ، مرشحاً ذلك بالجدل المبرم ، ذاهباً أقصى مذاهب التحنة ، كثير الغلتات ، نالته بسبب هذه البلية محن ، ووسم بالرهق في دينه مع صحة العقيد ، وهو الآن عامر الرباط المنسوب إلى اللجام على رسم الشياخة ، عديم التابع ، مهجور الفناء ، قيد الكثير من الأجزاء : منها في نسبة الذنب إلى الذاكِر جزء نبيل غريب المأخذ ، ومنها فيما أشكل من كتاب أبي محمد بن الشيخ ، وصنف كتاباً كبير الحجم

(١) عزف عنهم : أى انصرف عنهم وتركهم

(٢) الكدزية : أراد بها السؤال ، والمستعمل في كلام العرب في هذا المعنى « التكدية » يقولون « كدى تكدية » ولكن المولدين يستعملون هذا اللفظ كثيراً .

في الاعتقادات جلب فيه كثيراً من الحكايات ، رأيت عليه بخط شيخنا أبي عبد الله المقرئ ما يدل على استحسانه ، ومن البرسام الذي يجري على لسانه ، بين الجدد والفحة والجهالة والجمانة ، قوله لبعض خدام باب السلطان وقد ضويق في شيء أضجره منقولاً من خطه بعد رد كثير منه الإعراب ما نصه : الله نور السموات من غير نار ولا غيرها ، والسلطان ظل له وسراجـه في الأرض ، ولكل منهما فرّاش مما يليق به ويتهافت عليه ، فهو تعالى محرق فراشه بذاته ، مغرفهم بصفاته وسراجـه ، وظله هو السلطان محرق فرّاشـه بناره ، مغرفهم بزيقته ونواله ، ففرّاش الله تعالى ينقسم إلى حافين ومسبحين ومستغفرين وأمناء وشاخصين ، وفرّاش السلطان ينقسمون إلى أقسام لا يشذ أحدهم عنها ، وهم وزغة ابن وزغة ، وكناب ابن كناب ، وكناب مطلقاً ، وعار ابن عار ، وملعون ابن ملعون ، وقط ، فأما الوزغة فهو المنقرق في زيت نواله المشغول بذلك عما يليق بصاحب النعمة من النصيح وبذل الجهد ، والكناب ابن الكناب هو الكيس المتحرز في تهافته من إحراق وإغراق يعطى بعض الحق ويأخذ بعضه ، وأما الكناب مطلقاً فهو المواجه وهو المشرّد للسفهاء عن الباب المعظم القليل النعمة ، وأما العار ابن العار فهو المتعاطى في تهافته ما فوق الطرق ، ولهذا امتاز هذا الاسم بالرياسة عند العامة إذا مر بهم جلف أو متعاطم يقولون : هذا العار ابن العار ، يحسب نفسه رئيساً ، وذلك لقرب المناسبة ؛ فهو موضوع لبعض الرياسة ، كما أن الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة ، وأما الملعون ابن الملعون فهو المغالط المعاند المشارك له بالمنعم عليه في كبريائه وسلطانه ، وأما القط فهو الفقير مثلى المستغنى عنه لكونه لا تختص به رتبة ، فتارة في حجر الملك ، وتارة في السنداس ، وتارة في أعلى الرتب ، وتارة محسن ، وتارة مسيء ، تغفر سيئاته الكثيرة يأذى حسنة ، إذ هو من الطوّافين ، متطير بقتله وإهاتته ، تياه في بعض الأحيان بعزة يجدها من حرمة أبقاها له الشارع ، وكل ذلك لا يخفى ، وأما الفرّاش المحرق

فهو عند الدول نوعان : تارة يكون ظاهراً وحصلته مسح المصباح وتصفية زيتيه ، وإصلاح فتيله وستر دخانه ومسايسة ما يكون من المطلوب منه ، ووجود هذا شديداً الملازمة ظاهراً ، وأما المحرق الباطن فهو المشار إليه في دولته بالصالح والزهد والورع فيعظمه الخلق ويترك لما هو بسبيله ، فيكون وسيلة بينهم وبين ربهم وخليفته الذي هو مصباحهم ، فإذا أراد الله تعالى إهلاك المروءة وإطفاء مصباحها تولى ذلك أهل البطالة والجهالة ، وكان الأمر كرايتم ، والكل قرّاش متهافت ، وكل يعمل على شاكلته . قال الوزير لسان الدين : وطلب منى السكتب عليه بمثل ذلك فكتبت ببعض أوراقه إثارة لضجره ، واستدعاء لفساكة انزعاجه ، ما نصه : وقفت من السكتاب المنسوب لصاحبنا أبي زكريا البرغواطى على برسام محمود^(١) ، واختلاط مذموم ، وانتساب زنج في روم ، وكان حقه أن يتهيب طريقاً لم يسلكها ، ويتجنب عقيلة لم يملكها ، إذ المذكور لم يتلق شيئاً من علم الأصول ، ولا نظر من الإعراب في فصل من الفصول ، إنما هي قبحه وخلاف ، وتهاون بالمعارف واستخفاف ، غير أنه يحفظ في طريق القوم كل نادرة ، وفيه رجولية ظاهرة ، وعنده طلاقة لسان ، وكفاية قلما تتأق للإنسان ، فإلى الله نضرع أن يعرفنا مقادير الأشياء ، ويجعلنا بمعزل عن الأغبياء ، وقد قلت مرتجلاً من أوّل نظرة ، واجتزاء بقليل من كثرة :

كل جار لغاية مرْجُوءه فهو عندى لم بعد حق الفتوة
وأراك افتحمت ليلاً بهيماً مولجاً منك ناقة في كوة
لا اتباعاً ولا اختراعاً أتتنا إذ نظرنا عروسك المجلوة

(١) أصل البرسام - بكسر الباء أو فتحها - التهاب يعرض للحجاب الذي بين الكبد والقلب ، فارسى مركب ، ومعناه التهاب الصدر ، ويقولون « فلان مبرسم » و « برسم فلان » بالبناء للجهول - وهم يريدون أنه يهنى ويهرق ، لأن من لوازم البرسام اشتداد الحرارة ، فينشأ عنه الهذيان .

كل ما قلته فقد قاله الناس مقالا آياته متلوّه
لم تزد غير أن أبحث حمى الإعراب في كل لفظة مقروّه
نسأل الله فكرة تلزم العقول إلى حشمة تحوط المروّه
وعزيز على أن كنت يحيي ثم لم تأخذ الكتاب بقوة^(١)

ومن بديع نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه لسلطان تلمسان إثر قصيدة من لسان الدين
سينية حازت قصب السبق ، ولتثبت الكل هنا فنقول : قال الإمام الحافظ عبد
الله القنيسي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ، عند ما جرى ذكر أمير المسلمين السلطان
أبي حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن بن زيان رحمه الله تعالى ،
ما صورته : وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب كثيراً ما يوجه
إليه بالأمداح ، ومن أحسن ما وجه له قصيدة سينية فائقة ، وذلك عندما أحس
بتغير سلطانه عليه ، فجعلها مقدّمة بين يدي نجّواه ، لتمهد له مثواه ، وتحصل له
المستقر ، إذا ألباه الأمر إلى المفر ، فلم تساعده الأيام ، كما هو شأنها في أكثر
الأعلام ، وهى هذه :

أطلعن في سُدْفِ الفروع شُمُوسًا ضحك الظلام لها وكان عبُوسًا^(٢)
وعطفن قُضْبًا للقدود نواعما بوثن أدواح النعيم غُرُوسًا
وعدّكن عن جهر السلام مخافة الواشى فجئن بلفظه مهموسًا
وسفرن من دَهَشِ الوداع وقومهنَّ إلى الترحل قد أناخوا العيسا
وخلسن من خلل الحجال إشارة فتركن كل حبالها مخلوسا
لم أنسها من وحشة والحي قد زجر الجول وآثر التغلisa
لالملقى من بعدها كُثْبٌ ولا عوجُ الركائب تسأم التجنيسا^(٣)

(١) يشير إلى قوله تعالى في شأن يحيى بن زكريا : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة)
(٢) السدف : جمع سدفة - بالضم - أى الظلمة ، والفروع : جمع فرع ، وهو
الشعر ، وأزاد بالشموس وجوههن . (٣) كُثْبٌ : قريب ، والعوج : الضامرة
من الإبل التى اعوجت هزالا وجوعا ، واحدها أعوج أو عوجاء .

فوقفت وقفة هائم برحاؤه وفقت عليه وحبت تحبسا
 ودعوت عيني عاتبا وعيونها بعصا النوى قد بحبت تبجيسا^(١)
 نافست يا عيني دردموعهم فعرضت درا للدموع نفيسا
 ما للحمى بعد الأحبة موحشا ولكم تراهي أهلا مأوسا
 ولسير به حول الخيلة نافرا عن يحس به وكان أنيسا
 وظاله المورد غمر قلبيه لا يقتضى وردا ولا تعريسا
 حيدته فأجاني رجع الصدى لا فرق بينهما إذا ما قيسا
 ما إن يزيد على الإعادة صوته حرفا فيشفي بالمزيد نيسا
 نصب المعين وقلص الظل الذي ظلنا عكوفاً عنده وجلوسا
 نتواءد الرجعى ونغتم اللقاء وندير من شكوى الغرام كؤسا
 فإذا سألت فلا تسأل مخبرا وإذا سمعت فلا تحس حيسا
 عهدى به والدهر يتحف بالمنى وقد اقتضت نعاماً أن لا بوسا
 والعيش غص الربيع والدنيا قد اجتليت بمغناه على عروسا
 أنرى يعيد الدهر عهداً للصبأ درست مغاني الأنس فيه دروسا
 أوطان أوطار تعوض أقمها من رونق البشر البهى عبوسا
 هيئات لا تغنى لعل ولا عسى فى مثله إلا لآية عيسى
 والدهر فى دسّ القضاء مدرس فإذا قضى يستأنف التدريسا
 تفتن فى جمل أورى أبحائه لا سيما فى باب نعم ويسا
 وسجية الإنسان ليس بناصر من صبهها حتى يرى مرؤسا
 يغتر مهما ساعدت آماله فإذا عراه الخطب كان يؤسا

(١) بحبت تبجيسا : أراد انهمرت الدموع منها ، وأخذ هذه الاستعارة من قوله تعالى فى شأن موسى عليه السلام (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانجست منه اثنتا عشرة عينا) .

فَلَوْ أَنَّ نَفْسًا مَكَنتَ مِنْ رَشْدِهَا يَوْمًا وَقَدَّمَهَا الْهَدَى تَقْدِيسًا
لَمْ نَسْتَفِزْ رَسُوخَهَا النَّمْعَى وَلَا هَلَعْتَ إِذَا كَشَّرْتَ إِلَيْهَا الْبُوسَا
قُلْ لِلزَّمَانِ إِلَيْكَ عَنْ مَتَدَمٍّ بَضْمَانٌ عَزَّ لَمْ يَكُنْ لِيخْيِسَا (١)
فَإِذَا اسْتَحَرَّ جَلَادَهُ فَأَنَا الَّذِي اسْتَفْشَيْتُ مِنْ سَرْدِ الْيَقِينِ لَبُوسًا
وَإِذَا طَنَى فِرْعَوْنَهُ فَأَنَا الَّذِي مِنْ ضَرَرِهِ وَأَذَاهُ عُدْتُ بِمُوسَى
أَنَا ذَا أَبُو مَمْشَوَاهُ مَنْ يَحْمِي الْحَمَى لَيْثًا وَيَعْلَمُ بِالزَّئِيرِ الْخَلِيسَا
يَحْمِي أَبِي حَمُو حَطَطْتَ رِكَائِبِي لَمَّا اخْتَبَرْتَ الْإِيثَ وَالْعَرِيسَا
أَسَدُ الْهِيَاجِ إِذَا خَطَا قَرْمًا سَطَا فَتَخَلَّفَ الْأَسَدُ الْهَزْبُ فَرِيسَا
بَدْرُ الْهَدَى يَأْبَى الضَّلَالِ ضِيَاؤُهُ أَبْدَا فَيَجْلُو الظَّالِمَةَ الْخُنْدِيسَا
جَبَلُ الْوَقَارِ رَسَا وَأَشْرَفَ وَاعْتَلَى وَسَمَا فَنَاطَاطَ الْجِبَالُ رُؤُوسَا
غَيْثُ النَّوَالِ إِذَا الْغَمَامُ حَلُوبَةٌ مَثَلَتْ بِأَيْدِي الْحَالِبِينَ بَسُوسَا
تَلْقَاهُ يَوْمَ الْأَنْسِ رَوْضَا نَاعِمًا وَتَرَاهُ بِأَسَا فِي الْهِيَاجِ بَثِيسَا
كَمْ غَمْرَةٌ جَلَى وَكَمْ خُطْبٌ كَفَى إِنْ أَوْطَأَ الْجُرَدَ الْعَتَاقَ وَطِيسَا
كَمْ حِكْمَةٌ أَبْدَى وَكَمْ قَصْدٌ هَدَى لِلْسَّالِكِينَ أَبَانَ مِنْهُ دَرِيسَا
أَعْلَى بَنَى زِيَانٌ وَالْقَدُّ الَّذِي لَبَسَ الْكَمَالَ فَزَيْنَ الْمَلْبُوسَا
جَمَعَ الْغَدَى وَالْبَاسَ وَالشِّيمَ الْعَلَا وَالسُّودْدَ الْمُتَوَاتِرَ الْقُدْمُوسَا
وَالْحَلْمَ لَيْسَ بِيَايِنَ الْخَلْقِ الرُّضَى وَالْعِلْمَ لَيْسَ يَعَارِضُ النَّامُوسَا
وَالسَّعْدَ يَغْنَى حِكْمُهُ عَنْ نَصْبَةِ تَسْتَخْبِرُ التَّرْبِيعَ وَالتَّسْدِيسَا
كَمْ رَاضٍ صَعْبًا لَا يَرِاضُ مُعَاصِيَا كَمْ خَاضَ بِحَرَائِلِ الْيَخَاضِ ضَرُوسَا
بَلَغَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا مَتَاهَا وَعَلَا السَّهْمَا وَاسْتَسْفَلَ الْبَرَجِيسَا

(١) إِلَيْكَ : أَي تَنَجَّ وَابْعَد . وَمَتَدَمٍّ : أُرَادَ بِهِ الْمُتَمَسِّكُ بِذِمَّةِ وَعْدهُ ، وَيَخْيِسُ

يَغْدِرُ ، تَقُولُ « خَاسَ فُلَانٌ بَعْدَهُ يَخْيِسُ خَيْسًا » إِذَا غَدَرَ وَنَكَثَ

يا خير من خفت عليه سحابة
وأجل من حملته صهوة ساج
قسما بمن رفع السماء بغير ما
ودحا البسيطة فوق لُجج مُزبد
حتى يهيب بأهله الوعد الذي
ما أنت إلا ذخر دهرك دمت في
لوساومته الأرض فيك بما حوت
حلف البرور بها أليّة صادق
من قاس ذاتك بالذوات فإنه
لا تستوى الأعيان فضل مزية
لعناية التخصيص سر غامض
من أنكر الفضل الذي أوتيته
من دان بالإخلاص فيك فعهده
والمنتمى العلوى عيصك لم تكن
بيت البتول ومنبت الشرف الذي
أما سياساتك التي أحكمتها
فلو أن كسرى الفرس أبصر بعضها
لوسار عدلك في السنين لما اشتكت
ولو الجوارى الخنس انتسبت إلى
قُذت الصعاب فكل ضعب سامح

للنصر تُمطره أجش بجيسا
إن كر ضعضع كره الكر دوسا^(١)
عمد ورفّع فوقها إدريسا
ما إن يزال على القرار حبيسا
حشر الرئيس إليه والمرؤسا
الصون الحريز مُتمّعا محروسا
لراك مستاما بها مبخوسا
ويمين من عقد اليمين غموسا
جهل الوزان وأخطأ التقيسا
وطبيعة فطر الإله وسوسا^(٢)
من قبل ذرّه الخلق خصّ نفوسا
جحد العيان وأنكر المحسوسا
لا يقبل التوبة والتلبيسا
لترى دخيلا في بنيّه ديسا
تحمى الملائك روحه المغروسا
ورميت بالتقصير إسطاليسا
ما كان يطمع أن يعد بسوسا
بخسا ، ولم يك بعضهن كيبسا
إقدام عزمك ما خسن خنوسا
لك بالقياد وكان قبل شُموسا

(١) الصهوة : مقعد الفارس من الفرس ، والساج : أراد به الفرس السهل السير كأنه يسبح في الماء فهو لا يتعب راكبه ، وكر : أقدم في الحرب ، وضعضع : أضعف والكر دوس - بضم الكاف - أراد به السكتية من الجيش .

(٢) السوس - بالضم - الخيم والسجية والطبيعة .

تلقى الليوث ولقّتا غمامة قدح الصفيح وميضها المقبوسا
وكانها تحت الدروع أراقم ينظرون من خلل المغافر شوسا
ملا بن مامة في القديم وحاتم ضرب الزمان بجودهم ناقوسا
من جاء منهم مثل جودك كلما حسبوا المكارم كسوة أو كيسا
أنت الذي فتك السفين وأهله إذ أوسعت سبل الخلاص طموسا
أنت الذي أمددت ثغرا لله بالصداقات تبلس ككرة إبليس
وأعنت أندلسا بكل سبيكة موسومة لا تعرف التدنيسا
وشحنته بالبر في سبل الرضا والبر قارب قاعها القاموسا
إن لم تجر بها الخميس فطالما جهزت فيها للنوال خميسا
وملأت أيديها وقد كادت على حكم القضاء تُشافه التفليسا
صدقت للأمال صنفعة جابر وكفيتها التشميع والتشميسا^(١)
والحل والنقطير والتصعيد والتخمير والتصويل والتكيسا
فسبكت من آمالها مالا ، ومن أوراقها ورقا ، وكن طروسا
بهتوا فلما استخبروا لم ينكروا وزنا ولا لونا ولا ملموسا
وتدبر من قلب الشطور سبائكا منها ومن طبع الحروف فلو سا
ونحوت نحو الفضل تعضد منه بالمسموع ما ألفت منه مقبسا
وجبرت بعد الكسر قومك جاهدا تقني العديم وتطلق المحبوسا
ونشرت راية عزم من بعدما دال الزمان فسامها تنكيسا
أحكمت حيلة برهم بلطافة قد أعجزت في الطب جالينوسا
وفلت من حد الزمان وإنه أوحى وأمضى من غرار موسى^(٢)

(١) يريد جابر بن حيان ، وهو من اشتهر بالكيمياء ، والألفاظ التي استعملها في هذا البيت والذي بعده من مصطلح علم الكيمياء . (٢) غرار موسى : حده .

وشحذت حَدًّا كَانَ قَبْلُ مُثْلَمَا ونعشت جَدًّا كَانَ قَبْلُ تَعْيِسَا^(١)
لم تَرْجُ إِلَّا اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ فِي شِدَّةٍ تَكْفِي وَجْرَحَ يُوسَى
قَدِمْتُ صَبْحًا فَاسْتَضَاءَتْ بَنُورُهُ وَوَجَدْتُ عِنْدَ الشِدَّةِ التَّنْفِيسَا
مَا أَنْتَ إِلَّا وَالْجَمُّ مَتِيقُنْ بِالتَّجَحُّجِ تَعْمُرُ مُمَرِّعًا وَيَبْيَسَا
وَمُنَاجِزَ جَمَلِ الْأَرِيكَةِ صَهْوَةً عَرِيصَةً وَالْمَشَاكَ الْقَرَبُوسَا
مَا إِنْ تَبَايَعَ أَوْ تَشَارَى وَاقْتَا بِالرَّيْحِ إِلَّا الْمَالِكُ الْقُدُوسَا
وَالْعَزْمُ يَفْتَرَعُ النُّجُومَ بِنَاوِهِ مَهْمَا أَقَامَ عَلَى التَّقَى تَأْسِيسَا
وَمَقَامَ صَبْرِكَ وَاتِّكَالِكَ مُذْكَرَ بِحَدِيثِهِ الشَّبْلَى أَوْ طَاوُسَا^(٢)
وَمَنْ ارْتَضَاهُ اللَّهُ وَفَّقَ سَعِيهِ فَرَأَى الْعَظِيمَ مِنَ الْخُطُوطِ خَسِيسَا
مَا أَزْدَدَتْ بِالْمُنْجِيصِ إِلَّا جَدَّةً وَنُضُوتَ مِنْ خِلْعِ الزَّمَانِ لَيْبِيسَا
وَلَطَالَمَا طَرَقَ الْخُشُوفُ أَهْلَةً وَلَطَالَمَا اعْتَرَضَ الْكُشُوفُ شُمُوسَا
نَمَّ انْجَلَتْ نَسَمَاتُهَا عَنْ مَشْرِقِ لِّلسَّعْدِ لَيْسَ بِحَافِزٍ تَعْيِيسَا
خَذَهَا إِلَيْكَ عَلَى النُّوَى سَيْنِيَّةً تَرْضَى الطَّبَاقَ وَتَشْكُرُ التَّجْنِيسَا
إِنْ طَوَّوَاتْ بِالْدَّرِّ مِنْ حَوْلِ الطُّلَى يَوْمًا تَشَكَّتْ حَظَهَا لِلْمُوكُوسَا
لَوْلَاكَ مَا أَصْغَتْ نِلْطَبِيَّةٌ خَاطِبٍ وَلَعُتْسَتْ فِي بَيْتِهَا تَعْنِيسَا
قَصَدْتَ سَائِمَانَ الزَّمَانِ وَقَارِبْتَ فِي الْخُطُوطِ تَحْسِبُ نَفْسَهَا بَلْقِيسَا
لِي فِيكَ وَدُّ لَمْ أَكُنْ مِنْ بَعْدِمَا أُعْطِيتَ صَفْقَةً عَهْدِهِ لِأَخِيسَا
كَمْ لِي بِصَحَّةِ عَقْدِهِ مِنْ شَاهِدٍ لَا يَحْدَرُ التَّجَرُّجُ وَالتَّنْدِيسَا
يَقْفُو الشَّهَادَةَ بِالْيَمِينِ ، وَإِنَّهُ لِمُؤْمِنٌ مَنْ أَنْ يَعْدَ قَسِيسَا^(٣)
لَا يَسْتَقِرُّ قَرَارُ أَفْكَارِي إِلَى أَنْ أَسْتَقِرُّ لَدَى عِلَاقِكَ جَلِيسَا

(١) شحذت : أراد حدثت ، وانثلم : المكسر الحد ، ونعشت : أراد به معنى أسعدت ، والجد - بفتح الجيم - الحظ والبخت . (٢) الشبلي : هو دلف بن جحدر بن يونس ، وطاوس : هو طاوس بن كيسان الحولاني ، وهما من كبار الزهاد المتصوفين (٣) القسيس - بزنة أمير - أصله النمام ، وأراد هنا الكذاب

وأرى تجاهك مستقيم السير للقصد الذي أعملته معكوسا
 هي دين أيامي فإن سمحت به لم يبق من شيء عليه يوسى
 لا زال صنع الله محبوبا إلى مَنوك يهدي البشر والتانيسا
 متابعنا كمتابع الأيام لا يذر التعاقب جمعة وخميسا
 فلو أنصفتك إيالة الملك الذي رُضت الزمان لها وكان شريسا
 قرنت بذكرك والدعاء لك الذي تختاره التسبيح والتقديسا
 القلب أنت لها رئيس حياتها لم تعتبر مهما صلحت رئيسا
 ثم قال الحافظ التنيسي رحمه الله تعالى بعد سرد هذه القصيدة ما معناه : إن لسان
 الدين بن الخطيب حذًا في هذه القصيدة السينية حذو أبي تمام في قصيدته
 التي أولها :

أقشِبَ ربيعهم أراك دَرِيسًا تَقْرَى ضيوفك لوعة ورَيسًا^(١)
 واختلس كثيرا من ألفاظها ومعانيها ، انتهى .

ووصل لسان الدين هذه القصيدة بنثر بديع نصه : هذه القصيدة - أبقى الله
 تعالى أيام المثابة المولوية الموسوية ممة بالشمل المجموع ، والثناء المسموع ، والملك
 المنصور الجوع - نعمة من باح بسر هواء ، ولبي دعوة الشوق العاثر بلبه وقد
 ظفر بمن يهدي خبر جواه إلى محل هواه ، ويختلس بعث تحيته ، إلى مثير أريحته ،
 وهي بالنسبة إلى ما يعتقد من ذلك الكمال ، الشاذ عن الآمال ، عنوان من كتاب ،
 وذواق من أوفار ذات أفتاب ، وإلا فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه ، أو يكافي
 إحسانها إحسانه ، أو يستقل بوصفها براءه ، أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه ؟
 ولا مكابرة بعد الاعتراف ، والبحر لا ينفد بالاغتراف ، لاسيما وذاتكم اليوم والله
 تعالى يبقينا ، ومن المسكاره يبقينا ، وفي معارج القرب من حضرة القدس يرقينا ،

(١) القشيب : الجديد ، والدريس ومثله الدارس : المتغير البالي ، وتقرى :
 مضارع « قرى ضيفه » إذا قدم له الألفاظ ، والرئيس : أراد به أس الحب .

ياقوتة اختارها واعتبرها ، ثم ابتلاها بالتمحيص في سبيل التخصيص واختبرها ، وسبيكة خلصها وسخرها ، فخلصها لتسخيره من الشَّوْب ، وأبرزها من لباب الذوب ، وقصرت عن هذه الأثمان ، وسر يصدق دعواه البهرمان ، ليفاضل بين الجَهم والصَّيْب ، ويميز الله الخبيث من الطيب ، فأراكم أن لا جَدْوَى للعديد ولا للعدة ، وعرفكم بنفسه في حال الشدة ، ثم فسح لَكُمْ بعد ذلك في المدة ، لتعرفوه إذا دال الرخاء ، وهبت بعد تلك الزعازع الريحُ الرُّخَاء ، وملاكم من التجارب ، وأوردكم من أظافه أعذبَ المشارب ، ونقلكم بين إصرار الزمان وإحلاله ، ولم يَسْلُبكم إلا حقيرا عند أوليائه ، وأعادكم المعاد المَطْهر ، وأبْسَم من أثواب اختصاصه المَعْلَم المشهر ، فأتم اليوم بعين العناية ، بالإفصاح والسكناية ، قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجناية ، فإن كان الملك اليوم علما يدرس ، وقوانين في قوة الحفظ تفرس ، وبضاعة برصد التجارب تحرس ، فأتم مالك دار هجرته المحسوبة ، وأصمعى شعوبه المنسوبة ، إلى ما حزتم من أشتات السكال ، للرُّبِيَّة على الآمال ، فالبيت علوى المنتسب ، والملك بين الموروث والمكتسب ، والجلود يعترف به الوجود ، والدين يشهد به الركوع والسجود ، والبأس تعرفه التَّهائم والنَّجُود ، والخلق يحسده الروض المَجُود ، والشعر يغترف من عذب تَمِير ، ويصدق من قال : بدي* بأمير وختم بأمير ، وإن مملوككم حَوَمَ من بابكم على العذب البرُود ، فعاقه الدهر عن الورود ، واستقبل أفقه ليحقق الرِّصْد ، ولكنه أخطأ القصد ، ومن أخطأ الغرض أعاد ، ورجا من الزمان الإِسعاد ، فربما خيى نصيب ، أو كان مع الخواطى سبهم مصيب ^(١) ، وكان يؤمل صحبة ركاب الحجاز ، فانتقلت الحقيقة منه إلى الحجاز ، وقطعت القواطع التي لم ينلها الحساب ، ومنعت الموانع التي خالص منها إلى الفتنة الانتساب ،

(١) أخذه من قولهم في مثل « مع الخواطى سبهم صائب »

ومن طلب الأيام أن تجرى على اقتراحه ، وَجَبَ العملُ على اطِّراحه ^(١) ، فإنما هي
البحر الزاخر ، الذي لا يدرك منه الآخر ، والرياح متغيرة ، والسفينة الحائرة ،
فتارة يتعذر من المرسى الصرف ، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتدَّ الطَّرْفُ ،
هذا إن سلمها عَطَبُها ، وأَغْنَى من الوقود حَطَبُها ، ولقد علم الله جل جلاله أن لقاء
ذلك المقام الكريم عند المملوك تمامُ المطلوب ، ممن يجبر كسر القلوب ، فإنه مما انعقد
على كماله الإجماع ، وصَحَّ في عَوَالِي معاليه السَّماع ، وارتفعت في وجود مثاله
الأطماع ، أخلافاً هَذَبَتْها السَّكْرُم الوضاح ، وسجية كلف بها السَّكْمال الفضاح ،
وحرصاً على الذِّكر الجميل وما يقنافس فيه إلا مَنْ سَمَتْ هَمُّهُ ، وكرمت ذِمُّهُ ،
وألفت الخلد رَمِّهِ ، إذ الوجود سَرَّاب ، وما فوق التراب تراب ، ولا يبقى إلا عمل
راق ، أو ذكر بالجميل يُسَطَّر في أوراق ، حسبما قلت من قصيدة كتبها على ظهر
مكتوب موضوع أشار به من كانت له طاعة ، فوفت بمقتراحه استطاعة :

يمضي الزمان وكل فان ذاهب إلا جميل الذكر فهو الباقي
لم يبق من إوان كسرى بعد ذا لك الحفل إلا الذكر في الأوراق
هل كان للسفاح والنصور والمهدى من ذكر على الإطلاق
أول الرشيد وللاأمين وصنوه لولا شِباة يراعة الوراق ^(٢)
رَجَعَ التراب إلى التراب بما اقتضت في كل خلق حكمة الخلاق
إلا الثناء الخالد العطر الشَّدَى يهدي حديث مكارم الأخلاق
والرغبة من مقامكم الرفيع الجناب ، أن يمكنها من حسن المَثَاب ، فتحظى بحلول
ساحتها ، ثم بلثم راحتها ، ثم بالإصفاء ، ولا مزيد للابتغاء ، إلى أن ترتفع الوساطة ،
وتغنى عن التركيب البساطة ، ويُدَسَّى الأثر بالعَيْن ، ويحسن الدهر قضاء الدين ،

(١) اطراحه : أراد به تركه وعدم الاعتداد به ، وأصل معناه الرمي
(٢) أصل الشباة - بفتح الشين - حد السنان ونحوه ، واليراعة : القلم ، وأراد
بالشباة طرفها الذي يكتب به .

ونسأل الذى أغرى بها القريحة ، ولم يجعل الباعث إلا الحبة الصريحة ، أن يبقى تلك المثابة زينةً لازمان ، وذخراً مكنوفاً باليمن والأمان ، مظلاً برحمة الرحمن ، بفضلِهِ وكرمه ، انتهى .

من لسان الدين إلى ابن مرزوق
ومما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى إلى الشيخ الرئيس الخطيب شيخه
أبى عبد الله بن مرزوق رحمه الله تعالى حين كانت أزمة أمر المغرب بيده أيام
السلطان أبى سالم ابن السلطان أبى الحسن المرينى رحم الله تعالى الجميع ! ماصورته :
سيدى بل مالكى بل شافى ، ومُنْتَشِلَى من المَقْوَةِ ورافى ، وعاصمى عند تجويد
حروف الصنائع ونافى ، الذى بجاهه أجزلت المنازلُ قِرَاى ، وفَضَلتْ أولَاى
والمنة لله تعالى أخراى^(١) ، وأصبحت وقول أبى الحسن هَجِيرَاى :

علقت بحبلى من حبال محمد أمنت به من طارق الحدائِنِ
تقطعتُ من دهرى بظل جناحه فعينى تَرَى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام ما سَمِىَ ما دَرَتْ وأين مكاني ما عرفن مكاني

وصلت مكناسة حرسها الله تعالى حدائى حدو نذاك ، سحائب^(٢) لولا الخصال المبرة
قلت بذاك ، وكان الوطن لا غلباطه بجوارى ، أو ما رآه من انقياب زوَارى ، أوغر
إلى بهت يقطع الطريق ، وأطلع يده على التفريق ، وأشرق القوافل مع كثرة
الماء بالريق ، فلم يسع إلا اللقَام أياماً قومداً فى البر وقياما ، واختياراً لضروب الأنس
واعتياما ، ورأيت بلدة معارفها أعلام ، وهواؤها برد وسلام ، ومحاسنها تعمل فيها
السنة وأقلام ، فحياً الله تعالى سيدى فلكم من فضل أفاد ، وأنس أحياء وقد باد ،
وحفظ منه على الأيام الذخر والعَتَاد ، كما ملسكه زمام السكّال فاقْتَاد ، وأنا
أَتطَارح عليه فى صِلَات تَتَقَدَّرُهُ ، وموالاة يده ، بأن يُسْهِمَنى فى فرض مخاطبته

(١) يريد أن أخراه كانت من أفضل من أولاء ، وكان الواجب عليه عريية أن يقول « وفَضَلتْ أخراى والمنة لله أولَاى » لأن تقديم الفاعل فى مثل هذا واجب عريية لكون الفاعل والمفعول غير ظاهرى الإعراب . (٢) فى ب « وسحائب »

مهما خاطب معتبرا بهذه الجهات ، ويصحبني من مناصحتي بكؤس مسرة يعمل فيها
هاك وهات ، فالعز بعزه معقود ، والسعد بوجوده موجود ، ومنهل السرور
بسروره مورود ، والله عز وجل يُبقي بقاء الدهر ، ويجعل حُبّه وظيفة السرور وحده
وظيفة الجهر ، ويحفظ على الأيام من زمنه زمن الزهر ، ويصل لنا تحت إيلاته
العام بالعام والشهر بالشهر ، آمين آمين ، انتهى .

من لسان الدين
تهنئة إلى ابن
أبي مدين

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى صاحب الأشغال بالمغرب
أبا عبد الله بن أبي القاسم بن أبي مدين يهنئه بتقلد المنصب من رسالة قوله :

تعود الأماني بعد انصراف ويعتدل الشيء بعد انحراف
فإن كان دهرُك يوما جَنَى فقد جاء ذا خَجَلٍ واعتراف

طلع البشير أبكك الله تعالى بقبول الخلافة المرينية ، والإمامة السنية ، خصها
الله تعالى ببلوغ الأمانة ، على تلك الذات التي طابت أرومتها^(١) وزكت ، وتاوتت
العلياء لتذكر عهدها وبكت ، وكاد السرور يتقطع لولا أنها تركت مفك الوارث
الذي تركت ، فلولا العذر الذي تأكدت ضرورته ، والمانع الذي ربما تقررت
لديكم صورته ، لكنت أول مُسأَفِه بالهتاء ، ومصارف لهذا الاعتناء ، الوثيق البناء ،
يُنقود الحمد لله والثناء ، وهي طويلة .

من لسان الدين
يشكو من مشقة
ناله

ومما خاطب به رحمه الله تعالى قاضي الجماعة وقد نالته مشقة جرها غلط
الخدّام السوء واشتراك الأسماء أعتبه^(٢) عندها السلطان وخلع عليه وأشاد بقدره
بما نصه :

تعرفت أمرا ساءني ثم سرني وفي حمة الأيام لا بدّ من مَرَضٍ
تعمدك الحبوب بالذات بعدما جرى ضدّه والله يكفيه بالعرض

(١) الأرومة : الأصل ، وزكاؤها : طهارتها ونمائها .

(٢) أعتبه : أزال سبب عتبه وأرضاه .

في مثلها سيدى مُحَمَّد الاختصار ، وتقصر الأنصار ، وتصرف الأبصار ، إذ لم يتعين ظالم ، ولم يتبين يَقْظ ولا حالم ، وإنما هي هدية أجر ، وحقيقة وصل أعتبت مجاز هجر ، وجرح جُبَار^(١) ، وأمر ليس به اعتبار ، ووقعة لم يكن فيها إلا غُبَار ، وعثرة القدم لا تنكر ، والله سبحانه يُحَمَّد في كل حال ويُشكر ، وإذا كان اعتقاد الخلافة لم يشبه شائب ، وحسن الولاية لم يعبه عائب ، والرعى دائب ، والجاني تائب ، فما هو إلا الدهر الحسود ، لمن يسود ، تخشَ بيد ثم سَتَرها ، ورمى عن قوس ما أصلحها والحمد لله ولا أوترَها ، إنما بآء بشئنه ، وجنى من مزيد العناية محنة عينه ، ولا اعتراض على قَدَر ، أعقب بحظ معتذر ، ووَرِدَ نَقْصَ بكدر ، ثم أنس يا كرام صَدَر ، وحسبنا أن نحمد الدفاع من الله تعالى والذب ، ولا نقول مع الكَظْم إلا ما يُرْضَى الرب ، وإذا سابق أولياء سيدى في مضمار ، وحماية ذِمَار ، واستباق إلى بر وابتدار ، بجهد اقتدار ، فأنا ولا آخر متناول القَصْبَة ، وصاحب الدين من بين القَصْبَة ، لما بلوت من بر أوجبه الحسب ، والفضل الموروث والمكتسب ، ونصح وضح منه المذهب ، وتنفيق راق منه الرداء المذهب ، هذا يُجْمَل وبيانه إلى وقت الحاجة مؤخر^(٢) ، ونبذة شره لتعجيبها يراع مسخر ، والله سبحانه يعلم ما أنطوى عليه لسيدى من إيجاب الحق ، والسير من إجلاله على أوضح الطرق ، والسلام . انتهى .

وقال رحمه الله تعالى : خاطبت بعض الفضلاء بقولى مما يظهر من الجملة غرضه :
تعرفت قُرْبَ الدار ممن أحبه فكنت أجِدُّ السير لولا ضروره
لأنلُو من آى الحمد سورة وأبصر من شخص الحاسن صوره
كنت أبقاك الله تعالى لاغباطى بولائك ، وسرورى بلقائك ، أود أن أطوى

من لسان الدين
إلى بعض
الفضلاء

(١) جبار — بالضم — هدر لا عقوبة عليه ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « جرح العجاء جبار » .

(٢) يشير إلى قول أهل الأصول « يجوز تأخير البيان إلى وقت الحاجة »

إليك هذه المَرْحَلَة ، وأجدد العهد بَلْقِيَاك المَوْمَلَة ، فَمَنع مانع ، وما ندرى في الآتي
ما الله صانع ، وعلى كل حال فشأنى قد وَضَحَ منه سبيل مسالك ، وَعَلِمَهُ مالِك
ومملوك ، واعتقادي أكثر مما نسمعه العبارة ، والألفاظ المستعارة ، ومَوْصَلَهَا ينوب
عنى في شكر تلك الذات المستكملة شروط الوزارة ، المتصفة بالعماف والطهارة ،
والسلام .

وقال ساجده الله تعالى يخاطب السلطان أبا عبد الله بن نصر جبره الله تعالى من لسان الدين
إلى أبي عبد الله عند وصول ولده من الأندلس :
ابن نصر

الدهر أضيق فُسْحَةً من أن يرى بالحزن والسكد المضاعف يقطع
وإذا قَطَعْتَ زمانه في كَرْبَةٍ ضيعت في الأوهام ما لا يرجع
فاقنع بما أعطاك ربك واغتم منه السرور وخلّ ما لا ينفع
مولاي الذي له المِنَّن ، والخلق الجميل والخلق الحسن ، والمجد الذي وضح منه السَّنَن ^(١)
كتبه عبدك مهنئاً بنعم الله تعالى التي أفاضها عليك ، وَجَلَّهَا إليك ، من اجتماع
شملك ، بنَجَلِك ، وقضاء دَيْنِكَ ، من قُرَّة عينك ، إلى ما تقدم من إفلاتك ،
وسلامة ذاتك ، وتمزق أعدائك ، وانفراذك بأوْدَانِكَ ^(٢) ، والزمن ساعة في القصر ،
لا بل كلمح البصر ، وكأني بالبساط قد طَوَى ، والتراب على السكل قد سوى ،
فلا تبقى غبطة ولا حسرة ، ولا كربة ولا يسرة ، وإذا نظرت ما كنت فيه تجددك
لاتنال منه إلا أكلة وفراشا ، وَكِنَّا ^(٣) ورياشا ، مع توقع الوقائع ، وارتقاب الفجائع ،
ودعاء المظلوم وصدّاع الجائع ، فقد حصل ما كان عليه التعب ، وأمن الرهب ، ووضح
الأمر [و] المذهب ، والقدرة باقية ، والأدعية واقية ، وما تدرى ما تحكم به الأقدار ،
ويتمخض عنه الليل والنهار ، وأنت اليوم على زمانك بالخيار ، فإن اعتبرت الحال

(١) السَّنَن - بفتح السين والنون الأولى جميعا - الطريق

(٢) الأوداء : جمع ودود ، وهو الكثير الود (٣) الكن بالكسر - المأوى

واجتنبت المحال ، لم يخف عليك أنك اليوم خير منك أمس ، من غير شك ولا لبس ، وكان من أمل التوجه إلى رؤية ولدكم ولكن عارضتني موانع ، ولا ندرى في الآتي ما الله تعالى صانع ، فاستندت هذه في تقبيل قدميه ، والهناء بمقدمه ، والسلام وقال رحمه الله تعالى : قلت أخاطب محمد بن نوار وقد أعزّس بينت مزوار

من لسان الدين
إلى محمد بن نوار
تهنئة بعرض

الدار السلطانية وهو معروف بالوسامة وحسن الصورة :

إن كنت في العرّس ذا قصور فلا حضور ولا دخاله

ينوب نظمي مناب تيس والنثر عن قفة النخاله

هناكم الله سبحانه دعاء وخبراً ، وألبسكم من السرور حبراً ، وعودكم بالخمس ، حتى من عين الشمس ، فاعمرى لقد حصلت النسبة ، ورضيت هذه المعيشة الحسبة ، ومن يكن المزوار ذواقه ، كيف لا يشق البدر أطواقه ، وينشر القبول عليه رواقه ، وأتم أيضاً بركان جمال ، وبقيّة رأس مال ، ويمين في الانطباع وشمال ، بمنزلكم اليوم بدرّ وهلال ، ولعقد التوفيق بفضل الله تعالى استقلال ، فأنا أهنئكم بتسنّي أمانيك^(١) ، والسلام .

من لسان الدين
إلى عامر بن محمد
الهنثاني

وقال رحمه الله تعالى مخاطباً عميد مراکش المتميز بالرأى والسياسة والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجاني عن مال الجباية عامر بن محمد بن علي الهنتاني :

تقول لي الأظعان والشوق في الحشا له الحكم يمضي بين ناه وأمر

إذا جبل التوحيد أصبحت فارغاً فخيم قرار العين في دار عامر

وزرّ تربة المعلوم أن مزارها هو الحجّ يُفضي نحوه كل ضامر

ستلقى بمشوى عامر بن محمد ثغور الأمان من ثنايا البشائر

ولله ما تبهلوه من سعد وجهه ولله ما تلقاه من يمن طائر

وتستعمل الأمثال في الدهر منكما بخير مزور أو بأعبط زائر

(١) هجس تأمانيك : تيسيرها وتسهيل أمرها

لم يكن همى أبقاك الله تعالى مع فراغ البال ، وإسعاف الآمال ، ومساعدة الأيام والليال ، إذ الشمل جميع ، والزمان كله ربيع ، والدهر مطيع سميع ، إلا زيارتك في جَبَلِك الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمْنُه بين النوم والأجفان ، وأن أرى الأفق الذى طلعت منه الهداية ، وكانت إليه العودة ومنه البداية ، فلما حُمّ الواقع ^(١) ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية أراقع ، وأصبحت ديار الأندلس وهى ^(٢) البلاقع ، وحسنت من استدعائك إياى المواقع ، وقوى العزم وإن لم يكن ضعيفا ، وعرضت على نفسى السفر بسببك فألقيته خفيفا ، واتمست الإذن حتى لا نرى فى قبلة السداد تحريفا ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند للعزم مقدوح ، والله سبحانه يحقق السؤل ، ويسهل بمثوى الأمائل المثول ، ويهيء من قبل هنتاة القبول ، بفضلته .

وللسان الدين بن الخطيب مقامة عظيمة بدعية وصف بها بلاد الأندلس والعدوة ، وأنى فيها من دلائل براعته بالعجب العجّاب ، وقد تركتها مع كُتُبى بالمغرب ، ولم يحضرنى منها الآن إلا قوله فى وصف مدينة سبتة ما صورته : قلت فمدينة سبتة ، قال : عروس الجلى ، وثنية الصباح الأجلى ، تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر فى المرأة الصقيلة ، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة ، وإنما قامت بيض أسوارها ، وكان جبل بنيونش شَمّامة أزهارها ، والمنازة منارة أنوارها ، كيف لا ترغب النفوس فى جوارها ، وتهيم الخواطر بين أنهارها وأغوارها ؟ إلى المينا الفلّسكية ، والمراقى الفلّسكية ، الذكية ازكية ، غير المنزورة ولا البكية ^(٣) ، ذات الوَفود الجزل ، المعد للأزل ، والقصور المقصورة على الجد والهزل ، والوجوه الزّهر السّحن ، المضمون بها عن الحن ، دار الناشئة ، والحامية المضربة للحرب المناشبة ، والأسطول المرهوب ، المحذور الأهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ،

(١) حم - بالبناء للمجهول - قدر

(٢) البلاقع : جمع بلقع - بزنة جعفر - وهى المقفرة الخالية من السكان

(٣) انبكية - بزنة الهدية - القليلة ، ووقع فى ب « المبكية »

والأثر المعروف المنسوب ، كرمى الأمراء والأنراف ، والوسيلة لخامس أقاليم البسيطة فلاحظ لها في الانحراف ، بضرة علوم اللسان ، وصنعاء الحُلل^(١) الحسان ، وثمرة امتثال قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الأمانة على الاختزان ، القويمة المسكيات والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافل العصير والحريير والكتان ، وكفاها السكنى بينيونس في فصول الأزمان ، ووجود المساكن النبهة بأرخص الأثمان ، والميدفن المرحوم ، غير المرحوم ، وخزاة كتب العلوم ، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم ، إلا أنها فاغرة أفواه الجنوب ، للغيث المصبوب ، عرضة للرياح ذات الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب ، وناهيك بحسنة تعد من الذنوب ، فأحوال أهلها رقيقة ، وتكلفهم ظاهر مهما ظهرت ولية أو عتيقة ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة ، وأنسابُ نفقائهم في تقدير الأرزاق عريقة ، فهم يمحسون البلالة مص الحاجم ، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجاحم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم ، وراعى الجديب بالمطر الساحم ، فلا يفصلون على مدينتهم مدينة ، الشك عندى في مكة والمدينة ، انتهى وقد سلك في هذه القامة وصف بلدان المغرب بالسجع والتفقيه ، ووقاها من المدح وضده أكمل توفية ، وعكس هذه الطريقة في « نفاضة الجراب » فوصف فيها الأماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع ، مع كونه أقطع من السيف إذا بان عنه القراب .

فمن ذلك قوله حين أجرى ذكر مدينة «مكناسة الزيتون» : وأطلت مدينة مكناسة في مظهر النجد ، رافلة في حلال الدوح ، مبتسمة عن شنب المياه العذبة ، سافرة عن أجمل المراد ، قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعى ، قيد النص وفذلكة

(١) الحلل : جمع حلة - بضم الحاء - وهو اللباس الذي يتحلى به ، وصنعاء من البلاد المشهورة عند العرب بصنع الوشى
(٢) الحلوم هنا : العقول ، وأصالتها : سدادها

الحسن ، فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضعاً ، من لد دارت به المدارس المغلّة ، والتفت بسوره الزياتين المفيدة ، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف ، ورحب ساحة والنفاف شجرة ونباهة بنية وإشراف^(١) ربوة ، ومثلت بإزائها الزاوية القدّمة المدة للورد ، ذات البركة النامية ، والمئذنة السامية ، والمرافق المتيسرة ، يصاحبها الخان البديع المنصب الحصين الغاق الخاص بالسابلة والجوابة في الأرض يبتنون من فضل الله تعالى ، تقابلها غربا الزاوية الحديثة المربية بروق الشيبية ومزية الجدة والانفساح وتفنن الاحتفال ، إلى أن قال : وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم ، كلفت بها الملوك الجلة الهمم ، وأخذها التنجيد ، فجاءت فائقة الحسن ، ما شئت من أبواب نحاسية ، وبرك فياضة تنقذ فيها صافي الماء أعناق أسدية ، وفيها خزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين ، وتفضل هذه المدينة كثيراً من لِداتها بصحة الهواء وتبحر أصناف القواكه وتعمير الخزان ومداومة البر لجوار ترابها سليماً من الفساد معافى من العفن ، إذ تقام ساحات منازلها غالباً على أطباق الآلاف من الأقوات تتنقلها المواريث ويصحبها التعمير وتتجافى عنها الأرض ، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمّة ، قال ابن عبدون من أهلها والله دره :

إن تفتخر فاس بما في طيها وبأنها في زيتها حسناء

يكفيك من مكناسة أرجاؤها والأطيان هواؤها والماء

ويُسَمَّتها^(٢) شرقاً جبل زرهون ، المنبجس العيون^(٣) ، الظاهر البركة ، المتزاحم العمران ، الكثير الزياتين والأشجار ، قد جلله سكرأ ورزفا حسناً ، فهو عنصر الخير ، ومادة

(١) الربوة : ما ارتفع من الأرض ، وإشرافها : علوها

(٢) يسامتها : يقابلها

(٣) المنبجس العيون : يريد المتفجر للياه

الجبي ، وفي المدينة دور نبهة ، وبنى أصيلة ، والله سبحانه ولى من اشتملت عليه
بقدرته ، وفيها أقول :

بالحسن من مكناسة الزيتون	قد صح عذر الناظر المفتون
فضل الهواء وصحة الماء الذى	يجرى بها وسلامة الخزون
سحّت عليها كل عين ثرة	للزن هامية الغمام هتون
فاخر خدّ الورد بين أباطح	وأثّر ثغر الزهر بين غصون
وقد كفها شهاداً مهما ادعت	قصب السباق القرب من زرهون
جبل تضاحك البروق بجوّه	فبكت عذاب عيونهم بعيون
وكأنما هو بربرى وافد	فى لوحه والتين والزيتون
حيث من بلد خصب أرضه	مئوى أمان أو مناخ أمون
وضعت إليك من الإله عناية	تكسوك ثوبى أمنية وسكون

وقد وصفها فى مقامة البلدان على منوال السجع فقل : مكناسة مدينة أصيلة ، وشعب
للمحاسن وفضيلة ، فضالها الله تعالى ورعاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، فجانبها
مربع^(١) ، وخيرها سريع ، ووضعها له فى قنة^(٢) الفضائل تفرّج ، اعتدل فيها الزمان ،
وانسدل الأمان ، وفقت القواكة فواكهها ولاسيما الرمان ، وحفظ أقواتها الاختزان ،
ولطفت فيها الأواني والكيّزان ، ودنا من الحضرة جوارها ، فكثرت قصادها من
الوزراء وزوّارها ، وبها المدارس والفقهاء ، وتمصبتها الأبهة والمقاصير والأبهاء .

ويعنى بالحضرة مدينة فاس المحروسة لأنها إذ ذاك كرسى الخلافة ، ومكناسة
مقر الوزارة ، وأهل المغرب يعبرون عن المدينة التى فيها كرسى الخلافة بالحضرة .

قلت : دخلت مكناسة هذه مراراً عديدة ، وقد أبلى الدهر محاسنها التى

(١) مربع : مخضب

(٢) أصل القنة : أعلى مكان فى الجبل ، ومثله القلة

كانت في زمان لسان الدين بن الخطيب جديدة ، واستولى عليها الخراب ، وتكدر زيارة المؤلف منها بالفتن الشراب ، وعاث في ظاهرها الأعراب ، وفي باطنها سمامسة الفتنة العاتقة عن كثير من الآراب ، حتى صار أهلها حزينين ، لبس كثير من أهلها ثياب البعد عنها والبين ، والله تعالى يجبر حالها ، ويعقب بالخصب إحلالها ، ويرحم الله تعالى ابن جابر إذ قال :

لا تفكرنَّ الحسن من مكناسة فالحسن لم يبرح بها معروفاً
وإن تحت أيدي الزمان رسومها فلربما أبقت هناك حروفاً
على أن ضواحيها كانت في زمان لسان الدين مأوى المحاربين والصوص ، ومشوى للأعراب الذين أعزل داوهم بأفطار المغرب على العموم والخصوص ، ولذلك يقول لسان الدين رحمه الله تعالى :

مكناسة حشرت بها زمرُ العدا فدى بريدٍ فيه أنفُ مريدٍ^(١)
من واصل للجوع لا لرياضة أو لابس للصوف غير مُريدٍ^(٢)
فإذا سلكت طريقها متصوفاً فانو السلوك بها على التجريد
وما أشار إليه رحمه الله تعالى فيما سبق من ذكر الزاوية القدسي والجديدة أشار به إلى زاويتين بنأهما السلطان أبو الحسن المريني الكثير الآثار بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس ، وكان بنى الزاوية القدسي في زمان أبيه السلطان أبي سعيد والجديدة حين تولى الخلافة ، وله في هذه المدينة غير ازوايتين المذكورتين عدة آثار كثيرة جميلة من القناطر والسقايات وغيرها ، ومن أجل ما نزه بها المدرسة الجديدة ، وكان قدّم للنظر على بنائها فاضيه على المدينة المذكورة ، ولما أخبر السلطان بتام بنائها جاء إليها من فاس ليرأها ، فقعده على كرسى من كراسي الوضوء حول صهر يجها ،

(١) المدي - بفتح الميم مقصوراً - للسافة ، والريد - بفتح اليم - العاني التمرد الخارج عن الطاعة

(٢) مريد - بضم الميم هنا - لفظ من اصطلاح الصوفية يقرب من معنى التلميذ

وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها ، ففرقها في الصهر يج قبل أن يطالع
ما فيها ، وأنشد :

لا بأس بالعالى إذا قيل حسنٌ ليس لما قرأت به العين ثمنٌ

وهذا السلطان أبو الحسن أشهر ملوك بنى مرّين ، وأبدهم صيتا ، وكان قد ملك
رحمه الله تعالى المغرب بأسره وبعض الأندلس ، وامتد ملكه إلى طرابلس الغرب ،
ثم حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان حين قاتل أعراب إفريقية ، فغدره
بنو عبد الوادّ الذين أخذ من يدهم ملك تلمسان ، وانهزوا الفرصة فيه ، وهربوا
إلى الأعراب عند المصافة ، فاختل مصافه ، وهزم أقبح هزيمة ، ورجع إلى
تونس مغلوبا ، وركب البحر فى أساطيله ، وكانت نحو الستمائة من السفن ،
فقضى الله تعالى أن غرقت جميعا ، ونجا على لوح ، وهلك من كان معه
من أعلام المغرب ، وهم نحو أربعمائة عالم ، منهم السطى شارح الحوفى ،
وابن الصباغ الذى أملى فى مجلس درسه بمكناسة على حديث « يا أبا عمير ، ما فعل
النفير »^(١) أربعمائة فائدة .

قال الأستاذ أبو عبد الله بن غازى رحمه الله تعالى : حدثنى بعض أعيان
الأصحاب أنه بلغه أن الفقيه ابن الصباغ المذكور سُمع بمنصورة تلمسان المحروسة
ينشد كالمعاتب لنفسه :

يا قلب كيف وقعت فى أشراكهم ولقد عهدتك تحذر الأشركا^(٢)

أرضا بئلا فى هوى وصباة هذا لعمر الله قد أشقا

ومات رحمه الله تعالى غريقا فى أسطول السلطان أبى الحسن المرينى على ساحل

(١) هو حديث قاله النبي صلى الله عليه وسلم لأبى عمير أخى أنس بن مالك ،

والنفير : تصغير نقر — بزنة صرد — وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار

(٢) الأشركا : جمع شرك — بزنة سبب وأسباب — وأصله ما ينصبه الصياد ليقع

فيه الصيد ، واستعمله هنا مجازا ، وتحذر : أراد به هنا تتقى وتجنب

تدلس هو والفقير السطى والأستاذ الزواوى وغير واحد فى نكبة السلطان
أبى الحسن المعروفة .

ومن نظم ابن الصباغ المذكور فى العلاقات المعتمدة فى المجاز وفى المرجحات له
قوله رحمه الله تعالى :

نظم
لابن الصباغ
يحصر فيه
علاقات المجاز

ياسائلا حَصَرَ العلاقات التى	وَضَعَ المجاز بها يَسُوغ ويَجْمَل
خَذاها مرتبةً وكلُّ مقابل	حُكْمَ المقابل فيه حَقًّا يَحْمِل
عن ذكر ملزوم يعوِّض لازم	وكذا بعلمته يُعَاضُ مَعْلَل
وعن المعم يستعاض مخصص	وكذاك عن جزء ينوب المكمل
وعن المحلَّ ينوب ما قد حَلَّه	والحذف للتخفيف مما يسهل
وعن المُضَاف إليه ناب مُضَافه	والضدُّ عن أضداده مُسْتَعْمَل
والشبه فى صفة تبين وصورة	ومن المنقيد مطلق قدييدل
والشئ يُسَمَّى باسم ما قد كانه	وكذاك يُسَمَّى بالبديل المبدل
وضمع المجاور فى مكانة جاره	وبهذه حكم التعاكس يكمل
واجعل مكان الشئ آتته ، وجىء	بمنكر قَصْدُ العموم فيحصل
ومُعَرَّف عن مطلق وبه انتهت	ولجلها حكم التداخل يشمل
وبكثرة وبلاغه ولزومه	لحقيقة رجحانه يتحصل

انتهى كلام شيخ شيوخنا الإمام أبى عبدالله محمد بن غازى رحمه الله تعالى ! .
وقد حكى ابنُ غازى المذكور عن شيخه القورى عن شيخه ابن جابر أن ابن
الصباغ المذكور اعترض على القاضي ابن عبدالسلام التونسى ، قال : لما لاقى ابن الصباغ
بتونس اعترض عليه ابن الصباغ أربع عشرة ^(١) مسألة لم يفصل عن واحدة منها ، بل أقر

(١) هذا لا يقدح فى علمه وفضله ، فإن « لا أدرى » من أجوبة أمثال العلماء ،
وقد استفاض أن الإمام مالك بن أنس سئل عن مسائل فأجاب فى أكثرها بقوله
« لا أدرى » .

بالخطأ فيها ، إذ ليس ينبغي اتصاف بالكمال ، إلا للربى الكبير المتعال ، انتهى .

حكاية عن عائ

وذكر الشيخ أبو عبد الله الأبي رحمه الله تعالى في شرح مسلم عند تكلمه على أحاديث العين ما معناه أن رجلا كان بتلك الديار معروفا بإصابة العين ، فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين ، وكانت كثيرة نحو الستائة ، فنظر إليها الرجل العائن ، فكان غرقها بقدرة الله الذى يفعل ما يشاء ، ونجا السلطان بنفسه ، وجرت عليه محن ، واستولى ولده السلطان أبو عنان فارس على ملكه ، وكان خلفه بتمسان ، ولم يزل فى اضطراب حتى ذهب إلى سجلماسة ، ومنها خلاص إلى جبل هنتانة قرب سراكش ، فذهب إلى حربته ابنه السلطان أبو عنان فارس بجيوشه ، وأناخ على الجبل بكل كلكه ، ولم تخفر أهل هنتانة جواره لديهم ، ولا كبيرهم عامر بن محمد وأخوه ، وصبروا على الحصار ، وخراب الديار ، وحرقت الأماكن ، حتى مات هناك رحمه الله تعالى ونقل بعد إلى شالة سلا مدفن أسلافه ، ومن أراد الوقوف على أخباره فعليه بكتاب الخطيب ابن مرزوق الذى ألقه فيه وسماه « المسند الصحيح الحسن ، من أحاديث السلطان أبي الحسن » .

زيارة

لسان الدين
لقبر السلطان
أبي الحسن

ولما ذهب لسان الدين بن الخطيب إلى عامر بن محمد بجبله المشهور زار محل وفاة السلطان المذكور ، وقد ألم بذلك فى « نفاضة الجراب » إذ قال : وشاهدت بجبل هنتانة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله تعالى ! حيث أصابه طارق الأجل ، الذى فصل الخطه ، وأصمت الدعوة ، ورفع المنازعة ، وعاینته مرفعا عن الابتذال بالسكنى مفترشا بالحصباء ، مقصودا بالابتهاال والدعاء ، فلم أبرح يوم زيارة محل وفاته أن قلت :

يا حسنهما من أَرْبُعٍ وديار أضحت لباغى الأمن دار قرار^(١)
وجبال عز لا تَذِلُّ أنوفها إلا لعز الواحد القهار
ومقر توحيد وأمسَّ خلافة آثارها تنبى عن الأخبار^(٢)
ما كنت أحسب أن أنهار الندى تجرى بها فى جملة الأنهار
ما كنت أحسب أن أنوار الحِجَا تلتاح فى قُتْن وفى أحجار
مجت جوانبها البرود، وإن تكن شبت بها الأعداء جَذْوَةَ نار
هدت بنافها فى سبيل وفائها فكأنها صَرَعى بغير عُقَار^(٣)
لما توعدها على المجد العِدا عرّضت بَحِيلَةَ عاسر وأعزها
فرسارهان أحرزا قَصَبَ الندى رضىت بَعِيثِ النار لا بالعار
وَرِثًا عن النَّدْبِ الكبير أيهما عبد العزيز بمرهف بثار^(٤)
وكذا القروع تطول وهى شبيهة والبأس فى طلق وفى مضار
أزرت وجوه الصَّيْدِ من هتانة تخضّ الوفاء ورفعة المقدار
لله أى قبيلة تركت لها المنظراء دَعَوَى الفخر يوم فغار
نصرت أمير المسلمين وملكه بالبأس فى طلق وفى مضار
وَأَرَتْ عليا عند ما ذهب الردى بالأصمع والأبصار
وتخاذل الجيش اللهم وأصبح الأبطال بين نقاعد وفراز
كمرت صنانه فيم دارها مستظفرا منها بعز جوار
وأقام بين ظهورها لا يتقى وقع الردى وقد ارتقى بشرار
فكأنها الأنصار لما أن سمّت فيما تقدم غربة المختار

(١) الأربع : جمع ربع ، وهو المنزل ، وباغى الأمن : طالبه .

(٢) تنبى : أصله تنبىء — بالهمز — ومعناه تخبر . (٣) العقار : الحجر .

(٤) المرهف : السيف المحدد ، والبتار : الشديد القطع

لما غدا لحظا وهم أجفانه
 حتى دعاه الله بين بيوتهم
 لو كان يمنع من قضاء الله ما
 قد كان يأمل أن يكفى بعض ما
 ما كان يقنمه لو امتد المدى
 فيعيد ذاك الماء ذائب فضة
 حتى تفوز على النوى أوطانها
 حتى يلوح على وجوه وجوههم
 وبسوغ الأمل القصى كرامها
 ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجى
 أو أن يتوج أو يقلد هامها
 حق على المولى ابنه إشار ما
 فلتلها ذخِر الجزاء ، ومثله
 وهو الذى يقضى الديون وبره
 حتى تخرج محلة رفعوا بها
 فيصير منها البيت بيتا ثانيا
 تغنى قلوب القوم عن هدى به
 حُبَّت من دار تكفل سعيها محمود بالزلفى وعقبى الدار
 وضفت عليك من الإله عناية ما كر ليل فيك إثر نهار
 ويعنى بالمولى ابنه السلطان أبا سالم ابن السلطان أبى الحسن .

(١) شفارهم : أجفان عيونهم ، والأشفار : أراد بها السيوف .
 (٢) النصار — بالضم — الذهب . (٣) الاوطار : الأغراض والمقاصد ،
 واحدها وطر . (٤) القصى : البعيد ، والثنيا — بالضم — الاستثناء .

ومن العجائب أن الرئيس عامر بن محمد الذي جرى في هذه الأبيات ذكره كان يؤمل بإيوانه للسلطان أبي الحسن ونُصرت له وعدم إخفار ذمته فيه أن ينال من أولاده الملوك بذلك عزا مستطيلا ورياسة زائدة على ما كان فيه ، فقضى الله تعالى أن كان حنقه على يد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، إذ نازله بجنوده ، وحاصره بمعتقه ، حتى استولى عليه وقتله ، حسبما استوفى ذلك الشيخ الرئيس قاضي القضاة أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي بزيل مصر في تاريخه الكبير الذي سماه « بكتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » فمن شاء فليراجعهُ ثمة .

وكان الرئيس أبو ثابت عامر بن محمد الهنتاني المذكور خرج على السلطان عبد العزيز بالسلطان المعتمد على الله أبي الفضل محمد ابن أخى السلطان عبد العزيز المذكور ، فكان من قتله ما ذكر ، والله غالب على أمره .

وانرجع إلى ما كنا فيه من نثر لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى ورضى عنه ! فنقول :

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى في كتابه « إعلام عمال الأعلام »^(١) ، « لسان الدين بعد تصنيف كتاب كبرى التاريخ الهنية ، والنسبة النقية ، أن نصنف في التاريخ كتابا مبنيًا على التطويل ، مستوعبا للكثير والقليل ، نسميه « بضاعة المهولين ، في أساطين الأولين » يكون هذا الكتاب بالنسبة إليه الحصاة من الرمال ، واقطرة من الغيث المثال^(٢) ، بإعانة ذى القدرة والجلال ، انتهى .

(١) كذا ، ولعل كلمة « عمال » زائدة ، والأصل « إعلام الأعلام »

(٢) الغيث : المطر ، والمثال : المنهمر المتدفق

ومن كلامه رحمه الله تعالى : فما استبعد المرام ، مَنْ قَصَدَ الكرام ، وما فقد الإيناس ، من أَمَلَ الناس ، انتهى .

وقد سلك لسان الدين رحمه الله تعالى في كثير من كتبه كالكتيبة الكامنة والتاج الحلى والإكليل الزاهر وغيرها تحلية الأعلام ، من حملة السيوف والأفلام ، بالكلام المسجّع الآخذ بحظه من الإتيان على طريقة صاحب القلائد والمطمح أبى نصر الفتح بن عبيد الله المدعو بابن خافان بليغ الأندلس غير مدافع ، وعلى نهج مُباريه ابن بَسَام صاحب « الذخيرة » ، في محاسن أهل الجزيرة » وهو كتاب ينبغي أن يُراجع ، وقد رأيت أن آتى بشيء من كلام لسان الدين فيما ذكر ، ونُلم بعد تحليته بالتعريف بحاله من الأعلام ، بحسب ما من به ويسره لى الملك العلام ، سبحانه وتعالى ، فنقول :

قال لسان الدين رحمه الله تعالى في بعض كتبه في وصف بعض من عرّف به ما نصه : أى نفس صافية من الكدر ، وصَدْرُ طيب الورد والصَّدْر^(١) ، ودَوْحَة عهد تَنْدَى أوراقها ، ومَشْكَاة فضل يستطلع إشراقها ، تمسك برضاع الكأس يرى ذلك من حسن عهده ، وقسم لحظانه بين آس الرياض وورده ، فلما حوّم حَمَامُهُ للوقوع ، وكاد يقوِّض رَحْلَهُ عن الربوع ، وشعر بمجائيل المنية تعنتقه ، وسَرَّعان خيل الأجلِ ترهقه ، أفلح عن فَنِّه ، وأمر بسفك دَنِّه ، ولجأ إلى الله تعالى بأَوْبَتِهِ^(٢) ، وضرع إلى الله تعالى في قبول توبته وغفران حَوْبَتِهِ^(٣) ، فكان ذلك عتوان الرضا ، وعلامة عفو الله تعالى عما مضى ، دخلت عليه في مرضه ، وأمرت باستعمال الدواء المسمى بلحية التيس عند الأطباء ، فاستعمله ، فوجد بعض خفة .

وقال في آخر : كفيف الحاشية ، معدود في جنس السائمة والماشية ، تليت

(١) الورد — بالكسر — القدوم على الماء للسقيا منه ، والصدر — بالتحريك — الرجوع عنه . (٢) الأوبة : الرجوع . (٣) الحوبة : الذنب والإثم .

على العمال به سورة الغاشية ، تولى الأشغال الساطانية فذعرت الجبابة لولايته ، وقامت قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا : جاءت الدابة تكلمنا وهي إحدى الشروط ، من رجل صائم الحشوة ، بعيد من المصانعة والرشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند الخطبة : لا مَسَّاس ، وعلى مسافة نَجْهِهِ^(١) ، وتجههم وجهه ، فكان خالطاً إساءته بإحسانه ، مشتغلاً بشأه ، غاضاً من عنان لسانه ، عهدى به فى الأعمال يقدر فيها ويدبر ، ويرجح ويعبر ، ويحبط ويتبر ، وهو مع ذلك يكبر ، ويحسن من الأزمنة ويقبح ، وهو يسبح ، ولما شرع فى البحث والتنقير ، والحاسبة على القِطْمير والنَّقير ، أناه قاطع الأجل ، فَحَنَّ رُكابه فاقضى العجل ، وصدرت عنه أبيات خَصَمَ فيها وقَصَمَ ، وحصل تحت القدر المشترك مع من نظم .

وقال فى آخر : كر كدن حَلْبَة الآداب ، وسَنُور عبدالله بيع بقيراط لماشاب ، هام بوارى الشعر مع مَنْ هام ، واستمطر منها الجُهام^(٢) ، فجاء بأبيات أو هى من بيت العنكبوت نسجا ، ومقاصد لا تبين قصداً ولا نهجاً ، وله بيت معمور بقضاة أكابر ، فرسان أقلام ومخابر ، وعمال قادوا الدهر بأزمنة أزمتهم ، وفرعوا الزهر بهمتهم^(٣) ، وتكاثرت عليه رحمه الله الإجن ، وتعاورته المحن ، وتصرف آخر عمره فى بعض الأعمال الخزنية فتعمل بنزَر القوت ، إلى الأجل الموقوت .

وقال فى آخر : معدود فى وقته من أدبائه ، ومحسوب فى أعيان بلده وحسبائه ، كان رحمه الله تعالى من أهل العدالة والخير ، سائراً على منهج الاستقامة أحسن السَّير ، وله أدب لا يقصر عن السداد ، وإن لم يكن بطلاً فمن يكثر السواد قد أثبت له ما عثرت عليه ، مما ينسب الناس إليه .

(١) النجى : استقبال الناس بما يكرهون ، وفى ب «نهجه» بتقديم الهاء ، وأعتقده محرفاً عما أثبتته (٢) الجُهام — بزنة السحاب — هو السحاب الذى لا مطر معه . (٣) الزهر — بالضم — النجوم ، وأحدها زهراء ، وفرعوها : أرادوا ارتفعوا فوقها وعلوا عليها .

وقال في آخر : معتر غير قانع ^(١) ، ومنجع كل شهيم وخانع ، نشأ ببلده مألقة
أبرع من أورد اليراعة في نقس ، وهز غصنها في روضة طرس ^(٢) ، إلا ما كان من
سخافة عقله ، وقعوده تحت المثل « اخبر ثقله » ^(٣) لا يرتبط إلى رتبة ، ولا ينتمى
إلى عصابة ، ولا يتلبس بسمت ، ولا يستقيم من أمت ، أخبرني من عني بخبره ،
وذكر عبره ، من صباه إلى كبره ، أنه رشح في بعض الدول ، وعرض لا كتساب
الخيال والخيول ، وخلعت عليه كسوة فاخرة ، وشارة بزهر الرياض ساخرة ، فانقاد
طوعاً حرمانه ، ونبذ صفقة زمانه ، وحمله فرط النهم ، على أن اتباع في حجره
طعاماً كثير الدسم ، وأقبل وأذياه منه تقطر ، كما اختلفت باللبن الأشطر ، فطرد
ونبذ ، وطرح بعد ما جُبد ، لقيته بمألقة وقد قلب له زمانه عينيه ، وسقط في يديه ،
فانتابني بأمداحه ، وتعاورني بأجاجة وأقراحه .

وقال في آخر : أديبٌ نارُ فكره تنوقد ، وأريب لا يُعترض كلامه
ولا يُنقد ، أما الهزل فهو طريقته المثلى ، ركض في ميدانها وجلى ، وطلع في أفقها
وتجلى ، فأصبح علم أعلامها ، وعابر أحلامها ، إن أخذ بها في وصف الكاس ،
وذكر الورد والآس ، وألم بالربيع وفصله ، والحبيب ووصله ، والروض وطيبه ،
والغمام وتقطيبه ، شق الجيوب طرباً ، وعلّ النفوس شرباً وضرباً ، وإن ابتغى
لاعتلال العشية ، في فرش الربيع الموشية ، ثم تعداها إلى وصف الصبوح ، وأجهز
على الزق المجروح ، وأشار إلى نغمات الورق ، يرفان في الحلل الزرق ، وقد
اشتعلت في عنبر الليل نارُ البرق ، وطلعت بنود الصباح في شرفات الشرق ، سلب
الحليم وقاره ، وذَكَرَ الخليج كأسه وعقاره ، وحرك الأشواق بعد سكونها ،
وأخرجها من ركونها ، بلسان يتزاحم على موارد الخيال ، ويتدفق من حافاته

(١) المعتر : الذي يتعرض للسؤال .

(٢) النقس : المداد الذي يكتب به ، والطرس : القرطاس (الورق) الذي يكتب فيه

(٣) هذا مثل ، واخبر : جرب وامتحان وابتل ، وثقله : مضارع فلاه أى كرهه وأبغضه

الأدب السَّيَّال ، وبيان يقيم أودَّ المعاني ، ويشيد مصانع اللفظ محكمة المباني ، ويكسو حُلل الإحسان جُسوم المثلث والمثنى ، إلى نادرة لمثلها يُشار ، ومحاضرة يُجَنِّى بها الشَّهَد ويُشار^(١) ، وقد أثبتَّ من شعره المِزج وإن كان لا يتعاطاه لإقليلا ، ولا يجاور إلا تعليلًا ، أبياتًا لا تخلو عن مسحة جمال على صفحاتها ، وهبة طيب يَنِمُّ في نَفحاتها .

وقال أيضًا في آخر : ظريفُ السَّجِيَّة ، كثير الأريحية ، ارتحل من لورقة فتحها الله تعالى واتخذ المرية دارًا ، وألفَ بها استقرارًا ، إلى أن دعاه بها داعيه ، وقام فيها ناعيه .

وقال في وصف آخر : شيخ أخلاقه لينه ، ونفسه كما قيل في نفس المؤمن هَيَّيَّة ، ينظم الشعر عَذْبًا مَسَاقُهُ ، محكمًا اتِّسَاقُهُ ، على فَاةٍ^(٢) ، وحال ما لها من إفاقة ، أنشد المقام الكريم بظاهر بلده قصيدة استغرب منها مترعها ، واستعذب من مثله مشرعها .

وقال في آخر : من أئمة أهل الزمام ، خليف برغى الميثاق والذِّمام ، ذو خط كاتفتح زهرُ السِّكِّام ، وأخلاق أعذبَ من ماء الغمام ، كان يبيلده رحمه الله تعالى بدار إشرافه محاسبًا ، ودرة في لجة الإغفال راسبًا ، صحيح العَمَل ، يُلْبَس الطُّروس من براعته حُسْن الحلال ، وله شعر لا بأس به ، ولا خفاء بفضل مذهبه .

وقال في آخر : خير من استبق إلى داعي الفلاح استبافًا ، وانتمى إلى القوم الذين هم في الآخرة أطولُ أعناقًا ، وإن كانوا في الدنيا أضيقُ أرزاقًا ، مردد أذكار ، ومُسَبِّح أسحار ، وعامر مثذنة ومَنَار ، كان يبيلده مؤذنًا بجامعها ، وموقتًا بأم صوامعها ، ومعتبرًا فيمن كان بها من السَّدنة ، ومن مثله قوله فكأنما قرَّب بدنة ، وله لسان

(١) الشَّهَد : غسل النحل ، ويشار : مضارع مبني للجهول ، شاره يشورم واشتاره يشتاره : جناء .
(٢) الفاقة : الفقر .

مخيف ، وشعر سخي ، توشح بحليته ، وجعله وسيلة كذبيته .
وقال في آخر : عظيم الهيئة حسن اللقاء ، أغرب في حسن المداراة من العنقاء
استمر عمره للحكم ، وصبر على حجب الضم والبكم ، وأفرط في ههته وهزته ، وتنزل
عن نخوة القضاء وعزته ، وله سلف في القضاء على المراقب ، مُزاحم للنجم الثاقب ،
وقد أثبت من شعره ما تيسر إثباته ، ونجح بروض هذا المجموع نباته .

وقال في آخر : قاض توارث كلَّ جلالة ، [لا] عن كلاله^(١) ، وجمع في العلم
الحسب ، بين الموروث والمكتسب ، أشرق بجيد مع في العشرة مخول ، وألقت
عليه مقاليدها من منقول ومتأول ، إلى نزاهة لا تعزها البيضاء ولا الصفراء ، وحلم
لا تستهويه السعاية ولا يستغزه الإغراء ، ووقار يستخف الجبال الراسية ، ونظر
يكشف الظلم الفاسية ، تولى قضاء الحضرة فأنفذ الأحكام وأمضاها ، وشام سيوف
الجزالة وانتضاها ، ولبس أثواب النزاهة والانقباض فما نضاها ، وسلك الطريق
التي اختارها السلف وارتضاها ، فاجتمت الأحوال المفترقة عليه ، وصرف الثناء
أعنة الألسن إليه ، ثم كرم إلى بلده ، واستقر خطيباً بقرارة أهله وولده .

وقال في آخر : مُنَمَّ إلى معرفة ، متصف من الذكاء بأحسن صفة ، أقرأ
ببلده علم اللسان ، وما حاد عن الإحسان ، وعانى الشعر فنظم قوافيه ، وما تكلف
فيه ، وعلى غزارة مادته ، ووضوح جادته ، فشعره قليل البشاشة ، ذاهب الحشاشة ،
وذو الإكثار ، كمثل العثار ، وله سلف يخوض في الحقائق ، وينتحل بعض الكلام الرائق
وقال في آخر : متم لدين وعفة ، وإلى نفس بالعرض الأدنى مُستخفة ، ممن
نزع إلى سلوك وريضة ، ويفيض في طريق القوم بعض إفاضة .

وقال في آخر : ممن يتشوف إلى المعارف والمقالات ، ويرتاح إلى الحقائق

(١) كلمة « لا » غير موجودة في ب ، والكلالة : قرابة غير الولاد ، نفي
ما كان من القرابة غير الآباء والأبناء ، يقال « ورث هذا الأمر لا عن كلالة » ويراد
أنه انحدر إليه من آبائه : فإذا قلت « ورثه عن كلالة » كان ذلك ذماً ، إذ المقصود
لأولية له في هذا الأمر

والحالات ، ويشتمل على نفس رقيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويعانى من الشعر ما يشهد ببُذله ، ويستطرف من مثله .

وقال فى آخر : مشعر فى الطلب عن ساق ، مثابر على اللحاق بدرجات الحدائق ، منتحل للربية جاد فى إحصاء خلافها ، ومُعاطاة سُلَافها^(١) ، ور بما شرس فى المذاكرة أخلاقه ، إذا بهُرِجت أعلاقه^(٢) ، ونُوْزِعَ تمسكه بالحجة واعتلاقه ، ورحل إلى المغرب فاستجدى بالشعر سلطانه ، ثم راجع أوطانه .

وقال فى آخر : متم إلى زهد ، باذل فى التماس الخير الجهد ، نظمه لا يخلو من حلاوة ، ومَعَانِيه فى طريقه عليها بعض طلاوة .

وقال فى آخر : كاتب سجلات لا يساجل فى صحة فصولها ، وتوقيع فروعها على أصولها ، وكما طالب بالنظم القريحة ، وأعمل الفكرة الصريحة ، مع إقلاله ، وعدم استعماله ، أجابت ولَبَّتْ ، وتسمت رِيَا حُها وهَبَّتْ .

وقال رحمه الله تعالى وسامحه فى بعض العدول الصوفية الأخيار ، الذين وحدوا الله وفَنُوا عن سائر الأغيار : خير عدل ، ومن له وقار وفضل ، مُتَّسِمٌ بخيره ، معرض عن غيره ، مشتمل بصفات مرضية ، يُلم بالنظم فى الطريقة الصوفية .

وللسان الدين رحمه الله تعالى رَكُضٌ فى هذا الميدان لا يُجَارَى فيه ، وثبوت فضل لا يستند إلى دليل جاحده ونافيه .

وقال رحمه الله تعالى فى كتابه « التاج الحلى » فى مساجلة القِدْحِ المَعْلَى «
فى ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأُمى المربى ، ما صورته : أُنِجَ معرفة لا يَغِيضُ ، وصاحب فنون يأخذ فيها ويُفِيضُ ، نشأ ببلده مشعراً عن ساعد اجتهاده ، وسأراً فى فَنِّ العلم ووهاده ، حتى أُنِجَ رَوْضُهُ ، وفَهَّقَ حَوْضُهُ ، ثم أخذ

من ترجمة
ابن لب بقلم
لسان الدين

(١) السلاف - بزنة الغراب - الخمر

(٢) بهرجت : زيفت وأظهر عدم رواجها ، وأراد معنى نقدت ، وأعلاقه : نفائسه التى يضمن بها ، يقصد أنه لا صبر له على النقد

في راحة ذاته ، وشام بارق لذاته ، ثم سار في البطلة سير الجُمُوح ، وواصل الغُبُوق بالصَّبُوح ، حتى قضى وطَّره ، وسَمَّ بطره ، وركب الفلك ، وخاض اللجج الحلج ، واستقر بمصر على النعمة العريضة ، على شك في قضاء حجة الفريضة ، وهو اليوم بمدرستها الصالحية نبيه المكانة ، معدود في أهل العلم والديانة ، انتهى .

وقال في « الإحاطة » في حق المذكور ما نصه : من خط شيخنا أبي البركات في الكتاب « المؤتمن ، على أنباء أبناء الزمن » : كان سهلاً سَلَسَ القياد ، لذيذ العشرة ، دمت الأخلاق ، ميالا إلى الدَّعة ، نفورا عن النَّصَب ، يركن إلى فضل نبأه ، وذكا . يحاسب بهما عند التحصيل والدراسة والدُّوب على الطلب من رجل يجرى من الألحان على مضمار لطيف ، ولم يكن له صوت رخيم يساق^(١) انطباعه في التلحين ، فخر ذلك بالأوتار ، وحاول من ذلك بيده مع أصحابه ما لا ذ به الظرفاء منهم ، واستعمل بدار الأشراف بالمرية ، فأحكم تلك الطريقة في أقرب زمان ، وجاء زمابه يروق مَن ذلك العمل من شأنه ، ثم نهضت به همته إلى أرفع من ذلك ، فسار إلى غَرْ ناطة ، فقرأ بها العربية وغيرها ، وانخرط في سلك نبهاء الطلبة لأذنى مدة ، ثم رحل إلى بلاد المشرق في حدود العشرين وسبعمائة ، فلم يتجاوز القاهرة لمواقفة هوائها علة كان يشكوها ، وأخذ في إقراء العربية بها ، وعرف بها إلى أن صار يدعى بأبي عبد الله النحوى ، قال شيخنا المذكور : ورأى في صغره فارة أتى فقال : هذه قرينة ، فلقب بذلك ، وصار هذا اللقب أغلب عليه من اسمه ومعرفته .

ثم قال لسان الدين في حق المذكور ما ملخصه : إنه قرأ بالحضرة على الخطيب أبي على القبطاحي وطبقته ، وأخذ بآقاهازة عن الأستاذ أبي حيان ، وانتفع بجاهه ، نقل إلينا الحاج الحافظ أبو جعفر بن غصن من شعره حسبما قيده عنه بمصر :

(١) يساق انطباعه : أراد يجاريه ويوازيه

بُعْدُ المزار ولوعةُ الأشواق حَسَمًا بَقِيضٍ مدامع الآماق
 وخفوق نجدى النسيم إذا سرى أذكى لهيب فؤادى الخفاق
 أمعلى أن التواصل فى غد من ذا الذى لغدٍ فديتكَ باقى
 إن الالى الى سُبِقَ إن أقبلت وإذا تولت لم تنل بلحقاق
 عَجْ بالمطى على الحمى ، سَقَى الحمى ^(١) صوب الغمام الواكف الرقراق
 فيه لذى القلب السليم ودادة قلب سليم ماله من راق
 قلب غداة فراقهم فارقتهم لا كان فى الأيام يوم فراق
 يا ساريا والليل ساج عاكف يَفْرِى الفَلا بنجائب ونياق ^(٢)
 عرج على مشوى النبى محمد خير البرية ذى المقام الراق
 ورسول رب العالمين ومن له حفظ العهد وصحة الميثاق
 الظاهر الآيات قام دليها والطاهر الأخلاق والأعراق
 بَدْرُ الهدى وهو الذى آياته وجبينه كاشمس فى الإشراق
 الشافع المقبول من عمّ الورى بالجدود والإرفاد والإرفاق
 الصادق المأمون أكرم مرسل سارت رسالته إلى الآفاق
 أعلى الكرام ندَى وأسطهم يذا قبضت عنان المجد باستحقاق
 وأشد خلق الله إقداما إذا حمى الوطيسُ وشمّت عن ساق
 أمضاهم والخليل تعثر فى الوغى ونجول سَبَحًا فى الدم المهرق
 من صير الأديان ديننا واحدا من بعد إشراك مضى ونفاق
 وأحلتنا من حرمة الإسلام فى ظل ظليل وارف الأدراق
 لو أن للبدر المنير كله ما ناله كسف ونكس محاق

(١) عَج : أمر من « عَج يعوج » أى مال يميل ، و « سقى الحمى » دعاء ،
 وصوب الغمام : أراد به المطر ، والواكف : المنهمر
 (٢) الفلا : جمع فلاة ، وهى المفازة والصحراء ، ويفريها : يقطعها سيرا ،
 والنجائب : جمع نجيب ، وهو من الإبل السريع السير

لو أن للبحرين جودَ يمينه لو أن للأساد شدة بأسه
لو أن للآباء رحمة قلبه ذو العلم والحلم الخفي المنجلى
آياته شهبٌ وغرٌّ بفسانه ماجت فتوح الأرض وهو غياثها
ذو رافة بالمومنين ورحمة وخصال مجد أفردت بانحصاف
ذو المعجزات العزِّ والآي التي ثبتت المعارض حائراً لما حكمت
يقظ الفيؤاد سرى وقد جمع الورى وسما وأملك السماء تحفه
ومنها :

يا ذا الذى انصل الرجاء بمجبه حبي إليك وسيلتى وذخيرتى
وإليك أعلمت الرواحل ضمراً تجباً إذا نشدت حلى تلك العلا
يحدو بهن من النحيب مردد غرض إليه فوقتنا أسهما
فأنحتهما بفنائك الرغب الذى وانبث من هذا الورى بطلاق
إني من الأعمال ذو إملاق^(١) تخنل بين الوخذ والإعاق^(٢)
تطوى القلا متمد الأعناق وتقودهن أزمنة الأشواق
وهى القسى برين كالأفواق وسيع الورى بالنائل الدفاق

(١) آياته شهب : أراد واضحة وضوح النجوم ظاهرة للرائى ، وغر بنانه سحب : يريد أن يديه تجودان كما تجود الغيث ، وتدر : تهيم وتهطل
(٢) ربت : زادت وتمت (٣) الإملاق : الفقر ، يريد أنه ليس له عمل طيب
(٤) الوخذ والإعاق : ضربان من السير السريع

وَقَرَىٰ مُؤَمَّلَكَ الشِّفَاعَةُ فِي غَدٍ
وَعَلَيْكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ تَحِيَّةٌ
تَتَارَجُ الْأَرْجَاءُ مِنْ نَفَحَاتِهَا

ومنها :

قَسِمَا بِطَيْبِ تَرَابٍ طَيِّبَةٍ ؛ إِنَّهُ
وَبِشَّانِ مَسْجِدِهَا الَّذِي بِرَحَابِهِ
لَأَجُودُ فِيهِ بِأَدْمَعٍ أَسْلَاكُهَا
أَغْدُو بِتَقْبِيلٍ عَلَى حَصْبَائِهِ

ومنها :

وَعَلَيْكَ ذَا النُّورَيْنِ تَسْلِيمٌ لَهُ
كَفُوُ النَّبِيِّ وَكَفُوُ أَعْلَى جَنَّةٍ
وَكِفَاهُ مَا فِي الْفَتْحِ جَاءَ وَمُصْحَفٍ
وَعَلَى أَبِي السَّبْطَيْنِ مَنْ سَبَقَ الْأَلَى
الطَّاهِرِ الطَّاهِرِ أَبْنِ عَمِّ الْمُصْطَفَى
مُبْدِي الْقَضَايَا مِنْ وَرَاءِ حِجَابِهَا
يَغْزُو الْعُدَاةَ بِغُلْظَةٍ فِيهِمْ هَدْمٌ
رَايَانَهُ لَا شَيْءَ مِنْ عَقَبَانِهَا
وَعَلَى كِرَامِ سِتَّةِ عَشْرَتِ بِهِمْ
مَا بَيْنَ أَرْوَعٍ مَا جَدَّ نِيرَانُهُ
وَأَخِي حُرُوبِ صَدِهِ رَشَقُ الْقَنَا

- (١) ذُو النُّورَيْنِ : هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِثْمَانُ بْنُ عَمَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، تَزَوَّجَ
بِثْنَيْنِ مِنْ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَلَى التَّعَاقُبِ ، فَلَقَّبُوهُ بِذَلِكَ اللَّقَبِ لِهَذَا
(٢) مَا فِي الْفَتْحِ : أَرَادَ مَا كَانَ مِنْ وَضْعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ يَدَهُ الْأُخْرَى
وَقَالَ « هَذِهِ عَنْ عِثْمَانَ » وَكَانَ عِثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدِمَ إِلَى مَكَّةَ يَفَاوِضُ أَهْلَهَا عَنْ الرَّسُولِ
(٣) أَبُو السَّبْطَيْنِ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ

ما غردت شَجْوًا مُطَوِّقَةً وما شقت كَلَمَ الرّوض عن أطواق
وعلى القِرابَةِ والصّحابة كلهم والتّابعين لهم ليوم تلاقٍ
وذكر في « الإحاطة » غير هذه .

من إنشاء
لسان الدين في
ترجمة محمد بن
عبد الرحيم
الوادي آثى

وقال لسان الدين في « التاج » في ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوادي آثى ماصورته
ناظم أبيات ، وموضح غُرر وشيآت ، وصاحب توقيعات وقيعات ، وإشارات
ذوات شارات ، وكان شاعراً مكشّاراً ، وجواداً لا يخاف غثارا ، دخل على أمير بلده
المخلوع عن ملكه ، بعد انتشار سلكه ، وخروج الحضرة عن ملكه ، واستقراره
بوادى آش مُروّع البال ، متعللاً بالآمال ، وقد بلغه دخول طبرنش في طاعته ،
فأنشده من ساعته :

خذها إليك طبرنشا شَفَعَ بها وادى الأشا

والأم تأتى بنتها والله يفعل ما يشا

ومن نوادره العذبة ، ما كتبه إليه يطلب منه الحسبة :

ألننى أيا خير البرية خطة ترفعنى قدراً وتكسبنى عزا

فاعتز فى أهلى كما اعتز يَبْدُقْ على سفرة الشطرنج لما انثنى فرزا

فوقع له بما ثبت فى ترجمته ، انتهى .

من إنشاء
لسان الدين في
ترجمة ابن
العطار المزنى

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة أبى عبد الله بن العطار المزنى ما صورته : ممن
نبغ ونجب ، وحق له البر بذاته ووجب ، تحلّى بوفار ، وشعشع للأدب كأس^(١) عقار ،
إلا أنه اختُرم فى اقتبال ، وأصيب للأجل بنبال ، انتهى .

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن على بن محمد بن على بن يحيى
ابن خاتمة الأنصارى المزنى ، ما صورته : ممن شكّته البراعة ، وفقدته البراعة ، تأدب

(١) شعشع : أصله فى الحجر ، يقولون « شعشع الكأس » يريدون مزج فيه
الحجر بالماء ، وقال عمرو بن كلثوم :

مشعشة كان الحصن فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

بأخيه وتهذب ، وأراه في النظم المذهب ، وكساه من التفهيم والتعليم الرداء المذهب ،
فاقتنى واقتدى ، وراح في الحلبسة واغتدى ، حتى نبيل وشدا ، ولو أمهله الدهر لبناغ
المدى ، وأما خطه فقيد الأبصار ، وطرفة من طرف الأمصار ، واعتبط يانع الشبيبة ،
مخضراً الكتبية ، مات عام خمسين وسبعائة .

وأورد له في « الإحاطة » قوله :

وَمَضَى البرق فتار القلق	ومضى النوم وحل الأرق ^(١)
مذ تذكرت لأيام خلت	ضمنا فيها الحى والأبرق
وعشيات تقضت بالوى	في محيا الدهر منها رونق
إذ شبابي والتصابي جمعا	ورياض الأنس غصن مورق
شت يوم البين شملى ليت ما	خلق البين لقلب يعشق ^(٢)
آه من يوم قضى لى فرقة	شاب منى يوم حلت مفرق

وقوله :

الرفع نعتكم لا خانكم أمل وانخفض شيمة مثلى والهوى دُولُ
هل منكم لى عطف بعد بعدكم إذ ليس لى منكم ياسادى بدَلُ
قلت : البيت الثانى غاية فى معناه ، وأما الأول فسائل وإن أسس على الرفع مبناه ،
والله أعلم .

وقال فى « الإكمال » فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن عيسى
ابن داود الحميرى المالقى ما صورته : عَلم من أعلام هذا الفن ، ومُشعشع راح هذا
الذن ، مجموع أدوات ، وفارس يراعة ودوات ، ظريف المنزع ، أنيق المراءى
والسمع ، اختص بالرياسة فأدار فلك إمارتها ، واتسم باسم كتابتها ووزارتها ،

(١) ومضى البرق : أضاء ولمع ، والقلق : الاضطراب ، والأرق : السهر .

(٢) شت : فرق ، و « ما » فى « ليت ما خلق البين » نافية ، يتمنى أن البين
— وهو الفراق — لم يخلق ، ولا أذكر الآن نظيراً لهذا فى العربية .

من إنشاء
لسان الدين
فى ترجمة
أبى عبد الله
ابن خاتمة

من إنشاء
لسان الدين
فى ترجمة
أبى عبد الله
محمد بن عيسى
المالقى

ناهضاً بالأعباء ، صاعداً في درج التقريب والاجتباء ، مصانعاً دهره في راح وراحة ،
 أويأ إلى فضل وسماحة ، وخصب ساحة ، كما فرغ من شأن خدمته ، وانصرف
 عن رب نعمته ، عقد ثرباً^(١) ، وأطفأ من الاهتمام بغير الأيام حرباً ، وعكف على
 صوت يستعيده ، وظرف يبيديه ويهيده ، فلما تقلبت بالرياسة الحال ، وقوضت
 منها الرحال ، استقر بالمقرب غريباً ، يقلب طرفاً مستريباً ، ويلحظ الدنيا تبعه
 عليه وثريراً ، وإن كان لم يعدم من أمرائه حظوة وتقريباً ، وما برح يروح
 بشجنه ، ويرتاح إلى عهود وطنه ، ومما أعرب به ، عن براعة أدبه ، قوله :

يا نازحين ولم أفارق منهم شوقاً تأجج في الضلوع ضرامه
 غيَّبتمو عن ناظرى وشخصكم حيث استقر من الضلوع مقامه
 رمّت النوى شملى فشنت شمله والبين رام لا تطيش سهامه
 وقد اعتدى فيها وجدّ مبالغاً وجرت بمحكم جوره أحكامه
 أترى الزمان مؤخراً في مدتي حتى أراه قد انقضت أيامه

تحملها يا نسيم نجديّة النَّفَحَات ، وَجْدِيَّةَ اللَّفَحَات ، تؤدى عنى إلى الأحبة نفحها سلاماً ،
 وتورد عليهم لقحها برداً وسلاماً ، ولا تقل كيف تحملنى نارا ، وترسل على الأحبة منى
 إعصاراً ، كلا إذا أهديتهم تحية إناسى ، وآنسوا من جانب هبوبك نار ضرام أنفاسى ،
 وارتاحوا إلى هبوبك ، واهتزوا فى كف مسرى جنوبك ، وتعللوا بك تعليلاً ،
 وأوسعوا آثار مهبّك تقبيلاً ، أرسلها عليهم بليلاً ، وخاطبهم بلطافة تطفك تعليلاً ،
 ألم ترونى كيف جشتم بما حملنى عليلاً :

كذلك تركته مُلقىً بأرض له فيها — التعلل بالرياح
 إذا هبت إليه صبا إليها وإن جاءته من كل النواحي

(١) الثرب — بفتح الثاء المثناة وسكون الزاء — شحم رقيق على الكرش
 والامعاء ، وأراد بقوله « عقد ثرباً » امتلاؤه وعبائه وضخامة جشته ، ويكنى بهذه
 العبارة عن عدم المبالاة ، لأن من عادتهم التفكير فى كل شىء يهزلون ويضوون

تساعده الحمايم حين يبكي فما ينفك موصول التوَّاح
 يخاطبهن مهما طرُنَّ شوقاً أما فيكن واهبة الجناح
 ولولا تعلله بالأمانى ، وتحدث نفسه بزمان التدانى ، لكان قد قضى نجه ، ولم
 أبلغكم إلا نعيه أو نذبه ، لكنه يتعلل من الآمال بالوعد المطول ، ويتطارع
 باقتراحاته على الزمن المجهول ، ويحدث نفسه وقد قنعت من بروق الآمال بالخلب ،
 ووثقت بمواعيد الدهر القلب^(١) ، فيفاجيها بوحى ضميره ، وإيماء تصويره ، كيف
 أجرك يوم الالتقاء بالأحباب ، والتخلص من رِبْقَةِ الاغتراب ، أبائنة الحضور
 أم بادية الاضطراب ، كأنى بك وقد استفرك وَلَه السرور ، فصرفك عن مشاهدة
 الحضور ، وعافتك غشاة الاستعبار للاستبشار ، عن اجتلاء مُحْيَاً ذلك النهار .
 يوم يُدَاوِي زَمَانَا مِنِ أَرْمَانِي أزال تنغيصَ أحياني فأحياني
 جعلتُ لله نذراً صَوْمَه أبدأ أنى به وأوفى شرط إيماني
 إذا أرتفعنا وزال البعد وأنقطعت أشطان دهر قد التفت بأشطاني
 أعده خير أعياد الزمان إذا أوطأني السعد فيه ترب أوطاني
 أرايت كيف أرتياحى إلى التذكار ، وأقيادى إلى مُعللات توهمات الأفكار ؟
 كأن البعد باستغراقها قد طويت شقته ، وذهبت عى مشقته ، وكأنى بالتخيل بين
 تلك الخمائل أننسم صباحها ، وأنسم رُبَاهَا^(٢) ، وأجتنى أزهارها ، وأجتلى أنوارها ،
 وأجول فى خمائلها ، وأنعم ببيكرها وأصائلها ، وأطرف بمعالمها ، وأنشق أزهار
 كائناتها ، وأصيح بأذن الشوق إلى سجع حوائثها ، وقد داخلتنى الأرواح ، ونالت
 منى نشوة الارتياح ، ودنا السرور لتوهم ذهاب الأتراح ، فلما أفقت من غمرات
 سكرى ، ووثبت من هفوات فكري ، وجدت مرارة ما شابه لى فى استغراق

(١) دهر قلب — يوزن سكر — كثير القلب من حال إلى حال .

(٢) أنسم رباها : ارتفع إليها . والزبا : جمع ربوة ، وهى المكان المرتفع

دهرى ، وكأنى من حينئذ عالجت وقفة الفراق ، وابتدأت منازعة الأشواق ، وكأنما
أغمضنى النوم ، وسمح لى بتلك الفكرة الحلم :

ذَكَرَ الدِّيارَ فهاجسه تذكاره وسرت به من حينه أفكاره

فاحتلَّ منها حيث كان حلوله بالوهم منها واستقر قراره

ما أقربَ الآمالَ من غفواته لو أنها قضيت بها أوطاره

فإذا جئتُها أيها القدام والأصيلُ قد خلع عليها برداً مُورَّساً ، والربيع قد مد على
القيعان منها سندساً ، فاتخذها فديتك مُعرَّساً^(١) ، وأجرُ ذيلك فيها متبختراً ، وبث
فيها من طيب نفحاتك عنبراً ، وافترق عليها من نوافج^(٢) أنفاسك مسكاً أدفراً ،
واعطف معاطف بانها ، وأزقِصْ قُصْبَ ريحانها ، وصافح صفحات نهرها ، ونافح
نفحات زهرها^(٣) ، هذه كلها أمارات ، وعن أسرار مقاصدى عبارات ، هنالك
تنتعش بهاصِبات ، تعالج صِبات ، تتعلل بإقبالك ، وتعكف على لثم أذيالك ، وتبدو
لك فى صفة الغانى المنهالك ، لأطنها بلطافة اغتلاك ، وترفق بها ترفق أمثالك ،
فإذا مالت بهم إلى هواك الأشواق ، ولَوُوا إليك الأروُس والأعناق ، وسألوك عن
اضطرابى فى الآفاق ، وتقلبى بين الإشام والإعراق ، قتل لهم : عرض له فى أسفاره ،
ما يعرض للبدر فى سَرَّاره ، من سرار السرار ، ولحاق الحق ، وقد تركته وهو
يسامر الفرقدن ، ويساير النيرين ، وينشد إذا راعه البين :

وقد نكون وما يُخشى تفرُّقنا واليوم نحن وما يُرجى تلاقينا

لم يفارق وُغْماء الأسفار ، ولا ألقى من يده عصى التسيار ، يتساده الغور والنجد ،
ويتدارله الإرقال والوَخْد ، وقد لفحته الرِّمضاء ، وسئمه الإنضاء ، فالجها تلفظه ،
والآكام تبهظه ، يحمل همومه الرواسم ، وتحياته البواسم :

(١) المعرس — بضم الميم وفتح العين وتشديد الراء مفتوحة — مكان النزول ليلاً

(٢) النوافج : أوعية للمسك ، واحدها نافجة .

(٣) نافع : أمر من المناخة ، والمراد بها هنا الغالبة فى إظهار الريح ليظهر أيهما
أعبق وأظهر أريجاً .

تلاًلاً برق فعن حر حشاي ائتلق ، وإن سحّت السحب فمساعدة لجفني ،
وإن طال بكأؤها فعني ، حياها الله تعالى منازل ، لم تزل بمنظوم الشمل أو اهل ،
وحين انتثرت نثرت أزهارها أسفا ، ولم تثن الزيج من أغصانها مغطفا ، أعاد الله تعالى
الشمل فيها إلى محكم نظامه ، وجعل الدهر الذي فرقه يتأنق في إحكامه ، وهو
سبحانه يحبر الصدع ، ويعجل الجمع ، إنه بالإجابة جدير ، وعلى ما يشاء قدير .

إيه بُني كيف حال من استودعتهم أمانتك ، وأزمتهم صوتك وصياتك ،
وألستهم نسبك ، ومهدت لهم حسبك ؟ الله في حفظهم فهو اللائق بفعالك ،
والمناسب لشرف خلاك ، أرع لهم الاغتراب لديك ، والانتقاع إليك ، فهم
أمانة الله تعالى في يديك ، وهو سبحانه يحفظك بحفظهم ، ويؤالي بلحظك
أسباب لحظهم ، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال ، فنع الله تعالى ممتدة الظلال ،
وخيراته وارقة السربال ، لولا الشوق للملازم ، والوجد الذي سكن الحيازم .

وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي بكر محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل
المالقي ما نصه : نابعة مالقية ، وخلف وبقية ، ومغربى الوطن أخلافه مشرقية ،
أزيع الرحيل إلى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المَفرق^(١) ، فلما توسطت السفينة
اللجج ، وقارعت الشجج^(٢) ، هال عليها البحر فسقاها كأس الحمام ، وأولدها قبل
التمام ، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على نوره سوادها ، من جملة
الطلبة والأدباء ، وأبناء السراة الحسباء ، أصبح كل منهم مطيعاً ، لداعى الردى
وسميماً ، وأحبوا فرادى وماتوا جميعاً ، فأجروا الدموع حزناً ، وأرسلوا العبرات عليهم
مُرْناً ، وكأن البحر لما طمس سبيل خلاصهم وسدّها ، وأهل هضبة سفينتهم وهدّها ،
غار على نفوسهم النفيسة فاستردّها ، والفقير أبو بكر مع إكثاره ، واقيد نظامه

من أنشأه في
ترجمة أبي بكر
محمد بن مقاتل
المالقي

(١) اخضرار العود : ميعاة الشباب وطراءته . وسواد المَفرق : أراد أن الشيب لم يحل برأسه

(٢) الشجج — بالتحريك — الموج .

ونثاره ، لم أظفر من أدبه إلا بالقليل النافه ، بعد وداعه وانصرافه ، فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عاثراً :

ومنهف هافى المعاطف أخور
زلت له قدم فأصبح عاثرا
لو كنت أعلم ما يكون فرشت في
ذلك المكان الخلد والأشفا

وقال :

أيا لبنى الرفاء تنضى ظباؤهم
لقد قطع الأحشاء منهم منهف
يسدد إذ يرمى قبي حواجب
وتسقمى عيناه وهى سقيمة
ويذبل جسمى فى هواه صباية
وفى وصلى للعاشقين نعيم

كان غرقه فى أخريات عام تسعة وثلاثين وسبعائة ، انتهى .

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن محمد الشديد الملقى من إنشائه فى ترجمة ما نصه : شاعر مجيد حوك الكلام ، ولا يقصر فيه عن درجة الأعلام ، رحل إلى الحجاز لأول أسره فطال بالبلاد الشرقية ثوابه ، وعُجيت أنباؤه ، وعلى هذا العهد وقفت له على قصيدة بخطه غرضها نبيل ، ومرعاه غير وبيل ، تدل على نفس ونفس ، وإضاءة قبس ، وهى :

لنا فى كل مكرمة مقام
ومن فوق النجوم لنا مقام

ومنها :

روينا من مياه المجد لنا
وردناها وقد كثر الزحام

(١) « لنا » كلمة دعاء لمن عثر ، ومعناها « أنعشه الله ! » فإذا أريد الدعاء عليه قيل « لا لعاله » .

(٢) التبر : الذهب ، واللجين : الفضة ، وأصل الأديم الجلد .

فنحن هم ، وَقُلْ لِي مَنْ سَوَانَا ،
لنا الأيدي الطَّوَالُ بِكُلِّ صَوْبٍ
وَنَحْنُ اللَّابِسُونَ لِكُلِّ دَرَعٍ
بَأَنْدَالُسٍ لَنَا أَيَّامُ حَرْبٍ
ثَوَى مِنْهَا قُلُوبَ الرُّومِ خَوْفٌ
حَمِينًا جَانِبَ الدِّينِ احْتِسَابًا
وَتَحْتَ الرَّايَةِ الْحُمْرَاءِ مِنْهَا
بَنُو نَصْرٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هُمْ
لَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ فَتَكَاتٌ عَمِرُوا
يَقُولُ عِدَاتُهُمْ مَهْمَا أَلْمُوا
إِذَا شَرَعُوا الْأَسْنَةَ يَوْمَ حَرْبٍ
كَأَنَّ رِمَاحَهُمْ فِيهَا نَجُومٌ
أَنَاسٌ تُخَلِّفُ الْأَيَّامَ مِيتَةً
رَأَيْنَا مِنْ أَبِي الْحِجَاجِ شَخْصًا
مُوقًى الْعَرَضِ مُحَمَّدٍ السَّجَايَا
يَجُولُ بِذَهْنِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ
قَوِيمٌ الرَّأْيِ فِي نُوبِ اللَّيَالِي
لَهُ فِي كُلِّ مَعْضَلَةٍ مَضَاءٌ
رَوْفٌ قَادِرٌ يُغْفِضِي وَيَعْفُو
تَطُوفُ بَيْتِ سُوْدَدَةَ الْقَوَافِي

لَنَا التَّقْدِيمَ قَدَمًا وَالْكَلامَ
يَهْزُ بِهِ لَدَى الرُّوعِ الْحَسَامِ^(١)
يَصِيبُ السَّمَرِ مِنْهُمْ ائْتِلَامُ
مُوَاقِفِهِمْ فِي الدُّنْيَا عِظَامُ
يُخَوِّفُ مِنْهُ فِي الْمَهْدِ الْغَلَامِ^(٢)
فَهَا هُوَ لَا يَهَانُ وَلَا يَضَامُ
كَتَائِبُ لَا تَطَاقُ وَلَا تُرَامُ
أَسْوَدُ الْحَرْبِ وَالْقَوْمِ الْكِرَامِ
فَلَلْأَعْمَارُ عِنْدَهُمْ انْصِرَامُ
أَتُونَا مَا مِنَ الْمَوْتِ اعْتَصَامُ
فَخَفَقَ أَنْ ذَاكَ هُوَ الْحَامُ
إِذَا مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَ الْقَتَامُ
بِحَيٍّ مِنْهُمْ فَلَهُمْ دَوَامُ
عَلَى تِلْكَ الصِّفَاتِ لَهُ قِيَامُ
كَرِيمُ الْكَفِّ مَقْدَامُ هَامُ
فَيَدْرِكُهُ وَإِنْ عَزَّ الْمَرَامُ
إِذَا مَا الرَّأْيِ فَارَقَهُ الْقَوَامُ
مَضَاءُ الْكَفِّ سَاعَدَهَا الْحَسَامُ
وَإِنْ عَظُمَ اجْتِنَاءُ وَاجْتِرَامُ
كَمَا قَدْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْأَنَامُ

(١) الرُّوع — بالفتح — الخوف والفرع ، والحسام : السيف .
(٢) ثوى : أقام ، و « قلوب الروم » منصوب على الظرفية ، أى أقام الخوف
من أيامنا في قلوب الروم ، والمهد : المكان الذى يرقد فيه الاطفال .

وتسجد في مقام علاه شكرا ونعم الركن ذلك والمقام
أفارسها إذا ما الحرب أخذت على أبطالها ودنا الحمام^(١)
ومطرها إذا ما السحب كفت وكف أخى الندى أبدا غمام
لك الذكر الجليل بكل قطر لك الشرف الأصيل المستدام
لقد جئنا البلاد حيث سرنا رأينا أن ملكك لا يرَام^(٢)
فضلت ملوكها شرقا وغربا وبث ملكها يقظا وناموا
فأنت لكل معلو مَدَار وأنت لكل مكرمة إمام
جعلت بلاد أندلس إذا ما ذكرت تغار مصر والشام
مكان أنت فيه مكان عز وأوطان حلت بها كرام
وهبتك من بنات الفكر بكرا لها من حسن لقياك ابتسام
فنزّه طرف مجدك في حلالها فللمجد الأصيل بها اهتمام

وقال في « الإكليل » في ترجمة الشريف محمد بن الحسن العمراني من أهل
فاس ما صورته : كريم الانتاء ، متظلل بأغصان الشجرة الشماء ، من رجل سليم
الضمير ، ذى باطن أصفى من الماء النّمير ، له في الشعر طبع يشهد بعريّة أصوله ،
ومضاء نصوله .

وذكر في « الإحاطة » : إن الشريف المذكور توفي في حدود ثمانية وثلاثين وسبعائة

وقال في « الإكليل » في ترجمة محمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم المرادى
العشاب ، وهو قرطبي الأصل تونسي المولد والمنشأ ، ما نصه : جواد لا يتعاطى طلقه ،
وضئح فضل لا يمانل فلقه ، كانت لأبيه رحمه الله تعالى من الدول الخفصية منزلة
لطيفة المحل ، ومفاوضة في العقد والحل ، ولم يزل تسمو به قدم النجابة ، من العمل

(١) أخذت على أبطالها : أنت عليهم وأهلكتهم ، ومنه قول النابغة الذبياني :

أمتت خلاء وأمسى هلمأ احتملوا أخنى عليها الذى أخنى علي لبد

والحمام - بكسر ، بزة الكتاب - الموت ، ودنوه : قربه

(٢) جئنا البلاد : قطعناها بالسير فيها ، و « ملكك لا يرام » لا يطمع فيه طامع

لأنه موطن الدعائم ثابت الأساس محمى الثغور

من إنشائه في
ترجمة محمد
ابن الحسن
العمراني
القاسي

من إنشائه في
ترجمة محمد بن
محمد المرادى

إلى الحجابة ، ونشأ ابنه هذا مقضى الديون ، مُمدّى بالأنفُس والعيون ، والدهر ذو ألوان ، ومارقُ حرب عَوَان ، والأيام كُرَات تملقف ، وأحوال لا تتوقف ، فألوى بهم الدهر وأنحى ^(١) ، وأغام حوهم بعقب ما أحصى ، فشملمهم الاعتقال ، وتعاورتهم التَّوبُ النِّقال ^(٢) ، واستقرت بالشرق ركابه ، وحُطَّتْ به أفتابه ، فخبج واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعمر ، وعكف على كتاب الله تعالى فجود الحروف ، وقرأ المعروف ، وقيد وأسند ، وتكرر إلى دور الحديث وتردد ، وقدم على هذا الوطن قدومَ النسيم البليل ، على كبد العليل ، ولما استقر به قرَّاره ، واشتمل على جفنه غِزاره ، بادرت إلى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته ، فاجتليت للسِر شخصاً ، وطالعت ديوان الوفاء مُستَقْصى ، وشعره ليس بجائد عن الإحسان ، ولا غفل عن النكت الحسان ، انتهى .

وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر بن علي بن إبراهيم المليكشي ما صورته : كاتب الخلافة ، ومُشْعِش الأدب الذي يزرى بالسُلالة ، كان بطل نَجَال ، وربَّ روية وارتجال ، قدم على هذه البلاد وقد نبابه وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عَطَنه ، فتلوم النسيم بين الجائل ، وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل ، ولبث مدة إقامته تحت جراية واسعة ، وميرة يانعة ، ثم آثر قُطْره ، فولى وَجْهَه شَطْره ، واستقبله دهره بالإبابة ، وقلده خُطَّة الكتابة ، فاستقامت حاله ، وحُطَّت رحاله ، وله شعر أنيق ، وتصوف وتحقيق ، ورحلة إلى الحجاز سعيها في الخير وثيق ، ونسبها في الصالحات عريق ، ومن شعره قوله :

رَضَانَت مَاتَرِضِينَ مِنْ كُلِّ مَا يَهْوَى فَلَا تَوْقِفِينِي مَوْقِفَ الذَّلِّ وَالشُّكْوَى ^(٣)
وَصَفْحًا عَنْ الْجَانِي الْمَسِيءِ لِنَفْسِهِ كَفَاهُ الَّذِي يَلْقَاهُ مِنْ شِدَّةِ الْبَلَاوَى

(١) ألوى بهم الدهر : أهلكهم ، وأنحى عليهم : مثله

(٢) تعاورتهم : تداولت عليهم

(٣) « رضا » مفعول مطلق بفعل محذوف ، أى ارضى رضا ، ومثله « صفحا »

في البيت التالى ، « و نلت ماترطين - إلخ » جملة دعائية

من إنشائه
في ترجمة محمد
ابن عمر
المليكي

بما بيننا من خَلْوَةٍ معنوية أرقَّ من النجوى وأخلى من السلوى
قنى أنشكى لوعة البين ساعة ولا يك هذا آخر العهد بالنجوى
قنى ساعدننى عرصة الدار وانظرى إلى عاشق ما يستفيق من البلوى
وكم قد ساءتُ الريح شوقاً إليكم فما حنَّ مسراها على ولا ألوى
فياريح حتى أنت ممن يغاربنى ويانجدُ حتى أنت تهوى الذى أهوى
خُفِّتُ ولى قلب جليد على النوى ولكن على فقد الأوبة لا يقوى

وحدث بعض من عنى بأخباره ، أيام مقامه بماتمة واستقراره ، أنه لقي بيباب الملعب من أبوابها ظيية من ظيبات الإنس ، وقينة من قينات هذا الجنس ، فخطب وصالحها ، واتقى بفؤاده نصائحها ، حتى همت بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغصن الميَّاد ، فأبقى على نفسه وأمسك ، وأنف من خلع العذار بعدما تنسك ، وقال :

لم أنس وقفنا بيباب الملعب بين الرجا واليأس من متجنب
وعدتُ فكنت مراقبا لحديثها يا ذل وقفة خائف مترقب
وتدللت فذللت بعد تعزز يأتى الغرام بكل أمر معجب
بدوية أبدى الجمل بوجهها ماشئت من خدَّ شريق مذهب^(١)
تدنو وتبعد نفرة وتجنينا فتكاد تحسبها مهابة الربِّ رب^(٢)
ورنت بلحظ فأن لك فائر أنضى وأمضى من حسام المضرب
وأرتك بابل سحرها بجفونها فسبت ، وحق لمثلها أن تستبي
وتضاحكت فحكَّت بنير ثغرها لمعان نور ضياء برق نلِّب
بمنظم فى عقد سمطى جوهر عن شبه نور الأفحوان الأشنب
وتمايلت كالغصن أخضله الندى ريان من ماء الشيبية مُحْصِب^(٣)

(١) خد شريق : مشرق ، وقد يكون من قولهم « شرق لونه » إذا احمر من الحجل

(٢) اللهاة - بفتح اللام - البقرة الوحشية ، والربرب : القطيع من بقر الوحش

(٣) أخضله الندى : بلله

تُذْنِيهِ أرواحُ الصباة والصبا فتراه بين مشرق ومغرب
أبت الروادف أن تميل بميله فرستَ وجال كأنه في لولب
متموّجا بهلال وجه لاح في خلل السحاب الحاجب ومحجب
يا من رأى فيها محبا مغرما لم ينقلب إلا بقلب قلب
ما زال مذوّلى يحاول حيلة تدنيه من نيل المنى والمطلب
فأجال نارَ الفكر حتى أوقدت في القلب نار تشوق وتلهب
فناقت الأرواح قبل جسومها وكذا البسيط يكون قبل مركّب

وقال :

أرى لك يا قلبي بقلبي محبة بعثت بها سرّي إليك رسولا
فقابله بالبشرى ، وأقبل عشية فقد هبّ مسك للنسيم عايلا
ولا نعتذر بالقطر أو بال الندى فأحسن ما يأنى النسيم بايلا

توفي عام أربعين وسبعمائة بتونس ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر العبدري
التونسي الشاطبي الأصل ، مانصه : غَدِيَّ نعمة هامية ، وفريع رتبة سامية ، صُرفت
إلى سلته الوجوه ، ولم يبق من إفريقية إلا مَنْ يخافه ويرّجوه ، وبلغ هو مدة
ذلك الشرف ، الغاية من الترف ، ثم قلب الدهر له ظهر المِجَنّ ، واشتد به الخمار
عند فراغ الدّنّ ، ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوب مُبيرة ، وشدة كبيرة ،
فامتزج بسكانه وقُطّانه ، ونال من اللذات به ما لم ينله في أوطانه ، واكتسب
الشمائل العذاب ، وكان كابن الجُهم^(١) بعث إلى الرصافة ليرقّ فذاب ، ثم حوّم على
وطنه تحويم الطائر ، وألم بهذه البلاد إلام الخيال الزائر ، فاغنمت صفقة وده لحين

من إنشائه في
ترجمة محمد بن
علي العبدري
التونسي

(١) ابن الجهم : هو علي بن الجهم بن بدر ، كان من شعراء جعفر المتوكل
العباسي ، ثم انحرف المتوكل عنه فنفاه ، وهو القائل :
عيون المها بين الرصافة والجسر جانب الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وروده ، وخطبت موالاته على اقتباضه وشروده ، فحصلت منه على درة نُقِيتِي ،
وحديقة طيبة الجَنَى ، أشدني في أحباب له بمصر قاموا ببره :

لكل أناس مذهب وسجية ومذهب أولاد النظام المكارم^(١)
إذا كنت فيهم ثاويا كنت سيدا وإن غيبت عنهم لم تنك المظالم
أولئك صحي ، لا عدمت حياتهم ! ولا عدمو السعد الذي هو دأهم !
أغنى بذكراهم وطيب حديثهم كما غردت فوق العصون الحائم
وقال :

أَحِبَّتْنَا بمصر لو رأيتم بكائي عند أطراف النهار
لكنتم تشفقون لقرطوجدي وما ألقاه من بعد الديار

من إنشائه في

وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي القاسم محمد بن أبي زكريا يحيى بن أبي طالب ترجمة محمد بن
عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي السبتي ، ما صورته : فرغ تأود من الرياسة في يحيى العزفي ،
دَوَّحَة ، وتردد بين غدوة في المجد وروَّحَة ، نشأ والرياسة العزفية تعله وتنهله ،
والدهر يبسر أمله الأقصى ويُسَهِّله ، حتى انسقت أسباب سعده ، وانتهت إليه
رياسة سَلَفه من بعده ، فألقت إليه رحالها وحطت ، ومتمتعته بقر بها بعد ما شطَّت ،
ثم كلح له الدهر بعد ما تبسَّم ، وعاد زَعَزَعَا^(٢) نسيمه الذي كان يتنسم ، وعاق
هلاله عن تيمِّه ، ما كان من تغلب ابن عمه ، واستقر بهذه البلاد نازح الدار ،
بحكم الأمدار ، وإن كان نبيه المسكاة والمقدار ، وجرت عليه جراية واسعة ،
ورعاية متتابعة ، وله أدب كالروض باكرته الفائم ، والزهر تفتحت عنه الكائم ،
رفع منه راية خافقة ، وأقام له سوقا نافقة ، وعلى تدفق أنهاره ، وكثرة نظمه
واشتهاره ، فلم أظفر منه إلا باليسير التافه ، بعد انصرافه ، انتهى .

(١) هذا البيت مأخوذ من قول أبي الطيب المتنبي في سيف الدولة الحمداني :

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن في العدى :

(٢) الزعزع : الريح الشديدة ، قيل لها ذلك لأنها تززع كل شيء عن مكانه

من إنشائه في
ترجمة محمد
ابن المكودي
الفاسي

وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن المكودي الفاسي ما نصه : شاعر لا يتقاصى ميدانه ، ومَرَعَى بِيَانٍ وَرِفَ عِضَاهُ وَأَيْنَعَ سَعْدَانَهُ ، يدعو الكلام فيهِ طَعْدُ لِدَاعِيهِ ^(١) ، وَيَسْعَى فِي اجْتِلَابِ الْمَعَانِي فَتَنْجَحُ مَسَاعِيهِ ، غير أنه أفرط في الانهماك ، وهوى إلى السمكة من أَوْجِ السَّمَاءِ ^(٢) ، قدم على هذه البلاد مغفلتا من رهق تلمسان حين الحصار ، صفر اليمين واليسار من اليسار ، إلى هَوَى أَنحَى عَلَى طَرِيفِهِ وَتِلَادِهِ ، وأخرجه من بلاده ، ولما جذبته البين ، وحل هذه البلدة بحال تقبّحها العين ، والسيف بهزته ، لا بحسن بزته ، دعواناه إلى مجلس أعاره البدر هائته ، وخلع عليه الأصيل غلالته ، ورض تفتح كمامه ، وهوى عليه غمامه ، وكأس أنس تدور ، فتتلقى نجومها البدور ، فلما ذهبت للموانسة بَخَجَلِهِ ، وتذكر هواه ويوم نواه حتى خفنا حلول أجله ، جذبنا للموانسة زمامه ، واستسقيناه غمامه ، فأمّتع وأحسب ، ونظر ونسب ، وتكلم في المسائل ، وحاضر بطرف الأبيات وعيون الرسائل ، حتى نشر الصباغ رايته ، وأطلع النهار آيته ، فما نسبته إلى نفسه وأنشدناه قوله :

غرامى فيك جَلَّ عن القياس وقد أسقيتني به بكل كأس
ولا أنسى هواك ولو جفاني عليك أفارنى طرّاً وناسي
ولا أدري لنفسى من كمال سوى أنى لعهدك غير ناسي

وقال :

بَعَثَتْ بِخَمْرٍ فِيهِ مَاءٌ وَإِنَّمَا بعثت بماء فيه رائحة الخمر
فَقَلَّ عَلَيْهِ الشُّكْرُ إِذْ قُلْ سَكْرَانَا فنحن بلاسكر وأنت بلاشكر

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد

(١) يهطع : يسرع ، وفي النزيل الكريم : (مهطعين إلى الداع)

(٢) السمكة : واحدة السمك ، وهو أيضا برج في السماء يقال له الحوت ، والسمك - بكسر السين بزنة الكتاب - واحد السماكين ، وهما كوكبان نيران يقال لأحدهما السمك الراجع وللآخر السمك الأعزل ، ومراده أنه هوى من الأوج إلى الحضيض

ابن بيش العبدري الغرناطي ماصورته : معلم مدرّب ، مسهل مقرب ، له في صنعة من إنشائه في العربية باعٌ مديد ، وفي هدفها سهم سديد ، ومشاركة في الأدب لا يفارقها تسديد ،
 خاصي المنازع مختصرها ، مرتب الأحوال مقررها ، تميز أول وقته بالتجارة في
 الكتب فسَلَطَتْ منه عليها أَرْضَةُ آكلة ، وسهم أصاب من رميتها الشاكلة ،
 أترّب بسببها وأثرى ، وأغنى جهة وأفقر أخرى ، وانتقل لهذا العهد الأخير إلى
 سكنى مسقط رأسه ، ومنبت غراسه ، وجرت عليه جرایة من أحبابها^(١) ، ووقع
 عليه قبولٌ من ناسها ، وبها تلاحق به الحمام ، فكان من ترابها البداية وإليها
 التمام ، وله شعر لم يقتصر فيه عن المدى ، وأدب نوشح بالإجادة وارتنى ، أنشدني
 بسبته ناسع جمادى الأولى عام اثنين وخمسين وسبعائة يحيب عن بيتي ابن العفيف
 القلمساني :

يا ساكنا قلبي المعنى وليس فيه سواك ثانى
 لأى معنى كسرت قلبي وما التقي فيه ساكنان

فقال :

نَحَلْتَنِي طائعا فؤادا فصار إذ حُرِّتُهُ مكاني
 لا غرو إذ كان لى مضافا أتى على الكسر فيه بانى

وقال مخاطب الشريف أبا العباس وأهدى أقلاما :

أنا ملِكَ الغرّ التي سَيَّبُ جودها يَفِيضُ كَفِيضُ المزن بالصَّيِّبِ القطر^(٢)
 أتتني منها تحفة مثل عدّها إذا انتضيت كانت كُمُرُ هَمَةِ الشُّمر
 هي الصفر لكن تعلم البيض أنها محكمة فيها على النفع والضر
 مهذبة الأوصال ممشوقة كما تصوغ سهام الرمي من خالص التبر

(١) الأحباس : الأوقاف

(٢) الأنامل : جمع أملة ، وهى ما بين كل عقدتين من الأصابع ، وأراد هنا

الأصابع من إطلاق اسم الجزء على الكل ، والسيب - بالفتح - العطاء ، والمزن :
 السحاب ، والصيب : المطر الكثير الانصباب

فقبلتها عشرا ومثلت أننى ظفرت بلثم فى أناملك العشر
وقال فى ترتيب حروف الصحاح :

أساجعة بالواديين تبوّنى ثمارا جَنَّتْهَا حاليات خواضب

دعى ذكر روض زانه سقى شربه صباح ضحى طى ظباء عصائب

غرام فؤادى قاذف كل ليلة متى ما نأى وهنًا هواه يراقب

مولده فى حدود ثمانين وستائة ، وتوفى بغرناطة فى رجب عام ثلاثة وخمسين
وسبعائة ، انتهى .

قلت : رأيت بخط الجلال السيوطى على هامش جوابه عن يتي ابن العفيف
التلمسانى ماصورته : قلت : فى هذا البيت تصرّيح بأن المضاف إلى الياء مبنى على
الكسر ، وهو رأى مرجوح عند النحاة ، ذهب إليه الجرجانى ، والصحيح أنه معرب ،
على أن ذلك لا يحتاج إلى جواب كما يظهر بالتأمل ، قاله عبدالرحمن السيوطى ، انتهى ،
ويعنى بذلك أن الساكنين إنما يكسر أحدهما ، لا محلهما ، والله سبحانه أعلم .
وقال اسان الدين فى « الإكليل » فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن هانى :

اللخمى السبتي ، وأصله من إشبيلية ، ماصورته : علم تشير إليه الألف^(١) ، ويُفعل
إلى لقائه الحافرو الخلف^(٢) ، رفع للعرية ببلده راية لا تتأخر ، ومرج منها لجة ترخر ،
فانفسح مجالُ درسه ، وأثمرت أدواخُ غرسه ، فركض ما شاء وبرح ، ودوّن
وشرح ، إلى شمائل يملك الظرف زمامها ، ودعابة راشيت الخلاوة سهامها ،
ولما أخذ المسلمون فى مُنازلة الجبل وحصاره ، وأصابوا الكفر منه بجراحة إبصاره ،
ورموا بالشكل فيه نازح أمصاره ، كان ممن انتدب وتطوّع ، وسمع النداء

من إنشائه
فى ترجمة
أبى عبد الله
محمد بن هانى
اللخمى ،
السبتي

(١) الإشارة بالألف تستعمل بمعنى أن الأمر الذى يتحدث عنه مشهور متعارف

بين الناس ، سواء أكان مما يمدح به أم كان مما يذم به ، وقال الفرزدق :

إذا قيل أى الناس شر قبيلة أشارت كليب بالألف الأصابع

(٢) الحافر : يراد به الحيل ونحوها ، والخلف : يراد به الإل ، والمعنى أنه

مقصود من جميع الناس

فأقطع ، فلأزمه إلى أن نغد لأهله القوت ، وبلغ من فسحة الأجل الموقوت ، فأقام الصلاة بمحاربه ، وحياه وقد غير محياه طول اغترابه ، وبادره الطاغية قبل أن يستقر نصل الإسلام في قِرابه ^(١) ، أو يعاق أصل الدين في تُرابه ، وانتدب إلى الحصار به وتبرع ، ودعاه أجله فلبى وأسرع ، ولما هدر عليه الفنيق ^(٢) ، وركع إلى قبلة المنجنيق ، أصيب بحجر دؤم عليه كالجارح الحلق ، وانقضَّ إليه انقضاءً البارق المتألق ، فاقتنصه واختطفه ، وعمد إلى زهره فاقتطفه ، فمضى إلى الله تعالى طوع نيته ، وصحبته غرابة المنازع حتى في أمنيته ، انتهى .

وقد جود ترجمته في «الإحاطة» وقال : إنه ألف كتباً منها شرح «تسهيل الفوائد» لابن مالك ، مبدع تنافس الناس فيه ، وكتاب «الغرة الطالعة» في شعراء المائة السابعة ، وكتاب «إنشاد الضوال» وإرشاد السُّؤال في لحن العامة ، وهو مفيد ، وكتاب «قوت المقيم» ودون ترسيل أبي المطرف بن عميرة وضمه في سفرين ، وله جزء في الفرائض ، وحدثني شيخنا الشريف القاضي أبو القاسم قال : خاطبت ابن هانيء بقصيدة من نظمي أولها :

* هاتِ الحديث عن الركب الذي شَخَصَا *

فأجابني بقصيدة على رويها ، أولها :

لولا مشيب بفودي للفؤاد عصي	أنضيت في مَهْمَةِ النشيب لي قُلُصًا
واستوقفت عَبرَاتِي وهي جارية	وَكَفَاء توهم ربعا للحبيب قَصًا
مسائلا عن لياليه التي انتهزت	أيدى الأمانى بها ما شئتُه فُرَصًا
وكنت جارية فيه من جرى طَلَقًا	من الإجادة لم يجمع ولا نكصًا
أصاب شاكلة المرمى حين رمى	من الشوارد ما لولاه ما اقتنصًا

(١) القرباب — بكسر القاف — جنس السيف وغمده ، والعبارة كناية عن بقاء الفلق .

(٢) هدر ، هنا : صوت ، والفنيق — بفتح الفاء — الفحل من الإبل يكرم ولا يؤذى ولا يركب لكرامته على أهله ، وجمعه فنيق ، بضم الفاء والنون .

ومن أعدّ مكان النبل نبل حجا
ثم انثني ثانيا عطف النسيب إلى
فظلت أرفل فيها لبسة شرفت
يقول فيها وقد خولت منحتها
هذي عقائل وافت منك ذا شرف
فقلت هلا عكست القول منك له
وقلت ذى بكر فكر من أخى شرف
لما حلّى حسنات على حل
خولتها وقد اعتزت ملابسها
خذها أبا قاسم منى نتيجة ذى
جاءت تجاوب عما قد بعثت به
وهى طويلة .

ومما ينسب إليه :

ما للنوى مدّت لغير ضرورة
إن الخليل وإن دعت ضرورة
وقال مضمنا للثاني :

لا تلمنى عاذلى حين ترى
لورأى وجّه حبيبى عاذلى
وأجاب الشريف المذكور عن قصيدة مهموزة بقوله :
يا أوحّد الأدباء أو يا أوحّد الفضلاء أو يا أوحّد الشرفاء

(١) جرع — بالبناء للمجهول — سقى ، والكاهن القالى للبغض ،
والغرى بها — بضم الميم وفتح الراء على زنة اسم المفعول — المولع بها ، والغصص :
جمع غصة — بضم الغين فيهما — وهو عدم انسياغ الطعام فى الحلق .
(٢) يردى : يهلك ، و «الحساد» راجع إليه ، و «الخلصا» راجع إلى «يرضى»

من ذات آراء أحقّ منك إذا التوت طرق الحجاج بأن يجيب ندائي
أدب أرقّ من الهواء وإن تشأ فمن الهواء والماء والصهباء (١)
وألد من ظلم الحبيب وظلمه بالظاء مفتوحا وضم الظاء (٢)
ما السحر إلا ما تصوغُ بنائه ولسانه من حليّة الإنشاء
وهي طويلة ، يقول فيها بعد جملة أبيات :

لله نفثة سحرما قد شدّت لي من نفث سحر ك في مشاد ثناء
عارضت صفوانا بها فأريت ما يستعظم الراوى لها والرائي
لوراء لؤلؤك المنظم لم يفز من نظم لؤلؤه بغير عناء
بوتني منها أجـلّ مـبـوـا فلاخصى مستوطىء الجوزاء
وسما بها اسمي سائرا فانا بما أسديت ذو الأسماء في الأسماء
وأشدّت ذكرى في البلاد فلي بها طول الناء وإن أطلت ثوائى
ولقوى الفخر المشيد بنيتـه يا حسن تشيد وحسن بناء
فليهن هانهم يد بيضاء ما إن مثلها لك من يد بيضاء
خلّت أبياننا له تخمية بحلى على مصرية غراء
فليشمخوا أنفا بما أوليتهم يا محرز الآلاء بالأيلاه

ووصلها بنثر نصه : هذا بنى - وصل الله سبحانه لي ولك علو المقدار ! وأجرى
وفقا وفوق إرادتك وإرادتي لك جاريات الأقدار ! - ماسّح به الذهن السكّيل ،
واللسان القليل ، في مراجعة قصيدتك الغراء ، الجالبة السراء ، الآخذة بمجامع
القلوب ، الموفية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهيّج والأسلوب ، المتحلية بالخلي

(١) الصهباء : اسم من أسماء الحجر ، والهواء والماء والصهباء ثلاثهن مما يضرب
المثل بهن في الرقة .

(٢) الظلم - بفتح الظاء - الربق ، والظلم - بضم الظاء - ضد العدل ،
وقد جمع بينهما ابن الفارض في قوله :

عليك بهاصرفا ، وإن شئت مزجها فعدلك عن ظلم الحبيب هو الظلم

السنية ، العريقة المنتسب في العـلا الحسنية ، الجالية لصدأ القلوب ران عليها
الكسل ، وخانها السعدان السؤل والأمل ، فمتى حامت المعاني حولها ، ولو أقامت
حولها ، شكت وَيَلَهَا^(١) وَعَوَّلَهَا ، وحرمت من فريضة الفضيلة عَوَّلَهَا^(٢) ، وعهدى
بها والزمان زمان ، وأحكامها الماضية أمانى مقضية وأمان ، تتوارد ألافها ، ويجمع
إجماعها وخلافها ، ويساعدها من الألفاظ كل سهل ممتنع ، مفترق مجتمع ، مستأنس
غريب ، بعيد الغور قريب ، فاضح الخفى ، واضح العلا ، وضاح الغرة والجبين ،
رافع عمود الصباح المبين ، أيد من الفصاحة بأياد ، فلم يحفل بصاحبى طيء وإياد ،
وكسى نصاعة البلاغة ، فلم يعبا بهمّام وابن المراغة^(٣) ، شفاء الحزون ، وعلم سر
الحزون ، ما بين منشوره والموزون ، ولأن لاملهيج ولا مبهيج ، ولا مرشد ولا منبج ،
عكست النضايا فلم تَنْتِج ، فتبلى القلب الذكى ، ولم يرشح القلم الزكى ، وعم الإخام
وغم الإحجام ، وتمكن الإكداء والإجبال ، وكورت الشمس وسيرت الجبال ،
وعلت سامة ، وغلبت ندامة ، وارتفعت ملامة ، وقامت لنوعى الأدب قيامة ،
حتى إذا ورد ذلك المهرق ، وفرّغ غصنه المورق ، تفنى به الحمام الأذرق ، وأحاط
بعداد عداته الفصص والشرّق ، وأمن من الغضب والسرّق ، وأقبل الأمن
وذهب لإقباله الفرق ، نفخ فى صور أهل المنظوم والمنثور ، وبعثر مافى القبور
وحصل ما فى الصدور ، وتراءت للأدب صور ، وعمرت للبلاغة كور ، وهمت
للبراعة درر ، ونظمت للبراعة درر ، وعند ما تبين أنك واحد خلبة البيان ،
والسابق فى ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القدم ، وأقر لك مع النأخر
السابق الأقدم ، فوَحَقَ فصاحة ألفاظ أجَدَّتْها حين أوردتها ، وأسَلَّتْها حين أرسلتها ،
وأزنتها حين وزنتها ، وبراعة معان سَلَكتها حين مَلَكتها ، وأرويتها حين رَوَّيتها
أوروَّيتها ، وأصلتها حين فصلتها أو ووصلتها ، ونظام جعلته بجسد البيان قلباً ، ولعصمه
(١) الويل ، والويب ، والويح : الهلاك ، والعول - بالفتح - البكاء ، مثل العويل
(٢) العول ، هنا : من اصطلاح علماء الفرائض ، وهو أن تزيد أوصياء الورثة
عن البركة فيعود النقص على كل واحد منهم بنسبة نصيبه من البركة .
(٣) همام : هو الفرزدق ، وابن المراغة : جرير بن عطية .

قُلُوبًا ، وهصرت حدائقه غُلُبًا ، وارتكبت روية صَعْبًا ، ونثار أتبعته خديما ، وصيرته
لمدير كَأْسِهِ نديما ، ولحفظه ذِمَامَهُ المَدَامِي أومُدَامَهُ الذِمَامِي مديما ، لقد فتنتني حين
أنتني ، وسببتني حين صَدَبْتَنِي ، فذهبت خفَتَهَا بوقاري ، ولم يرعها بعد شيب عذارى ،
بل دعت للنصابي فقلت مرحبا ، وحلت لفتنتها الحُبَا ، ولم أحفل بشيب ، وألقيت مارد
نصابي نصيب ، وإن كنا فرسى رَهَانٍ ، وسابق حَلْبَةِ ميدان ، غير أن الجلدة بيضاء ،
والمرجو الإغضاء بل الإرضاء ، بُنِيَ كيف رأيت للبيان هذا الطوع ، والخروج
فيه من نوع إلى نوع ، أين صَفْوَان بن إدريس ، ومحل دعواه بين رحلة وتعريس ^(١) ؟
كم بين ثَغَاء بقر ^(٢) الفلاة وبين ليث الفريس ^(٣) ؟ كما أني أعلم قطما وأقطع علما ، وأحكم
مَضَاءً وأمضى حكما ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائقة ، وفريدتك الحالية الفاتقة ،
المعارضة لها قصيدته ، المنتسخة بها فريدته ، لذهب عرضا وطولا ، ثم اعتقد لك
اليد الطولى ، وأقر فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك العلامات والأطباع ، ونسي
كلمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربه من تلك الإلهية ، بُنِيَ
وهذا من ذلك ، من الجرى في تلك المسالك ، والتبسط في تلك المآخذ والتارك ،
أينزع غيرى هذا المنزع ؟ أم المرء بنفسه وابنه مَوْلَع ؟ حيا الله الأدب وبنيه ،
وأعاد علينا من أيامه وسننيه ! ما أعلى منازعه ، وأكبي منازعه ، وأجل مأخذه ،
وأجمل تاركة وأعلم آخذه ، وأرق طباعه ، وأحق أشياعه وأتباعه ، وأبعد طريقه ،
وأبعد فريقه ، وأقوم نهجه ، وأوفق نسجه ، وأسمح أفاضله ، وأفصح غمكاظه ،
وأصدق معانيه وأفاضله ، وأحمد نظامه ونثاره ، وأغنى شعاره ودثاره ، فعائبه
مطرود ، وعائبه مصفود ، وجاهله محصود ، وعالمه محسود ، غير أن الإحسان فيه

(١) التعريس : النزول ليلا للراحة من وعشاء السفر .

(٢) الثغاء — بضم الثاء — الصوت ، وأصله صوت الشاء والمعز وما شاكلها ،
فأما صوت البقر فهو الحوار ، بضم الحاء .

(٣) الفريس : هكذا هو في الأصول ، وله وجه ، ولكني أحسبه محرفا عن
« العريس » — بكسر العين وتشديد الراء مكسورة — وهو مأوى السباع .

قليل ، ولطريق الإصابة فيه علم ودليل ، مَنْ ظفر بهما وصل ، وعلى الغاية القصوى منه حصل ، ومن نكب عن الطريق ، لم يُعَدَّ من ذلك الفريق ، فَلْيَهْنِكْ أَيُّهَا الابن الذكي ، البرُّ الزكي ، الحبيب الخفي^(١) ، الصفيّ الوفيّ ، ألك حاملُ رايته ، وواصل غايته ، ليس أولوه وآخروه لذلك بمنكرين ، ولا تجد أكرهم شاكرين ، ولولا أن يطول الكتاب ، وينحرف الشعراء والكتّاب ، لفاضت ينابيع هذا الفضل فيضا ، وخرجت إلى نوع آخر من البلاغة أيضا ، قَرَّتْ عِبُونُ أَوْدَانِكَ ، وملئت غيظا صدور أعدائك ، ورَقِيتَ درج الآمل ، وزقيت عين الكمال ، وحفظَ منصبك العالي ، بفضل ربك الكبير المتعالى ، والسلام الأتم الأتم الأكل الأعم ، يخصك به من طال في مدحه إرقاك وإغذاذك ، ورادروض حمدك وابلك ، وطَلُّكَ ورذاذك ، وغدت مصالح سعيه في سعى مصالحك ، وسينفمك بحول الله وقوته وفضله ومنته مُعَاذُكَ ، ووسمت نفسك بناميده فسمت نفسه بأنه أستاذك ، ابن هاني* ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكانت وفاته شهادة في أواخر ذى القعدة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، ورثاه شيخنا أبو القاسم الحسنى بقصيدة أثبتت في اسمه منها :

سقى الله بالخضراء أشلاء سودد تضمين الترتب صوب الغائم
ورثاه شيخنا أبو بكر بن شبرين فقال :

قد كان ما قال البريد فاصبر لحزنك لا يفيد
أودى ابن هاني الرضى فاعتادنى للشكل عيد
بحر العلوم وصدرها وعيدها إذ لا عميد
قد كان زينا للوجود دقيه قد فجع الوجود
المعلم والتحقيق والتوفيق والحسب التليد

(١) أصل الخفي الذى يبالغ في السؤال عن الشيء ، وفى القرآن الكريم :
(يسألونك كأنك خفى عنها) .

تَنَدَّى خَلَاتِقَهُ فَقُلْ فِيهَا هِيَ الرُّوضُ الْمَجُودُ (١)
مُقْضٍ عَنِ الْإِخْوَانِ لَا جَهْمُ الْقَاءِ وَلَا كَنُودُ
أُودَى شَهِيداً بِأَذْلَا مَجْهُودِهِ ، نَعْمَ الشَّهِيدُ
لَمْ أَنْسَهُ حِينَ الْمَعَا رَفَ بِاسْمِهِ فِينَا تَشِيدُ
وَلَهُ صَبُوبٌ فِي طَالَا بَ الْعِلْمِ يَتْلُوهُ صُعُودُ
لِلَّهِ وَقْتُ كَانَ يَنْظُمُنَا كَمَا نَظَّمَ الْفَرِيدُ
أَيَّامَ تَعْدُو أَوْزُرُو حَ وَسَقَيْنَا السَّعَى الْحَمِيدُ
وَإِذَا الْمَشِيخَةُ جَسْمُ هَضْبَاتِ حِلْمٍ لَا تَمِيدُ
وَمِرَادُنَا جَمِ النَّبَاتِ تَ وَعِشْنَا خَضِرَ بَرُودُ
لُحْفَى عَلَى الْإِخْوَانِ وَالْأَتْرَابِ كُلِّهِمْ فَتَقِيدُ
لَوْ جِثْتُ أَوْطَانِي لِأَنْكُرَنِي التَّهَامُ وَالنُّجُودُ
وَلَرَاعَ نَفْسِي شَيْبَ مَنْ غَادَرْتَهُ وَهُوَ الْوَلِيدُ
وَلَطُفَتْ مَا بَيْنَ الْلَحْوِ دَ وَقَدْ تَكَاثَرَتْ اللَّحُودُ
سَرَّعَانَ مَاعَاثِ الْحَمَا مَ وَنَحْنُ أَيْقَاضُ هَجُودُ
كَمْ رُمْتُ أَعْمَالِ الْمَسِيرِ فَقِيدَتْ عَزْمِي قِيُودُ
وَالْآنَ أَخْلَفْتُ الْوَعْدَ ، وَأَخْلَقْتُ تِلْكَ الْبُرُودُ
مَا لِلْفَقْرِ مَا يَنْبَغِي فَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ
أَعْلَى الْقَدِيمِ الْمَلِكِ يَا وَيْلَاهُ يَعْتَرِضُ الْعَبِيدُ ؟
يَا بَيْنَ قَدِ طَالِ الْمَدَى أَبْرَقَ وَأَرْعَدَ يَا يَزِيدُ (٢)
وَلِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةٌ وَلِرَبِّمَا لَانَ الْحَمِيدُ

(١) المجود : اسم المفعول من « جاد المطر الأرض » أى هطل عليها .

(٢) أخذه من قول الشاعر :

أَرْعَدَ وَأَبْرَقَ يَا يَزِيدُ فَمَا وَعِيدُكَ لِي بِضَائِرِ

إيه أبا عبد الإله ودوننا مرّمي بعيد
 أين الرسائل منك تأتينا كما نسق العقود
 أين الرسوم الصالحات؟ تصرّمت، أين العهود؟
 أنعم مساء لا تخطيك البشائر والسعود
 وأقدم على دار الرضا حيث الإقامة والخلود
 والوق الأحبة حيث دار الملك والقصر المشيد
 حتى الشهادة لم تفتك فنجمك النجم السعيد
 لا تبعذن وعدًا لو أن البدء في الدنيا يعود
 فلئن بليت فإن ذكرك في الدنا غصّ جديد
 تالله لا تنساك أنديسة العلا ما اخضر عود
 وإذا تسومح في الحقو ق فحقك الحق الأكيد
 جادت صدّاك غمامة يرمى بها ذاك الصعيد
 وتعهدتك من المهيمن رحمة أبدا وجود

وقوله أول هذه الرسالة « عارضت صفوان بها إلى آخره » يعنى بذلك همزية
 صفوان بن إدريس المشهورة بين أدباء المغرب ، ولندكرها إفادة للغرض ، وهى :
 جاد الربا من بانة الجرعاء نوآن من دمعى وغيم سماء (١)
 فالدمع يقضى عندها حق الهوى والقيم حق البانة الغناء
 خلت الصدور من القلوب كما خلت تلك المقاصر من مهّا وظباء
 ولقد أقول لصاحبي وإنما ذخّر الصديق لأكّد الأشياء
 يا صاحبي ولا أقلّ إذا أنا ناديت من أن تصفيا لندائى

(١) المراد بالنوء — بالفتح — المطر ، وأصله صعود نجم مع هبوط آخر ،
 وكان العرب يقولون « مطرنا بنوء كذا » للسكواكب ، ونهى الإسلام عن ذلك ،
 فلما كثر استعمالهم ذلك انتقلوا منه إلى تسمية المطر نفسه نوءا ..

عوجاً تُجَارَى الغيثَ في سَقَى الحمى
وَسُنَّ في سقى المنازل سنة
يا منزلاً نشطت إليه عَبْرَتِي
ما كنت قبل مَزَارِعِكَ عالماً
يأليت شعري والزمان تنقُلُ
هل نلتقي في روضة مَوْشِيَةٍ
ونفال فيها من تألفنا ولو
في حيث أتلعت الغصون سوالفا
وبدت ثغور الياسمين فقبلت
والورد في شطِّ الخليج كأنه
وكان غَضَّ الزهر في خضر الربا
وكانما جاء النسيم مبشراً
فكساه خِلعة طيبة ورمى له
وكانما احتقر الصنيع فبادرت
والغصن يرقص في حلى أوراقه
وافتر ثغر الأفحوان بما رأى
أفديه من أنس تصرَّم فاقضى
لم يبق منه غير ذكري أو مَنَى
أورقة من صاحب هي تحفة

حتى يُرى كيف انسكاب الماء^(١)
نُمِضِي بها حكماً على الظرفاء
حتى تبسم زهره لبسكائي
أن المدامع أصدق الأنواء
والدهر ناسخ شدة برخاء
خناقة الأغصان والأفياء
ما فيه سخنة أعين الرقباء
قد قُلِّدت بآلئ الأبداء
عنى عذار الآسفة الميساء
رمد ألم بمقهـ — لـة زرقاء
زهر النجوم تلوح بالخضراء
للروض يخبره بطول بقاء
بдраهم الأزهار رمى سخاء
للعذر عنه نعمة الورقاء
كالخود في موشية خضراء
طرباً وبقه منه جرى الماء
فكأنه قد كان في الإغناء
وكلاهما سبب لطول عناء
إن الرقاع لتحفة النبهاء

(١) عوجاً : ميلاً ، وكثر هذا المعنى في كلام العرب ، ومنه

عوجوا خيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار

و « نجارى الدمع » نسايقه في الجريان وتغالبه ليرى أينما أكثر ماء ، ووقع في

ب « نجارى الدمع » محرفاً عما أثبتناه

كبطافة الوقى إذ حَيَّا بها ما كنت أدري قبل فض ختامها
 حتى ثنيت معاطفي طربًا بها فجعلت ذاك الطرس كأس مدامة
 وعجبت من خل يعاطى خلّه ورأيت رونق خطها في حسنّها
 فوحقها من تسع آيات لقد فكأنني موسى بها ، وكأنّها
 لو جاد فكر ابن الحسين بمثلها مسوداء إذ أبصرتها لكها
 ولقد رأيت وقد تأو بنى الكرى أن السماء أنى إلى رسولها
 بالفرقدين وبالثرى أدرجا فكفى بذاك الطرس من كافوره
 قسا بها وبنظما وبنثرها وعلمت أنك أنت في إبداعها
 لا ما تعاطت بابل من سحرها ولقد رميت لها القياد وإنها
 وطلبت من فكرى الجواب فعنّي فلذا تركت عروصها ورويا
 وبعثتها ألفتة همزية

إن الكتاب تحية الخطاء أن البطائق أكوّس الضمباء
 وجررت أذيالي من الخيلاء وجعلت مهديه من الندماء
 كأسا وراء البحر والبيداء كالوشى نثق معصم الحسناء
 جاءت بتأييدي على أعدائي تفسير ما في سورة الإسراء
 صحت نبوته لدى الشعراء (١) كم تحتها لك من يد بيضاء
 في حيث شابت لمة الظلماء بهدية ضاءت بها أرجائي
 في الطي من كافورة بيضاء وبنظم شعرك من نجوم سماء
 لقد اتحت لي ملء عين رجائي لفظا وخطًا معجز النبلاء
 لا ما ادعاه الوشى من صنعا لقضية أعيت على البلغاء
 وكبا بكف الذهن زئذ كائي وهجرت فيها سنة الأدباء
 خدعا لفكر جامع إيبائي

(١) ابن الحسين : هو أبو الطيب أحمد بن الحسين النبوز الملقب بالمتنبي

علمت بقدرك في المعارف فانبهرت من خجلة تمشي على استحياء انتهت القصيدة ، ومن خط ناظمها صفوان نقلتها .

رجع — وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في ترجمة أبي محمد عبدالله بن إبراهيم ابن عبدالله الأزدي في « الناج » ماصورته : طويل القوام والخوافي ، كلف على كبر سنه بمقائل القوافي ، شاب في الأدب وشب ، ونشق ريح البيان لماهب ، فحاول رقيقه وجزله ، وأجاد جده وأحكم هزله ، فإن مدح ، صدح ^(١) ، وإن وصف ، أنصف ، وإن عصف ^(٢) ، قصف ، وإن أنشأ ودون ، وتقلب في أفانين البلاغة وتلون ، أفسد ما شاء الله وكون ، فهو شبيخ الطريقة الأدبية وفتاها ، وخطيب حقلها كلما ، لا يتوقف عليه من أغراضها غرض ، ولا يضيع لديه منها مفترض ، ولم تزل برؤفه تتألق ، ومعانيه بأذيال الإحسان تعلق ، حتى برز في أبطال الكلام وفرسانه ، وذعرت القلوب بسطوة لسانه ، وألقت إليه الصناعة زمامها ، ووقفت عليه أحكامها ، وعبر البحر منتجعاً بشعره ، ومنفقا في سوق الكساد من سعره ، فأبرق وأزعد ، وحذر وأرعد ، وبلغ جهد إمكانه ، في التعريف بمكانه ، فسا حرك ولاهز ، وذل في طلب الرغد وقد عَزَّ ، وما برح أن يرجع إلى وطنه الذي اعتاده ، رجوع الحديث إلى قتاده ، وقد أثبت من نزاعه ، وبعض مخترعته ، ما يدل على سعة باعه ، ونهضة ذراعه ، فمن النسيب قوله :

ما للمحب دواء يذهب الألماً عنه سوى أَمَمٍ فيه ارتشاف لَمَى
ولا يرد عليه نوم مقلته إلا الدنو إلى مَنْ شَفَهَ سَقَا
يا حاكماً والموى فينا يؤيدُهُ هَوَاكَ فيّ بما ترضاه قد حكما
ثم سردها ، وقال في المدح :

(١) صدح : أصل معناه غنى ، ولعل المراد أنه قل الشعر الذي يجري على كل لسان ، وكانوا يسمون الأعشى « صناجة العرب » بذلك المعنى
(٢) عصف : أحسبه أراد به معنى « هجا »

إليك جدّ بنى التّشيارُ تأميلا فلى على فُضلاك المأمول تعويلا
الحمد لله حمدا لا كفاه له بسعد أيامك المأمول قد نيلا
ياراغبا من حجاب دفع معضلة فصبره بصروف الدهر قد عيلا
ألیم بحضرة ملك كل مفتخر بالملك يوليه بالتعظيم ترسيلا
فرع من الدّوحة النصرية اجتمعت فيه الفضائل تكميلا وتكميلا
لديه مما لدى الصديق تسمية وميسم وكفاه ذاك تقضـيلا
وهى طويلة ، انتهى .

وقال لسان الدين فى « الإكليل » فى ترجمة أبى الحسن على بن إبراهيم
ابن على بن خطاب السكك من أهل غرناطة ، ما صورته : متسور على بيوت
القرىض^(١) ، فى الطويل من الكلام والعريض ، ممن أطاعته براعة الخط ، وسلمت
لأعلامه رماح الخط^(٢) ، عانى كتابة الشروط لأول أمره ، ثم أظنت به محنته على
توفر خصاله ، ونبل خلاله ، وهو الآن من كتاب ديوان الحساب ، يتعين من
الأمر الحزنية ببعض الألقاب ، انتهى .

من إنشائه
فى ترجمة
أبى الحسن
السكك
الغرناطى

وقال فى « الناج » فى ترجمة أبى الحسن على بن محمد بن عبد الحق بن الصباغ
العقبلى الغرناطى ما صورته : اللسن العارف ، الناقد لجواهر المعانى كما يفعل بالسكة
الصيارف ، والأديب المجيد ، الذى تحلى به للعصر النحر والجيد ، إن أجل جياذ
براعته فضح فرسان المارق ، وأخجل بين بياض طرسه وسواد نقسه الطرر
تحت المفارق ، وإن جلا أبحار أفكاره ، وأنار طير البيان من أوكاره ، سلب
الرحيق المفدّم فضل إسكاره ، إلى نفس لا يفارقها ظرف ، وهمة لا يرتد إليها
طرف ، وإبانة لا يقل لها غرب ولا حرف ، وله أدب غص ، زهره على مجتنيه

ومن إنشائه
فى ترجمة
أبى الحسن بن
الصباغ العقبلى

(١) لا يعجبنى قوله « متسور على بيوت القرىض » فى مقام المدح ؛ فإن ظاهره
ينبى عن أنه يسرق شعره ويسطوفيه على شعر غيره
(٢) الخط الأول : السكتابة ، والخط الثانى : مرفأ كانت تجلب إليه الرماح ،
وإليه تنسب فيقال « رماح خطية » و « رماح الخط »

منفض ، كتبت إليه أستعجز وعده في الإبحاف برائقه ، والإمتاع بزهر حدائقه ،
قولي :

عندي لموعدك افتقارٌ مُخرج وعهودك افتقرت إلى إنجازها (١)
والله يعلم فيك صدق مودتي وحقيقة الأشياء غير مجازها
فأجانبني بقوله :

يا مهدى الدر الثمين منظما كلما حلال السحر في إنجازها
أدركت حُلُمات الأوائل وانينا ورددت أولها على أعجازها
أحرزت في المضمار خصل سباقها ولأنت أسبقهم إلى إحرازها (٢)
حَلَيْتَ بالسمطين منى عاطلا وبعثت من فكركى فتاة مغازها
فلأنجزن مواعدي مستعطفا فاسمح ، وبالإغضاء منك لجازها

وقال في « الإحاطة » في حق المذكور : إنه من أهل الفضل والسرّاة
والرجولة والجزالة ، فذى الكفاية ، ظهر السذاجة والسلامة ، مُضْمَبٌ لأضداده ،
شديد العصبية لأولى وداده ، يشتمل على خلال من خط بارع وكتابة حسنة وشعر
جيد ومشاركة في فقه وأدب ووثيقة ومحاضرة متمعة ، ناب عن بعض القضاة وكتب
الشروط ، وارتسم في ديوان الجند ، وكتب عن شيخ الغزاة أبي زكريا يحيى بن
عمر على عهده ، ثم انصرف إلى العُدوة سابع عشر جمادى الأولى من عام ثلاثة
وخمسين وسبعائة ، فارتسم في الكتابة السلطانية مُنَوَّها به مستعملا في خدم
مجدية بأن غنَّاه فيها وظفرت كفايته ، انتهى .

وقد وصفه بصاحبنا ، ثم قال : ومن شعر المذكور قوله :

ليت شعري والهوى أمل وأمانى الصب لا تقف

(١) كذلك هو في الأصول ، وأحسبه محرفا عن « افتقار محوح »

(٢) أحرزت : أى حزنه وأخذته ، وانضمار ، هنا : المكان الذى تجرى فيه
خيل الجلبة ، والحصل - بالفتح - الخطر الذى يراهن عليه فى الضال .

هل لذلك الوصل مرجعٌ أو لهذا الهجر مُنصرفٌ ؟

وقال :

وظي سبي بالطرف والعطف والجيد
أشرت إليه بالدنو مداعبا
وقال في مبدأ قصيدة مطوّة :

حديث المغاني بعدهنّ شجون
لح الله أيام الفراق فكم شجت
وحيا ديارا في ربّنا غرناطة
لأرخصت فيا من شباني ماغلا
خليلي لا أمرّ بأربعا قفا
ألم تراني كلما ذر شارق
إذا لم يساعدني أخ منكما فلا
أليس عجيبا في البرية من له
فلا تقن من ذى وفاء بهده
لقابى عذر في فراق ضلوعه
ومن ترك الحزم المعين فإنه
رعى الله أيامى الوثيق ذمامها
ولم أر مثل الدهر أما عدوه
ولولا أبو عمرو وجود بنانه
وأوجه أيام التباعد جُونُ
وغادرت الجذلان وهو حزين
وإني بذك القرب منك ضنين
وعزى على مال العفاف أمين
فعندى إلى تلك الربوع حنين
تضاعف عندى عبّرة وأنين
حدّث نخون بعد ذاك أمون
إلى عهد إخوان الزمان ركون
فقد أحزن السلسال وهو معين
وللدمع فى ترك الشؤن شؤن
لعان بأيدى الحادثات رهين
فإن مكاني فى الوفاء مكين
غيب وأما خـ له فخنون
لما كان فى هذا الزمان معين

(١) الجيد - بفتح الجيم والياء جميعا - طول الجيد أى العنق ، والغيد - بزنة الجيد - النعومة ، ويقال للأثني «غيداء» أى ناعمة متبخرة لطيفة البشرة كاملة الحسین

وقال :

زار الخيالُ ويالهـا من لَذَّةٍ لكنَّ لذاتِ الخيالِ منام
مازلت أنتم مَبْسُما منظومهُ در ومَوَرِدُهُ الشَّهْيُ مدام^(١)
وأضَمَّ غصنُ البانِ من أعطفه وأشَمَّ مسكاً فض عنه ختام
مولده عام ستة وسبعائة ، وتوفى بفاس ، وقد تخلفه السلطان كاتب ولده عند توجهه
لإفريقية في العشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعائة ، رحمه الله تعالى !
وقدوم لسان الدين في شهر وفاة المذكور ، وإنما الصواب أنه توفى يوم
الأحد ثامن شوال ، فاعلم ذلك ، والله سبحانه أعلم .

رجع - وقال في « النراج المحلى ، في مساجلة القدح الملقى » وفي « الإمكيليل
الزاهر ، فيمن فضل عند نظم التاج الجواهر » وغيرها مما ثبت في حلى رؤساء
الكتاب ، وحابى ألويه الآداب ، في ترجمة شيخه ابن الجياب ، مانصه : صدر الصدور
الجلَّة ، وعلم أعلام هذه الملة ، وشيخ الكتابة وبانيها ، وهاصرُ أفنان البدائع
وجانيها ، اعتمدته الرياسة فناء بهاعلى حبل ذراعه ، واستعانت به السياسة فدارت
أفلاكها على قطب من شَبَاةِ يرَّاعه^(٢) ، فتفياً للعناية ظلاظليلا ، وتعاقبت الدول فلم
تَرَبْه بديلا ، من نَدَب^(٣) على علوه متواضع ، وحبر لئذى المعارف راضع ، لا تمرُّ
مذاكرة في فن إلا وله فيه التبريز ، ولا تعرض جواهر الكلام على محكات
الافهام إلا وكلامه الإبريز ، حتى أصبح الدهر راويا لإحسانه ، وناطقا بلسانه ،
وغرَّب ذكره وشرَّق ، وأشام وأعرق ، وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق ،
إلى نفس هذبت الآداب شملها ، وجادت الرياضة خاملها ، ومراقبة لربه ،
واستنشاق لروح الله من مَهَبَّة ، ودين لا يُعْجَم عوده ، ولا تخلف وعوده ، وكل

(١) أراد بمنظومه أسنانه ، شبهها بالدر ، وأراد بمورده رضابه ، شبهه بالمدام وهى الحمر

(٢) اليراع : القلم ، وأراد بشباته طرفه الذى يكتب به وأصل الشبابة طرف الرمح ونحوه

(٣) الندب - بالفتح - الخفيف فى الحاجة الظريف النجيب ، يندب للأمر

فيخفف إقضائه

ماظهر علينا معشر بنيه من شارة تجلى بها العين ، أو إشارة كما سبك اللجّين ، فهي إليه منسوبة ، وفي حسنانه محسوبة ، فإنما هي أنفُسُ راضَها بأدابه ، وأعلَقها بأهدابه ، وهذب طباعها ، كالشمس تلقى على النجوم شعاعها ، والصور الجميلة تترك في الأجسام الصقيلة انطباعها ، وما عسى أن أقول في إمام الأئمة ، ونور الدياجي المدلّمة ، والمثل السائر في بعد الصيت وعلو الهمة ، وقد أثبت من عبون قصائده ، وأدبه الذي علق الإحسان في مصايدِه ، كلّ وثيق المعنى ، كريم المجنى جامع بين خصّافة اللفظ وإطافة المعنى ، انتهى .

والمدكور له ترجمة في هذا الكتاب في باب مشيخة لسان الدين فلتراجع ، وقال في «الإكليل» في حق عمر بن علي بن غفرون الكلبي من أهل منتقير ما صورته : شيخ خدم ، قام له الدهر فيها على قدّم ، وصاحب تعريض ، ودهاء عريض ، وفائز من الدول النصيرية بأياد بيض ، أصله من حصن منتقير ، خدم به الدولة النصرية عند اتزاء^(١) أهله ، وكان ممن استنزهم من حرّنه إلى سهله ، وحكم الأمر الغالب في يافعه وكنهه ، فكسب حُظوة^(٢) أرضته ، ووسيلة أرهفته وأمضته^(٣) ، حتى عظم جاهه وماله ، وبسقت آماله ، ثم دالت الدول ، وتنكرت أيامه الأول ، وتغلب من يُجانسه ، وشقى بمن كان ينافسه ، جف عوده ، والثابت سعوته ، وهلك وانحول يُظله ، والدهر يقوته من صُبابه حرث كان يستغله ، وله شعر لم يتقنه النظر ، ولا وضحت منه الغرر ، توفي في ذي الحجة عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، انتهى .

ومن إنشائه
في ترجمة عمر
ابن علي
المنتقيري

وقال في «الإكليل» في حق قاسم بن محمد بن الجدد القهري المري ماصورته : هو من أئمة أهل الزمام ، خالق برغى الذمام ، ذو حظ كما تفتح زهر السكّام ،

من إنشائه في
ترجمة قاسم بن
محمد القهري
المري

(١) اتزاء أهله : تسورهم ووثوبهم

(٢) الحظوة - بالضم - المسكنة والمنزلة عند الناس

(٣) أرهفته : حدّته ، وأمضيته : جعلته ماضيا نافذا ، وأصل استعمال هذين

اللفظين في السيف ونحوه

وأخلاق أعذب من ماء النعمان ، كان ببلده خاسبا ، ودُرّا في لُجّة الإغفال راسبا ،
صحيح العمل ، يُلبس الطروس من براعته أسنى الخلل ، قال يمدح السلطان :
أرى أوجه الأيام قد أشرقت بشرا فقل لي رعاك الله ما هذه البشرية
وما بال أنفاس الخزامى تعطرت فأرجت الأرجاء من نفعها عطرها
ونقبت الشمس المنيرة وجهها قصورا عن الوجه الذي أخجل البدر
وهي طويلة ، توفي المذكور عام خمسين وسبعمائة بالطاعون .

وقال في « الإكليل » في حق أبي عثمان سعيد الغساني ما صورته : هو ممن
يتشوق إلى المعرفة والمقالات ، ويتسقى إلى الحقائق والمُحَلَّات ، ويشتمل على
نفس رقيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقه ، ويعانى من الشعر ما يشهد
بذبله ، ويستظرف من مثله ، انتهى .

وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي الحجاج يوسف بن علي الطرطوشي ما صورته :

روض أدب لاتعرف الدواء^(١) أزهاره ، ومجموع فضل لا تحفى آثاره ، كان في فنون
الأدب مُطلق الأعنة ، وفي معاركه ماضى الظُّبَا والأسنة ، فإن هزل ، وإلى تلك
الطريقة اعتزل ، أبرم من الغزل ما غزل ، وبزل من دنان راحه ما بزل ، وإن
صرف إلى المغرب غرّب لسانه^(٢) ، وأعاره لحة من إحسانه ، أطاعه عاصيه ،
واستجمعت لديه أفاصيه ، ورَدَّ على الحضرة الأندلسية والدنيا شابة ، وريح القبول
هابية ، فاجتلى محاسن أوطانها ، وكتب عن سلطانها ، ثم كَرَّ إلى أوطانه وعطف ،
وأسرع اللحاق كالبارق إذا خطف ، وتوفى عن سن عالية ، وبرود من العمر غالية .

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن المتأهل العذري من أهل وادي
أش ما صورته : رجل غليظ الخاشية ، معدود في جنس السائمة والماشية ، تليت
أحمد العذري

(١) الدواء : الدبول ، ذوت الزهرة والفصن تذوى ، بوزن روى يرمى ،

أى ذبلت وجفت ، واستعمله هنا مجازا . (٢) غرب السيف - بالفتح - حدم ، هذا
أصله ، واللسان يوصف بالصرامة كما يوصف السيف ، قال حسان :

لسانى وسيفى صارمان كلاهما ويبلغ ما يبلغ السيف منودى

على العمال به سورة الغاشية ، ولّى الأشغال السلطانية فذعرت الجباة لولايتة ، وأيقنوا
 بقيام قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا : جاءت الدابة تكلمنا
 وهى إحدى الشروط ، من رجل صائم الحشوة ، بعيد عن المصانعة والرشوة ، يتجنب
 الناس ، ويقول عند المخالطة لهم : لامساس ، عهدى به فى الأعمال يحبط ويُبتر ،
 وهو يهمل ويكبر ، ويحسن ويقبح ، وهو يسبح ، وقال يخاطب بعض أمراء الدولة :
 عمادى ، ملاذى ، موئلى ، ومؤملى ألا أنعم بما ترضاه للمتأهل
 وحقق بنيل القصد منك رجاءه على نحو ما يرضيك إذا التفضل
 فأنت الذى فى العلم يُعرف قدره بخير زمان فيه لازلت تعتلى
 فهنئت يا معنى الكمال برتبة تقرر لكم بالسبق فى كل محفل
 توفى عام ثلاثة وأربعين وسبعائة ، انتهى .

وتذكرت بقوله « ويحسن ويقبح ، وهو يسبح » قول الآخر :

قد بلينا بأمر ظلم الناس وسبّخ
 فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويدّبح

رجع — وقال لسان الدين فى ترجمة أبى عبد الله بن باق من التاج ما صورته :
 مديراً كؤوس البيان المعتق ، ولعوب بأطراف الكلام المشقق ، انتحل لأول
 أمره الهزل من أصنافه ، فأبرز درر معانيه من أصدافه ، وجنى ثمرة الإبداع حين
 قطفه ، ثم تجاوزه إلى المغرب وتخطّاه ، فأدار كأسه المترع^(١) وعاطاه ، فأصبح لفنيه
 جامعاً^(٢) ، وفى فلكيه شهاباً لامعاً ، وله ذكاء يطير شرره ، وإدراك تتباج غرره ،
 وذهن يكشف الغوامض ، ويسبق البارق الوامض^(٣) ، وعلى ذلاقة لسانه ، وانفساح
 أمد إحسانه ، فشديد الصبابة بشعره ، مُعلٍ لسعره ، انتهى .

من إنشائه
 فى ترجمة
 أبى عبد الله
 ابن باق

(١) المترع — بزنة اسم المفعول — الملىء ، أترع الكأس يترعه : أى ملاء

(٢) أراد بفنيه النظم والنثر

(٣) الوامض : المضى

والذكور هو محمد بن إبراهيم بن علي باق الأموي ، مرسى الأصل ، غرناطي
النشأة ، ما لقي الاستيطان .

وقال في « عائد الصلة » : كان رحمه الله تعالى كاتباً أديباً ذكياً لودعياً يجيد
الخط ويرسل النادرة ، ويقدم على العمل ، ويشارك في الفريضة ، وبذَّ الشَّبَاق في
الأدب الهزلي المستعمل بالأندلس ، غبر زماناً من عمره محارفاً للفاقة يعالج بالأدب
السَّكْدِيَّة^(١) ، ثم استقام له الميسم ، وأمكنه البخت من امتطاء غاربه ، فأنشبت
الخطوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد ومحاسب ومدير تجر ، فأثرى ونما ماله ،
وعظمت حاله ، عهد عند ما شارف الرحيل بحملة تناهز الألف من العين ، لتصرف
في وجوه من البر ، فتوهم أنها كانت زكاة أمسك بها ، انتهى .
وقال أيضاً : أخبرني السكاتب أبو عبد الله بن سلمة أنه خاطبه بشعر أجابه
عنه بقوله في رَوِيَّة :

أحرز الخصل من بني سلمه	كاتب تخدم الظُّبَا فَلَمَه
يحمل الطُّرْسُ من أنامله	أثر الحسن كلما رقه
ويمدّ البيان فكرته	مرسلاً حيث يمت ديمه ^(٢)
خَصَّنِي متحفاً بخمس إذا	بسم الروض فُقِنَ مبتسمه
قلت أهدى زهر الربا خَصِلاً	فإذا كل زهرة كلمه
أقسم الحسن لا يفارقهـا	فأبرَّ انتقاؤها قسمه
خط أسطارها ونمتهـا	فأنت كالعقود منتظمه
كاسياً من حلاه لى حللا	رسمهـا من بديع مارسمه
طالباً عند عاطش نهلاً	ولديه الفيوث منسجمه

(١) السكدية: السؤال ، وقدمضى قولنا في هذا اللفظ (انظر ص ٣٩٨ من هذا الجزء)

(٢) يمت : أراد اتجهت ، وأصل معناه قصدت ، والديم : جمع ديمة - بكسر
الدال - وهو المطر الدائم الذي لا ينقطع

يبتغي الشعر من أخى بله أخرس العي والقصور فيه

أيها الفاضل الذي حفظت ألسن المدح والثنا شيمه

لا تكلف أخاك مقترحا نشر عار لديه قد كتبه

وابق في عزة وفي دعة ضافي العيش واردا شيمه^(١)

ما ثنى الغصن عطفه طربا وشدا الطير فوقه نغمه

ورأيت على هامش هذه القصيدة بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين ما صورته :
نعم ما خاطب به شيخنا وبركة أهل الأندلس وصدر صدورهم أبا عبد الله بن سلمة ،
ومن لفظه سمعتها بالقاهرة ، وإنها لمن النظم العلى المتسق نسق الدر في العقود ،
رحمه الله تعالى ! قاله ابن المؤلف ، انتهى .

وقرأ ابن باق المذكور على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير والخطيب أبي عثمان
ابن عيسى ، وتوفي بماتمة في اليوم الثامن والعشرين لحرم فاتح عام اثنين وخمسين
وسبعمائة ، وأوصى بعد أن حفر قبره بين شيعيه الخطيبين أبي عبد الله الطنجالي
وأبي عثمان بن عيسى أن يدفن به ، وأن يكتب على قبره هذه الأبيات :

ترحم على قبر ابن باق وحيه فمن حق ميت الحى تسليم حيه

وقل آمن الرحمن روعة خائف لتفريطه في الواجبات وغيه

قد اختار هذا القبر في الأرض راجيا من الله تخفيفا بقدر وليه

فقد يشفع الجار الكريم لجاره ويشمل بالمعروف أهل نديه

وإني بفضل الله أوثق واثق وحسى وإن أنبت حب نبينه

رجع - وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن سالم
ابن فضيلة المافرى المرى المدعو بالتنوء من «الإكليل» مانصه : شيخ أخلاقه لينه ،
من إنشائه في ترجمة ابن فضيلة المرى

(١) ضافي العيش : واسعه ، كفى به عن صلاح حاله وانفساح آماله وطمأنينة
باله ، والشيم - بفتح الشين وكسر الباء - البارود

ونفسه كما قيل هينة ، ينظم الشعر سهلاً مَسَاقُهُ ، محكما اتساقه ، على فاقة ، ماله من إفاقة ، أنشد المقام السلطاني بظاهر بلده قوله :

سرت ريحٌ نجد من رَبِّا أرض بابل فهاجت إلى مَسْرَى سُرَّاهَا بلا بلي
وذكري عَرَفُ النسيم الذي سري معاهد أحباب سِراة أفاضل
فأصبحت مشغوفاً بذكر منازل ألقت ، فواشوق لتلك المنازل
فيأريج هُبِّي بالبطاح وبالربا ومرّى على أغصان زهر الخمائل
وسيري بحسمى للتي الروحُ عندها فروحي لديها من أجلِّ الوسائل
وقولي لها عني مُعَذِّكَ بالنوى له شوق معمود وعبرة ثاكل^(١)
فيا بأبي هيفاء كالغصن تنثني تقد بقدر كاد ينقُـد مائل
وهي طويلة .

ومن شعر المذكور قوله من قصيدة :

بهرت كشمس في غلالة عسجد وكبدر تمّ في قضيب زبرجد
ثم انثت كالغصن هَزَنته الصبا طرباً فترى بالغصون الميَّـد
حوراء بارعة الجمال غريرة تزهى فترى بالقضيب الأملد
إن أدبرت لم تُبْقِ عقلَ مدبر أو أقبلت قتلت ولكن لا تَدِي

قال القاضي أبو البركات بن الحاج : وابتلى باختصار كتب الناس ، فمن ذلك مختصره المسمى « الدرر الموسومة ، في اشتقاق الحروف المرسومة » وكتاب حكايات يسمى « دوحة الجنان ، وراحة الجنان » وغير ذلك .

قال أبو البركات : وسألته عن مولده ، فقال لي : اليوم ستون سنة ، وقال ذلك

(١) للممود : اسم المفعول من قولهم « عمده الحب » أي أحزنه ، وإبه ضرب ، والثاكل : الفاقد ، وأصله خاص بالمرأة تفقد ولدها ، وعبرتها - بفتح العين - دمعها

ليلة الخميس السابع والعشرين لذي قعدة عام أر بعين وسبعائة ، وتوفى آخر رمضان من عام تسعة وأربعين ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

من إنشائه في
ترجمة أحمد
ابن علي الملياني

رجع - قال لسان الدين في «الإكليل» في ترجمة الكاتب صاحب العلامة أبي العباس أحمد بن علي الملياني المراكشي ما نصه : الصارم الفاتك ، والكاتب الباتك ، أي اضطراب في وفار ، وتجهم تحته أنس العقار ؟ اتخذته ملك المغرب صاحب علامته ، وتوجه تاج كرامته ، وكان يطالب جملة من أسيان مراكش بشارعه ، ويطوقهم دمه بزعمه ، ويقصر على الاستنصار منهم بنات هم ، إذ سَعَوْا فيه حتى اعتقل ، ثم جدوا في أمره حتى قتل ، فترصد كتابا إلى مراكش يتضمن أمراً جزماً ، ويشمل من أمور الملك عزماً ، جعل فيه الأمر بضرب رقابهم ، وسبب أسبابهم ، ولما أكد على حامله في العجل ، وضايقه في تقدير الأجل ، تأتت حتى علم أنه قد وصل ، وأن غرضه قد حصل ، فر إلى تلمسان وهي بحال حصارها ، فاتصل بأنصارها ، حالاً بين أنوفها وأبصارها ، وتعجب من فراره ، وسوء اغتراره ، ورجعت الظنون^(١) في آثاره ، ثم وصلت الأخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة ، فتركها شنيعة على الأيام ، وعاراً في الأقاليم على حملة الأقاليم ، وأقام بتلمسان إلى أن حل مُحَنَّق حصرها ، وأزيل هيمان الضيقة عن خصرها ، فلحق بالأندلس ولم يعدم براً ، ورعيًا مستمرًا ، حتى أتاه حمامه ، وأنصرفت أيامه ، انتهى .

والمذكور ترجمه في «الإحاطة» بقوله : صاحب العلامة بالمغرب ، الكاتب الشهير البعيد الشأو في اقتضاء الترة ، المثل المضروب في المهمة ، وقوة الصريمة ، ونفاذ العزيمة .

(١) رجعت الظنون : أصل هذه المادة الرجم وهو الرمي بالحجارة ، ثم قالوا « رجم فلان » - من باب نصر - إذا تسكّم بالظن ، وقالوا « رجم بالغيب » بالتضعيف - إذا تسكّم بما لا يعلمه .

حاله - كان نبيه البيت ، شهير الأصالة ، رفيع المكانة ، على سجية غريبة من الوقار والانتباه والصمت ، آخذاً بحظ من الطب ، حسن الخط ، مليح الكتابة ، قارضاً للشعر ، تذهب نفسه فيه كل مذهب

وصمته - فتك فتكة شهيرة أساءت الظن بحمالة الأقلام على ممر الدهر ، وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة .

شعره - من شعره الذي يدل على بأوه ، وانفساح خطاه في النفاسة وُبعد شأوه ، قوله :

العز ما ضُربت عليه قبائي	والفضل ما اشملت عليه ثيابي ^(١)
والزهر ما أهداه غصنُ بَراعتي	والمسك ما أبداه نِقْسُ كِتابي
فالمجد يمنع أن يزاحم موردي	والعزم يأبى أن يُضام جنابي
فإذا بلوت صنيعه جازيتها	بجَميل شكري أو جَزِيل ثوابي
وإذا عقدت مودة أجريتها	بجري طامعي من دمي وشرابي
وإذا طلبت من القرائد والشها	ثأراً فأوشك أن أنال طلاي

وفاته - توفي بغرناطة يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة ودفن بجبانة باب البيرة ، تجاوز الله تعالى عنه ! انتهى .

رجع إلى نثر ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

فمن ذلك قوله ، في «الروض» في ترجمة «ضخام الغصون ، من شجرة السر المصون» ماصورته : وهي التي أفادت الظل الظليل ، وزانت المرأى الجميل ، وتكفلت لحاسن الشجرة السماء بالتكفيل ، وتعدد إلى غصون المحبوبات ، وأقسام موضوعاتها المكتوبات ، وغصن المحبين ، أصنافهم المرتبين ، وغصن علامات الحبة ، وشواهد النفوس الصَّبة ،

(١) كفى بهذا عن ثبوت صفة العزلة ، وعن ثبوت الفضل ، وأخذه من قول

العرب «المجد بين بردى فلان» ومن قول الشاعر :

إن السماحة والمرواة والندی في قبة ضربت على ابن الحفّرج

من شعره
في كتابه
«الروض»

وغصن الأخبار المنقولة ، عن ذوى النفوس المصقولة ، وعند تعين هذه الأغصان المقسومة ، كمل شكل الشجرة المرسومة ، والسرحة الموصوفة الموسومة ، فقاءت الظلال ، وكرمت الخلال ، فحي من تفرد وتوحد ، واستظل من استهدى واسترشد ، ووقف الهائم فخطب وأنشد :

يا سرحة الحى يامطول شَرَحُ الذى بيننا يطول^(١)

عندى مقال فهل مقام تُصَفِّينَ فيه لما أقول

ولى ديون عليك حَلَّتْ لو أنه ينفع الحـ

ماض من العيش كان فيه منزلنا ظلك الظليل

زال وماذا عليه ماذا يا سَرَحَ لو لم يكن يزول

حيًا عن المذنب المعنى منبتك القطرُ والقبول

وقال رحمه الله تعالى : فصول فى المعرفة تفازل بها عيون الإشارة ، إذا قصرت عن تمام المعنى ألسنُ العبارة ، والله در القائل :

وإذا العقول تقاصرت عن مدرك لم تتكل إلا على أذواقها

المعرفة اختراق المراتب الحسية ، والنفوس الجنسية ، والعقول القدسية ، والبروز إلى فضاء الأزل ، إذا فنى من لم يكن وبقي من لم يزل ، مع عمران المراتب ، ورؤية الجائز فى الواجب .

ومن تحب أنى أحسن إليهم وأسأل شوقاً عنهم وهم معى

وتبكيهم عيني وهم فى سوادها ويشكو النوى قلبى وهم بين أضلعي

المعرفة مقام يألف من جمع مفروق ، وأقول وشُروق ، وسل عروق ، ورد مسروق ،

(١) أصل السرحة - بالفتح - الشجرة العظيمة ، وقيل : كل شجرة لا شوك فيها ، وقيل : كل شجرة طويلة ، ثم يكونون عن المرأة بالسرحة ، ومن ذلك قول حميد الأرقط :

أبى الله إلا أن سرحة مالك على كل أفتان العضاء تروق

حتى يذهب السكيف والأين ، ويتعين العين ، فيجمع العدد ويحمل ، وينحى
السوى ومع ذلك لا يهمل .

لِلْعِدَا مِنْكَ نَصِيبٌ وَلَكَ السَّهْمُ الْمَصِيبُ
إِنَّمَا يَوْمُكَ يَوْمًا نَ خَصِيبٌ وَعَصِيبُ
المعرفة مقام ساعى المنعرج ، عاطر الأرج ، ينقل من السعة إلى الحرج ^(١) ، ومن الشدة
إلى الفرج .

طريقك لا تخفى به إن تتبعته خطاك ولا يخفى مبيتك فيه
مَتَاعُكَ مَنْشُورٌ عَلَى كُلِّ خِيْمَةٍ وَرُؤْيَاكَ أَمْنٌ مِنْ تَرْفَعِ تَيْبَةٍ
المعرفة عين إن لم تبصر أجزاءها ، أحسن الله عزاءها ، وحقيقته إن لم يجعل الفراق
إزاءها ، كانت الغيرة جزاءها ، فهي دائرة مركزها يجمع ، ومحيطها في التفريق
يطمع ، يستقل الملك أجمع ، ويرى من يرى ويسمع من يسمع .

بُعْدُ الْحَيْطِ مِنَ الْمَحْدَدِ وَاحِدٌ وَالْكُلُّ فِي حَقِّ الْوُجُودِ سَوَاءٌ
وَالْحَقُّ يَعْرِفُ ذَاتَهُ مِنْ ذَاتِهِ صَحَّ الْهَوَى فَنَلَّاشَتْ الْأَهْوَاءُ
المعرفة صعود ونزول ، ووقوف ووصول ، فلا الوصول عن البداية يقطع ،
ولا البداية عن النهاية تمنع .

مَنْ لَهُ الْأُمُورُ أَجْمَعُ كُلُّ مَا شَاءَ يَصْنَعُ
حَصَلَ الْقَصْدُ وَاسْتَقَرَّ فَلَمْ يَبْقَ مَطْمَعٌ
العارف في البداية يشكر الراكم والساجد ، ثم يعذر الواجد والمتواجد ، ثم يرجع
للمفكر الجاحد ، فإذا انتهى وردَّ العدد إلى الواحد ، قال لسان حاله :
مَنْ رَأَى لِي نَشِيدَةً أَوْ عَلَى عَيْنِهَا أَثَرٌ

(١) هكذا في الأصول ، والذي يتفق ما بعده أن يكون أصل العبارة « ينقل

إلى السعة من الحرج »

كما تعالج الجسوم ، وباطنه المجاهدات التي عليها يقوم ، وقلبه الرياضة والفصون المقامات فيها المقام المعلوم ، ومادتها السلوك الذي بتدريج غذائه تبلغ الأفنان والورقات ما تروم ، والزهرات اللوانح والطوالع والبوادر التي لها الهجوم، والواردات التي تدوم أولاتدوم ، ثم الجنى وهو الولاية التي كان الفارس عليها يحوم^(١) ، انتهى . ثم فصل الكل رحمه الله تعالى فليراجعه من أراه .

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه على لسان سلطانه للأمير يلبغا^(٢) الخاصكى ، وهو : إلى الأمير المؤمن على أمر سلطان المسلمين ، المتقلد بتدييره السديد قلادة الدين ، المثني على رسوم بره لمقامه لسان الحرم الأمين ، الآوى من مرضاة الله إلى الأمير يلبغا تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى ربوة ذات قرار ومعين ، المستعين من الله تعالى على ما تحمله وأمله بالقوى المعين ، سيف الدعوة ، ركن الدولة ، قوام الملة ، مؤمل الأمة ، تاج الخواص ، أسد الجيوش ، كافى الكفاة ، زين الأمراء ، علم الكبراء ، عين الأعيان ، حسنة الزمان ، أجل المرفع الأسنى الكبير الأشهر الأسنى الحافل الفاضل الكامل المعظم الموقر الأمير الأوحى يلبغا الخاصكى^(٣) ، وصل الله له سعادة تشرق غُرَّتُها ! وصنائع^(٤) تسح فلا تشح درتها ! وأبقى تلك المثابة قلادة الله تعالى وهو درتها .

سلام كريم ، طيب عيم ، يخص إمارتكم التي جعل الله تعالى الفضل على سعادتها أمانة ، والبُسْر لها شارة ، فيساعد الفلك الدوَّارهما أعملت إدارة ، وتمثل الرسوم كلما أشارت إشارة .

أما بعد حمد الله تعالى الذى هو يعلمه فى كل مكان ، من قاص ودان ، وإليه توجه الوجوه وإن اختلفت السير وتباعدت البلدان ، ومنه يلتمس الإحسان ،

(١) حام حول السكان يحوم : دار (٢) فى ب « يلبغا » بالوحدة أوله (٣) الصنائع : جمع صنعة ، وهى الإحسان ، وتسح : أصله قولهم « سح المطر يسح سحا » أى هطل ، وتسح — بالمعجمة — أى تبخل .

من إنشائه على
لسان سلطانه
إلى الأمير يلبغا

وبذكره ينشرح الصدر ويطمئن القلب ويمرح اللسان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسولنا العظيم الشأن ، ونبيّه الصادق البيان الواضح البرهان ، والرضا عن آله وأصحابه وأحزابه أخلاص^(١) الخيل ، ورهبان الليل^(٢) ، وأسود الميدان ، والدعاء لإمارتكم السعيدة بالعرزرائق الخبر والعيان ، والتوفيق الوثيق البنيان ، فإننا كتبناهم إليكم - كتب الله تعالى لكم حظا من فضله وافرا ، وصنيعا عن محيا السرور وسافرا ، وفي جوّ الإعلام بالنعم الجسام مسافرا !- من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الأبدس دافع الله سبحانه عن حوزتها كيد العداة ، وأتحف نصلها ببواكر النصر المهداة ، ولا زائد إلا الشوق إلى التعارف بتلك الأبواب الشريفة التي أتم عنوان كتابها المرقوم ، وبيت قصيدها المنظوم ، والتماس بركتها الثابتة الرسوم ، وتقرير المثول في سبيل زيارتها بالأرواح عند تعذره بالجسوم ، وإلى هذا فإننا كانت بين سلفنا نقبل الله تعالى جهادهم ، وقُدس نفوسهم ، وأمن معادهم ، وبين تلك الأبواب كما عرفتم من عدلها وإفضالها ، مراسلة ينم عرف الخلوص من خلالها ، وتسطع أنوار السعادة من آفاق كمالها ، وتلتصع من أسطار طرومها محاسن تلك المعاهد الزاكية المشاهد ، وتُرب عن فضل المذاهب وكرم انقياد ، اشتقنا إلى أن نجددها بحسن منابكم ، ونواصلها بمواصلة جنابكم ، ونغتنم في عودها الحميد مكانكم ، ونؤمل لها زمانكم ، فخطبنا الأبواب الشريفة في هذا الغرض مخاطبة خجلة من النقصير ، وجلة من الناقد البصير ، ونؤمل الوصول في خفارة يدكم التي لها الأيادي البيض ، والموارد التي لا تغيض ، ومثلكم من لا تخيب المقاصد في شمائله ، ولا تضحى المآمل في ظل خائفه ، فقد اشتهر من حميد سيركم ما طبق الآفاق ، وصحب الرفاق ، واستازم الإصفاق ، وهذه البلاد مباركة ،

(١) أخلاص الخيل : الذين يلزمون صهواتها ولا يفارقونها ، وأراد أنهم فرسان

مغاوير .

(٢) رهبان الليل : يريد أنهم كثيرو العبادة قوامون ليلهم .

ما أسلف أحد فيها مشاركة ، إلا وجدها في نفسه ودينه وماله وعياله ، والله سبحانه
أكرم من وفى لامرئ بمكياله ، والله عز وجل يجمع القلوب على طاعته ، وينفع
بوسيلة النبي صلى الله عليه وسلم الذى نعول على شفاعته ، ويُبقي تلك الأبواب
مُلبجةً للإسلام والمسلمين ، وظلا لله تعالى على العالمين ، وإقامة إشعائر الحرم
الأمين ، ويتولى إعانة إمارتكم على وظائف الدين ، ويعملكم ممن أنعم الله تعالى
عليه من المجاهدين ، والسلام الكريم يخصصكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله في قضية امتناع بعض الموثقين من
أكل طعامه بمدينة سلا ، وقد صدر به كتابه المسمى « بملى الطريقة ، في ذم الوثيقة »
وهذا نصه : أما بعد حمد الله الذى قرر الحكم وأحكمه ، وبين الحلال من الحرام
بما أوضحه من الأحكام وعلمه ، ونوع جنس المعاش وقسمه ، وماز^(١) كل نوع منه
ووسمه ، فأثبتته متفاوتا في درجات التفضيل ورسمه ، والصلاة والسلام على مولانا
محمد رسوله الذى فضله على الأنبياء وقر به وطهر من دَس الشبهات شيمه ، فما استعمله
في غير طاعته ولا استخدمه ، ولا أعمل في سوى البر والهذى بَنَانه ولا قَدَمه ،
والرضا عن آله وأصحابه الذين رَعَوْا ذِمَّه^(٢) ، واستمطروا دِيَمَه ، وتواصوا من أجله
بالبر وتواصوا بالمرحمة ، فهذا كتاب « بملى الطريقة ، في ذم الوثيقة » دعا إلى جمعه
قلة الإنصاف من المداهن والمعاصر ، والمباهت في درك النور الباصر ، ورضى مظنة
النيل منهم بالبائع القاصر ، والمناضلة عن الحى الذى لم يؤيده الحق بالولى ولا بالناصر ،
ولوضعه حكاية ، ولنفتته شكاية ، إذ معرفة الأشياء بعلاها مما يتشوق إليه ، ويحرص
عليه ، وهو أنى لما قدمت على مدينة فاس حرسها الله تعالى ، مستخلصا بشفاعته
الإخلافة ، ذات الإنافة ، مستدعى برسالة الإيالة ، ذات الجلالة ، فانسحب والمنة

(١) ماز الشيء عن الشيء : مرزه وفصل أحدهما عن الآخر .

(٢) رَعَوْا ذِمَّه : حفظوا عهدوه ولم يخفروها .

لله الستر ، وانفسح الفتر ، وشفع من النعم الوتر ، واقتدى الرؤس بالرئيس ، وتنافس
الأعلام في التأنيس ، واتصل الاحتفاء والاستدعاء ، وانتخب الموعى والوعاء ،
وأخذ أعقاب الطيبات الوضوء والطيب والدعاء ، تعرفت فيمن جمعته الأخوة ،
والمداعى المتعينة ، رجل من نبهاء موثقها غرّنى بمخيلة البشاشة التي يُستفز بها
الغريب ، ويستخلص هوى من لم يعمل التجريب ، فأنت بمكانه ، واستظهرت
على ما يعرض من مكتب بدكانه ، وشأى في الاغتراب بمن عرفت شأنى ، فلست
للمقة بشانى ، واسترسالى ، حتى لمن أسالى ، طوع عنانى :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة ضميرى ويتلوه يدى ولسانى^(١)

ولم يك إلا أن حلت بمدينة سلا حرسها الله تعالى مقصود الحل وإن رغم الدهر
الذى رمى فأقصّد ، معتمداً بفتوحات الله تعالى وإن أرتج الباب بزعمه وأوصد ،
مضجاً بمدد عنايته وإن كمن وأرصد ، لا يمر فاضل إلا عرّج على مثنوى^(٢) ، وأتى
من البر فوق هوائى ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، وتعرفت عن صاحبي
القاسى أنه قدم علينا من سخر عملية فلا لها الدرر المنهوبة ، وتحللها المسبعة المرهوبة ،
واغتذى الأطعمة التي مرّقها الدموع ، ومطبخها الحلى المروع ، واستقر بالمدينة
بعد أن لان وصرّع ، وجدل وصرّع ، نافق البقلة كاسد الورع ، ونزل بمثنوى
خمول ، ومحط مجهول ، وكنف ممقوت ، وجوار لا يبخل بغيبة ولا يسمح بقوت ،
فبادرت استدعاءه بفاضل من الطلبة ممن يتلقى به الوارد ، ويقنطد الشارد ، وقد أغرب
بقراءة الاحتفاء والاحتفال ، وأجذب الإغفاء والإغفال ، وجهرت السرايا إلى
التماس نعم الله تعالى فحلت الأنفال ، فلما عرض عليه الدعوة تعجرف ونفر ، ولما مسح
عظفه بالاستنزال نزا وطفر ، حتى مهت الرسول كما بهت الذى كفر ، وآب يحمل
عذراً بارداً ، واحتجاجاً شارداً ، فأقطعت جانب شماسه ، وخليت بينه وبين وسواسه ،

(١) الذى أحفظه فى رواية هذا البيت هكذا :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ، ولسانى ، والضمير المحجيا
(٢) المثنوى : مكان الإقامة .

ومن الغد قَصَدَنِي فاعتذر ، وأكثر الهذر ، ولم ينبت الله النبات الحسن شيئاً مما
بَدَر ، وكان جوابي إياه ما نصه :

أبيتم دعوتي إما لشأو	وتأبى لومه مثلى طريقه
وبالختار للناس اقتداء	وقد خَصَرَ الوليمة والعقيقة
وغير غريبة أن رَقَّ حر	على مَنْ حاله مثلى رقيقه
وإما زاجر الورع اقتضاها	ويأبى ذلك دكان الوثيقة
وغشيان المنازل لاختيار	يُطالَب بالجليلة والدقيقة
شكرت بخيلةً كانت مجازا	لكم وحصلت بعد على الحقيقة

وذاع خبرها فقلبت عنها الجنوب ، وكلف بها الطالب والمطلوب ، وهشَّ إلى
المراجعة عنها أحد الموثقين بسلا من يحوم حول حى الإدراك ، ويروم درجة
الاختصاص ببعض الفنون والاشترك ، وله في الأدب مساس ، وجلب الباس ،
بما نصه :

رسولك لم يُبَيِّن لي عن طريقه	تقرب من حديقتك الأنيقه
فلا بأولدى ولا إباء	ولكن ساء في الغرض الطريقه ^(١)
وهب أنى أسأت فكم صديق	تدالَّ واعتدى فجفا صديقه
فلا عجب فديت لرفق حر	يسكن عند خجلته رفيقه
وإني فيك معتقد ، ولكن	أرى الأيام حاقدة حنيقه
على ذى الود فيمن ودَّ حتى	يفارقه وإن أضحى رفيقه

فراجعته بما نصه لما أسأفته من جزاء مصاعه^(٢) ، وكَلْتُ له بصاعه :

من استغضبت من هذى الخليقة	بمغضبة بإنكار خليقه
ولم يفضب فتيس أو حمار	مجازاً ، لا ، لعمرى ، بل خقيقه
بعثت بمرسَل لك مع عتيقي	فلم تطع الرسول ولا عتيقه

(١) البأو — بفتح الباء وسكون الهمزة — الكبر ، والإباء : الامتناع

(٢) المصاع ، هنا : مصدر « ماصع فلان بلسانه » إذا قذف .

وطوقت السفير الذنب لما عجلت به ولم تبلمه ريقه^(١)
 إمام جماعة وفريع تقوى ومبلغ حجة وحفيظ سيقه^(٢)
 قبوت بها على الأيام داء عضالا لا تفيق عليه فيقه
 وقد عارضت عذرك باعتراف فزدت مذمة تسم الطريقه
 وهل بعد اعتراف من نزاع وهل بعد اقتضال من وثيقه
 ومن جهل الحقوق أطاع نفسا ببحر الجهل راسبة غريقه
 ومنجى نيقة أمر بعيد إذا نصب المهندس منجنيقه

فأمسك حينئذ وأقصر ، ورأى الأمر يطول فاختصر ، لأنه نبي لى عنه قوله : إن
 دكان الوثيقة إن نافي الورع فبغير بلده ، وأذهلته لذة لدده ، عما هو بصدده ،
 فارتفعت له أن أنصر الدعوى بما يسلمه المنصف المساهل ، وينكره الأرعن الجاهل
 وتشد به المنازل والمناهل ، والمعلم والمجاهل ، مستندا إلى الحكم الشرعى ، والسنة
 المرعى ، والمشاهدة والحس ، وشهادة الجن والإنس .

* ولو ترك القطا ليلاً لناما *

والله يجعله موقظاً من السنات ، وازعاً عن كثير من الهنات ، وينفع فيه
 بالنية فإنما الأعمال بالنيات ، وما أنا أبتدىء وعلى الله الإعانة ، وبحوله وقوته
 الإفصاح والإبانه .

قلت : ينحصر الكلام فيه فى سبعة أبواب : الباب الأول : فى جواز الإجارة
 فيها عند العلماء ، الباب الثانى فى الشركة المستعملة بين أربابها ، الباب الثالث فى

(١) طوقته الذنب : ألزمته إياه ، وكأنا جعله طوقاً فى عنقه ، وفى القرآن الكريم
 (سيطوقون ما خجلوا يوم القيامة) ولم تبلمه ريقه : كناية عن أنه لم يمهله حتى يروى
 ويفكر أو يتبها .

(٢) « وحفيظ سيقه » هكذا هو ، ولا يظهر لى فيه معنى أطمأن إليه ، وقد يكون
 محرفاً عن « وحفيظ شيقه » — بشين معجمة مكسورة — وهو جانب البلد مثلاً ،
 وكأنه قال — إن صح — حافظ الديار وحاميا .

محلها من الورع إن سوَّغها الفقه ، الباب الرابع : في منزلتها من الصنائع والمهن ،
الباب الخامس : في أحوال منتحليها من حيث العلم غالباً . الباب السادس : في
أحوالهم من جهة استقامة الرزق وانحرافه . الباب السابع : في رد بعض ما يحتاج به
فيها . انتهت الخطبة المقتطعة من تأليف لسان الدين رحمه الله تعالى .

وهذا التأليف في نحو كراسة ، وقال في آخره ما صورته : فإن قيل : ترك
الأجر وقبول العوض في هذا الأمر يدعو إلى تعطيله ، فيفقد الناس منفعة هذه
الطريقة وغناها^(١) ، قلت : الإنصاف فيها اليوم أن لو كان متوليها يرتزق من
بيت المال وأموال المصالح والأوقاف التي تسع ذلك ، وحال الجماهير في فقدها
والاضطرار إليها ورفع أمورهم بها إلى السلطان ورغبتهم في نصب من يتولى ذلك
حائلهم في فقدان أئمة الصلاة في المساجد الراتبية في جريانه من بيت المال بعلّة
التزامهم وارتباطهم فقط ، حسبما نقل الإجماع فيه القاضي أبو بكر بن العربي رحمه
الله تعالى ومنع الارتزاق من غيره إجماعاً ، وقد كان بالمدن المعتمدة من بلاد
الأندلس - جبرها الله تعالى! - ناس من أولى التعفف والتعين ، كبنى الجدة بإشبيلية ،
وبنى الخليل وغيرهم بغيرها ، يتعيشون من فضول أملاكهم ، ووجائب رباعهم ،
ويقعدون بدورهم عاكفين على بر ، منتابين لرواية وفتيا ، يقصدهم الناس في الشهادة
فيجاملونهم ، ويُبْرَكُون على صفقاتهم ، ويهدونهم إلى سبيل الحق فيها من غير أجر
ولا كلفة ، إلا الحفظ على المناصب ، وما يجريه السلطان من الحرمة والتفقد
في الضرورة ، وما يهديهم الناس من الإطراء والتجسلة ، والله سبحانه
من الأجر والثوبة ، وبلغنى اليوم أن حالها بمدينة سجلماسة ينظر إلى هذا
الخال من طرف خفي ، ولم يفسد بها كل الفساد ، وكذلك لم نزل نتعرف
أن الأمر في شأنها بمدينة تونس أقرب ، وبعض الشر أهون من بعض ، ولو بقيت

(١) غناها - بفتح الغين - من قولهم « لا يغنى غناء فلان أحد » أى لا ينفع
مثل منفعة أحد ، ولا يقوم بمثل ما يقوم به أحد

بحالها لوجب تقرير فضلها وتقرير منتحلها ، فالصدق أنحى ، والحق عند الله أخبى ،
والله عز وجل يستعملنا فيما يرضيه ، ويلطف بنا فيما يجريه علينا من أحكامه وما يقضيه ،
ويجعلنا ممن ختم له بالحسن ، ويقر بنا إلى ما هو أقرب من رحمته وأدنى ، وصلوات
الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، انتهى .

وكتب على ظهر الورقة الأولى من هذا التأليف شيخُ شيوخ شيوخنا الإمام
الكبير المؤلف الشهير سيدى أحمد الوائش ريسى رحمه الله تعالى ماصورته : الحمد لله ،
جامعُ هذا الكلام المتقيد هذا بأول ورقة منه قد كد نفسه ^(١) فى شيء لا يعنى الأفاضل ،
ولا يعود عليه فى القيامة ولا فى الدنيا بباطل ^(٢) ، وأفنى طائفة من نفيس عمره فى
التماس مساوى طائفة بهم تُستباح القروج ، وتملك مُشيدات الدور والبروج ،
وجملهم أضحوكة لذوى الفتك والجمانة ، وانزع عنهم جلباب الصدق والديانة ،
سامحه الله تعالى ! وغفر له ! قال ذلك وخطه يمينى يديه عُبيد ربه أحمد بن يحيى
ابن محمد بن على الوائش ريسى خار الله سبحانه له ! انتهى ما ألفيته .

وقد كان لسان الدين رحمه الله تعالى كثيراً ما يعرض ويصرح بهجو بعض
أهل سلا أو كلهم حتى قال :

أهل سلا صاحت بهم صأحه غادية فى دورهم رأحه

يكفهم من عور أنهم ربحانهم ليست له رأحه

والله المرجو للمفوع عن الزلات .

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى خطبة كتاب فى المحبة الذى ما ألف
من إنشائه
خطبة كتاب له
فى أنه أجمع منه ، ولنوردها فإن فيها دلالة على فضله وعظم قدر الكتاب ، وهى :
اللهم طيب بريحان ذكرك أنفاس أنفسنا الناشقة ، وعلل بجزال حبك جوامح
أرواحنا العاشقة ، وسدد إلى أهداف معرفتك نبال نبلنا الراشقة ^(٣) ، واستخدم
فى المحبة

(١) كد نفسه : أجهدها وأتعبها (٢) يقولون « هذا أمر لا طائل تحته »
يريدون أنه لا فائدة فيه (٣) سدد : صوب ووجه ، والأهداف : الأغراض التى توضع
ليرمى إليها بالسهم ونحوها ، واحدها هدف

في تدوين حمدك شَبَاباً أَفلاماً^(١) الماشقة ، ودُلَّ على حضرة قُدْسِكَ خطرات خواطرنا
الذائقة ، وأَبْنَى لنا سُبُلَ السعادة التي جعلت فيها السكال الأخير لهذه الأنفس
الناطقة ، وأَصْرَفنا عند سلوكها عن القواطع العائقة ، حتى نأمن مخاوف أجبالها
الشاهقة ، وأَحْزَابها المنافقة ، وأَوْهَامها الطارئة الطارقة ، وبرازخها القاسية الغاسقة^(٢) ،
فلا تسرق بضائعنا العوائد السارية السارقة ، ولا تحجبنا عنك العوارض الجسمية
اللاحقة ، ولا الأنوار المغلظة البارقة ، ولا العقول المُفَارِقة ، يا من له الحكمة البالغة
والعناية السابقة ، وَصَلَّ على عبدك ورسولك محمد درة عقود أحبابك المتناسقة ،
وجالب بضائع توحيدك النافقة ، المؤيد بالبراهين الساطعة والمعجزات الخارقة ،
ما أطلعت أفلاك الأدواح زُهر أزهارها الرائقة ، وَحَدَّت قطار السحاب خُدَاة
رعودها السائقة ، وجمعت ريح الصَّبَا بين قدود أغصانها المتعاقبة .

أما بعد ، فإنه لما ورد على هذه البلاد الأندلسية المحروسة بحدود سيوف الله
حدودها ، الصادقة بنصر الله للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وُغُودها ، وَصَلَ الله
تعالى عوائد صنعه الجميل لديها ، وأبقاها دار إيمان إلى أن يرث الله تعالى الأرض
ومن عليها ، ديوان الصبابة وهو الموضوع الذي اشتمل من أبطال العشاق على
الكثير ، واستوعب من أقوالهم الحديثة والقديمة كلَّ نظم ونثر ، وأَسْدَى في
غزل غَزَلِه وألحم^(٣) ، ودلَّ على مصارع شهدائهم من وقف وترخَّم ، فصدَّق الخبر
الخبر ، وطمت اللجة التي لا تعبر ، وتَأَرَّجَ من مَسْراهِ المسك والعنبر ، وقالت
العشاق عند طلوع قرره : الله أكبر .

مررت بالعشاق قد كبروا وكان بالقرب صبي كريم
فقلت : ما بالهم ؟ قال لي : ألقى للحب كتاب كريم

(١) شبا الأفلام : أطرافها ، واحدها شباة ، وأصلها طرف الرمح
(٢) الغاسقة : المظلمة (٢) أسدى : نسج السدى ، وألحم : نسج لحمه الثوب ،
والسدى : ما كان من خيوط الثوب طولا ، واللحم : ما كان منها عرضا

ولا غرو أن أقام بهذه الآفاق ، أسواق الأشواق ، وزاحم الزفرات في مسالك
الأطواق ، وأسأل جواهر المدامع من بين أطباق تلك الحقائق ، وفتك نسيمها
الضعيف العهد والميثاق بالنفوس الرقاق :

جنى النسيم علينا وما تبينت عذره
إذ صير الخلق نجدا والأرض أبناء عذره

فوقع للحجة المصرية التسليم ، وقالت السنة الأقلام معربة عن السنة الأفاليم :

سلمت لمصر في الهوى من بلد يهديه هواؤه لدى استنشاقه
من ينكر دعواى فقل عنى له تكفى امرأة العزيز من عشاقه

فغمر المحافل والمجالس^(١) ، واستجلس الراكب واستركب الجالس ، يدعو الأدب إلى
إلى مادبته فلا يتوقف ، ويُلقى عصا سحره المصرى فتتلقف ، ماشئت من ترتيب
غريب ، وتطريب من بنان أريب ، يشير إلى الشعر فتتقاد إليه عيونه ، ويصبح
بالأدب الشريد فتلبيه فنونه ، وأنهى خبره للعلوم المقدسة ، ومدارك العز الموطدة
المؤسسة ، سما به الجدد صُعداً إلى المجلس السلطاني مقر الكمال ، ومطمح الأبصار
والآمال ، حيث رقارف العز قد انسدت ، وموازين القسط قد عدلت ، وفصول
الفضل قد اعتدلت ، وورق أوراق المحامد قد هدأت^(٢) ، مجلس السلطان المجاهد ،
الفتاح الماهد ، المتحلّى في ريعان العمر الجديد ، والملك السعيد ، بحلى القانت
الزاهد ، شمس أفق الملة ، ونحر الخلفاء الجلة ، بدر هالات السروج المجاهدة ، أسد
الأبطال البارزة إلى حومة الهياج الناهدة ، مُعشَى الأبصار المشاهدة ، مظهر رضا
الله تعالى عن هذه الأمة الغريبة عن الأنصار والأقطار ، من وراء أمواج البحر
الزخار ، باختيارها واعتيامها^(٣) ، وملبسها بروء اليمن والأمان ببركة أيامه ، ومن

(١) غمر المحافل : ملاءها

(٢) الورق : الحماش ، واحدها ورقاء ، وهدأت : غنت

(٣) اعتيامها : اختياره وانتخابه

أطلع الله تعالى أنوار الجمال من أفق جبينه ، وأنشأ أمطار السحاح من غمام يمينه ، وأجرى في الأرض المثل السائر بحلمه وبسالته ودينه ، أمين الله تعالى على عهدة الإسلام بهذا القطر وابنُ أمينه وابنُ أمينه ، فخر الأفطار والأمصار ، ومطمح الأيدي وملحُ الأبصار ، وسلالة سعد بن عبادة سيد الأنصار ، ومن لولنطق الدين الحنيفي لحياه وفداه ، أو تمثل الكمال صورة ماتعداه ، مولانا السلطان الإمام العالم العامل المجاهد أمير المسلمين أبو عبد الله ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر الأنصارى الخزرجى ، جعل الله تعالى ثغره الثغر مبتسما عن شذب نصره ! والفتح المبين مذخورا لعصره ! كما قصر آداب الدين والدنيا على مقاصير قصره ! وسوغه من أشات مواهب الكمال ما تعجز الألسن عن حصره ! ولا زالت أفنان أقلامه تتحف الأقاليم بحجني فنون هضره ! فخصته عين استحسانه أبقاه الله تعالى بلحظة لحظ ، وما يلقاها إلا ذو حظ ، وصدرت إلى منه الإشارة الكريمة بالإملاء فى فنه ، والمنادمة على بنت دته ، وحسب الشحم من ذى ورم^(١) والله سبحانه يجعلنى عند ظنه ، ومتى قورن المثرى بالمترب^(٢) ، أو وزن المشرق بالغرب ؟ شتان بين من تجلى الشمس منه فوق منصتها ، وبين من يشرق أفقه الغربى لا ابتلاع قرصتها ، لسكنى امتثلت ، ورشت وثلت ، ومكرها لا بطلا مثلت^(٣) ، وكيف يتفرغ للتأليف ، ويتفرغ للوفاء بهذا التكليف ، من حمل الدنيا فى سن السكهولة على كاهله ، ورَكض طرُف الهوى بين معارفه ومجاهله ، واشترى السهر بالنوم ، واستنفد سواد الليل وبياض اليوم ، فى بعث يجهز ، وفرصة تنهز ، وثغر للدين يسد ، وأزر للملك يشد ، وقصة ترفع ، ووساطة تنفع ، وعدل يحرض على بذله ، وهوى يجهد فى عذله ، وكريم قوم ينصف من نذله ، ودين تزاح

(١) أخذ هذا من قول أبى الطيب المتنبي :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

(٢) المثرى : الغنى ، والمترب : الفقير الذى لصق بالتراب

(٣) أخذه من قولهم فى مثل « مكره أخوك لا بطل »

الشوائب عن سُبُلِهِ ، وسياسة تشهد للسلطان بَذْبُلِهِ وإصابة نَبْلِهِ ، ما بين سيف
 وقلم ، وراحة وألم ، وحرب وسلم ، ونشر عِلْمٍ أو عِلْمٍ ، وجيش يعرض ، وعطاء
 يفرض ، وقَرْض حسن لله تعالى يُقَرِّضُ ، في وطن توافر العدو على حَصْرِهِ ،
 ودار به دَوَّرَ السوار على خَصْرِهِ ، وملك قصر الصبر والتوكل على قَصْرِهِ ، وعدد
 نسبته من العدد العظيم الطافة ، الشديد الإضافة ، نسبة الشعرة من جلد الناقة ،
 وبالله نستدفع المكروه ، وإليه نمد الأيدي ونصرف الوجوه ، وسألت منه - أيده
 الله تعالى - القنوع بما يسره الوقت ، مما لا يناله المَقْتُ ، والذهاب بهذا الغرض
 لما يليق بالترب والسن ، ويؤمن من اعتراض الإنس والجن ، وما كنت ممن
 آثر على الجد الهزل ، واعتاض^(١) من الغزل الرقيق الغزل بشيمة الجزل ، ولا آف
 من ذكر الهوى بعد أن خُضْتُ غماره ، واجتنيث ثماره ، وأقمت مناسكه ورميت
 جماره ، وما أبرئ نفسي إن النفس لأثارة ، فالهوى أول تميمة قلدتني الداية ،
 والترب التي عرفتها في البداية ، وأنا الذي عن غُرُوثه^(٢) نُبْتُ ، وبُعِثْتُ إلى الرصافة
 لأرقَّ فُذِبْتُ^(٣) ، إلى أن تبين الرشد من النى ، وصار النشر إلى النى ، وتصايح
 ولدان الحى ، كذلك كنتم من قبل فنّ الله عليكم كما من على .

جزى الله عنى زاجر الشيب خير ما جزى ناصحا فازت يداه بخبره
 ألفت طريق الحب حتى إذا انتهى تعوضت حب الله عن حب غيره

حال السواد بحال الفؤاد ، وصَوَّح المرعى فانقطعت الرُّؤَادُ ، ونهاني ازورار
 خيال الزوراء ، والتفات عاذل الشيب عن المقلّة الحوراء ، وكيف الأمان ، وقد طلع
 منه النذير العريان ، يدل عل الخبر بخبره ، وينذر بهاذم اللذات على أثره ،
 والله در القائل :

(١) اعتاض : استبدل (٢) أراد عروة بن حذام أحد الشعراء الغزليين
 (٣) هذه عبارة قيلت في علي بن الجهم الشاعر المشهور ، وانظر (ص ٣٤٨ من
 هذا الجزء)

دعثنى عيناك نحو الصبا دعاء يردد في كل ساعه
فلولا، وحقك، عذر المشيب لقلت لعينيك : سمعا وطاعة
ولولا أن طيف هذا الكتاب الوارد طرّق مضاجعي وقد كاد يبدو الحجاب ،
ويضيع من الفرض الواجب ، ويعجب من نوم الغفلة العاجب ، لجريت معه في
ميدانه ، وعقدت بنائي بينانه ، وتركت شأني وإن رغم الشأني لشأنه^(١) ، وقلت
معقذراً عن التهويم في بعض أحيانه :

أهلاً بطيفك زائراً أو عائداً تفديك نفسى غائباً أو شاهداً
يا من على طيف الخيال أحوالى أتظن جفنى مثل جفئك راقداً ؟
ما نمت ، لكن الخيال يُليّ بي فيجمله طرفى فيطرق ساجداً
ومن العصمة أن لا تجد ، هلا قبل المشيب ، ومع الزمن القشيب ، وقبل أن
تمخض القربة ، وتبنى الخانقاه والترية ، وتونس بالله الغربية ، وعلى ذلك فقد أثر ،
وباء قلبى المعثر ، اللهم لا أكرر .

وبدأ له من بعد ما اندمل الهوى برق تألق موهناً لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه صعبُ الذرا متمنع أركانه
فبدأ لينظر كيف لاح ، فلم يطق نظراً إليه ورددت أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه
وجعلت الإيماء على حمل مؤازرته أيده الله تعالى علاوه ، وبعد الفراغ من ألوان
ذلك الخوان حلاوه ، وقلت أخاطب مؤلف كتاب الصباية بما يعتمده جانب إنصافه ،
و يغطى على نقصى إن وقع فيه كمال أوصافه :

يا من أدار من الصباية بيننا قد حانم المسك من رِيّاه

(١) رغم - من باب فرح - لصق بالرغام وهو التراب ، والشأني : السكاره المبعث ،
و «لشأنه» يتعلق بقوله «تركت» يريد ترك أمر نفسه ليأخذ في شأن هذا الكتاب

وأنى بريحان الحديث فكلاً سمح النديم براحيه حياه
 أنا لا أهم بذكر من قتل الهوى لكن أهم بذكر من أحياء
 وعنّ لى أن أذهب بهذا الحب المذهب المتأدى إلى البقاء ، الموصل إلى ذروة السعادة
 في معارج الارتقاء^(١) ، الذى غايته نعيم لا ينقضى أمده ، ولا ينفد مدده ، ولا يفصل
 وصله ، ولا يفارق الفرع أصله ، حب الله المبلغ إلى قربه ، المستدعى لرضاه وحبه ،
 المؤثر بالنظر إلى وجهه ، ويالها من غاية ، الملقى رَحْل المتصف به بعد قطع بحار
 الفناء على ساحل الولاية .

وكنّت وقفت من السكتب المؤلفة فى المحبة على جملة منها كتاب يشهده
 العوام ، ويستخفة الهوام ، ورسالة ابن واصل رسالة مهادرة ، تطفو من دارة إلى
 داره ، فى مطاردة هرّ وفاره ، وكتاب ابن الدباغ القيروانى كتاب مفرق ، ووجه
 المقصود منه متبرقع ، وكتاب ابن خلصون وهو أعدلها لولا بداوة تسم الخراطوم ،
 وتناسب الجمل المخطوم ، فكنت بما ذكر لا أقنع ، وأقول ما أصنع ، فالله
 يعطى ويمنع .

قلت للساخر الذى رفع الأنف واعتلى
 أنت لم تأمن الهوى لا تُعَيِّر فتبتلى

شعر :

وعذلت أهل العشق حتى ذُقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق
 ومن المنقول : لا تظهر الشامة بأخيك ، فيعافيه الله ويتليك .

بلانى الحب فيك بما بلانى فشانى أن تقيض غروب شانى
 أجل بلانى بالعرض الذى هو من القلوب سر أسرارها ، ومن أفنان الأذهان

١) ذروة كل شيء : أعلاه ، والمعارج : المصاعد ، وهى كل ما ترتفع به من
 أسفل إلى أعلى ، وأصله فى الحسيات كالسلم ، وكثيراً ما تستعمل فى المعنويات

بمنزلة أزهارها ، ومن الموجودات أطوارها قطبُ مَدَارِها ؛ ليكون كتابي هذا المقدم على المأزق المهلك ، المتشعب بما لا يملك ، وأن يقنع الاتصاف ، فعسى أن يشفع الإنصاف ، والافتراق ، يدرؤه الاعتراف ، أنا عند المنكسرة قلوبهم ، ولا تجود يد ، إلا بما تجد ، وكل ينفق مما آناه الله .

واين اللبؤن إذا ما لُزِّي قَرَن لم يستطع صَوْلَةُ البُزْلِ القَنَاعِيسُ^(١)
وعسى الذى أنطق شوقا ، أن ينطق ذَوْقا ، والذى حرك سفلا أن يُحْرَك فوقا ،
والذى يسره مقالا ، أن يكفيه حالا * فأولُ الغَيْثِ طَلٌّ ثم يَنْسَكِب * الحربُ
أولَ ما تكون لُجَاةُ * وإن الحرب أولها السكلام * نحمد الله سبحانه على
الكَلَفِ بهذه الطريقة ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وللأرض نصيب من
كأس الكريم :

أليس قليلا نظرة إن نظرتها إليك ؟ وكَلَّا ليس منك قليل
فاتنى أن أرى الديار بطرفي فلعلنى أرى الديار بسمعى
وعلى ذلك فذهبت فى ترتيبه أغرب المذاهب ، وقرعت فى التماس الإعانة
بابَ الجواد الوهاب ، وأطلعت فصوله فى ليل طلوع نجوم الغياهب ، وعرضت
كتائب العزيمة عرضا ، وأقرضت الله قَرْضا ، وجعلته شجرة وأرضا ، فالشجرة
الحبة مناسبة وتشبيها ، وإشارة لما ورد فى السكتب المنزلة وتنبيهها ، والأرض النفوس
التي تغرس فيها ، والأغصان أقسامها التي تستوفىها ، والأوراق حكاياتها التي
تحكيها ، وأزهارها أشعارها التي تُحْيِيها ، والوصول إلى الله تعالى ثمرتها التي نَدَّخَرها
بفضل الله ونفقتها ، شجرة لعمر الله يانعه ، وعلى الزعازع متانعه ، ظلها ظليل ،
والطرف عن مَدَاها كليل ، والفائز بِجَنَّاها قليل ، رست فى التخوم ، وسمت إلى

(١) البزل : الإبل التي بزل ناهيا ، وإنما يكون ذلك إذا كبرت ، وأراد ابن اللبون صغارها ، والقرن - بفتح القاف والراء جميعا - الجبل ، وهذا البيت يضرب مثلا لمن قرن بمن لا يستطيع مجاراته

النجوم ، وتنزهت عن أعراض الجسوم ، والرياح الحسوم ، وسقيت بالعلوم ، وغذيت
 بالفهوم ، وحملت كائنها بالزهر المكتوم ، ووفيت ثمرتها بالعرض المروم ، فاز من
 استأثر بجنائها ، وتَعَنَّى^(١) من غنى بلفظها دون معناها ، فمن استصبح بذهنها استضاء
 بسنائها ، ما أبعدا وما أدناها ، عينا ملأت الأكف بغناها ، كم بين أوراقها من
 قلب مقلب ، وفي هوائها من هوى مغلب ، وكم بين أفنانها من صادق ، وكم
 في التماس سقيطها من كادح ، وكم دونها من خطب فادح ، ولأربابها من هاج
 ومادح ، تنوعت أسماؤها ، ولم تنوع أرضها ولا سماؤها ، فسميت نخلة تهز وتجنى ،
 وزيتونة مباركة يستصبح بزيتها الأسنى ، وسدرة إليها ينتهى المعنى ، أصلها
 للوجود أصل ، وليس لها كالشجر جنس ولا فصل ، وتربتها روح ونفس وعقل ،
 وشرفها يُعَصِّدُه بديهة ونقل ، يحط الهائمون بفنائها ، ويصعد السالكون حول
 بنائها ، تخترق السمع الطباق يبراقها ، وتمحى ظلم الحس بنور إشراقها ، فسبحان
 الذى جعلها قُطْبَ الأفلاك ، ومدافن الأضواء والأحلاك ، ومغرد طيور الأملاك ،
 وسبب انتظام هذه الأسلاك ، لم يحل فيها طريق بعيد ، ولا اتَّصَفَ بصفاتها
 إلا سعيد ، ولا اعتَلَقَ بأوجها هاوٍ فى حضيض ، ولا بمحض برهانها مختبط فى
 شرك نقيض ، ولا تعرض لشيم بوارقها متسم بسمه بغيب ، الحمد لله الذى هدانا
 لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ومنه نستزید الاستغراق فى بحارها ،
 والاستنشاق لنواسم أسحارها ، والاستدلال بذرى أفنانها عليه ، والوصول بسبب
 ذلك إليه ، إنه ولى ذلك سبحانه ، فطاب لعمري المنبت والنابت ، وسما الفرعُ
 الباسق^(٢) ورسا الأصل الثابت ، وفاءت الأفنان^(٣) ، وزخرفت الجنان ، وتعددت
 الأوراق والزهرات والأغصان ، ولم أترك فنناً إلا جمعت بينه وبين مناسبه ،

(١) تعنى : احتمل العناء ، وهو الجهد والمشقة ، وعنى - بالبناء للمجهول -

(٢) الباسق : الناهب صعدا فى الهواء

(٣) فاءت : صارت ذافىء ، وهو الظل ، والأفنان : الأغصان

ولا فَرَعًا إلى ضمته إلا ما يليق به ، واستكثرت من الشعر لسكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذي يحرك عَذَبَات أفنانها ، ويؤدى إلى الأنوف روائح بستانها ، وهو المزمار الذى ينفخ الشوق فى يَرَاعته^(١) ، والعزيمة التى تُنْطِقُ بجنون الوجد من ساعته ، وسلعة ألسن العشاق ، وترجمان ضمير الأشواق ، وَتَحَلَّى صور المعانى الرقاق ، ومكان قناص الأذواق ، به عَبَّرَ الواجدون عن وَجْدِهِمْ ، ومشى الحبُّون إلى قَصْدِهِمْ ، وهو رسول الاستطاف ، ومنزل الألفاف ، اشتمل على الوزن المطرب ، والجمال المعجب المغرب ، وكان للأوطان مركبا ، ولا نفعال النفوس سَبَبًا ، فلا شئ أنسب منه للحديث فى المحبة ، ولا أقرب للنفوس الصَّبة ، واجتلبت الكثير من الحكايات وهى نوافل فروض الحقائق ، ووسائل مجالس الرقائق ، ومراوح النفوس من كدر الأفكار ، وإحماض مسارح الأخبار ، وحظ جارحة السمع من منح الاعتبار ، وبعض الجواذب لنفوس الحبين ، والبواعث لِهَمِّ السالكين ، وحجتها واضحة بقوله تعالى (وكلا نقص عليك) فى القرآن المبين ، ونقلتُ شواهدَ من الحديث والخبر تجرى صحاحُها مجرى الزكاة من الأموال ، والنحواطر من الأحوال ، ويجرى ما سواها من غير الصحيح مجرى الأمثال ، ليكون هذا الكتاب لعموم خبره ، مَسْرُحا للفاره وغيره ، ويجد كل ميدانا لِسَيَرِهِ ، وملقطا لطيره ، ومحكا لغيره ، فمن فاق كلف بأصوله ، ومن قصر قنع بفصوله ، ومن وصل حمد الله تعالى على وُصُولِهِ ، وسميته « روضة التعريف ، بالحب الشريف » ويحتوى على أرض زَكِيَّهِ ، وشجرات فلسكيه ، وثمرات ملكيه ، وعيون غير بَكِيهِ .

والحب حياة النفوس المَوَات ، وغلة امتزاج المركبات ، وسبب ازدواج الحيوان والنبات ، وسر قوله عز وجل (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى

(١) أراد باليراعة هنا القصبة الجوفاء التى يزمر بها ، وقد استعمله شاعر مصر البارودى فى هذا المعنى وذلك قوله :

وما أنا بمن يأسر الحب قلبه ويملك سمعيه اليراع المثقب

به في الناس كمن مثله في الظلمات) ليس كالحلب الذي دَوَّن فيه المدوّنون ، ولعبت بكرّة أقباسه صوّالِ الجنون ، وقاد الهوى أهله بحبَل الهُون ، وساقَت فيه المَنَى للمَنُون ، حين نظرت النفوس من سفلى الجنبتين ، ورضيت الأثر عن العَيْن ، وباعت الحق بالْمَين ، ولم يحصل إلا على خَفَى حَين^(١) ، وارجمنا لعشاق الصور ، وسُبَّاق ملاعب الهوى والهوى ، لقد كَلَّفُوا بِالزخارف الحائنة الحائلة^(٢) ، والمحاسن الزائفة الزائلة ، وسَلَع الجبانة ، وبضائع الإهانة ، أزمانُ التمتع بهم قصيره ، والأنكد عليهم مُغيرة ، فترام ما بين طعين بعاملٍ قَدَر ، ومضرّج بدم خَدَر ، وأسير نغر قد أعوز فداؤه ، وسقيم طَرَف قد أعضل داؤه ، وما شئت من ليل يسهر ، ونداء به يبحر ، وجُيُوب تشق ، وبصائر تخطف أبصارها إذا لمع البرق ، ونواسم تحمل التحيّيات ، وخلع أيلك تتلقى بخلع الأريحيات ، وربما اشتد الخُتَل ، وأصابَت النبل فكان الخبل ، قلوب اشتغلت عن الله فشغلها الله بغيره ، وهَبِ الحَبَّ الجسماني لا يبعث عليه شهوة بهيمية ، ولا تدعو إليه قوّة وَهْمِيّة ، أليست الداعية مرتفعة ، والباعثة منقطعة ، وصورة الحسن دائرة ، وأجزاءه المتناظرة متناثرة ؟ أليس الجراب العنصرى عائدا إلى أصله ؟ أليس الجنس مفارقا لفصله ؟ والله در على رضى الله تعالى عنه ، وقد نظر إلى قدح الماء وقد أراد أن يشرب ، وعن الاعتبار أعرب ، فقال : كم فيك من خَدّ أسيل ، وطرف كحيل ؟ فأواه مكررة مردّدة ، وواهفاء معادة مجدّدة ، على قلب أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا ، وحسبنا مرارة الفراق ذلا ، وفقد النقد قَلًا ، والغفلة عن الله شقاء محتوما ، والكآبة على الفاتت شوما :

صدّنى عن حلاوة التشيع اتقأى مرارة التوديع

(١) يضرب المثل بخفى حنين لمن باء بالخيبة ولم يحصل من سعيه على شيء فيقال « رجع فلان بخفى حنين »

(٢) كلفوا : أولعوا ، والحائنة : الهالكة ، والحائلة : المتغيرة المتحولة

والزمان لا يعتبر ، وحاصله خبر ، والحازم من نظر في العواقب ، نظر المراقب ، وعرف الإضاعة ، ولم يجعل الحلم بضاعة ، إنما الحب الحقيقي حب يصعدك ويرقيك ، ويخلدك ويبقيك ، ويطعمك ويسقيك ، ويخلصك إلى فئة السعادة ممن يشقيك ، ويجعل لك الكون رَوْضاً ، ومشرب الحق حَوْضاً ، ويجنيك زهر المنى ، ويعفنيك عن أهل الفقر والغنى ، ويخضع التيجان لنعلك ، ويجعل الكون متصرف فعلك ، ليس إلا الحب ، ثم الوصل والقرب ، ثم الشهود ، ثم البقاء بعدما اضمحل الوجود ، فشفيت الآلام ، وسقط الملام ، وذهبت الأضغاث والأحلام ، واختصر الكلام ، ومحيت الرسوم وخفيت الأعلام ، ولمن الملك اليوم والسلام ، فاحذر الحذر أن يعجل النفس سيرها ، ويفارق القفص طيرها ، وهي بالعرض الفاني متبذلة ، وبنائ الثقل مرتبطة ، وبصحبة الفاني مغتبطة (أن تقول نفس يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، أو تقول حين ترى أن العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين) وفي ذلك قلت :

أعشاق غير الواحد الأحد الباقي	جنونكم والله أغنياً على الراقى
جُنِنتُمْ بما يفنى وتبقى مضاضة	تعذب بين البين مهبجة مشتاق
وتربط بالأجسام نفساً حياتها	مباينة الأجسام بالجواهر الراقى
فلا هي فازت بالذى عاقته به	ولا رأس مال كان ينفعها باقى
فراق وقسر وانقطاع وظلمة	قننى البعد من نيل السعادة يا واقى
كأنى بها من بعدما كُشِفَ الغطا	صريرة أحزان لذيقة أشواق
تقلب كفيها بخيطٍ موصل	رشيقة قدّ دون سبعة أطباق
فلا تطعموها السمّ في الشهد ضلة	فذلك سم لا يداوى بدرياق
بما اكتسبت تسعى إلى مستقرها	فأما بوقر محسب أو يإملاق
وليس لها بعد التفرق حيلة	سوى ندم يذرى مدامع آماق

ولو كان مرمى الحزن منها إلى مدى لها أن الأسى ما بين وخذ وإعناق^(١)
فجذوا فإن الأمر جد ، وشمروا بفضل ارتياض أو بإصلاح أخلاق
ولا تطلقوا في الحس ثنى عنانها وشيموا بها للحق لمحة إشراق^(٢)
ودُسوا لها المعنى رويدا وأيقظوا بصيرتها من بعد نوم وإغراق
ومهما أفاقت فافتحوا لا اعتبارها مصاريع أبواب وأقفال أغلاق^(٣)
وعاقبة الغاني اشرحوا وتلطفوا بأخلاقها المرصى تلطف إشفاق
فإن سكرت واستشرفت عند سكرها لماهية المسقى ومعرفة الساقى
أطيلوا على روض الجلال خطورها إلى أن يقوم الوجد فيها على ساق
وخلوا لبيب الشوق يطوى بها الفلا إلى الوجد في مسرى رموز وأذواق
فما هو إلا أن تحط رحالها بمشوى التجلى والشهود بإطلاق
وتغنى إذا ما شاهدت عن شهودها وقد فنى الغاني وقد بقى الباقي
هنا لك تلقى العيش تضفو ظلاله وتنعم من عين الحياة برقرق
وما قسم الأرزاق إلا عجيبه فلا تطرد السؤال يا خير رزاق

وقد أخذ الكلام في هذا الافتتاح حذاه ، وبلغ النهر مده ، فلاخذ أثر هذا الذى سرّدت ، في تقرير ما أردت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ، فنقول : ينقسم هذا الموضوع إلى أرض ، وشجر غض ، وكل منها ميسور حذاه ، وفن على حذاه ، ماشئت من رأى ومستمع ، فمن شاء أفرد ومن شاء جمع ، فلنبدا بالأرض والفلاحة ، والتكسير والمساحة ، وتعيين حدود تلك الساحة ، ثم نأتى

(١) مرمى : مكان الرمي من قولهم « فلان يرمى إلى كذا » يريدون أنه يقصده

بعمله ، والمدى — بزنه الفتى — الأمد ، والوخذ والإعناق : ضربان من السير السريع

(٢) شيموا : فعل الأمر من قولهم « شام فلان البرق » إذا نظر أين يعطر

(٣) الأغلاق : جمع غلق — بفتح العين واللام جميعا — ويراد به باب الدار

لأنه يغلق على من يكون بداخلها

بالشجرة التي تؤمل جناتها ، وننظر إناها^(١) ، ونجعل الزاد المبلغ معناها ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فإيفرحوا هو خير مما يجمعون .

برنامج هذا الكتاب الذي يمحصر الأجناس والفصول ، ويرد الفروع إلى الأصول ، ويسر الباحث عن مسأله بسبب الوصول ، بحول الله وقوته .

خطبة الأعراس ، وتوطئة الغراس ، وتنحصر في جملتين :

الجملة الأولى : في صفة الأرض وأجزائها ، وجعل الاختيار بإزائها ، وفيها رتب :
الرتبة الأولى - رتبة الأطباق المفروضة ، والاعتبارات المعروضة ، وفيه مقدمة وأطباق : المقدمة في تعيين الأرض المذكورة ، الطباق الأول : طبق القلب ،
الطبق الثاني : طبق الروح ، الطباق الثالث : طبق النفس ، الطباق الرابع : طبق العقل .

الرتبة الثانية - رتبة العروق الباطنة ، والشعب الكامنة ، وفيها فصول :
الفصل الأول : في العروق المعدنية ، الفصل الثاني : في المقررات العينية ، الفصل الثالث : في المدبرات البدنية ، الفصل الرابع : في البحوث البرهانية .

الجملة الثانية : في صفة الفلاحة والعمل ، المتكفل فيها بنيل الأمل ، وفيها اختيارات :
الاختيار الأول فيما يصلح للاعتماد من هذه الأرض ، وفيه فصول : الفصل الأول : في أرض النفس المطمئنة ، الفصل الثاني : في أرض النفس الأمارة ، الفصل الثالث : في أرض النفس اللوامة .

الاختيار الثاني في محركات العزيمة ، لاعتماد هذه الأرض الكريمة ، وفيه فصول : في الفصل الأول : في الجذب وما يتصل بذلك ، الفصل الثاني : في الوعظ المشمر لليقظة ، الفصل الثالث : في ذم الكسل .

الاختيار الثالث يشتمل على جلب الماء لسقى هذه الأرض من عين العلم في جدولي العقل المحرر والنقل المقرر ، وفيه مقدمة في فضل العلم وتعدد أجناسه ،

(١) ننظر ، هنا : بمعنى نتظر وترقب ، وإناها - بكسر الهمزة - نضجها ، وفي القرآن الكريم (إلى طعام غير ناظرين إناه) ومن الآية الكريمة أخذ هذه الفقرة

وفصول : الفصل الأول : في جدول العقل ، الفصل الثاني : في جدول النقل ،
الفصل الثالث : في مقدار الماء الجلوب ، للفَلَح المطلوب ، الفصل الرابع : في غبار
التكوين ، وسبب التلوين .

الاختيار الرابع : في الحرث ، وإخراج أبْن هذه الفلاحة من بين الدم
والفرث ، وفيه أقسام : أولها : القليب ^(١) الأول ، ثانيها القليب ^(٢) الثاني الذي عليه
المعول ، ثالثها : في سكة الأردراع والتعمير ، وهو مظنة التثمير .

الاختيار الخامس : في تنظيف الأرض المعتمرة من الأرض الخبيثة ، والجدر
المعتضة والشعب المذسومة ، وفيه فصول : الفصل الأول : في إزالة شكوك تسبق
إلى المعتقد غالباً ، الفصل الثاني : في قلع الشجر الذي يضر بهذه الأرض
ويعادبها بالطبع .

الاختيار السادس : في أمور ضرورية تلزم لهذه الفلاحة ، وفيه فصول :
المصل الأول : في أمراض يشرع في علاجها ، مما يرجع لطبع الأرض ومزاجها ، الفصل
الثاني : في اختبار أنواعها وأحزائها ، الفصل الثالث : في أقوال تليق بأفخاص الفلاح
وإصحاره ، عند ملاحظة عجائب السكون وآثاره ، الفصل الرابع : في الوقت
المختار لفراسة الأسباب ، في الحب الباب ، وتنحصر في مقدمة علمية ، وجرثومة ^(٣)
جرمية : المقدمة العلمية في ترتيب المحبة والمعرفة ، الجرثومة الجرمية ^(٤) تنقسم إلى بيان
يعطى الصورة ، وبشرح الضرورة ، وإلى بطن وظهر ، وسر وجهر ، وباسط ،
وبرزخ واسط ، فالباطن الشرع والنقل ، وينقسم إلى أصول : الأصل الأول :
الكلام في النبوة من حيث النقل ، والأصل الثاني : في الإيمان والاعتبار
العامي ، الأصل الثالث : فيما يتبع ذلك من اليقظة والتوبة في حق غير المحتاج

(١) انقلاب - بفتح القاف - في الأصل : البئر

(٢) جرثومة كل شيء : أصله

إلى ذلك ، الأصل الرابع : في تقرير العناية والتوفيق في حق غير المحتاج إلى ذلك ،
الأصل الخامس : في الموعظة والسماع من حيث تهذيب الجميع ، والظاهر الطبع
والعقل ، وينقسم إلى أصول : الأصل الأول : جزء الفلسفة العلمى والعملى ،
الأصل الثانى : سلامة الفطرة في حق المستغنى عن ذلك ، الأصل الثالث : في معرفة
الجمال والكمال ، الأصل الرابع : في الاعتبار الخاصى ، الأصل الخامس : السلوك
بالفكر ، الأصل السادس : في التشبيه بالمبدأ الأول ، باسط الذكر الباسط ،
والبرزخ الواسط ، الصاعد من التخوم ، إلى النجوم ، وهو من أخص الأشياء
بباطن الشجرة ، وأصولها المعتبرة ، ويشتمل على مقدمة وثلاثة أصول ،
الأصل الأول : الأدعية والأذكار ، وله عشر شعب ، الأصل الثانى : أصل الأسماء ،
وهى أصول الأرض والسماء ، وله تسع وتسعون شعبة ، الأصل الثالث : أصل السِّمياء ،
وهو الذى عفن بعضه وبقي الانتفاع ببعضه ، العمود المشتمل على القشر والعود ،
والجنى الموعود ، ينقسم قسمين : قشر ، وخشب ، ودر مخشَب ، والقشر ظاهر يكسر
ويخذو ، وباطن ينمى ويغذو ، فظاهره الذى يكسر ويخذو يتضمن الكلام فى
الحبة وأقسامها من حيث اللسان ، لا من حيث نوع الإنسان ، وباطنه الذى ينمى
ويغذو يتضمن الثناء على الحبة طبعاً وعقلاً ، وشرعاً ونقلاً ، الخشب الذى يتخذ
منه النشب ينقسم إلى أقسام : القسم الأول : فى الحدود والمعرفات ، والأسماء الدالة
عليها والصفات . القسم الثانى : معقول معناها ، المتجلى فيه نور سنّاها . القسم
الثالث : ارتباطها بالمقامات ، واختصاصها فيها بالكرامات . القسم الرابع : تبين
ضرورتها ، وإيضاح مزيتها . الفرع الصاعد فى الهواء ، على خط الاستواء ، من
رأس العمود القائم ، إلى منتهى الوجود الدائم ، ويشتمل على قشر لطيف ، وجرم
شريف : القشر الحدود للمعرفة والرسوم ، وخواص العارف الذى هو المعروف بها

والموسوم ، وينقسم إلى فصول : الفصل الأول : في حدود المعرفة ورسومها^(١) وما قيل فيها . الفصل الثاني : في أوصاف العارف . الفصل الثالث : في تفضيل العارف . الفصل الرابع : في علوم العارف ، والجزم الشريف ، من القرع المنيف ، ينقسم إلى ظاهر ، وباطن ، وقلب ، فالظاهر ينقسم إلى أقسام : الكلام في الأخلاق ومنشأها وطبائعها بحسب القوى النفسانية وإفراطها وتفریطها واعتدالها وعلاجها ، وفيه المجاهدات ، والباطن يتضمن الكلام في أن النظر إلى وجه الله تعالى هو السعادة الكبرى بكل نظر واعتبار ، والقلب قلب الغصن يتضمن الرياضة والسلوك على المقامات كلها ، ويتفرع منه عشرة غصون : الغصن الأول : غصن فروع البدايات . الغصن الثاني : غصن فروع الأبواب . الغصن الثالث : غصن فروع المعاملات ، الغصن الرابع : غصن فروع الأخلاق . الغصن الخامس : غصن فروع الأصول . الغصن السادس : غصن فروع الأدوية . الغصن السابع : غصن فروع الأحوال . الغصن الثامن : غصن فروع الولايات . الغصن التاسع : غصن فروع الحقائق . الغصن العاشر : غصن فروع النهايات ، ولكل فروع أوراق ، ويلحق به صورة السلوك بالذكر حتى يتأتى الوصول ، وعلى المقصود الحصول ، والكلام على زهرات الطوالع واللوائح والبوادر والواردات ، ونختم بالجنى ، المقترن بنيل المنى ، وهى الولاية

تفرع ضخام الغصون ، من شجرة السر المصون ، وهى غصن المحبوبات وأقسامها ، وتنقسم إلى أربعة أفنان : الفن الأول : فرع الرب المحبوب ، الفن الثاني : فن العبد المحبوب . الفن الثالث : فن الدنيا المحبوبة . الفن الرابع : فن الآخرة المحبوبة . غصن الحبين ، وأصنافهم المرتبين ، ينقسم إلى مقدمة بيان ، وستة أفنان : الفن الأول : فى رأى الفلاسفة الأقدمين . الفن الثانى :

(١) الحد والرسم : من اصطلاح المناطقة ؛ فالحد ما كان بالفصل ، والرسم ما كان بالخاصة

في رأى أهل الأنوار والإشراقين . الفن الثالث : في رأى الحكماء الإسلاميين .
 الفن الرابع : في رأى المسككين بزعمهم المتممين . الفن الخامس : في أهل الوحدة
 المطلقة من المتوغلين . الفن السادس : في الصوفية سادة المسكين .

غصن علامات المحبة ، وشواهد النفوس الصّبة ، وينقسم إلى ثلاثة أفنان :
 الفن الأول : فيما يرجع إلى حقوق المحبوب . الفن الثانى : فيما يرجع إلى باطن
 الحب . الفن الثالث : فيما يرجع إلى ظاهره .

غصن اختيار المحبين في ميدان جهادهم ، وتباين أحوال أفرادهم ، وهو ثلاثة
 أفنان : الفن الأول : فن المجاهد الصريح . الفن الثانى : فن المنبت الجريح .
 الفن الثالث : فن الصريح الطريح .

جوائع الشجرة ، ومضار فلاحتها المعتبرة ، وينقسم إلى جوائع من نسبتها ،
 بالنظر إلى ماؤها وتربتها ، وإلى ما هو راجع إلى الخواطر ، وهو على عدد الرياح ،
 وإلى ما سببه غفلة الفلاح ، عذر الطائر الصادح ، على فرض القادح ، وجود
 الهاجى والمادح .

صورة الشجرة ذات الحسن الباهر ، والجنى والأزاهر ، وآثارها للحسن
 الظاهر ، بفضل المريد القاهر ، لا إله إلا هو سبحانه له الحمد ، انتهت الخطبة التي
 تدل على ما وراءها .

وقال رحمه الله تعالى في آخر هذا الكتاب ما نصه : ونحتم الكلام في هذه
 الشجرة والاستدلال على شرف هذه الفلاحة الضمنية بهذه الأبيات :

فلاحتنا لها القِدْحُ المَعْلَى وَسَرَحَتْنَا الضَّمِينَةُ لِلنَّجَاحِ^(١)
 أَلَسْتُ تَرَى مَنَادَى الخَمْسِ نَادَى بِمَخْتَلَفِ الجِهَاتِ أَوِ النِّوَاحِ

(١) القدح - بالكسر - واحد أقداح الميسر ، والمعلى : اسم أكبر الأقداح
 نصيبا ، والسرحة : الشجرة العظيمة ، أو التي لا شوك فيها

يردد في الأذان لكل واع على الأذان حتى على الفلاح
وهذا طائر على الشجرة صادح ، ولاحق كادح ، ومعتذر إن قدح قادح ، وتعارض
هاج ومادح . قال المؤلف : ولا بد لنا من درى على صادح هذه الأفنان ، وشاد
يهيج أشجان الجنان ، ويثير شجوة الرافة والحنان ، ويبين مجال الضرورة لذوى
الانصاف ، بكرم الأوصاف ، والناظرين إلى الهنات بعيون الإنصاف ، فيرحم
من قد كان شره التقد ، ويعذر من تشوق لاستضعاف هذا القصد ، والأعذار
التي تقرر عنا هذا الطائر عديدة ، ومبدئة في الصدق مديدة ، وقرينة من الحق
لا بعيدة ، فمها أن هذا القرض ، اليوم بأكثر الأرض ، ميدان عدم فيه
ولا حول ولا قوة إلا بالله من بخيل كما يحب جوادا ، ونفير لا ينجيه إلا من يكثر
سوادا ، قد طُمست الأعلام ، وسقط الحمد والمآل ، وما لجرح بميت إيلام^(١) ،
فدلول هذا الفن بهذه التخوم عنقاء مغرب^(٢) ، وإكسير يحدث عنه غير واصل
ولا مجرب ، إنما يرجع فيه إلى كتب مُقفلة ، وأغراض مغفلة ، وما عسى أن يعول
المسكين مثلى على قاصر إدراكه ، مع اقتسام باله واشتراكه ، قصر العلم والعمل ،
فاختلط المرعى والهمل ، وأخفق المسعى وخاب الأمل ، ومنها شواغل الدنيا التي
اختلطت من المسكاتب ، وموتت بالمراتب ، ولقبت بالوزير والسكراتب ، وأقامت
العبد الذى لا يملك شيئا مقام العاتب ، ومن كان بهذه المثابة وإن عدّ يقظا
حازما ، ونحزيرا علما ، فإنما هو غريق ، وتائه لا يبدو له طريق ، ولا ينساع له
ريق ، ولا يطفأ بهرد اليقين منه حريق ، ولا يربح عليه من قصاد الله تعالى
فريق ، ونستغفر الله ! فالذى ألهم لهذه العيوب ، يتكفل بإصلاح القلوب ، ومكاشفة
الغيوب ، وإن كانت النفوس للحق جاحدة ، فما أمرى إلا واحدة .

(١) هذا عجز بيت للمتنبي ، وصدره قوله :

* من يهن يسهل الهوان عليه *

(٢) « عنقاء مغرب » يقال بإضافة اللفظ الأول إلى الثانى ، وبوصف الأول

بالثانى ، ويضرب - على كل حال - مثلا فيما لا وجود له

لا تعجبين لطالب نال العلاء كهلا وأخفض في الزمان الأول
 فالنحر تحكم في العقول مُسِنَّة وتُداسُ أولَ عصرها بالأرجل
 ومنها الاشتغال بالهذر ، عن العلم والنظر ، منذ أزمان عديدة ، ومُدَدٌ مديدة ، فلم
 يبق مما حَصَلَ ، وإليه مما في الزمان القديم توصل ، إلا رسم بَلَقَع ، وسمل ماله
 مُرَقَع ، ومنها أنتى لم أنتدب إلى هذا الوظيف الذي قَلَّ من يتعاطاه ، ويشير قطاه ،
 ويقتعد مطاه ، من تلقاء نفس جاهلة ببعده مَدَاه ، ومطل جَدَاه ، ومطالبة مدعيه بما
 كسبت منه يده ، فلا يتجاوز طوره ولا يتعداه ، وإن طالب الحق من شرط
 وصوله ، سلب فصوله ، وحالة موته ، وانقطاع حسه فضلا عن صوته ، لكفى
 خُصَّت على عدم السباحة غمراً ، وامثلت مع سقوط الاستطاعة أمراً ، وجئت بما
 في وسعي انقياداً وامثالاً ، ومثلت مثلاً ، فضرورتى بفضل الله تعالى مشروحة ،
 والدعوى عن كُتِفِي مطروحة ، وعلى ذلك فقد علم الذي يعلم الأسرار ، ويقرب
 الأبرار ، ويقيّل العثار ، ويقبل الأعذار ، أن مدة الاشتغال به لم تجاوز شهرين
 اثنين ، بين كتب وكتب ، وابتداء وختم ، مع ما يتخلل الزمان من حمل لورمى به
 رَضْوَى اِتْدَعَدَع ، أو أنزل على تَيمِيرٍ لخشع من خشية الله تعالى وتصدع ، مداراة عدو
 قد تسكالب على الإسلام ، وسياسة سواد صم عن الملام ، وتعدى حدود النهي
 والأحلام ، وارتقاب هجوم جيش الآجال وراية الشَّيْبِ من الأعلام ، وقد أُنْذِر
 بالفجر انقشاع الظلام ، وكاد يصعد الخطيب فينقطع الكلام^(١) ، جعلت لنفله حصّة
 من جنح الظلام الفاسق ، والليل الواسق ، وعاطيت حمياه نديم الفارق ، وتعرضت
 لاقتناص خياله الطارق ، وسرقته من أيدي الشواغل ، والليل معين السارق ، ولم
 يعمل فيه عبد القيس نظراً مُعَاداً^(٢) ، ولا أنجز من تصحيحه علم الله تعالى ميعاداً ،

(١) اشير إلى ما جاء في السنة من أنه إذا صعد خطيب الجمعة المنبر حرم على الناس الكلام

(٢) أخذه من قول الشاعر ، وهو الفرزدق :

أعد نظراً يا عبد قيس لعلماء أضاءت لك النار الحمار المقيدا

إنما هو كراس يفرغ من تسويده رجراج الخبر ، مختلط الترب بالتبر ، فيدفع ملوم
 الماسخ ، إلى يد الناسخ ، وكلفة المتناقل ، إلى كف الناقل ، وتقذف صحيفته من
 الزبرة إلى الصافل ، إذ كان الأمر - أيده الله تعالى ! - ونفعه حريصاً على تعجيل
 المعارضة ، ومتحريراً سبيل الشرع في هذه المصارفة والمقارضة ، والجفن المشرق يعلن
 بالتبريح ، وينتظر مساعدة الريح ، فمن وقف عليه من فاضل أنار الله بصيرته ،
 وحبل على الإنصاف سيرته ، أو من كان من أهل الله الأذى يعلم أن ما سوى
 الله تعالى ظل وفيه . ، ويتحقق معنى قوله (ليس لك من الأمر شيء) ، فقد أوجب
 الإنصاف أن يمحوا افتراضاً باعترافى ، ويعطى أوصافى بإنصافى ، والرحاء يرحمهم
 الرحمن ^(١) ، وقد عذر النيرة سليمان ^(٢) ، ومع الاستسلام الأمان ، ولا حول ولا قوة
 إلا بالله ، ولا بأس أن نعرضَ بذلك الأخونة الخصبية المثوى والمروج ، والجبل
 والفروج ، وفي السماء البروج ، وفي الأرض الفروج ، والأعرج يستند منه العروج ،
 ونمد الأبدى المستعملة في التقصير ، إلى الولي النصير والناقد البصير ، اللهم استر
 بسترِكَ فضائنا المخلفة ، وقبائنا الجمعة المؤلفة ، فهو كله تحويمٌ حولِ حِمَاكَ ،
 ودندنة يا كريم بباب رُحْمَاكَ ، وزند أنت قدَحْتَهُ ، وتالق بارق أنت أَلَحْتَهُ ، فصلِ
 السبب يا واصل الأسباب ، واجعلنا ممن تذكر فننفعه الذكرى وما يتذكر إلا
 أولو الألباب ، اللهم أطلع نفوسنا الحائرة على عين الخبر ، واجذبها إلى المؤثر بزمام
 الأثر ، اللهم اجبر الضالة المثلَّة الظهر ، وارفع عنها ملكة القهر ، وحيطة الدهر ،
 والسفر من بلد السر إلى بلد الجهر ، اللهم أعلق بعروة الحق أيدينا الخاطبة ، وأظفر
 بمدو الهوى عزائمنا المراجعة ، اللهم أوصل سببنا بسببك ، واحملنا إليك بك ،
 لا إله إلا أنت ، وصلِّ على عبدك ونبيك محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله والصحابة
 أجمعين ، أنتى .

(١) ورد في الحديث « الراحمون يرحمهم الرحمن » و « ارحموا من في الأرض
 الأرض يرحمكم من في السماء »

(٢) كان سليمان يتفقد الطير ، فلم يجد الهدد ، فتوعده بالعذاب ، فلما جاء
 الهدد اعتذرله ، فقبل عذره ، ووردت هذه القصة في سورة النمل من القرآن الكريم

قد تم - بمعونة الله تعالى - الجزء الثامن من كتاب « نفع الطيب ،
من غصن الأندلس الرطيب ، والتعريف بوزيره لسان الدين بن
الخطيب » للشيخ أحمد بن محمد المقرئ ، التامساني ، ويليه
- إن شاء الله تعالى - الجزء التاسع مفتتحاً بقول المؤلف
« وقال - رحمه الله تعالى ! - آخر بعض
تراجم الكتاب » نسأل الله أن يعين على
إكماله ، بمنه وكرمه ! أمين .

فهرس الجزء الثامن

من كتاب « نفح الطيب » من غصن الأندلس الرطيب ،
للشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣	فاتحة الجزء الثامن	٢٨	ترجمة أبي القاسم محمد بن أحمد بن
	تكملة الباب الثالث من القسم الثاني		جزى ، السكبي
	من الكتاب :	٣١	أربعة أبيات على روى الغين لابن لؤلؤة
٤	من أشياخ لسان الدين أبو زكريا	٣١	من نظم ابن جزى في التبليغ
	يحيى بن هذيل (ترجمة)	٣١	ترجمة أبي بكر أحمد بن محمد بن جزى
١٢	ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن	٣٢	قصيدة له صدر بها أعجاز لامية
	ذى الوزارتين أنى عبد الله محمد بن		امرى القيس « ألا عم صباحا »
	عبد الرحمن بن الحكيم الرندى	٣٤	قصيدة لحازم صاحب المقصورة صدر
١٤	مما مدح به أبو الحسن بن الجياب		بها أعجاز معلقة امرى القيس (قفانيك)
	الوزير أبا بكر بن الحكيم	٣٨	جيمية بارعة لحازم صاحب المقصورة
١٦	من ثر ذى الوزارتين ابن الحكيم	٤٠	جيمية لابن قلاقس
١٧	ومن شعره	٤٠	عود لترجمة أبي بكر أحمد بن محمد بن
١٨	ترجمة ذى الوزارتين ابن الحكيم		جزى السكبي
	(عن عائذ الصلة) لابن الخطيب	٤٠	ترجمة أنى عبد الله محمد بن محمد بن
١٩	رحلة ابن الحكيم (عن الإحاطة)		جزى السكبي
	لسان الدين	٤٢	قصيدة من نظمه يمدح بها أمير المسلمين
٢٠	شئ من ترجمة ذى الوزارتين ابن		أبا الحجاج وحذف منها الرأه
	الحكيم ، عن الإحاطة	٤٤	قصيدة له يمدح فيها أبا عنان ملك المغرب
٢٢	ترجمة أنى الحسن على بن عمر القيحاوى	٤٦	مقطعات من نظمه فى أغراض شتى
٢٤	ترجمة أبي سعيد فرج بن قاسم بن	٤٨	من إنشائه موريا بأسماء كتب ورفعها
	أحمد بن لب		لأبى عنان فارس

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٥١	عدة مقطعات من نظمه يورى فيها بأسماء كتب	١٢٤	من السلطان أبى سالم المرىنى إلى لسان الدين
٥٤	ترجمة القاضى أبى محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن جزى ، السكلى	١٢٥	من لسان الدين إلى السلطان أبى سالم المرىنى
٥٥	من شيوخ لسان الدين أبو بكر بن شيرين	١٢٨	من لسان الدين إلى السلطان أبى سالم
٥٧	من أشياخ لسان الدين أبو عثمان بن أحمد بن لبون التجيبى	١٣٣	تعريف لسان الدين فى « الإحاطة »
٥٨	نبذة من شعره الذى حكاه فى كتابه « نصاب الأحاب ، وصحاح الآداب »	١٣٥	بالسلطان أبى سالم المرىنى ، وذكر مقتله
٨٩	نبذة من كتابه « الأبيات المهدبة ، فى المعانى المقربة »	١٣٦	ترجمة لسان الدين من إنشاء الأمير أبى الوليد إسماعيل بن الأحمر
١٠٠	نبذة من كتابه « أنداء الدير ، فى المواعظ والوصايا والحكم »	١٣٦	رد اعتراض أورده ابن الأحمر على لسان الدين
١٠٨	بعض أناشيده التى كان ينشدها أهل مجلسه ، لشعراء متعددين	١٣٧	ثناء قاضى القضاة برهان الدين الباعونى على لسان الدين بن الخطيب
١١٥	خاتمة الباب الثالث ، وفيها سرد لجماعة من شيوخ لسان الدين	١٣٧	اتهم لسان الدين بالإطئاب
١١٧	الباب الرابع من القسم الثانى : فى مخاطبات الملوك والأكابر لسان الدين ، وثناء أهل عصره عليه	١٣٧	الرد على هذا الاتهام
١١٧	من السلطان أبى زيان المرىنى إلى لسان الدين	١٣٨	بين لسان الدين والسلطان الغنى بالله سلطانه
١١٩	ترجمة السلطان أبى زيان المرىنى عن « الإحاطة » لسان الدين	١٣٩	من أبى جعفر بن خاتمة إلى لسان الدين
١٢٣	تعقيب لابن مرزوق على كلام لسان الدين فى « الإحاطة »	١٤١	جواب لسان الدين على أبى جعفر ابن خاتمة
		١٤٤	من أبى جعفر بن خاتمة إلى ابن جزى
		١٤٤	ترجمة أبى جعفر بن خاتمة من إنشاء لسان الدين
		١٤٧	من أبى جعفر بن خاتمة إلى لسان الدين
		١٤٨	من نظم ابن خاتمة
		١٤٩	قصيدة من أحمد بن صفوان إلى لسان الدين ضمنها غرضاً تعجل له قضاءه

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١٥٠	إجازة من ابن صفوان للسان الدين وولده عبد الله	١٦٢	أبيات له كتبت بداخل القبة
١٥١	من أبي جعفر العذري إلى لسان الدين	١٦٣	أبيات له في بعض المباني المنصورية
١٥١	من لسان الدين إلى ابن نفيس	١٦٤	أبيات له مما كتب في المصرية المطلة علي الرياض
١٥٢	من لسان الدين إلى أبي القاسم ابن رضوان	١٦٥	من جملة قصيدة له
١٥٤	من ابن رضوان إلى لسان الدين	١٦٦	من الوزير عبد العزيز القشتالي إلى مؤلف هذا الكتاب
١٥٤	من لسان الدين إلى الشيخ الجنان	١٦٩	لابن الصباغ العقيلي في لسان الدين واختصاصه بابن الجياب
١٥٤	من الشيخ الجنان إلى لسان الدين	١٦٩	إجازة بين ابن الجياب ولسان الدين
١٥٥	ترجمة الشيخ أحمد بن محمد الجنان الأوسى	١٦٩	من أبي يحيى البلوى لسان الدين
١٥٦	أبيات رآها المؤلف على دائرة مجرى الماء بمدرسة تدمسان التي بناها ابن تاشفين	١٧١	تهنئة من أبي يحيى البلوى للسان الدين في إعداده أولاده
١٥٧	أبيات أخرى أنشدها بعض أهل المغرب لتكتب علي النواحي الأربع من القبة المعروفة بالبديع التي أنشأها السلطان المنصور أبو العباس الشريف الحسنى	١٧٢	ترجمة أبي يحيى البلوى من إنشاء لسان الدين في «الإحاطة»
١٥٨	أبيات للفقيه أبي محمد المسفيومي المراكشي مما كتب علي أحد مباني الوزير عبد العزيز القشتالي	١٧٣	من أبي عبد الله بن مرزوق إلى لسان الدين
١٥٩	أبيات للوزير أبي فارس عبد العزيز القشتالي كتبت في المباني المنصورية بمراكش	١٧٤	من لسان الدين إلى ابن مرزوق
١٦١	أبيات للوزير القشتالي مما كتب يهوه المبني المنصوري بمرمر أسود في أبيض	١٧٦	من أبي القاسم البرجي إلى لسان الدين ، في شفاعته
		١٧٧	ترجمة أبي القاسم محمد بن يحيى البرجي ، عن «الإحاطة» لسان الدين
		١٨٤	من الوزير ابن زمرك إلى لسان الدين
		١٨٥	تعليق للمؤلف على قصيدة ابن زمرك
		١٨٦	من الوزير ابن زمرك إلى لسان الدين أيضاً
		١٨٧	من مخاطبات ابن زمرك لسان الدين

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١٩٠	من ابن سليطور إلى لسان الدين	٢٠٦	ترجمة أبي عمرو ومحمد بن أحمد بن الزبير
١٩٢	ترجمة أبي عبد الله بن سليطور ،	٢٠٧	من ترجمة أبي يحيى محمد بن أحمد
	عن « الإحاطة » للسان الدين		بن الأكل
١٩٣	من أبي عبد الله بن راجح التونسي	٢٠٨	من أبي عبد الله محمد بن علي بن
	إلى لسان الدين		عياش إلى لسان الدين
١٩٤	ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن راجح	٢٠٩	من محمد بن محمد الوادي آشي إلى
١٩٤	من لسان الدين إلى ابن راجح (قصيدة)		لسان الدين
١٩٥	من ابن راجح إلى لسان الدين (قصيدة)	٢٠٩	من أبي محمد عبد الله بن إبراهيم
١٩٨	من أبي عبد الله العتاب التونسي		الأزدي إلى لسان الدين
	إلى لسان الدين في بعض الأعياد	٢١١	من شعر أبي محمد الأزدي
١٩٨	من ابن عبد الملك المراكشي إلى	٢١٣	من لسان الدين إلى أبي القاسم بن
	لسان الدين		رضوان ، النجاري
١٩٨	ترجمة محمد بن محمد بن عبد الملك ،	٢١٤	من ابن رضوان إلى لسان الدين
	الأنصاري ، الأوسي ، عن « الإحاطة »	٢١٤	ترجمة أبي القاسم بن رضوان
	للسان الدين	٢١٩	بين أبي بكر عبد الرحمن بن عبد الملك
١٩٩	من أبي عبد الله محمد المسكودي		ولسان الدين بن الخطيب
	القاسي إلى لسان الدين	٢١٩	ترجمة أبي بكر عبد الرحمن بن
٢٠٠	من أبي عبد الله اليتيم إلى لسان الدين		عبد الملك
٢٠١	رسالة من لسان الدين إلى أبي	٢٢٠	من أبي سلطان عبد العزيز بن علي
	عبد الله اليتيم جوابا عن قصيدته		بن بشت الغرناطي إلى لسان الدين
٢٠٢	بين أبي عبد السلام وأبي عبد الله	٢٢١	ترجمة أبي سلطان بن بشت
	اليتيم (مداعة)	٢٢٥	من أبي الحسن النباهي إلى لسان الدين
٢٠٤	ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي	٢٢٦	ترجمة القاضي أبي الحسن النباهي
	العبدري ، المالقي ، المعروف باليتيم	٢٣٠	بين لسان الدين وأبي الحسن بن الجياب
٢٠٤	من أبي عبد الله الكرسوطي	٢٣٥	من سعيد بن محمد الغرناطي إلى
	لسان الدين		لسان الدين على ظهر كتاب استعاره منه
٢٠٥	ترجمة أبي عبد الله الكرسوطي	٢٣٥	بين أبي الحسن علي بن محمد بن البناء
٢٠٥	من أبي عمرو بن الزبير إلى لسان الدين		الوادي آشي ولسان الدين

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢٣٧	ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن البناء	٢٣٧	ترجمة ابن خلدون من إنشاء
٢٣٨	من لسان الدين إلى سلطان تونس	٢٣٨	لسان الدين
٢٤٠	من أبي الحسن علي بن يحيى الفزاري	٢٣٩	تعلیق للدوافع على ترجمة لسان
	المالقي المعروف بابن البرزى ، إلى		الدين لابن خلدون
	لسان الدين	٢٩٧	من كلام الشيخ إبراهيم الباعوني
٢٤١	من أبي القاسم قاسم بن محمد الحرالي		في حق لسان الدين
	المالقي إلى لسان الدين	٢٩٨	ترجمة يحيى بن إبراهيم بن يحيى
٢٤٢	ترجمة أبي القاسم الحرالي		البرغواطى ، من إنشاء لسان الدين
٢٤٢	من أبي الحجاج يوسف بن موسى	٣٠١	من لسان الدين إلى السلطان بن
	الجدامى الرندى ، إلى لسان الدين		يغمراسن
٢٤٤	من لسان الدين إلى أبي الحجاج الجدامى	٣١٠	من إنشاء لسان الدين ما كتب به
٢٤٥	ترجمة أبي الحجاج الجدامى		إلى شيخه أبي عبد الله بن مرزوق
٢٥٣	ثناء ابن عاصم على لسان الدين	٣١١	من إنشائه تهنئة إلى أبي عبد الله
٢٥٤	ترجمة الوزير أبي يحيى محمد بن محمد		ابن أبي القاسم بن أبي مدين
	ابن عاصم	٣١١	من إنشائه ما كتب به إلى قاضى
٢٦٢	ظهير بتعيين أبي بكر بن عاصم للقضاء		الجماعة ، وقد نالته مشقة
	الباب الخامس من القسم الثانى :	٣١٢	وكتب إلى بعض الفضلاء
	في إيراد جملة من نثر لسان الدين وشعره	٣١٣	وكتب إلى السلطان أبي عبد الله
٢٧٠	وصف نثر لسان الدين		ابن نصر ، وقد عاد ولده من الأندلس
٢٧١	تحميد من إنشاء لسان الدين	٣١٤	وكتب إلى محمد بن نوار ، وقد أعرس
٢٧١	من نثره في الحضر على الجهاد		ببنت مزوار الدار السلطانية
٢٧٣	من إنشائه في ذكر أولية شريف فاس	٣١٤	وكتب إلى عامر بن محمد بن علي
٢٧٤	من إنشاء لسان الدين في ترجمة أبي		الهنثاني
	عبد الله الشديد وكتب له وقد ولى	٣١٥	من إنشائه في وصف البلاد الأندلسية
	الحسبة		(مقامة)
٢٧٦	ما كتب به لسان الدين إلى علي بن	٣١٦	كلام له مرسل في وصف البلاد
	بدر الدين بن موسى بن عبد الحق	٣١٦	وصف مكناسة الزيتون
	من مدينة سلا		

ص

الموضوع

ص

الموضوع

- ٣١٨ المؤلف يدخل مكناسة ويصفها
 ٣٢٠ شىء عن السلطان أبى الحسن المربى
 ٣٢١ نظم لابن الصباغ يحصر فيه علاقات
 المجاز
 ٣٢٢ حكاية عن رجل عائن
 ٣٢٢ زيارة لسان الدين لقبر السلطان
 أبى الحسن ، وقصيدة له فيه
 ٣٢٥ من كلام لسان الدين يعد فيه بتصنيف
 كتاب كبير فى التاريخ
 ٣٢٦ أمثلة من إنشاء لسان الدين فى
 التراجم ، على طريقة الفتح بن خاقان
 ٣٣١ من ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد
 ابن لب ، بقلم لسان الدين فى كتابه
 « التاج المحلى »
 ٣٣٦ من إنشاء لسان الدين فى ترجمة
 محمد بن عبد الرحيم الوادى آشى
 ٣٣٦ من إنشائه فى ترجمة أبى عبد الله
 ابن العطار المزنى
 ٣٣٦ من إنشائه فى ترجمة أبى عبد الله
 محمد بن على بن خاتمة
 ٣٣٧ من إنشائه فى ترجمة أبى عبد الله
 محمد بن محمد الملقى
 ٣٤٢ من إنشائه فى ترجمة أبى بكر محمد
 ابن مقاتل الملقى
 ٣٤٣ من إنشائه فى ترجمة أبى عبد الله
 محمد بن الشديد الملقى
 ٣٤٥ من إنشائه فى ترجمة محمد بن الحسن ،
 العمرانى ، الفاسى
 ٣٤٥ من إنشائه فى ترجمة محمد بن محمد ،
 المرادى ، العشاب
 ٣٤٦ من إنشائه فى ترجمة أبى عبد الله
 محمد بن عمر ، المليكى
 ٣٤٨ من إنشائه فى ترجمة محمد بن على ،
 العبودى ، التونسى
 ٣٤٩ من إنشائه فى ترجمة محمد بن يحيى ،
 العزفى ، السبقى
 ٣٥٠ من إنشائه فى ترجمة أبى عبد الله
 محمد بن المسكودى ، الفاسى
 ٣٥١ من إنشائه فى ترجمة محمد بن محمد
 ابن بيش ، العبدرى
 ٣٥٢ من إنشائه فى ترجمة أبى عبد الله
 محمد بن هانى ، اللخمى
 ٣٦٠ همزية لصفوان بن إدريس مشهورة
 بين أدباء المغرب
 ٣٦٣ من إنشاء لسان الدين فى ترجمة
 أبى محمد عبد الله الأزدى
 ٣٦٤ وفى ترجمة أبى الحسن على بن إبراهيم
 السكالك ، الغرناطى
 ٣٦٤ وفى ترجمة أبى الحسن على بن محمد
 ابن الصباغ ، العقيلى ، الغرناطى
 ٣٦٧ وفى ترجمة شيخه أبى الحسن بن الجياب
 ٣٦٨ ومن إنشائه فى ترجمة عمر بن على ،
 المنتقيرى

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣٦٨	ومن إنشائه في ترجمة قاسم بن محمد ابن الجد ، الفهرى	٣٧٤	وفي ترجمة أبي العباس أحمد بن علي ، الملياني ، المراكشي
٣٦٩	ومن إنشائه في ترجمة أبي عثمان سعيد ، الغساني	٣٧٥	من نثره في كتاب « الروض » في ترجمة عنوانها « ضخام الغصون ، من شجرة السر المصون »
٣٦٩	وفي ترجمة أبي الحجاج يوسف ابن علي ، الطرطوشي	٣٧٩	من إنشائه على لسان سلطانه ، إلى الأمير يلبغا الخاسكي
٣٦٩	وفي ترجمة أبي عبد الله محمد بن أحمد العذري ، الوادي آشي	٣٨١	كتاب أرسله لسان الدين لرجل من الموثقين امتنع عن تناول طعامه
٣٧٠	وفي ترجمة أبي عبد الله بن باق	٣٨٦	خطبة كتاب له في المحبة ، وفيها سر تأليف هذا الكتاب ، وثبت بيان تراجمه وما تشتمل عليه كل ترجمة
٣٧٢	وفي ترجمة أبي عبد الله محمد ابن إبراهيم بن سالم بن فضيلة ، المعافري ، المري	٤٠٨	خاتمة الجزء الثامن

تمت — بحمد الله تعالى وتوفيقه — فهرست الجزء الثامن من كتاب « نفع
الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب » والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلاته وسلامه على
سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله رسوله المجتبي ، وعلى آله وصحبه .

COLUMBIA UNIVERSITY



0026814358

893.7M32

OS

v.8

AUG 4 1959

